
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
الزوجة الباريسية
باولا ماكلاين
رواية
ترجمت
هذه الرواية
إلى 33 لغة في
مختلف أنحاء
العالم، ويجري
العمل حالياً على
تحويلها إلى فيلم
سينمائي طويل.

الزوجة الباريسية

روايــة

تأليف:

باولا ماكلاين

ترجمة

مها عز الدين



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Paris Wife
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Ballantine Books
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-01-1164-6



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

يندرج هذا العمل تحت سياق الأدب التاريخي. وبعيداً عن الشخصيات الواقعية والأحداث والأماكن المعروفة التي تعرضها الرواية، إنّ جميع الأسماء والشخصيات والأماكن والواقعات التي ذكرت نتاج مخيلة المؤلفة، أو تم استخدامها تخيلياً لأغراض روائية. وأي تشابه مع أحداث حالية أو أماكن أو أشخاص أحياء الآن فهو بمحض الصدفة.

تمهيد

على الرغم من أنني كثيراً ما حاولت البحث عن علاج لباريس إلا أنه ينبغي عليّ أن أقرّ بأنني لم أوفق في مسعاي. والسبب في ذلك جزئياً كان الحرب، فقد سبق أن قضي مرة على العالم وهو ما يمكن أن يحصل مجدداً وفي أي لحظة. لقد جاءت الحرب فغيرتنا لمجرد كونها نشبت، في حين ظن الجميع أنها لن تملك القدرة على أن تنشب. لم يكن أحد يعرف على وجه اليقين أعداد القتلى، لكن مجرد سماعك للأرقام – تسعة ملايين أو أربعة عشر مليوناً – يجعلك تفكّر في أن ذلك *مستحيل*. غدت باريس تعج بالأشباح الهائمة والجرحى الذين عاد الكثيرون منهم إلى روان أو أوك بارك في إيلينوي مصابين بطلقات نارية، ويحملون أجزاء صغيرة مما رأوه قابعاً خلف عظم ركبهم، ونفوساً مترعة بشعور بالخواء لا يبارحهم. لقد حملوا جثثاً على النقّالات، وداسوا على جثث أخرى في سبيل القيام بذلك. بل إنهم حُملوا على نقالات هم أيضاً على متن قطارات بطيئة المسير استوطنها الذباب، وتسمع منها أصواتٌ تردد رغبات أصحابها في أن تذكرهم صديقاتهم في موطنهم.

لم يعد للموطن وجود، على الأقل ليس بالمعنى الجوهري للكلمة، وقد كان هذا جزءاً من باريس أيضاً. كنا لا نستطيع التوقف عن الشرب والتحدث ومخالطة الأشخاص غير المناسبين مهما كانت نتائج تلك الأفعال وخيمة ومدمرة. نظر بعضنا إلى وجوه الموتى وحاول ألا يتذكر شيئاً بالتحديد، ومن هؤلاء كان إيرنست هيمنغواي. كثيراً ما كان يقول إنه مات هو أيضاً في الحرب، ولكن للحظات، غادرت فيها روحه جسده منسلة كوشاح حريري ينزلق خارجاً ويرتفع فوق صدره. وكانت تعود من دون استئذان، وغالباً ما تساءلت إن كانت الكتابة هي وسيلته لمعرفة ما إذا كانت روحه لا تزال قابعة في صدره. إنها الطريقة

التي يخبر بها نفسه، إن لم يكن أي شخص آخر، أنه قد رأى تلك الأمور الفظيعة، وشعر بها، ومع ذلك استمر بالحياة، وأنه قد مات، لكنه لم يعد ميتاً الآن.

كان أحد أفضل جوانب التواجد في باريس هو عودتنا إليها بعد غياب. ففي العام 1923، انتقلنا إلى تورنتو في كندا وبقينا هناك عاماً واحداً كي أضع مولودنا بامبي. ولدى عودتنا، وجدت كل شيء على حاله، وإنما أكثر حدة بطريقة ما. ألفيت باريس قذرة وإنما بهية، مملوءة بالجرذان والأحصنة، وبالأزهار، وبالشعر. وبوجود الطفل بدا أن احتياجاتنا قد تضاعفت في وقت شحت فيه النقود بين أيدينا. ساعدنا باوند في العثور على شقة في الطابق الثاني من بناء يقع في شارع ضيق كثير التعرجات، وقريب من حدائق لوكسمبورغ. لم تكن الشقة مجهزة بمصدر للمياه الساخنة، ولا بحوض للاستحمام، أو بالإنارة الكهربائية. غير أنها لم تكن أسوأ مكان اضطررنا للعيش فيه. وفي الفناء القريب، راحت منشرة للخشب تئز من السابعة صباحاً وحتى الخامسة مساء من دون توقف، ناشرة رائحة الخشب المقطع في الأجواء، وذرات نشارة الخشب التي زحفت إلينا من شقوق النوافذ ومن تحت الأبواب لتتغلغل في ملابسنا، وتثير نوبات من السعال لدينا. في الداخل، كانت الآلة الكاتبة كورونا الخاصة بإيرنست تصدح دائماً بالتقارير. فقد كان يعمل على كتابة قصص - حيث ثمة قصص أو وصفيات أدبية يصورها بكلماته على الدوام - فضلاً عن رواية جديدة بدأ بنسجها في الصيف تتحدث عن مهرجان بامبلونا.

في ذلك الحين، لم أكن قد بدأت بقراءة الصفحات التي يسطرها، غير أنني كنت واثقة من إحساسه تجاه ما يكتبه، وواثقة من الإيقاع الذي يمضي عليه كل يوم. ففي كل صباح، كان يستيقظ باكراً ويرتدي ثيابه، ثم يرتقي السلم إلى الطابق العلوي ليشرع في كتابته اليومية. فإن ألفى أفكاره غير متقدة هناك كان يحمل كراساته وأقلام رصاص مبرية جيداً ويمشي إلى مقهى كلوزيري دو ليلا لاحتساء قهوة بالكريمة عند الطاولة الرخامية المفضلة لديه، في حين كنت وبامبي نتناول فطورنا وحدنا، ومن ثم نرتدي ثيابنا كي نذهب لنتمشى قليلاً أو نلتقي بعض الأصدقاء. ومع الأصيل، كنت أتجه عائدة إلى المنزل، وإن كان نهار إيرنست قد مضى على نحو طيب فسأجده جالساً إلى طاولة الطعام في المنزل، وقد علا الرضا

قسماته وهو يحتسي مشروباً بارداً، ومستعداً للحديث في أي موضوع، أو ربما سنخرج معاً بعد أن نعهد برعاية بامبي إلى صاحبة المكان السيدة شاوتارد، فنعثر على جلسة غنية بشيق الحديث مع طبق من المحار الدسم في سيلكت أو دوم أو دو ماغوتس.

في ذلك الوقت، كانت الأماكن كلها تحفل بأشخاص مثيرين للاهتمام يغدون ويروحون بلا هوادة في مقاهي مونتبارناس؛ من رسامين فرنسيين، إلى راقصين روس وكتاب أمريكيين. ففي أي ليلة، يمكنك أن ترى بيكاسو يتهادى مقبلاً من شارع سانت جيرمان إلى شقته في رو دي غراندس أوغستين، سالكاً على الدوام الطريق ذاته، وناظراً بهدوء إلى المارة والطريق. يمكن لأي شخص تقريباً أن يشعر بأنه رسام حين يسير في شوارع باريس لأن الأنوار كانت تحرك في داخلك تلك النزعة، وكذلك الظلال التي تلقيها الأبنية على الأرض والجسور الممتدة التي بدت كما لو أنها تود أن تفطر فؤادك، والنساء بديعات الجمال كما لو كن منحوتات فنية، وهن يرتدين فساتين شانيل السوداء الضيقة ويدخن السجائر ويلقين رؤوسهن إلى الخلف ضاحكات. كان يمكن لنا في تلك الحقبة أن ندخل أي مقهى ونستشعر الفوضى الرائعة التي تنبض في زواياه، فنطلب مشروباتنا المفضلة، ونحتسيها إلى أن يتشوش وعينا وتغمرنا السعادة بتواجدنا مع بعضنا بعضاً.

قال لي دون ستيوارت في ليلة كنا فيها جميعنا في حالة من الابتهاج والثمالة في مقهى سيلكت: "اسمعي، إن ما بينك وبين هيم مثالي. لا، لا انتظري" بات كلامه الآن مبهماً، ووجهه ملتوياً بتأثير عاطفته الجياشة وهو يستطرد قائلاً: "إنه عظيم، هذا ما قصدت أن أقوله"

"لكم هو رائع منك أن تقول هذا يا دون، وأنت لست بالشخص السيئ كذلك كما تعلم" قلتها مربتة على كتفه برفق خشية أن يبكي. لقد كان دون كاتباً هزلياً، وجميعنا نعلم أن الكتاب الهزليين تنطوي سرائرهم على طبيعة هي الأكثر جدية. كما أنه لم يكن متزوجاً بعد، وإنما هناك احتمال يلوح في الأفق. لذا كان في غاية الأهمية بالنسبة إليه أن يرى أن الزواج يمكن أن يمضي على نحو حسن.

في ذلك الوقت، لم يكن الجميع يثقون بالزواج؛ فأن تتزوج كان يعني أنك تثق بالمستقبل وبالماضي أيضاً؛ بمعنى أن التاريخ والتقاليد والأمل يمكن أن تتعاضد

فتمثل دعامة تبقيك صامداً أمام ما سيواجهك. إلا أن الحرب جاءت فسرقت منا خيرة الشباب، فضلاً عن ثقتنا، فلم يعد بحوزة المرء سوى الحاضر الراهن ليرتمي بين ذراعيه من دون التفكير في الغد، ناهيكم عن التفكير في حياة تدوم للأبد. ولكي يدرأ عن نفسه الانغماس بالتفكير، لم يكن أمامه سوى اللجوء إلى احتساء الشراب؛ ذاك المحيط الشاسع الذي يحفل بالرذائل المعهودة، والكثير من الحبال ليتعلق بها المرء. غير أن بعضنا - وهم قلة قليلة - يراهنون على نجاح الزواج بالرغم من كل الصعاب. وعلى الرغم من أنني لم أشعر بأن ما بيننا مهم إلا أنني شعرت بأنه نادر وحقيقي، وبأننا كنا بأمان في ظل الزواج الذي شيدناه ونرفع لُبنه يوماً بعد يوم.

إن هذه ليست قصة بوليسية، ولا هي قريبة منها حتى؛ فأنا لا أرغب بأن أقول للقارئ: *حذار من تلك الفتاة التي ستأتي يوماً وتفسد كل شيء*، لكن هذا ما سيحصل بكل الأحوال. ستأتي بحذائها الأنيق وعلى كتفيها معطف من الفرو الرائع، وشعرها الناعم البني القصير المصفف بإتقان على نحو ملاصق لرأسها سيجعلها تبدو كقضاعة[1] جميلة في مطبخي. ستأتي بابتسامتها العذبة وحديثها الشيق، في الوقت الذي يكون فيه إيرنست مستلقياً على السرير غير حليق، كملك مستبد، وهو يقرأ في كتابه من دون أن يلقي إليها بالاً، ليس في بادئ الأمر على الأقل. وسيغلي الماء في إبريق الشاي، وسأروي حكاية نعرفها أنا وهي جيداً عن فتاة في سانت لويس قبل مئة عام، وسنشعر كلتانا كما لو أننا صديقتان منذ زمن. وفي تلك الأثناء، سيبدأ كلب في المنشرة بالنباح، وسيستمر بنباحه من دون أن يثنيه عن ذلك شيء.

1 القضاعة: ثعلب الماء أو فروه Otter. (المدقق)

الفصل الأول

أول ما فعله هو أنه ثبتني بنظرة من عينيه البنيتين المذهلتين وهو يتأملني قائلاً: "هناك احتمال بأني على درجة من الثمالة لا تسمح لي بالتمييز تماماً، غير أنني أعتقد أن لديك شيئاً ما مميزاً"

إنه شهر تشرين الأول من عام 1920، حيث كانت موسيقى الجاز تصدح في كل مكان. ولكن، بما أنني لم أعرف أي مقطوعة جاز فقد رحت أعزف راتشمانينوف[1] وشعرت بوجنتي تتضرجان حمرة بتأثير شراب التفاح الذي أرغمتني صديقتي العزيزة كيت سميث على تجرعه كي أسترخي قليلاً. وقد أعطى مفعوله فعلاً، إذ بدأت أشعر به يتسلل في عروقي شيئاً فشيئاً؛ فيبدأ بأصابعي ليمنحها شعوراً بالدفء والاسترخاء، ثم يغلف أعصابي ويلفني كلياً. في الحقيقة، إنني لم أثمل منذ سنة وأكثر – منذ أن أصيبت والدتي بمرض خطير – وقد افتقدت ذاك الشعور الذي يغمرني كسحابة ضبابية تستقر بحميمية جميلة في ذهني. فأنا لا أريد أن أفكّر، ولا أن أشعر بشيء؛ سوى بأمر في غاية البساطة كركبة هذا الشاب التي تبعد إنشات قليلة عن ركبتي.

كانت الركبة وحدها كافية بحدّ ذاتها تقريباً، غير أنه كان هناك رجل متكامل متصل بها، طويل القامة، ونحيل، وذو شعر غزير يكلل وجهاً يحمل غمازة في وجنته اليسرى يمكن أن تأسرك على الفور. كان أصدقاؤه يدعونه هيمنغستاين، أوينبونز، بيرد، نيستو، ويميدج، وكل ما كانوا يحلمون به في لحظتها. أما هو فقد كان يدعو كيت بكلمة ستَت أو باتستاين (وهما لقبان أبعد ما يكونان عن الإطراء

1 مؤلف موسيقي وعازف روسي اتسمت آثاره بطابع قومي رومانسي تغلب عليه الكآبة. (المدقق)

لصلتهما بالمؤخرة)، ويدعو آخر بليتل فيفر (الحمى الصغيرة)، وثالثاً هورني (الشهواني)... وغيرها. بدا أنه يعرف الجميع، والجميع كذلك يعرفون النكات والقصص ذاتها. كانوا كمن يرسل البرقيات المستعجلة في ما بينهم بجمل مرمّزة وبسرعة البرق. لم أستطع مجاراتهم، لكنني لم أمانع؛ فمجرد المكوث بالقرب من أولئك الغرباء السعداء كان بمثابة ضخ عظيم للشعور بالبهجة في عروقي.

عندما كانت كيت تجوب المكان بالقرب من المطبخ، أشار إلي بإيماءة من ذقنه بديع التشكيل قائلاً: "ما الاسم الذي ينبغي علينا أن نطلقه على صديقتنا الجديدة؟"

فأجابته كيت: "هاش

قال: "هاشداد سيكون أفضل، بل هاسوفيتش

فسألته: "وأنت، أيلقبونك ببيرد؟"

أجابت كيت: "ويم"

فقال: "إنني الشخص الذي يعتقد أن أحداً ما ينبغي عليه أن يرقص كان كل ما فيه يبتسم، وبإيعاز صغير منه أبعد كينلي - شقيق كيت - سجادة غرفة الجلوس جانباً برفسة من قدمه، وزود جهاز الفونوغراف بأسطوانة. فهرعنا جميعنا إلى وسط الغرفة، ورحنا نرقص على نغماتها. لم يكن راقصاً بطبيعته، غير أن ذراعيه وساقيه كانت تتمتع بحرية الحركة، وأمكنني أن أرى أنه يحب تواجده في جسمه. ولم تمضِ هنيهة حتى تشابكت أيدينا واعرورقت، وتضرجت وجناتنا حمرة، وراحت تتوهج من شدة الحرارة، وعندها أخبرني أن اسمه كان إيرنست.

"غير أنني أفكر في تغييره. اسم إيرنست ممل جداً، وفوقها هيمنغواي؟ من سيرغب بشخص اسمه هيمنغواي؟"

على الأرجح كل فتاة بين هنا وميشيغان أفينيو، هذا ما خطر في بالي رداً على سؤاله، غير أنني لزمت الصمت وأنا أنظر إلى قدمي لأحول دون احمرار وجهي. وعندما رفعت بصري إليه ألفيت عينيه البنيتين تطالعاني بثبات، ليستطرد قائلاً:

"إذاً؟ ما رأيك؟ هل عليّ أن أرمي به بعيداً؟"

فأجبته: "ربما ليس بعد"

فجأة، انبعثت في الجو موسيقى هادئة، فإذا به يلف خصري بذراعه من دون استئذان ويشدني إلى صدره محتوياً إياي بين ذراعيه المفتولتين، فأسند يدي عليهمـــا فيما راح يلف بـــي في أرجاء الغرفة فنمر بكينلي وهو يدير أسطوانات الفيكترولا طرباً، ونمر بالقرب من كيت التي أخذت تتأملنا بنظرة مستطلعة. أغمضت عـــيني، واتكأت على إيرنست الذي فاحت منه رائحة المشروب والصابون والتبغ والقطن الرطب. وكل ما في تلك اللحظة كان واضح التفاصيل ومحبباً، في موقف تصرفت فيه على نحو بعيد تماماً عن شخصيتي، وسمحت لنفسي بالاستمتاع به.

الفصل الثاني

في ذلك الوقت، كانت هناك أغنية لنورا بايز[1] تدعى: "تظاهر"، والتي يمكن أن تمثل ما يشبه الدراسة الأكثر جزالة وإقناعاً حول تضليل الذات التي سمعتها على الإطلاق. لقد كانت نورا امرأة جميلة ذات صوت شجي مفعم بالأحاسيس يخبرك أنها تعرف الكثير عن الحب. فعندما تنصحك بأن تلقي بعيداً كل ما مررت به سابقاً من ألم وقلق وأوجاع قلب وتبتسم، فستثق بأنها قد فعلت ذلك سابقاً. فتلك لم تكن مجرد نصيحة، بل إنها وصفة مجربة. ويبدو أن تلك الأغنية كانت المفضلة لدى كينلي أيضاً؛ إذ أسمعنا إياها ثلاث مرات في الليلة التي وصلت فيها إلى شيكاغو، وفي كل مرة شعرت بأنها تخاطبني بصورة مباشرة: *"تظاهري بأنك سعيدة حين تشعرين بالأسف، فالشمس سوف تشرق بعد المطر"*

لقد نلت نصيبي من المطر، فقد أثقل مرض والدتي ومن ثم وفاتها كاهلي، غير أن السنوات التي سبقتها كانت عجافاً أيضاً. كنت في الثامنة والعشرين من عمري فقط، لكنني مع ذلك كنت لا أزال كالعانس أحتل الطابق الثاني من منزل شغلت أختي فوني وزوجها رولاند وأولادهما الأحبة الأربعة طابقه الأول. لم يكن هذا ما خططت له في حياتي، إذ توقعت أنني حتى ذلك الحين سأكون متزوجة أو أنني سأعثر على مهنة كما فعلت صديقاتي في المدرسة اللواتي بتن الآن أمهات يافعات ودائماً في عجلة من أمرهن، أو مدرّسات، أو سكرتيرات، أو كاتبات إعلانات طموحات مثل كيت. أياً كان ذاك الذي أضحينه فقد كن يعشن حياتهن، ويمارسن أشغالهن، ويرتكبن الأخطاء فيها. أما أنا، فبطريقة ما علقت مراوحة مكاني – وذلك قبل مرض والدتي بكثير – ولم أعرف السبيل تماماً لتحرير نفسي.

---

1 نورا بايز مغنية وممثلة كوميدية 1880–192.

في بعض الأحيان، وبعد أن أقضي ساعة بعزف مقبـول لموسـيقى شـوبان لتساعدني على تمضية الوقت، كنت أنهار متهالكة على الأريكة أو السجادة، وأنـا أشعر بأن أي مقدار للطاقة قد شعرت به أثناء العزف يغادر جسدي. كـم كـان الشعور بالفراغ إلى ذلك الحد مريعاً؛ كما لو أنني كنت بلا قيمة.

لم يكن في مقدوري أن أكون سعيدة؟ وما السعادة على أي حال؟ هل يمكن للمرء التظاهر بها كما تصر نورا بايز على القول؟ هل يمكن أن تقتنيهـا كزهـور الربيع التي تزين بها مطبخك؟ أو أن تتمسح بها في حفلة في شيكاغو؟ أو أن تصاب بها كما تصاب بالزكام؟

لقد كان إيرنست هيمنغواي بالنسبة إليّ حينها لا يزال شخصاً غريباً عني تمامـاً، ولكنه بدا لي السعادة متجسدة في أفضل حالاتها. لم تكن لديه أي مخـاوف أمكـنني استشعارها؛ بل فقط الكثير من الحيوية والأحاسيس الملتهبة. عيناه كانتا تطلقان الشرر نحو كل ما تقعان عليه، ونحوي ونحن نرقص معاً فيجعلني أتمايل بين ذراعيه.

سألني: "منذ متى وأنت تعرفين ستات؟"

أجبته: "لقد ارتدنا المدرسة الابتدائية ذاتها في سانت لويس، في معهد مـاري إنستيتيوت. وماذا عنك؟"

فقال: "أتريدين معرفة تاريخي العلمي؟ إنه ليس بالكثير"

فضحكت قائلة: "ليس ذلك ما أعنيه. أخبرني عن كيت"

"هذه حكاية تملأ صفحات كتاب، ولست واثقاً من أنني الشخص المناسـب لكتابته" كان صوته وهو يقول تلك الكلمات لا يزال مرحاً وممازحاً، غير أنه قد توقف عن الابتسام. فسألته:

"ماذا تعني؟"

أجاب: "لا شيء، القسم المختصر والعذب من معرفتنا ببعضنا هو أن أسرتينا كانتا تملكان كوخين للتصييف قرب بيتوسكي. أي في ميشيغان بالنسبة إلى شخص قادم من الجنوب مثلك"

"أمر مسل أننا ترعرعنا مع كيت"

"لقد كنت في العاشرة وهي في الثامنة عشرة. فلنقل إنني كنت سعيداً لأنـني نشأت *بالقرب* منها؛ مستمتعاً بإطلالة جميلة على المنظر

"إذاً، بتعبير آخر، كنت منجذباً لها"

"بل إن ذاك هو المعنى الصحيح"، قالها وأشاح بنظره بعيداً. بدا بوضوح أنني لامست وتراً حساساً لديه، و لم أرغب بأن أفعل ذلك ثانية، فقد أحببته مبتسماً وضاحكاً ومسترخياً. في الحقيقة، لقد كانت استجابتي له شديدة، لدرجة أيقنت معها بأنني سأفعل الكثير كي أبقيه سعيداً. وغيرت الموضوع سريعاً لأسأله:

"هل أنت من شيكاغو؟"

"من أوك بارك"

"بالنسبة إلى جنوبية مثلي

"تماماً"

"حسناً، إنك لراقص من الطراز الأول، أيها القادم من أوك بارك"

"وأنت كذلك يا سانت لويس

انتهت الأغنية، وابتعدنا عن بعضنا لنلتقط أنفاسنا. سرت إلى أحد جوانب غرفة جلوس كينلي الطويلة، في حين تحلق المعجبون (من النساء بطبيعة الحال) حول إيرنست. لقد بدون يافعات على نحو رهيب، وواثقات من أنفسهن بشعرهن القصير وخدودهن البراقة المتشربة حمرة. أما أنا فقد كنت أقرب إلى شابة من العصر الفيكتوري تنتظر من يزايد عليها مني إلى الفتاة المراهقة. كان شعري لا يزال طويلاً ومعقوداً عند مؤخر عنقي، لكنه ذو لون كستنائي جميل. وعلى الرغم من أن ثوبي لم يكن آخر صيحة في عالم الأزياء، غير أن قوامي قد عوّض عن ذلك بحسب قناعتي. في الواقع، لقد انتابني شعور طيب حيال منظري طيلة الوقت الذي أمضيته وأنا أرقص مع إيرنست – فكانت تانك العينان تشعان بنظرة التقدير والإعجاب – أما الآن وقد بات محاطاً بأولئك النسوة المفعمات بالحيوية، فقد اضمحلت ثقتي بنفسي.

قالت لي كيت وقد ظهرت من خلفي: "لقد بدوت ودودة للغاية مع نسيتو"

فأجبتها مشيرة إلى الكأس التي في يدها: "ربما، هل لي ببقية شرابك؟"

فقالت مقطبة وهي تناولني كأسها: "إنه متفجر كالبركان"

"ما هو؟" سألتها وقد قربت وجهي من حافة الكأس، وكان ذلك كافياً لكي تزكم أنفي رائحة كرائحة البنزين النتنة.

أجابت: "إنه صناعة منـــزلية، لقد أعطاني إياه ليتل فيفر في المطبخ. ولســـت واثقة ما إذا كان قد أعده في حذائه"

هناك على طول صف ممتد من النوافذ، كان إيرنست قد بدأ بالمشـــي جيئـــة وذهاباً على نحو استعراضي وهو يرتدي رداءً عسكرياً أزرق اللون. وعندما يستدير كان الرداء يتطاير خلفه بصورة درامية.

علقتُ على المشهد قائلة: "يا له من زي!"

فردت كيت: "إنه بطل حرب، ألم يخبرك بذلك" فهززت رأســـي نافيـــة، فقالت:

"إنني واثقة من أنه سيفعل قريباً" وعلى الرغم من أن ملامحها لم تفصح عـــن شيء إلا أن صوتها كان ذا نبرة حادة.

فقلت: "لقد أخبرني أنه كان يكن مشاعر خاصة لك"

"حقاً؟!" ظهرت النبرة الحادة مجدداً. "لكن من الواضح أنـــه قـــد تجاوزهـــا الآن"

لم أستطع أن أستشف ما الذي حدث فباعد بين هذين الصديقين القـــديمين. لكن، أياً يكن ذاك، فمن الواضح أنه كان معقداً ومطوياً جيداً تحت ســـتار مـــن الكتمان، فقررت تغيير الحديث.

"أحب أن أرى نفسي كفتاة تُقدِم على شرب أي شيء، لكن ربما عليـــه ألا يكون محضراً في حذاء"

"نعم، حسناً، فلنذهب لتصيّد شيء ما مناسب للشرب" قالتـــها مبتســـمة، وعادت عيناها الخضراوان تبرقان وهي تنظر إلي، لقد عادت كيت الـــتي أعرفهـــا ثانية؛ غير متجهمة على الإطلاق. وذهبنا معاً لنشرب حتى الثمالة وننال نصيبنا من المرح.

ألفيت نفسي أراقب إيرنست في ما تبقى من تلك الأمسية، متأملة أن يظهـــر فجأة فيحرك الأمور بيننا، لكنه لم يفعل. لا بد أنه في مرحلة ما قد انسل مغـــادراً، فالضيوف جميعهم تقريباً قد فعلوا ذلك؛ واحداً تلو الآخر، حيث إنه مـــع حلـــول الساعة الثالثة من بعد منتصف الليل لم يتبق إلا عدد قليل فقط، والشخصية المركزية المأساوية بينهم كانت متمثلة في ليتل فيفر. فقد فقد وعيه على الأريكة، وغطـــت

وجهه جوارب نسائية صوفية طويلة سوداء اللون، فيما جثمت قبعته على قدميه المتصالبتين.

قالت كيت متثائبة: "إلى السرير، إلى السرير

فسألتها: "أذاك شكسبير؟"

فقالت: "لست أدري" وأردفت ضاحكة: "سأنطلق إلى زريبتي الصغيرة الآن. هل ستكونين بخير هنا؟"

فأجبتها: "بالطبع، لقد أعد لي كينلي غرفة جميلة" أوصلتها إلى الباب، وبينما كانت ترتدي معطفها مترنحة حددنا موعداً لتناول الغداء في اليوم التالي.

"عليك أن تخبريني بكل ما جرى معك، فنحن لم نحظ بدقيقة لنتحدث بها عن والدتك. لا بد أن الموقف كان رهيباً بالنسبة إليك"

فأجبتها: "إن الخوض في ذلك الحديث سيثير شجوني وحسب. لكن الجو هنا مثالي، وأشكرك على إلحاحك علي لكي آتي"

قالت: "كم خشيت ألا تأتي"

"وأنا أيضاً. لقد قالت لي فوني إن الوقت لا يزال مبكراً"

فعلقت: "أجل، حسناً، إنني أتوقع منها أن تقول ذلك. يمكن لأختك أن تكون حادة الذكاء في ما يتعلق ببعض الأشياء يا هاش، أما في ما يتعلق بالأمور التي ترتبط بك فهي ليست كذلك على الإطلاق"

أرسلت إليها نظرة ممتنة، وتمنيت لها ليلة سعيدة. كانت شقة كينلي أشبه ما تكون بجحر الأرانب المكتظ بالنزلاء، إلا أنه أعطاني غرفة واسعة، فيها سرير بأربع قوائم وخزانة بأدراج ومرآة. غيرت ملابسي وارتديت قميص النوم، وأرخيت شعري، ورحت أسرّحه وأنا أفكر في أكثر أحداث الليلة التي مضت أهمية. وخلصت إلى أنه مهما كانت المتعة التي شعرت بها لدى تواجدي مع كيت، ومهما كان شعوراً طيباً أن ألتقيها بعد كل تلك السنوات، إلا أنه عليّ الاعتراف بأن الرقص مع إيرنست هيمنغواي احتل الصدارة بين قائمة الأحداث التي لا تنسى بالنسبة إليّ. كنت لا أزال قادرة على الشعور بعينيه البنيتين وهما تطلقان كهرباء تمدني بالطاقة. لكن، ترى إلام كان يرمي باهتمامه بي؟ هل كان يجالسني وكأنني

طفلة بوصفي صديقة قديمة لكيت؟ أم كان لا يزال معجباً بكيت؟ وهل هي مغرمة به؟ وقبل هذا وذاك، هل سأراه مرة أخرى؟

وبغتة، شعرت وكأن دماغي كخلية نحل تطن فيها أسئلة بلا أجوبة؛ ما دفعني إلى الابتسام. إذاً، ألم يكن هذا تماماً مأربي من مجيئي إلى شيكاغو؛ وهو الحصول على أمور جديدة لأفكر فيها؟ واستدرت لأواجه المرآة المعلقة فوق خزانة الأدراج. طالعني وجه هادلي ريتشاردسون، كانت لا تزال هناك بشعرها الكستنائي المتماوج، وشفتيها الرقيقتين، وعينيها المستديرتين الشاحبتين. غير أن ثمة شيئاً جديداً فيها أيضاً، فهناك بريق من الإمكانية المحتملة. لقد بدا لي أن الشمس كانت في طريقها إلى البزوغ. وحتى ذلك الحين، سأدندن أغنية نورا بايز، وأبذل أقصى جهدي لأتظاهر.

الفصل الثالث

في الصباح التالي، عندما دخلت المطبخ وجدت إيرنست مستنداً بتكاسل على الثلاجة، وهو يقرأ جريدة الصباح ويلتهم نصف رغيف خبز. فسألته وأنا غير قادرة على إخفاء دهشتي لرؤيته:

"هل نمت هنا؟"

فأجاب: "إنني مقيم هنا لفترة بسيطة؛ إلى أن تتحسن أحوالي"

سألته: "ما الذي تنوي فعله؟"

فأجاب: "أصنع تاريخاً أدبياً، على ما أظن

"حقاً؟" قلتها وأنا معجبة بثقته بنفسه وقناعته، فهذا أمر لا يمكن للمرء تزييفه. ثم سألته: "ما الذي تعمل عليه الآن؟"

فأجاب مكشراً: "حالياً أكتب نشرة تافهة لإطارات فايرستون، لكنني أنوي كتابة قصص مهمة أو رواية، أو ربما ديوان شعر

كلامه أطار صوابي، فقلت وأنا أجلس إلى الطاولة: "كنت أعتقد أن الشعراء أشخاص هادئون يخجلون ويخشون نور الشمس"

فأجاب: "لكن، ليس الشاعر الذي أمامك" وتقدم لينضم إليّ بعد أن سحب الكرسي ليجلس عليه، ثم سألني: "من هو شاعرك المفضل؟"

فأجبته: "هنري جيمس على ما أعتقد، فأنا لا أنفك أعيد قراءة قصائده مرة تلو مرة"

فقال: "كم أنت صريحة على نحو فاتن"

سألته: "هل أنا كذلك؟ وأنت، من هو كاتبك المفضل؟"

فابتسم قائلاً: "إيرنست هيمنغواي. على أي حال، هناك العديد من الكتاب المشهورين في شيكاغو وكينلي مثلاً يعرف شيروود أندرسون، هل سمعت به؟"

"بالطبع، إنه مؤلف كتاب *واينسبرغ، أوهايو*

"ذاك هو"

قلت له: "حسناً، بفضل الجرأة التي تتمتع بها، إنك قادر على الأرجح على فعل أي شيء على الإطلاق"

فرمقني بنظرة جدية، وكأنه يحاول أن يستشف من خلالها ما إذا كنت أغيظه أم أسترضيه بكلامي، غير أن مقصدي لم يكن أياً من الاثنين. لكنه في النهاية سألني:

"كيف تحبين قهوتك؟"

فأجبته: "ساخنة" فابتسم ابتسامة بدأت من عينيه ثم سرت في كل مكان على الفور، كان أثرها مدمراً.

عندما وصلت كيت بناء على موعدنا لنتناول الغداء معاً، كنت لا أزال وإيرنست في المطبخ نتجاذب أطراف الحديث. لم أكن قد غيرت ملابسي بعد، وكنت لا أزال أرتدي قميص النوم، في حين أنها كانت جاهزة ومتألقة في معطف وقبعة. فقلت لها: "اعذريني، لن أستغرق أكثر من دقيقة"

فردت: "خذي وقتك، أنت تستحقين التمتع بشيء من الخمول" لكنها مع ذلك بدت نافدة الصبر كعادتها.

توجهت إلى غرفتي لأرتدي ثيابي، وعندما عدت كانت كيت وحيدة في الغرفة. فسألتها:

"إلى أين فر نيستو؟" فأجابت: "ليست لدي أدنى فكرة" ثم استطردت متسائلة وقد قرأت ملامح الخيبة في وجهي: "أكان يجدر بي أن أدعوه للمجيء معنا؟"

فأجبتها: "لا تكوني سخيفة. إنه يومنا معاً"

في نهاية الأمر، حظينا فعلاً بفترة بعد ظهر طيبة. فمن بين كل الفتيات اللواتي كن في صفي في معهد ماري إنستيتيوت، كانت كيت هي الأكثر جرأة وشجاعة، وكانت تمتلك القدرة على التقدم والتحدث مع أي كان، وتصطنع المواقف المرحة

من لا شيء. وقد ألفيتها لا تزال على حالها، حتى إنني شعرت أنني أكثر جرأة وأنا أمشي في شارع ميشيغان أفينو برفقتها، بل وبأنني أصغر سناً كذلك. تناولنا الغداء في مطعم مقابل لمعهد الفن، على الجانب الآخر من الفسحة الرخامية الممتدة أمامه، حيث أشرف أسدان ملكيّان على حركة المواصلات وعلى بحر من المعاطف والقبعات الداكنة. كان يوماً بارداً، فسرنا في شارع ستيت ستريت، ودخلنا كل متجر تلفت واجهته انتباهنا. لقد حاولت جاهدة أن تحثني على أن أفضي لها بمكنونات نفسي حيال الأحداث التي عايشتها في منزلي، غير أنني لم أشأ أن أفقد المزاج الجيد الذي كنت فيه. فما كان مني إلا أن حملتها على أن تروي لي أحداث صيفها في ميشيغان من صيد وحفلات سباحة وغيرها من مغامرات هائجة مائجة. وما إن فعلت حتى بدا لي أن مغامراتها برمتها كانت تحوي قوارب تجذيف وقيثارات تعزف وسهرات في ضياء البدر حول نار المخيم، لكم أثار ذلك غيرتي.

سألتها: "لم تحظين على الدوام بالشبان اليافعين كلهم؟"

"لا، لست كذلك. أنا لا أحظى بهم، أنا فقط أستعيرهم" وابتسمت متابعة: "لعل السبب أن لي إخوة شباناً. لكن الأمر بأي حال كان مصدر إزعاج أحياناً. فقد أمضيت نصف الصيف وأنا أشجع هذا وأدفع عني ذاك، والعازبون جميعاً اختلطوا معاً، وفي النهاية لم يتعرف أي منهم على أي شخص آخر. إذاً، أترين؟ ما من شيء يدعوك للغيرة"

"أما زال كارل إدغار يثابر على التقدم لخطبتك؟"

"أوه، أجل أخشى أنه يفعل. يا لإدغار المسكين. أحياناً أتساءل عمّا يمكن أن يحدث إن وافقت على طلبه، على سبيل التجربة"

"سيطير صوابه فرحاً"

"أو سيهرب خائفاً. فبعض الرجال يبدون أنهم يرغبون بالفتيات اللاتي يعاكسن رغباتهم"

سألتها: "وماذا عن إيرنست؟"

فقالت: "ماذا عنه؟" وقد ومضت عيناها ببريق الاهتمام.

"هل يفضل النساء اللاتي يرفضنه؟"

"أنّى لي أن أعرف"

"كم عمر ذاك اليافع على أي حال؟ أهو في الخامسة والعشرين؟"

فأجابتني بابتسامة متكلفة: "بل في الحادية والعشرين. إنه مجرد صبي. أنا أعلم أنك أكثر عقلانية من ذلك"

فقلت: "ولكن، ماذا تعنين؟"

فحدقت في بنظرة ثاقبة: "أعتقد أنني لمحت اهتماماً منك به"

فأجبتها: "إنني أشعر بالملل؛ هذا كل ما في الأمر إلا أنني كنت على الدوام مريعة في الكذب.

"ما رأيك بقبعة جديدة بدلاً من التفكير فيه؟" قالتها مشيرة إلى قبعة عالية كالبرج يغطيها الريش، ما كنت لأتصور نفسي أعتمرها ولو بعد مليون سنة.

في الوقت الذي وصلنا فيه إلى الشقة في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، ألفينا المكان مزدحماً كما في اليوم السابق تماماً. وكان كينلي وشقيقه بيل - وهو الأصغر بين عشيرة آل سميث - يحاولان معاً جمع عدد كاف للعبة ورق، فيما جلس شخص اسمه برومي إلى البيانو عازفاً موسيقى زنجية أمريكية، في حين التفت حول إيرنست وشخص آخر يدعى دون رايت ثلة من الأشخاص الذين كانوا يتابعونهما وهما يقيمان على السجادة شوطاً من مباراة ملاكمة عفوية. كلاهما كانا عاريي الصدر، ويهزان رأسيهما ويتمايلان يمنة ويسرة لتفادي ضربات بعضهما. كان الجميع يضحكون، وقد بدا الموقف مرحاً للغاية إلى أن راح إيرنست يسدد لكمات سريعة بقبضته اليمنى استطاع دون تفادي معظمها. ومضى الشوط بصورة طبيعية، غير أنني استطعت أن أرى نظرة الصقر المتحفز في عيني إيرنست وهو يسدد تلك اللكمات، وعرفت أن الأمر كان جاداً تماماً بالنسبة له؛ لقد أراد أن يفوز.

بدت كيت غير منزعجة البتة من الملاكمة أو أي شيء آخر يحدث في الشقة. فأدركت أن المكان يبدو على هذه الشاكلة من الجنون دائماً، كما لو كان فندق غراند سنترال. كان قانون حظر الكحول سارياً منذ قرابة العام، وقد حفزت هذه "التجربة النبيلة" على ظهور الحانات بين عشية وضحاها في أرجاء المدن كافة. كان من المفترض وجود الآلاف منها في مدينة شيكاغو وحدها. ولكن، من ذا

الذي كان يحتاجها بوجود كينلي الذي – مثله مثل الكثير من الشبان واسعي الحيلة – قد خزن كماً من الشراب يكفي لتخليل قطيع من الفيلة؟ في تلك الليلة، كان هناك كم وافر من المشروب في المطبخ، لذا لم نتوان أنا وكيت عن احتساء القليل ومن ثم إتباعه بالكثير. ومع حلول الغسق، ألفيت نفسي على الأريكة محشورة بين إيرنست وهورني وهما يتحدثان من فوقي بلغة البيغ اللاتينية* لم أتمالك نفسي من القهقهة. ومتى قهقهت آخر مرة على أي حال؟ لقد شعرت أن الضحك من الصميم بات سهلاً على نحو يثير الدهشة والشعور بالثمالة. وعندما نهض هورني لينضم إلى كيت في حلبة الرقص المرتجلة، التفت إلي إيرنست قائلاً:

"كنت أفكر طيلة اليوم في طريقة أسألك فيها عن شيء ما"

"أحقاً؟" لم أدر لحظتها ما إذا كنت أشعر بالمفاجأة أم بالإطراء أكثر.

أومأ برأسه قائلاً: "أترغبين بقراءة شيء من كتاباتي؟ إنها لم تصبح قصة بعد، بل هي أقرب ما تكون إلى مسوّدة"

ثم زمّ ذقنه بيده بعصبية كدت معها أضحك بارتياح. ففجأة، صار إيرنست هيمنغواي عصبياً، فيما لم أشعر بذلك على الإطلاق.

أجبته: "بكل تأكيد. لكنني لست ناقدة أدبية، ولست واثقة من قدرتي على المساعدة"

"لا غضاضة في ذلك. كل ما أريد سماعه هو انطباعك عنها"

فقلت: "حسناً إذاً، نعم هاتها"

"سأعود على الفور" وانطلق مسرعاً، قبل أن يتوقف في منتصف الطريق ويلتفت إلي قائلاً: "لا تذهبي إلى أي مكان، اتفقنا؟"

فقلت متسائلة: "وأين عساي أذهب؟"

فأجابني بغموض: "ستدهشك الاحتمالات" ثم أسرع لإحضار الأوراق.

---

* لغة البيغ اللاتينية Pig Latin Language: هي من أشكال اللغة المستخدمة بشكل رئيس لدى الأطفال، تشتق من اللغة الإنكليزية العادية بتحريك الحرف أو المقطع الصوتي الساكن إلى نهاية الكلمة مع إضافة الصوت (آي) بعده. فتصبح كلمة بيغ على سبيل المثال: يغباي.

بشكل أساسي، لقد كان محقاً؛ لم تكن القصة قصة بالفعل، بل كانت أشبه ما تكون بمسودة مضحكة وسوداوية عنوَنها "ذئاب ودوناتس"، وتدور أحداثها في مطعم إيطالي في شارع واباش أفنيو. لكن، على الرغم من أنها لم تكن منتهية بعد إلا أنها كانت شديدة الإضحاك وتنضح بسخرية لاذعة. توجهنا إلى المطبخ للحصول على إضاءة أفضل وشيء من الهدوء. وبينما تابعت القراءة، راح إيرنست يذرع المطبخ جيئة وذهاباً وذراعاه تتأرجحان في الهواء في انتظار إجابة عن سؤال لم يرد أن يحمل نفسه على طرحه ألا وهو: هل هي جيدة؟

وعندما طويت الصفحة الأخيرة، ألقى بنفسه على الكرسي المقابل لي، وعلت وجهه نظرة مستطلعة، فقلت له وأنا أنظر في عينيه: "إنك موهوب جداً. على الأغلب، أمضيت وقتاً أكثر من اللازم في قراءة هنري جيمس. ما تكتبه لا يشبهه"

"لا"

"لست واثقة من أنني فهمت كل ما كتبته، لكنني أستطيع القول إنك كاتب. أياً كان ما يحتاج إليه ذلك الأمر فأنت تمتلكه"

"رباه، كم هو مريح سماعك تقولين ذلك. أحياناً أعتقد أن كل ما أحتاج إليه هو شخصٌ واحد يقول لي إنني لست أصارع طواحين الهواء، وإنني أمتلك فرصة في هذا المجال"

"نعم لديك فرصة، حتى أنا بمقدوري أن أراها"

نظر إلي بعينيه نظرة حانية فأحدث ثقباً صغيراً في داخلي وقال: "أنت تروقين لي، أتعلمين هذا؟ أنت من النوع الطيب الذي يتمتع بالصفاء"

فقلت له: "وأنت تروق لي أيضاً" وقد صدمني كم الراحة الذي شعرت به وأنا معه؛ كما لو كنا صديقين منذ زمن بعيد، أو كأنّنا فعلنا هذا على الدوام؛ هو يناولني الأوراق وقلبه يرتجف – فهذا أمر لم يكن ليستطيع التظاهر بأنه لا يعني كل شيء بالنسبة له في الحياة – فيما أقرأ كلماته بهدوء وأنا مذهولة أمام ما يمكن لقلمه أن يبدعه.

سألني: "أتسمحين لي بدعوتك إلى العشاء؟"

قلت: "الآن؟"

فأجاب: "وما الذي يمنعنا؟"

فكرت في سرّي: *كيت وكينلي، وعصبة الثملين القابعين في غرفة الجلـــوس.* لكنه قاطع أفكاري وكأنه كان يقرأها قائلاً: "لن يلحظ أحد غيابنا"

فوافقته، لكنني تسللت كاللص لأحضر معطفي. كنت أريد الخروج معه، بل كنت أتوق لذلك، غير أننا كنا مخطئين في ظننا أن أحداً لن يلاحظ. ففيمـــا كنـــا نخرج مسرعين من الباب معاً، شعرت بعيني كيت الخضراوين كسياط حامية تلهب ظهري، وسمعت صيحتها الصامتة: *هادلي، اعقلي!*

لكنني تعبت من كوني عاقلة. فلم ألتفت لها ومضيت في طريقي.

لقد بلغت قمة من قمم السعادة بمسيري في شوارع شيكاغو الباردة جنباً إلى جنب مع إيرنست؛ بوجنتيه المستعرتين حرارة، وعينيه المشعتين، ونحن نتحدث دون أن تعرف أحاديثنا نهاية. قصدنا مطعماً يونانياً في شارع جيفرسون، حيث تناولنـــا لحم بقر مشوياً مع سلطة خيار بالليمون والزيتون.

عندما وصل النادل حاملاً طلبنا معه قلت: "أعتقد أنه أمر محرج أن أعتـــرف بأنني لم أتذوق الزيتون في حياتي من قبل"

فعلق إيرنست: "يجب أن يعد هذا أمراً مخالفاً للقانون. هاك، افتحي فمـــك" ووضع زيتونة على لساني. احتويتها بفمي، واستشعرت كم هي غنيـــة بالزيـــت ودافئة ومالحة. أحسست بوجنتيّ تتوهجان من لذتها من جهـــة، ومـــن شـــعوري بالحميمية التي ربطتني بإيرنست في اللحظة التي وضع فيها شوكته في فمي من جهة أخرى. فقد كان ذاك أكثر الأعمال إثارة للأحاسيس كنت قد شعرت به منذ زمن طويل.

"إذاً؟" قال يستحث ردة فعلي.

فقلت: "لقد أحببته. رغم أنه خطير بعض الشيء أليس كذلك؟"

فابتسم وهو يطالعني بنظرة تحبب قائلاً: "أجل، إنه كذلك؛ قليلاً" ثم تنـــاول دزينة بنفسه واحدة تلو الأخرى.

وبعد العشاء، تمشينا تحت القطار المرتفع عن الأرض متجهين نحو بلدية بـــير. طول الوقت، ما انفك إيرنست يتحدث بسرعة عن مخططاته، وعن كل الأمور التي أراد أن ينجزها، وعن القصائد والقصص والمسودات التي كـــان يتحـــرق شـــوقاً

لكتابتها. لم يسبق لي قط أن التقيت أحداً مفعماً بالحياة والنشاط مثله. كان يتحرك كشعاع النور، و لم يتوقف قط عن الحركة أو التفكير كما كان جلياً.

عندما وصلنا إلى رصيف الميناء، مشينا على طوله إلى أن وصلنا إلى نهاية طريق السيارت، فقال لي إيرنست: "أتعلمين أنهم كانوا يقيمون الثكنات ووحدات للصليب الأحمر هنا أثناء الحرب؟ لقد عملت مع الصليب الأحمر في إيطاليا سائقاً لعربة الإسعاف"

"تبدو الحرب بعيدة جداً عنا الآن، أليس كذلك؟"

"أجل، أحياناً" قالها وقد لاحت على جبينه أمارات الشك. ثم استطرد سائلاً: "ماذا كنت تفعلين في تلك الأيام؟"

"كنت أختبئ معظم الأحيان. فقد كنت أعمل في ترتيب الكتب في قبو المكتبة العامة. وقد قيل لي إنها في نهاية الأمر قد ذهبت إلى الجنود ما وراء البحار"

قال: "هذا مضحك. لقد سلمت هذه الكتب بيدي، فضلاً عن ألواح الشوكولا والرسائل والسجائر والحلوى. كان لدينا مخزن معد لهذه الأشياء، غير أنني كنت أحياناً أذهب إلى ميدان القتال ليلاً على دراجة هوائية، أبإمكانك تخيل ذلك؟"

أجبته: "أجل يمكنني. كانت دراجة حمراء مترنحة، أليس كذلك؟"

فقال: "والفتى ترنح متهالكاً أيضاً بعد أن تعرض لتفجير كاد يرسله إلى الجحيم"

توقفت عن المشي مصعوقة وهتفت: "إيرنست، كم أنا آسفة، لم أكن أعلم"

"لا عليك. لقد بت بعدها بطلاً ليوم أو اثنين" استند إلى السور المعدني، وسرح ببصره في البحيرة رمادية اللون، التي لاح فيها شبح أبيض اللون، ثم قال: "أتعلمين بماذا أفكر الآن؟"

فهززت رأسي نافية.

"بدود القز. لقد قضيت ليلة في قرية سان بيدرو نوريللو التي كانت تقع على الجبهة الأمامية حيث التقيت هورني لأول مرة، وقد تم وضع أسرتنا على أرض ذاك البناء. حسناً، لقد كان مصنعاً للحرير الطبيعي. كانت ديدان القز متموضعة فوق رؤوسنا تماماً؛ في الأفاريز وهي تقضم أوراق التوت المكوّمة على رفوف. ذاك كان

الصوت الوحيد الذي أمكننا سماعه. لم نسمع صوت القذائف ولا غيرهـا، بـل صوت القضم وحده. كم كان ذلك مريعاً"

" لم يسبق لي أن فكرت بديدان القز على هذا النحو. الحق أنه لم يخطر لي أن أفكر فيها أصلاً من قبل، لكن بات الآن بمقدوري سماع صوت قضمها كما سمعته أنت"

"أحياناً عندما يستعصي النوم على جفوني، يخيل إلي أنني أسمع صوت مضغها، فأضطر إلى النهوض وإضاءة الأنوار والنظر إلى الأعلى؛ إلى السقف"

فابتسمت وسألته في محاولة مني لجعل الجو أكثر استرخاء: "وهل حـدث أن وجدها هناك؟"

فأجاب: "ليس بعد"

سرنا مبتعدين عن المحال ذات الواجهات المضيئة البراقـة، ومـتجهين نحـو المنـزل. لقد عجبت كم هو أمر استثنائي أن تستمع إلى شخص غريب عنك وفي الوقت ذاته قريب منك، وهو يفضي إليك بمكنونات نفسه عن أمر جوهري يخصه في حياته. كما أنه قد رواه على نحو بديع وبإحساس مرهف عقد لساني شيئاً مـا. ورحت أتساءل في سرّي: من تراه يكون *إيرنست هيمنغواي*؟

وفجأة، توقف عن المسير ووقف قبالتي على الرصيف وقال:

"استمعي إلي هاش. أنت لن تجري بعيداً عني أليس كذلك؟"

فأجبته: "إنني لست رياضية يعتد بها"

فقال: "هل أخبرتك أن شخصيتك القوية تروق لي؟"

فقلت: "أجل، لقد فعلت"

"إذاً، فهي تعجبني أكثر فأكثر

ورمقني بنظرة مظفّرة استأنفنا بعدها المشي وقد وضع ذراعي الـيمنى تحـت ذراعه.

في صباح اليوم التالي، اقتحمت كيت غرفتي دونما استئذان، ولم أكـن قـد غيرت ملابسي بعد، وهتفت بـي:

"لقد انتظرتكما حتى نهاية منتصف الليل البارحة. أين كنتما؟"

"إنني في غاية الأسف، لقد دعاني إيرنست إلى العشاء و لم أدر كيف يمكنني أن أقول لا"

"لا هي الكلمة الأكثر سهولة في الكون. يبدأ *الأطفال* كلامهم بكلمة لا "

شددت ردائي بإحكام حول خصري وجلست على السرير قائلة: "حسناً يا كيت، أنا لم أرغب بقول لا. لقد كان مجرد عشاء، و لم ينجم عنه أي أذى"

فردت وعلامات الاضطراب لا تزال بادية عليها: "طبعاً، كل ما في الأمر أنني أشعر بنوع من الحماية تجاهك، ولا أريد أن أراك متورطة في أمر وخيم العواقب"

"و لم عساه يكون كذلك؟ إيرنست لا يبدو لي شخصاً سيئاً"

"لا، إنه ليس سيئاً بالضبط" ظهر لي جلياً أنها كانت تحاول اختيار كلماتها بعناية، "إنه فقط يافع، وهو يحب النساء - *كل* النساء، على ما يبدو. وأنا أراك تلقين بنفسك عليه وتثقين به ثقة عمياء، وهذا يقلقني

فقلت لها وقد انتابني شعور مفاجئ بالغضب: "إنني لا ألقي بنفسي على أحد. لقد تناولت العشاء مع الرجل فقط يا كيت. هذا ما حدث بكل صدق"

فردت: "حسناً، أنت على حق. إنني أنجرف أكثر من اللازم" وجلست بجانبي على السرير، وأمسكت بيدي بين كفيها قبل أن تتابع: "انسي كل ما قلته لك الآن، اتفقنا؟ أنت فتاة عاقلة ومتزنة، وستعرفين ما يجدر أو لا يجدر بك فعله"

فهتفت: *" لم يحدث شيء يا كيت!"*

"أعلم، أنا فظيعة" وراحت تدلك يدي. وقد تركتها تفعل ذلك فيما كانت أفكاري تدور في رأسي.

قلت لها: "إن هذا كثير لأفكر به قبل الفطور فكان ردها: "أيتها المسكينة" ثم نهضت معدلة تنورتها، ومن ثم عدلت تعابير وجهها وأنا أراقبها وهي تصحح وتبسّط كل شيء. كانت تلك خدعة جيدة، ولكم تمنيت لو كان بإمكاني الإتيان بها.

مرت بقية الفترة الصباحية عليّ وأنا في حالة من الغياب، مطيلة التفكير في كلمات كيت وقلقها علي. هل إيرنست فعلاً شخص يجدر بي الحذر منه يا ترى؟ لقد بدا لي شديد الصدق والإقبال. لقد اعترف لي أنه يكتب الشعر، وتلك القصص التي حكاها لي عن إصابته في الجبهة ودود القز... أيعقل أن يكون

ذلك كله جزءاً من حيلة مدروسة ليستغلني وحسب؟ إن كان ذلك صحيحاً، فإن كيت على حق. لقد تم الإيقاع بـــي، وقد تركت لنفسي العنان معه كما لو كنت فأرة ريفية غرّة، وربما كنت واحدة من بين العشرات. لم أكن أطيق التفكير بالأمر على هذا النحو.

بعد أن أنهينا احتساء قهوتنا قالت لي كيت: "ربما من الأفضل لنا أن ننطلـــق من هنا سريعاً قبل أن تبدأ الضجة. لست مضطرة للذهاب إلى العمل اليوم علـــى الإطلاق. فما عسانا نفعل؟ اختاري، كل ما تطلبينه مجاب"

فأجبتها: "أنت قرري، الأمر سيان بالنسبة لي" وقد كان فعلاً كذلك.

بالنسبة لفتاة أخرى، لربما كانت ستشك بأن موقف كيت نابع من الغيرة، إلا أنني كنت بسيطة جداً، وأنـــزع للثقة بشدة بمن حولي حينها. بل وأكثر من ذلك، لقد كنت عديمة الخبرة. كنت امرأة في الثامنة والعشرين قد مـــرت بعـــدد مـــن العلاقات العاطفية، وإنما خبرت الحب لمرة واحدة فقط. وتلك التجربة كانت مريعة كفاية لكي تجعلني أشكك بالرجال وبنفسي على حد سواء أمداً لا يستهان به من الزمن.

كان اسمه هاريسون ويليامز، وقد كان مدرس البيانو الخاص بـــي عنـــدما كنت في العشرين من عمري، وكنت قد عدت لتوي إلى سانت لويس بعد ســـنة أمضيتها وحدي في برين ماور. وعلى الرغم من أنه كان يكبرني بشهر واحد فقط إلا أنه بدا لي أكبر مني وأكثر ثقافة بكثير. لقد وجدت حينها فكرة أنه قـــد درس خارج البلاد مع مؤلفين موسيقيين مشهورين، وأنه يعرف الشيء الكثير عن الفـــن والثقافة الأوروبيين مثيرة للإعجاب والرهبة على حدّ سواء. كان بإمكاني الإصغاء إليه وهو يتكلم عن أي شيء، وهكذا بدأ كل شـــيء باعتقـــادي؛ بالإعجـــاب والحسد. ثم وجدت نفسي أراقب يديه وعينيه وفمه. لم يكن هاريسون كازانوفـــا بالمعنى التقليدي، غير أنه كان جذاباً بطريقته الخاصة. كان طويلاً ونحيلاً وذا شـــعر أسود رقيق. أكثر ما كان يجذبني إليه هو الطريقة التي أشعرني بها أنـــني شـــخص استثنائي. كان واثقاً من قدرتي على أن أغدو عازفة بيانو في الحفلات الموســـيقية، وقد سرى في يقينه ذاك أنا أيضاً؛ على الأقل في تلك الساعات التي جلست فيهـــا على كرسي البيانو الخاص وأنا أتدرب إلى أن تتشنج أصابعي.

في فترات الأصيل تلك مع هاريسون كنت أقلق كثيراً حيال تصفيفة شعري وثوبي. وبينما كان يذرع المكان جيئة وذهاباً ويثني على عزفي بين الفينة والأخرى، جهِدت في تفسير حركاته وسكناته. فهل كانت تلك النقرات الخفيفة من أطراف أصابعه على صدغه تعني أنه قد لحِظ جوربي الجديد أم لا؟

قال لي في إحدى المرات: "إن جلستك على مقعد البيانو مستقيمة بشكل رائع" كانت تلك الجملة كافية لكي تجعل أحلامي تغزل في عالم أبدو فيه رائعة بثوب مخرم أبيض، ويبدو هو فيه رائعاً بسترة طويلة الذيل وقفازين أبيضين بديعين. كم كان عزفي مريعاً يومها، وقد غشيتني الأحلام وألهتني عن العزف.

أمضيت في حبه عاماً كاملاً، ومن ثم في ليلة واحدة، تناثرت أمنياتي كلها كالشظايا. كنا نحن الاثنان معاً في حفلة مسائية أقامها أحد الجيران، وقد أجبرت نفسي فيها على ابتلاع كأسين دفعة واحدة كي أغدو أكثر جرأة وأنا قربه. كنا قد ذهبنا في اليوم السابق لنتمشى معاً في الغابة القريبة من البلدة. كنا في فصل الخريف، وقد تناثرت الأوراق الهشة في كل مكان، في حين اتخذت الغيوم في الأعلى أشكالاً من أبدع ما يكون. أشعل لي لفافة تبغ، ودست برفق على الأوراق الصفراء الذهبية بطرف حذائي ذي الشرائط الطويلة. وهناك، وفي غمرة لحظة من السكوت الغاية في الروعة قال لي: "كم أنت عزيزة على قلبي يا هادلي. حقاً، إنك واحدة من أفضل من عرفتهنّ في حياتي"

كلماته تلك بالكاد يمكن أن تعد تصريحاً بالحب، غير أنني أقنعت نفسي بأنه كان يهتم لأمري، وصدقت ذلك على نحو كاف لكي أبتلع كؤوس الشراب في اليوم التالي على أي حال. انتظرت إلى أن شعرت بالغرفة وهي تكاد تدور بي، ثم توجهت نحو هاريسون ورحت أقترب منه بخطى وئيدة. كنت أرتدي يومها ثوباً مخرماً أسود كان المفضل لدي بلا منازع؛ لأنه ما أخفق يوماً في جعلي أشعر بأنني أشبه كارمن. ولعل تأثير الفستان وقد تضافر معه تأثير المشروب ما جعل يدي ترتفع باتجاه كم معطف هاريسون. لم يسبق لي من قبل أن لمسته قط، لعل ذلك ما جعل الموقف بالنسبة له مفاجئاً إلى حد جعله يتسمر في مكانه. لقد وقف هناك متيبساً ووسيماً كتمثال في حديقة. وخلال عشرات الخفقات التي ارتعشت في فؤادي في تلك الهنيهة، شعرت أنني زوجته، وبل وسلفاً قد أنجبت أطفاله وضمنت

حبه وولاءه لي. لقد اجتزت لحظتها الأسلاك الشائكة التي اعتادت أن تغلف عقلي؛ ذاك المكان الذي لطالما احتجز الأمل فيه نفسه وابتلع أطرافه مرة تلو مرة. أمسى بمقدوري الحصول على مبتغاي، لقد بات في متناولي وملكي فعلاً.

"هادلي" لفظ اسمي بهدوء، فرفعت إليه رأسي، وألفيته ينظر إلي بعينيه شاحبتي الزرقة وهما تقولان لي لا. بكل بساطة وهدوء، فقط لا.

بم عساي أكون قد أجبته؟ ربما لا شيء، لست أذكر. عادت إلى مسمعيّ الموسيقى، وغامت في عينيّ الأضواء، وسقطت يدي من عرشي إلى حافة ثوبي؛ ذاك الثوب الذي كان قبل دقائق ثوباً غجرياً أصبح الآن جنائزيًّا.

"أعاني من صداع رهيب" ذاك هو التبرير الذي سقته لوالدتي كي أفسر لها رغبتي في العودة إلى المنزل حالاً. فأجابت وقد رقت ملامح وجهها: "بالطبع، أنت كذلك. هيا فلنضع فتاتنا الغالية في السرير

وما إن أضحينا في المنزل، تركتها تقودني إلى أعلى السلالم وتساعدني على ارتداء ثوب النوم المصنوع من قماش الموسلين، ثم وضعتني في سريري تحت طبقات من الأغطية الوثيرة، وراحت تلمس وجنتي براحتها الباردة وتمسح على شعري قائلة: "انعمي ببعض الراحة الآن"

"أجل" اكتفيت بهذه الكلمة جواباً لأنني لم أستطع أن أشرح لها كيف أنني كنت بالفعل مستريحة زهاء إحدى وعشرين سنة مضت، إلا أنني الليلة حاولت أن أقوم بشي مختلف.

ذاك كان احتكاكي الوحيد مع الحب. إنما هل كان حباً بالفعل؟ لقد شكل تجربة مريرة ومريعة بالفعل، عشت في ظلالها طيلة العامين التاليين، وقد انكببت على التدخين، وبت أكثر نحولاً وشحوباً، وتتقاذفني أفكار عن أن رمي نفسي من شرفتي كبطلة معذبة في إحدى الروايات الروسية.

بعد مضي فترة من الوقت مرت أبطأ مما كنت أتمنى، أدركت أن هاريسون لم يكن أميري الذي خذلني، وأنني لم أكن في الواقع ضحيته. فهو لم يعمد إلى تضليلي البتة، بل كنت أنا من ضللت نفسي بنفسي. ومع ذلك، إن فكرة الحب كانت لا تزال تصيبني بالغثيان والشحوب بعد مضي ما يقارب عقداً من الزمن على تجربتي.

كنت لا أزال ساذجة وغِرَّة، وبحاجة كما هو واضح لمن يرشدني؛ كيت على سبيل المثال.

قطعنا شيكاغو طولاً وعرضاً على الأقدام في ذلك اليوم، باحثتين عن أفضل لحم بقر مملح في العالم، وعن قفازات جديدة. وأفسحت المجال لكيت كي تثرثر وتلهيني؛ شاعرة بالامتنان لها لأنها حذرتني من إيرنست. فحتى لو كانت نواياه ترتقي تماماً فوق مستوى الشكوك فقد كنت سريعة التأثر في ذلك الحين. لقد قدِمت إلى شيكاغو بحثاً عن مفر وقد حصلت عليه، غير أن الاستسلام للأحلام أمر خطير. صحيح أنني كنت غير سعيدة في منزلي، لكن أن أغرق في خيالات عذبة تدور حول إيرنست هيمنغواي لم يكن ليشكل حلاً لأي من متاعبي. حياتي هي حياتي، وينبغي علي أن أواجهها بطريقة ما، وأن أطوعها على النحو المناسب لي.

أمضيت أسبوعاً آخر في شيكاغو، وكل يوم كان يأتي محملاً بأنواع المسرّات. فقد ذهبنا لمشاهدة مباراة كرة قدم، وحضرنا عرضاً نهارياً *لمدام باترفلاي*. جلنا المدينة في الليل والنهار، وفي كل مرة صادفت فيها إيرنست، وهو ما حصل غالباً، ناضلت لكي أحافظ على صفاء تفكيري مستمتعة بصحبته وحسب، وكي لا أنجرف في تهيؤات درامية بأي اتجاه كانت. ربما كنت أكثر تحفظاً معه بقليل من ذي قبل، لكنه لم يعلق على الموضوع، ولم يسع لفرض أي شكل من أشكال الحميمية بيننا إلى حين أمسيتي الأخيرة في البلدة.

كان الجو شديد البرودة إلى حد التجمد تلك الليلة، لدرجة تمنع المرء من مغادرة منزله حقاً. غير أننا تلفعنا بأغطية صوفية، ثم حشرنا أنفسنا في سيارة كينلي الفورد وتوجهنا إلى بحيرة ميشيغان. كانت التلال الرملية هناك زلقة وشاحبة في ضوء القمر، وقد اخترعنا لعبة قضت بأن نتسلق قمة إحداها – ونحن نترنح ثملين بالطبع – ثم نتدحرج نزولاً ونحن مستلقين كجذوع الأشجار. افتتحت كيت اللعبة، فقد كان دأبها على الدوام أن تكون السبّاقة في كل شيء، ومن ثم تلاها كينلي وهو يغني طيلة نزوله. وعندما حان دوري، تسلقت إلى أعلى التلة والرمل يتحرك تحت قدمي ويدي. لدى وصولي إلى القمة، نظرت حولي فألفيت كل شيء لامعاً ومتجمداً على المدى البعيد حتى النجوم.

صاح بي إيرنست من الأسفل: "هيا أيتها الجبانة"

أغمضت عيني وتركت نفسي أتدحرج كالبرميل مرتطمة بقسوة بالمطبات التي اعترضت طريقي. غير أنني كنت قد شربت ما يكفي لتخدير أي إحساس بـالألم، فلم أشعر بشيء سوى بالحرية والانعتاق اللذين يبعثان على النشوة. لقد كانت تلك المغامرة نوعاً من الشَّمق حقيقة، ولعب الخوف دوراً جوهرياً فيه. للمرة الأولى منذ كنت فتاة صغيرة شعرت بالاندفاع المتهور الناجم عن الخوف، وقد أحببت ذلك الإحساس. ولم أكد أصل إلى نهاية المنحدر إلا وكان إيرنست قد شدني لألتف حول نفسي وأجد نفسي بين ذراعيه وهو يضمني بقوة. لقد شعرت بحرارة جسده، ولم أستطع أن أتفوه سوى بكلمة: "أوه" لم أستطع التفكير في ما إذا كان أحد ما قد رآنا، لم أستطع التفكير في شيء. لقد كان وجهه يبعد إنشات قليلة عن وجهي وهو يتوهج تألقاً وإقناعاً وصحوة أكثر من أي شيء سبق أن شاهدته عيناي.

"أوه" قلتها مرة ثانية وأفلته.

في اليوم التالي، حزمت حقائبي استعداداً لرحلة العودة إلى سانت لويس وأنا أشعر بشيء من الضياع. لقد انجرفت بعيداً عن واقعي في الأسبوعين اللذين عشتهما هنا حتى أصبحت العودة إلى دياري أمراً شاقاً بالنسبة إليّ، فلم أعد أستطيع تخيل العيش هناك. لا أريد أن أعود.

كانت كيت مرتبطة في عملها ذاك اليوم، وقد ودعنا بعضنا سلفاً في وقت سابق. كذلك توجب على كينلي المضي إلى عمله، غير أنه كان لطيفاً كفاية بأن عرض علي إيصالي إلى المحطة أثناء استراحة غدائه كي يوفر علي أجرة سيارة الأجرة. وبعد أن حزمت كل أمتعتي وبت جاهزة، توجهت إلى غرفة الجلوس مرتدية معطفي ومعتمرة قبعتي، بانتظار وصوله. لكن، عندما ظهر شخص في الرواق لاصطحابي كان ذاك الشخص هو إيرنست. فسألته:

"لم يتمكن كينلي من مغادرة عمله، أليس كذلك؟"

فأجاب: "لا، بل أنا أردت إيصالك" فأومأت له بصمت وجمعت أشيائي.

لم يكن الطريق طويلاً إلى محطة يونيون ستيشن، وقد قطعناه صامتين وكأن على رأسينا الطير. كان يرتدي بنطالاً صوفياً وسترة صوفية رمادية اللون، وقد وضع على رأسه قلنسوة غطت حتى حاجبيه. كانت وجنتاه ورديتي اللون بفعل

البرودة، ولكم بدا وسيماً. وسيم هي تماماً الكلمة المناسبة لوصفه. فمظهره لم يكن أنثوياً بأي شكل، بل كان كامل الأوصاف ولا تشوبه شائبة، وبطولياً نوعاً ما، كما لو أنه قد خرج لتوه من قصيدة شعر يونانية عن الحب والقتال.

قلت له وقد اقتربنا من المحطة: "بإمكانك أن تنـزلني هنا"

"هل سيقتلك أن تعطي المرء فرصة؟" قالها وقد عثر على مكان يركن فيه السيارة.

فقلت: "لا، على الأرجح لا"

بعد بضع دقائق، وقفنا معاً على رصيف المحطة بانتظار القطار. أمسكت بطاقتي وكتاب الجيب الخاص بي بين يدي، فيما حمل هو حقيبتي وراح ينقلها من يد إلى الأخرى. لكن، ما إن لاح قطاري من بعيد بهيكله الضخم البني الفضي وهو ينفث الدخان والسخام، حتى ألقى إيرنست الحقيبة من يده على الأرض، ولفني بذراعيه فجأة، وضمني بشدة إلى صدره.

أخذ قلبي يخفق بشدة بين أضلعي إلى درجة تساءلت معها عمّا إذا كان باستطاعته أن يشعر به. قلت له: "لا أعتقد أنني قد التقيت أي شخص مثلك على الإطلاق" لم يتفوه بكلمة، كان يشع حرارة وحياة. كان هناك الشيء الكثير الذي لم أعرفه عن إيرنست، ولم أدع العنان لنفسي لأطرح الأسئلة أو أتخيل، ومع ذلك ألفيت نفسي أستسلم على أي حال، ثانية تلو أخرى. كنا محاطين بالبشر على الرصيف، ومع ذلك شعرنا أننا وحيدان تماماً. وعندما صعدت قطاري أخيراً، شعرت بركبتي تصطكان.

عثرت على مقعد جلست عليه، ثم التفت باحثة عبر النافذة بين البزات والمعاطف والقبعات الغامقة عن وجهه. ومن ثم كان هناك، يقترب ما أمكنه من القطار، ويبتسم ويلوح لي كمعتوه، فلوحت له بدوري أنا أيضاً. ثم رفع يده إلى الأعلى وكأنها ورقة والأخرى وكأنها قلم، وحرك شفتيه كأنه يقول *سأكتب لك*، أم عساها كانت *سأراسلك*.

أغمضت عيني لأحجب دموعاً حرّى تدافعت فيها، وغرقت في كرسيّ فيما حملني القطار إلى دياري.

الفصل الرابع

في عام 1904، في السنة التي بلغت فيها الثالثة عشرة من العمر، كانت سانت لويس حاضنة لمعرض لويزيانا الشرائي، والذي عرف على نحو أفضل باسم المعرض العالمي. شغل المعرض مساحة تقدر بألف ومئتي هكتار داخل حديقة متنزه فوريست بارك وجامعة واشنطن وحولهما؛ مغطياً خمسةً وسبعين ميلاً من الطرقات والمسالك التي وصلت الأبنية والحظائر والمسارح ببعضها كالشرايين. الكثير من الهياكل كانت عبارة عن جص باريسي على أطر خشبية، صممت لتدوم عدة أشهر فقط لكنها مع ذلك بدت كقصور مهيبة أفرزها الكلاسيكية الحديثة. وكان واسطة العقد بينها جميعها قصر الفن الرفيع الذي عرض متباهياً نحتاً لحديقة صممت على طراز الحمامات الرومانية في عصر الإمبراطور كاراكلا. كانت هناك أيضاً بحيرات صغيرة يمكن للمرء التجذيف فيها، وشلالات ضخمة صناعية، وحدائق مغمورة، وحدائق حيوان تحوي أقزاماً، ونساء ذوات لحى وصبية بلهاء. على طول شارع "ذا بايك"، اصطفت مئات المتاحف والألعاب وأكشاك الطعام. لقد تذوقت أول كوز للبوظة في حياتي هناك. وما فتئت أتعجب وقتها كيف أن المخروط السكري لم يكن بارداً في يدي. كذلك بوظة الفراولة في داخله كانت شيئاً مختلفاً؛ لقد كانت أفضل ما تذوقته في حياتي على الإطلاق.

كانت فوني برفقتي في المعرض يومها، لكنها لم ترغب بالحصول على البوظة، بل وزهدت بالحلوى القطنية المغزولة، أو القمح المنفوش أو الشاي المثلج أو أي من المعروضات المستجدة التي كانت موجودة. كل ما أرادته حينها هو العودة إلى المنزل حيث كانت أمي تحضر لاستضافة لقائها الأسبوعي الذي يدور حول حق المرأة في الاقتراع.

لم أفهم يوماً سبب تعلق فوني بمجموعة أمي. فقد بدت أولئك النسوة بالنسبة لي على الدوام شديدات التعاسة. وبالاستماع إليهن كانت ستتشكل لديك القناعة بأن الزواج هو أفظع ما يمكن أن يقع للمرأة. كانت أمي هي المرأة ذات الصوت الأعلى والحضور الأقوى بينهن على الدوام، وهي تومئ برأسها بحدة، بينما تجول فوني بينهن بصحون الكيك وشطائر البقلة، وهي تحاول جهدها لإرضاء الجميع.

قلت لأختي محاولة مساومتها: "فلنبق نصف ساعة أخرى فقط. ألا تريدين رؤية قصر الكهرباء؟"

فأجابت: "ابقي إذا شئت. إنني متفاجئة من قدرتك على الاستمتاع هنا" ثم انتفضت مسرعة بالذهاب لتذوب بين الحشود.

لقد كنت أستمتع بوقتي بالفعل، على الأقل إلى أن ذكرتني أختي أنه يجدر بي أن أكون حزينة. لعله كان أمراً في منتهى الأنانية مني أن أرغب في البقاء واستنشاق رائحة الملح على الفوشار، والاستماع إلى أصوات النهيق الصادرة عن الحظائر. غير أننا كنا في شهر نيسان، وأشجار الكرز التي تحيط بالبحيرات تزهر. كان بمقدوري إغماض عيني وسماع صوت مياه الينابيع وهي تتدفق، وفتحهما وتخيل أنني كنت في روما أو فيرساي. تضاءل حجم فوني بين الجموع، وتاهت تنورتها السوداء في صخب الألوان. كم وددت لو أدعها تذهب دون أن أكترث لرأيها بي أو لما ستقوله لوالدتي، لكنني لم أستطع. فألقيت نظرة مكتئبة على ما تبقى من كوز البوظة، ثم ألقيته في برميل النفايات وأنا أخطو مسرعة خلف أختي نحو المنزل، حيث كانت الستائر مسدلة والأنوار خافتة، وهي على هذه الحال منذ مدة. لقد كنا في حداد على والدي الذي توفي منذ شهرين.

كانت أسرتنا مضرب المثل للأسر حسنة الصيت، بسلالة تنحدر من المهاجرين من كلا الجانبين، والكثير من الأخلاق الفيكتورية التي تحرص على الحفاظ على السلامة والقدرة على حمل المسؤولية. كان جدي لوالدي هو مؤسس المكتبة العامة في سانت لويس، وشركة ريتشاردسون للأدوية والتي أضحت مقراً لأضخم الأعمال الصيدلانية في غرب الميسيسيبي. أما جدي لوالدتي فقد كان مدرساً أنشأ أكاديمية هيلسبورو في إيلينوي، ولاحقاً أسس مدرسة ثانوية خاصة في سانت لويس دعيت باسم سيتي يونيفيرسيتي. لقد ارتدت أنا وفوني أفضل المدارس

مرتديات التنانير الكحلية ذات الكسرات الحادة كحرف السكين. وتلقينا دروساً خاصة في البيانو على واحدة من آلتي البيانو الضخمتين من صنع ستاينواي، وأمضينا الصيف في إبسويتش - ماستشوسيتس في كوخ الشاطئ الخاص بنا. أمورنا كلها كانت على خير ما يرام إلى أن انقلب بنا الحال.

كان والدي جيمس ريتشاردسون مديراً تنفيذياً في شركة الدواء الخاصة بالعائلة. ينطلق صباحاً معتمراً قبعته، ومرتدياً ربطة عنقه الضيقة، وتفوح منه رائحة كريم الحلاقة وقهوة الصباح، وفي أثره يلوح شبح من الشراب. كان يحتفظ بقارورة في جيب ردائه المنزلي، وكنا جميعنا نعلم أن واحدة أخرى كانت مندسة في درج مكتبه في غرفة المكتب، وقد أقفل عليها بمفتاح فضي صغير. وأن هناك قارورة ثالثة قابعة بهدوء في انتظاره خلف مرطبانات الفاكهة المطهية في حجيرة المؤونة، تظاهرت طاهيتنا مارثا بأنها لا تراها. لقد حاول ألا يتواجد كثيراً في المنزل، وعندما كان يفعل ذلك كان دائماً هادئاً وشارد الذهن، ولكنه كان شديد اللطف أيضاً. والدتي فلورنس كانت على طرف النقيض معه تماماً. فقد كانت امرأة حادة المزاج، تطلق النصائح والأحكام على الدوام. ومن الممكن أن والدي كان يشعر باللين والجبن في حضورها، فبات ينزع إلى الاعتزال في غرفة المكتب، أو إلى مغادرة المنزل تجنباً للاحتكاك معها حول أي شأن كان، وأنا لا أخطّئه في ذلك.

لطالما فضلت والدتي فوني التي كانت تكبرني باثنين وعشرين شهراً. أما أخي الأكبر جيمي فقد ذهب إلى الجامعة قبل أن أدخل روضة الأطفال. وهناك أختي دوروثي التي تكبرني بأحد عشر عاماً، لكنها كانت قريبة جداً مني. وقد تزوجت في سن مبكرة وسكنت في الجوار مع زوجها دادلي. وبسبب التقارب بين عمرينا كانت فوني رفيقتي الأساسية، غير أننا كنا على طرفي النقيض تماماً في كل شيء. لقد كانت مطيعة ومرنة وحسنة الطباع على نحو يسهل على والدتي فهمه والثناء عليه. أما أنا فقد كنت عفوية وكثيرة الكلام وفضولية حيال كل شيء؛ أكثر بكثير مما كانت والدتي تستسيغ. كنت أحب الجلوس في بداية الممشى المؤدي إلى منزلنا مسندة مرفقي إلى ركبتي لأتفرج على السيارات في غدوها ورواحها على طول الجادة المحاذية، وأنا أتفكر في من يركبها من نساء أو رجال. أين كانوا

متجهين؟ فيم كانوا يفكرون؟ هل لاحظوني وأنا أتأملهم؟ كانت والـــدتي حينـــها تناديني لأعود إلى المنـــزل وترسلني إلى غرفة الأطفال. غير أنني هناك أيضاً كنـــت أقف قرب النافذة وأحدق إلى الخارج حالمة، متأملة.

كثيراً ما كانت تقول لي: "أي مجال عساك ستنفعين له؟ فأنت لا تســتطيعين إخراج رأسك من بين الغيوم!" باعتقادي، كان سؤالها مشروعاً تماماً لأنها لم تكن لتفهمني مقدار أنملة. ومن ثم وقع أمر مريع، فحين كنت في السادسة من عمـــري، قادتني الأحلام للوقوع من النافذة.

كان يوماً ربيعياً، وكنت أشعر بالحنين إلى المنـــزل وأنا قابعـــة في المنـــزل لمرض أقعدني عن الذهاب إلى المدرسة. وعندما شعرت بالملل في غرفة الأطفـــال، بدأت بمراقبة مايك، عامل التصليحات لدينا، وهو يدفع عربته اليدوية عبر الباحة. لقد كنت مولعة بمايك، وأجده ممتعاً أكثر من أي فرد آخر في أســـرتي؛ بصـــفيره، وبأظافره المربعة المحززة، ومحرمته الزرقاء فاقعة اللون التي تبرز من جيبه.

"ماذا تفعل يا مايك؟" سألته وأنا أتدلى من نافذة غرفة الأطفال مســتندة إلى حافة الشباك كي أراه على نحو أفضل.

وفي اللحظة التي رفع فيها رأسه لينظر إلي، فقدت توازني وسقطت مرتطمـــة بالأرض الصلبة.

أمضيت أشهراً ممدة على ظهري في المشفى، والأطباء يتساءلون عمّا إذا كنت سأتمكن من الوقوف والسير على قدمي مرة أخرى. تماثلت للشفاء ببطء، وفي تلك الأثناء جهزت لي والدتي عربة خاصة للأطفال صنعت خصيصاً لأجلي. وكانـــت تحب أن تدفعني وأنا جالسة فيها في أنحاء الحي، متوقفة عند كل منـــزل من منازل جيراننا كيما يتمكنوا من إبداء عجبهم ودهشتهم حيال نجاتي من ذلك الحادث.

"هادلي المسكينة، مسكينة هين" كلمات والدتي هذه التي ما فتئت ترددهـــا مرة تلو مرة تلو أخرى، باتت محفورة في ذهني كالنقش الذي محا كل ما عداه مـــن وصف لي، وكذلك أي نتيجة يمكن ارتجاؤها.

لم يبد مهماً كوني تعافيت تماماً وتعلمت المشي دون أي عرج. فقد كانـــت حالتي البدنية مصدر قلق كبير لمن في المنـــزل، وقد ظلت على ذاك الحال. حتى إن

أبسط عطاس عارض كان يمكن بنظرهم أن يسبب لي أذى أكبر لاحقاً. لم أتعلم السباحة، ولم أركض في الملعب كأصدقائي، بل استعضت عن ذلك كله بقراءة الكتب وأنا غارقة في الكنبة قرب النافذة في قاعة الاستقبال، وحولي دوامة من الكؤوس الزجاجية التي علتها البقع، ومحاطة بالستائر حمرية اللون. بعد فترة من الزمن، توقفت عن الصراع – حتى ضمنياً – ضد حالة الهدوء المفروضة علي. فالكتب يمكن أن تمثل مغامرة مذهلة، دفعتني إلى التحاف ملاءتي والركون تحتها دونما حركة تقريباً. ولم يكن من الممكن أن يلاحظ أحد كيف تتسارع الأفكار في ذهني ويحلق قلبي مع مختلف القصص. كان يمكنني أن أسبح في أي عالم يطيب لي دون أن يلاحظني أحد. في حين كانت والدتي مشغولة بإصدار الأوامر للخدم، واستقبال صديقاتها المنفرات في الغرفة الأمامية.

عندما كان والدي لا يزال على قيد الحياة، كثيراً ما كنت أراقبه عائداً إلى المنزل، بينما حلقة النساء لا تزال منعقدة في الغرفة الأمامية. فتجفله أصواتهن، ثم يتراجع إلى الخلف منسلاً عبر الباب. كنت أتساءل في سرّي: أين عساه يذهب؟ وكم يتوجب عليه أن يحتسي من الشراب ليهدّئ من صوت والدتي في رأسه؟ هل يذكر كم كان يحب دراجته الهوائية؟ أنا كنت أذكر. كان هناك وقت أحب فيه قيادة الدراجة إلى أي مكان في سانت لويس، مفضلاً إياها على أي وسيلة تنقل أخرى؛ على الأغلب بسبب الحرية التي كانت تشعره بها.

في إحدى المرات، علّق والدي عربة صغيرة في مؤخر دراجته الهوائية، ووضعنا أنا وفوني فيها، وسار عبر طرقات متنزه فوريست بارك وهو يغني "فالتسينغ ماتيلدا" كان يمتلك طبقة من الجهير الأول في صوته هي الأكثر جمالاً مما سمعته، ويومها حمل إلينا الهواء النغمات المنبعثة عنه وهي تنضح فرحاً بدا لي واقعياً وغريباً للغاية. وكنت يومها خائفة من أنني لو تحركت فقد أجفل تلك الفرحة فتهرب بعيداً.

وفي صباح بارد من صباحات شهر شباط، شقت طلقة واحدة الهدوء الذي كان مخيماً على المنزل. والدتي التي كانت أول من سمعها، تنبأت على الفور بالذي حدث. لكنها لم تسمح لنفسها بأن تفكر بكلمة *انتحار*، فذلك كان مريعاً

جداً ومبتذلاً جداً، لكنها مع ذلك كانت تتوقع أن ذلك ما حدث بالدرجة نفسها. فأسفل السلالم، وخلف أبواب غرفة مكتبه المغلقة، عثرت أمي على أبي مسجى على السجادة، وغارقاً في بركة من دمائه، وجمجمته قد تناثرت إلى شظايا.

مرت أسابيع والضوضاء التي خلفها موت والدي لم تخبُ. لقد علمنا أنه قد خسر عشرات الآلاف من الدولارات في سوق البورصة، فاستدان مبالغ أكبر ليعوّض الخسارة، غير أنه خسرها أيضاً. وعلى الرغم من أننا كنا نعلم أنه يداوم على احتساء الشراب، إلا أننا كنا نجهل أنه لم يفعل شيئاً سوى ذاك في الأسابيع الأخيرة من حياته، وقد أحاقت به آلام عاصفة في الرأس جعلت النوم بالنسبة إليه أمراً مستحيلاً.

بعد وفاته، اعتصمت والدتي في غرفتها وهي تبكي بحرقة، وتحدق في الستائر المسدلة، فيما تولت الخادمات إدارة شؤون المنزل. لم يسبق لي قط أن رأيت مثل تلك الفوضى تعصف بمنزلنا، ولم أدر ما كان في مقدوري القيام به حيالها سوى أن أعزف مقطوعات شوبان الموسيقية، وأبكي حزناً على والدي، متمنية لو أنني قد عرفته بشكل أفضل.

ظل باب غرفة مكتب والدي مغلقاً لفترة من الزمن، وإنما ليس موصداً. السجاد تم تنظيفه وليس استبداله. وكذلك المسدس، تم تلميعه وتفريغه من الطلقات ثم إعادته إلى مكانه في درج المكتب. وهذه التفاصيل في نظري كانت مروعة، فلم أملك إلا أن أنجذب للتفكير فيها. فرحت مرة تلو الأخرى أتخيل اللحظات الأخيرة من حياته، وكم شعر بوحدة شديدة، وباليأس، والموت الضمني؛ وإلا ما كان ليتمكن من الإقدام على فعلته بأن يضع فوهة المسدس على رأسه ويضغط الزناد.

بات مزاجي في الحضيض على نحو أثار مخاوف أهلي من أنني قد أؤذي نفسي. فالجميع يعرفون أن أولاد المنتحرين لديهم قابلية كبيرة لسلوك الطريق نفسه. ولكن، هل كنت مثله؟ لم أكن أدري، ولكنني ورثت عنه آلام الشقيقة المهلكة في الرأس؛ مثل كل منها هجمة تفتيش رسمية مقيتة انطوت على الشعور بضغط في صدغي والشعور بالغثيان، وما يشبه الضربات الإيقاعية المتواترة في مؤخر جمجمتي. كنت أعاني منها وأنا مستلقية تماماً بلا حراك في غرفتي عديمة

الهواء. فإن بقيت هناك مدة طويلة كفاية، فإن ذلك كفيل بأن يدفع والدتي إلى الدخول لتربت على يدي وتلف الغطاء حول قدمي قائلة: "أنت فتاة طيبة يا هادلي"

لم أستطع إلا أن ألاحظ كيف أن والدتي كانت تعاملني بعطف أكبر حينما أكون مريضة، لذا لم يكن من المفاجئ أنني غالباً ما كنت كذلك أو اعتقدت أنني كذلك. وبما أنني فوت الكثير من الحصص الدراسية علي وأنا في السنة الأولى في المدرسة بل والأخيرة كذلك، فقد اضطررت إلى البقاء عاماً إضافياً فيما غادرت رفيقاتي كلهن إلى الجامعة دوني. وكان الحال أشبه بمراقبة قطار وهو يغادر المحطة إلى مكان بعيد جداً ومثير جداً، دون أن أملك البطاقة اللازمة لصعودي إليه، ولا الوسيلة التي يمكنني من خلالها حيازة مثل تلك البطاقة. وعندما بدأت الرسائل تنهمر تباعاً من بارنارد وسميث وماونت هوليوك، شعرت فجأة بغيرة مرة تجتاحني من حماسة صديقاتي والفرص الواعدة التي بانتظارهن.

في أحد الأيام قلت لوالدتي: "أريد أن أتقدم بطلب إلى الجامعة في برين ماور خالتي ماري كانت تعيش في فيلادلفيا؛ الأمر الذي اعتقدت أنه سيسكن من مخاوف والدتي.

فكان جوابها: "أوه يا هادلي، لِمَ تصرين على تخطي حدود إمكانياتك؟ كوني واقعية يا ابنتي"

دخلت فوني الغرفة وجلست بمحاذاة والدتي لتدلي بدلوها في الحديث قائلة: "وماذا عن حالات الصداع التي تنتابك؟"

أجبتهما: "سأكون على خير ما يرام" فعقدت فوني حاجبيها مشككة.

"بإمكان ماري أن تعتني بي. تعرفين كم هي كفؤ" ركزت على كلمة كفؤ لأنها كانت ذات صدى إيجابي جداً لدى والدتي، وكثيراً ما اقتنعت بها. أما في تلك اللحظة فلم تزد على أنها تنهدت قائلة إنها ستفكر جدياً في الأمر. مما يعني أنها كانت ستتباحث في الأمر مع جارتنا السيدة كوران وستستعين بلوح الويجا الخاص بها.

لطالما كانت والدتي مهتمة بالماورائيات وترى السيدة كوران امرأة علاّمة فيها، وقد اعتادت التعامل مع لوح الويجا وباتت شديدة الإقناع في ذاك المجال.

يومها لم أدع لحضور الجلسة في منـــزل السيدة كوران، لكن والدتي أخبرتني لدى عودتها من تلك الجلسة أن بمقدوري الذهاب في نهاية الأمر إلى برين ماور، وأن كل شيء سيكون على خير ما يرام.

في ما بعد، توجب علي التشكيك في قدرات السيدة كوران لأنه تبدى زيفها وبشكل سافر بالنسبة لي. لقد غادرت المنـــزل فعلاً عام 1911، لكن تلك المغامرة برمتها كانت محكومة بالإخفاق قبل أن تبدأ. ففي الصيف الذي سبق مغادرتي إلى برين ماور وقعت أختي الكبرى دوروثي فريسة لحريق ضخم أدى إلى تأذيها بشكل كبير. وعلى الرغم من أن أختي لم تكن معي في المنـــزل أثناء شطر كبير من ســـني طفولتي، غير أنها مع ذلك كانت على الدوام الأكثر لطفاً والأكثر دعماً لي من بين أفراد أسرتنا. وقد شعرت بأنها تفهمني بطريقة لم يعرفها أي منهم أو حتى يكتـــرث لمعرفتها. وعندما كنت أشعر بأن الأجواء في المنـــزل باتت خانقة ومتوترة أكثر من قدرتي على احتمالها، كنت أتمشى إلى منـــزلها وأراقب ولديها الصـــغيرين وهمـــا يتعاركان حولها، فأشعر بالراحة والانتعاش من جديد.

كانت دوروثي في مرحلة متقدمة من حملها في ذلك الصيف. وقـــد كانـــت تمضي وقتاً طويلاً وحيدة في المنـــزل مع ولديها. وفي أحد الأيام، خرج ثلاثتـــهم ليمضوا ساعة الأصيل على الشرفة الأمامية للمنـــزل. عندها، رأت دوروثـــي أن ناراً قد اشتعلت في عدد من إطارات السيارات المكومة في الفسحة الخالية قـــرب منـــزلهم. أثارت الحادثة فضول الولدين، لكن دوروثي استشعرت الخطر، ولم ترد للنار أن تمتد إلى باحة منـــزلها، فركضت إلى مكان الحريق، وحاولت أن تطفـــئ النار بالدوس عليها بقدمها، غير أن ألسنة اللهب أمسكت بالكيمونو الصيفي الذي كانت ترتديه سريعاً، ولم يسلم جورباها الطويلان كذلك؛ مما أدى إلى إصـــابتها بحروق جسيمة امتدت حتى خصرها قبل أن تلقي بنفسها على الأرض وتتـــدحرج مما أدى إلى إخماد النيران.

عندما اتصل بنا زوجها دادلي ليخبرنا بما وقع، كنا في كوخنـــا الصـــيفي في خليج إبسويتش، فاعترانا قلق شديد على دوروثي، غير أن دادلي طمأننا بأنهـــا في المشفى وتحظى بأفضل رعاية ممكنة. ولكونها لم تكن تعاني من أي حمى فقد اعتقد الأطباء أنها ستتعافى بشكل كامل. وفي اليوم التالي، وضعت أختي مولـــودة ميتـــة؛

الأمر الذي كان له أثر مدمر عليها وعلى زوجها. ومع ذلك، ما فتئ الأطباء يؤكدون أنها ستنجو وتتعافى كلياً. وظلوا على هذا المنوال إلى اليوم الذي توفيت فيه بعد مضي ثمانية أيام على الحادثة. استقلت والدتي القطار عائدة لحضور الجنازة، في حين لزم بقيتنا إبسويتش مفطوري الفؤاد ومخدرين بفعل الصدمة.

أذكر أنني حينها شعرت بأنني لن أتمكن من تجاوز فجيعة فقدان دوروثي، ولعلي لم أكن راغبة في أن أفعل. عادت والدتي من سانت لويس مصطحبة دادلي والولدين معها. استقبلناهم في محطة القطار، وكانت أمارات الشقاء تعلو وجوههم. أي عزاء كان بمقدوري أن أمنحهم إيّاه! *الولدان بلا أم الآن*، هذا ما احتل أفكاري وما انفككت أردده في سرّي.

في عصر أحد الأيام، وبعيد الجنازة، هبت عاصفة هوجاء على خليج إبسويتش. أقنعت يومها أحد الصبية من الكوخ المجاور لنا بأخذي في نزهة على متن قارب تجذيف صغير. راحت الأمواج ترتطم بمقدمة القارب ثم تنتشر كالسياط على جانبه فتلسع وجهينا. لم أكن أعرف السباحة، لكنه لم يستدر عائداً حتى عندما أشار لنا قبطان المنارة بأن نعود. كانت الغيوم يومها منخفضة ورهيبة، والهواء رطباً ومالحاً. وانتابني شعور بأنني أغرق طيلة الوقت، مرة تلو مرة. وحتى عندما نجحنا بالعودة إلى الشاطئ في ذلك اليوم، فإن الإحساس بأنني لا أزال في خضم موج الخليج المتلاطم، أغرق فيه أعمق فأعمق، قد لازمني بقية ذلك الصيف، وحتى بعده بكثير.

في شهر أيلول، استقللت القطار متجهة إلى برين ماور كما كان مخططاً، غير أن زميلاتي في الكلية على ما يبدو كن يمشين وفقاً لجدول مختلف. فالفتيات في مهجعي كن يمضين فترات الأصيل في الصالونات وهنّ يحتسين الشاي والشوكولا الساخنة، ويتحدثن عن مهندسي الصوت في الحفلات، ومن يمكنهن أن يخرجن معهم. لقد شعرت أنني مستبعدة. كفتاة، كنت أعلم أنني جميلة بشعري الأحمر اللامع، وعينيّ الجميلتين، وبشرتي الصافية. لكنني الآن لم أعد أكترث على ما يبدو إن لحظني الشبان أم لا. لقد عزفت عن الاهتمام بمظهري وبواجباتي كذلك، وبدأت أرسب في الامتحانات؛ الأمر الذي كان مفاجئاً لي، وصَعُبَ علي تقبله نظراً إلى أنني على الرغم من غيابي المتكرر إلى حد مريع عن المدرسة، كنت طيلة

حياتي تلميذة مجتهدة ومتفوقة. أما الآن فقد ألفيت نفسي عاجزة عن استجماع أي قدرة على التركيز أو الانتباه أو حتى الاهتمام بأي شيء.

في الخريف التالي، تركت لوالدتي ولفوني الفرصة لكي تقنعاني بالبقاء في المنزل. ولا أستطيع القول إن الوضع هناك كان بالنسبة لي أفضل بأي شكل من تواجدي في الجامعة. لم يكن لدي وأنا في المنزل أي ملجأ أحتمي فيه من أفكاري المظلمة. لم أكن أستطيع النوم، وعندما كنت أفعل كنت أعاني من كوابيس رهيبة واستحواذية حول دوروثي ووالدي؛ مستعيدة اللحظات المروعة الأخيرة من حياتيهما؛ فأستيقظ ساعتها مذعورة في قلب ليل مدلهم يعدني بمزيد من الأيام والليالي الكئيبة. فإن قلت بأنني ظللت في هذه الغيبوبة في الأعوام الثمانية القادمة، فستفهمون كم كنت مستعدة لأن أنطلق إلى الحياة في الوقت الذي بدأت حياة والدتي تذوي فيه.

كانت والدتي مريضة بمرض برايت لسنوات عديدة، لكن حالتها ساءت على نحو متسارع في صيف عام 1920. خلال الأسابيع الأكثر حرارة في شهري تموز وآب، كنت نادراً ما أغادر الشقة في الطابق العلوي، وإن فعلت فإن قلقها لم يكن ليعرف حدوداً.

"إليزابيث؟ أهذه أنت؟" ينبعث صوتها ضعيفاً ما إن تسمع صوت وقع قدمَيّ على السلم. لست متأكدة من السبب الذي دفعها إلى استخدام اسمي الأول بعد تلك السنوات كلها، غير أن الكثير مما كان يتعلق بها كان يسبب لي الحيرة في ذلك الحين. لم تكن تشبه في شيء تلك المرأة الصلبة صعبة المراس التي كانت لها القدرة على إلغاء وجودي بكلمة منها. لقد باتت سهلة الانقياد، وشديدة التوتر والارتباك وهي تناديني ثانية لأهرع مرتقية السلالم إلى الأعلى: *"إليزابيث؟"*

"أنا هنا يا أماه" دخلت الغرفة الرئيسة حيث كانت تستريح على الأريكة الزهرية المخملية، ووضعت أكياس التسوق من يدي، وفككت قبعتي وأنا أسألها: "هل تشعرين بالحر؟ أأفتح لك النافذة؟"

فأجابتني: "وهل الجو حار؟" غاصت يداها في البطانية الملونة التي كانت تغطي حجرها، "إنني أشعر بالبرودة تسري في عظامي

فسحبت كرسياً إلى جوار أريكتها، وجلست عليه، وأمسكت بيديها ورحت أفركهما بلطف كي أحرك الدم فيهما. لكن، في كل مكان لمسته منهما كانت أصابعي تترك أثراً؛ كما لو كان جلدها عجينة خبز. فأفلتها ورحت أئن قائلة:

"ماذا بمقدوري أن أفعل من أجلك يا أمي؟"

"أحضري أختك. إنني بحاجة إلى فوني بجواري الآن" أومأت برأسي مطيعة، ونهضت لأذهب، فاتسعت عيناها خوفاً وهتفت بي: "لا تذهبي، أرجوك لا تتركيني" فجلست مجدداً، وظل الأمر على هذا المنوال طوال تلك الليلة الطويلة. تناولت والدتي بعض الحساء، ونامت نوماً خفيفاً لبضع ساعات. ومن ثم، قرابة منتصف الليل، سكنت فجأة والتفتت إلي تسألني: "إنني قلقة عليك كثيراً إليزابيث. ما الذي سيحل بك من بعدي؟"

"إنني امرأة ناضجة يا أمي. سأكون على ما يرام. أعدك"

هزت رأسها نافية وهي تقول: "لا. قبل عدة سنوات تحدثت أنا والسيدة كوران عنك" باتت أنفاس والدتي مجهدة، و لم أرغب برؤيتها تناضل على هذا النحو فقاطعتها برفق قائلة: "ليس هذا مهماً يا أمي

"بل إنه كذلك. لقد سألتها عنك غير أنه لم يكن لديها ما تقوله"

لطالما كنت شكاكة حيال لوح الويجا، واللقاءات المنعقدة في ضوء الشموع لكنني حينها شعرت بقشعريرة تسري في جسمي. لقد أرعبتني فكرة أن تكون السيدة كوران قد توقعت لي مستقبلاً مؤلماً، ولكن لم يكن هناك سبيل للتيقن منها. لم أستطع الطلب إلى أمي أن تفصّل أكثر عما جرى في تلك الجلسة؛ فقد كانت مجهدة ومتوترة أكثر من أي وقت مضى. كما أنني لم أكن واثقة من رغبتي في معرفة ما تود إخباري به.

أمضيت تلك الليلة من شهر آب جالسة على الكرسي مستقيم الظهر إلى جوار أريكة والدتي، وأنا أمسح وجهها وعنقها بقماشة رطبة، وأسرح ببصري في تلك الليلة الصيفية الحارة، بسمائها المظلمة وأشجارها الأشد ظلمة. فكل شيء فيها كان يبدو كمعروضات بعيدة المنال في متحف ما. وقد عرفت حينها أنه يمكن أن أموت أنا أيضاً في هذه الغرفة. كان ذاك أحد السيناريوهات التي يمكن لحياتي أن تسير وفقها.

وبعد ساعات، قرابة الفجر، توفيت والدتي دون أن تصدر عنها أي تنهيدة، أو جلبة، أو أنفاس متحشرجة. لكم كان موتها مختلفاً عن موت والدي - بمسدسه الذي هزت رصاصته المنطلقة الأبواب في عضاداتها - إنما المحصلة هي ذاتها في الحالتين. وبينما كان الجميع نائمين في الطابق السفلي، تأملت الوجه الذي كرهته أحياناً، وشعرت بالأسى لأجل صاحبته أحياناً أخرى. كانت يداها على جانبي جسدها الهزيل. مرّرت يدي على إحداهما وأنا أشعر بمشاعر حب معقدة ومريعة تجاهها، ثم نزلت إلى الأسفل لأوقظ فوني وزوجها رولاند وأطلب إليهما أن يحضرا الطبيب. تناولت بعدها الفطور وأخذت حماماً، ثم جلست مع فوني في غرفة الاستقبال نتباحث في أمر الجنازة. كان جسد والدتي لا يزال مسجى في الأعلى بانتظار المحقق في أسباب الوفيات. ومع ذلك، ما انفككت أحس بوجودها حولنا وهي تمارس ضغطها علي. لطالما شعرت بأنها كانت تستمد متعة من الهدوء المقيت المخيم على حياتي، وكأنني بذلك سأغدو تماماً على الشاكلة التي رسمتها لي في ذهنها؛ وهي تقريباً لا شيء على الإطلاق. لقد كانت القوة التي تجذبني في ذاك الاتجاه هائلة، وكنت أعلم أنني يمكن أن أستسلم لها بسهولة، لأهوي في العدم، أو كان بمقدوري أن أدفع بكل ما أوتيت من قوة بالاتجاه الآخر تماماً لأخرج منها.

الفصل الخامس

"أكل شيء على ما يرام يا آنستي؟" سألني سائق سيارة الأجرة.

فأجبته: "ينبغي أن يكون كذلك"

إذاً، عدت إلى سانت لويس بعد يوم طويل على متن القطار، ومما زاد في وطأة الشعور الذي لازمني أنني قد أخفقت في أمر ما في شيكاغو. فها أنذا قد عدت مجدداً إلى منزل فوني ورولاند في جادة كيتس أفينيو. وكل ما كان باستطاعتي فعله هو أن أنقد الرجل أجرته وأترجل من السيارة.

كان الهواء رطباً وبارداً. وبينما سار السائق خلفي ليضع حقائبي على الشرفة الأمامية، سمع لوقع أقدامنا صوت أجوف على البلاط الحجري. وفي الداخل، ألقيت متاعي في أسفل السلالم، ثم صعدت إلى شقتي في الطابق العلوي فألفيتها باردة وتوحي بأن لا أحد يسكن فيها. وعلى الرغم من أن الوقت كان متأخراً وكنت منهكة، فقد أشعلت مصابيح النور أولاً، ومن ثم ناراً تبعث الدفء في جسدي. جلست على الأريكة الزهرية، وعقدت ذراعيَّ حول صدري وصولاً إلى كتفي، وتساءلت عمّا إذا كان هناك جزء من والدتي لا يزال هائماً في الغرفة، متدثراً بالبطانية الملونة ربما، وينظر إلي في كمد وإشفاق مردداً: *"المسكينة هادلي، هاش المسكينة"*

في صباح اليوم التالي، استغرقت في النوم لمدة أطول من المعتاد، وعندما نزلت إلى الأسفل وجدت فوني بانتظاري في غرفة الطعام. وحين رأتني بادرتني قائلة: "إذاً؟ أريد أن أستمع إلى كل ما مررت به. ماذا فعلت؟ وأي الأشخاص التقيت؟"

أخبرتها كل شيء عن الحفلات والألعاب والأشخاص المثيرين للاهتمام الذين التقيتهم في شقة كينلي، لكنني أغفلت ذكر إيرنست. فماذا كان في جعبتي عنه لأخبرها به؟ فأنا لم أكن متأكدة من طبيعة علاقتنا حتى كصديقين.

وبينما كنت وفوني نتحدث، دخل رولاند الغرفة وهو يزرر كُمَّي قميصه وقد لفته غمامة من رائحة الصابون والصنوبر المنبعثة من مستحضرات تقوية الشعر التي يستعملها. جلس إلى المائدة، فما كان من فوني إلا أن أزاحت كرسيها برقة مبعدة إياه عن كرسيه على نحو تتفادى معه رؤيته وهو يأكل. هذا ما وصل إليه زواجهما في تلك المرحلة. كان زواجاً كارثياً على الدوام، وقد جعلني أشعر بالأسى عليهما معاً.

قال لي رولاند: "حسناً، هل كانت بلدة تشي كما كنت تتخيلينها؟"

فهززت رأسي وأنا أمد المربى على قطعة التوست أمامي.

"وهل اكتسبت عشرات العشاق الجدد هناك؟"

ند عن فوني صوت تأفف يكاد يكون غير مسموع، لكنها لم تعلق بشيء.

أجبته: "لن أقوال العشرات"

"حسناً، لا بد أنك قد حزت على واحد على الأقل. فهذه الرسالة وصلت باسمك اليوم" وسحب من جيب بزته مغلفاً مصنوعاً يدوياً ومغضن الشكل، وناولني إياه مبتسماً: "هاكِ، لقد كتب عليه: تسليم خاص. لا بد أن الأمر جدي"

فسألت فوني: "وما هذا؟"

فرددت بافتتان: "تسليم خاص كان اسم إيرنست مخربشاً على المغلف، ولكنه واضح كفاية بالنسبة لي. لا بد أنه قد أرسله بالبريد بمجرد أن وضعني في القطار، دافعاً عشرة سنتات زيادة ليضمن وصوله السريع. *سأكتب لك، سأراسلك*. وتلمست المغلف بأصابعي شاعرة بالرهبة من فتحه.

سألني رولاند: "ما اسم فتاكِ؟"

"لم أكن لأدعوه فتاي. لكن اسمه هو إيرنست هيمنغواي"

علقت فوني: "هيمنغواي؟ أي اسم هو هذا؟"

فأجبتها: "ليست لدي أي فكرة" وحملت الرسالة وخرجت بها من الغرفة لأفتحها. لقد كانت مثنية ومجعدة كما لو أنها أمضت أياماً في جيبه. وقد أغرمت بالفكرة؛ أياً كان ما كتب في الرسالة. عثرت على زاوية هادئة في غرفة الجلوس قرب البيانو الخاص بي وفتحتها، فوجدت الصفحات في داخلها مثنية ومشعثة أيضاً، وقد خربشت عليها الكلمات بحبر غامق.

عزيزتي هاسوفيتش، لقد بت الآن على متن القطار، وأنا موجود هنا، وكل ما حولي أضحى أكثر خواء بعد رحيلك. اخبريني، هل كنت حقيقة؟

وضعت الرسالة من يدي لأنني لم أستطع احتمال الشعور الذي زحف إلى عقلي: هل كنت حقيقة؟ لقد انتابني التساؤل ذاته حياله، وقد كنت محقة في ذلك أكثر منه؛ خصوصاً بعد تحذيرات كيت. لقد كنت حقيقية، وبصلابة الأرض التي مشى عليها، بل وصلبة أكثر من اللازم ربما. ولكن، ماذا عنه؟ إن اهتمامه بي لم يتداع للحظة أثناء تواجدي هناك، غير أن ذلك لا يعني أنه امرؤ يمكن الاعتماد عليه. بل فقط أنه على الأرجح قد رآني امرأة تستحق التعقب في الوقت الراهن.

الحقيقة أنني لم أكن أدري أي فكرة يجب أن أكونها عنه، فتابعت القراءة ملتهمة ما جاء في الرسالة التهاماً؛ عن كل ما كان يستفيض في الحديث عنه، وعما يفعله حالياً، وما يود فعله، وعن عمله وأفكاره. قال إن هناك فرصة عمل له في مجلة شهرية تدعى ذا كوابريتف كومنويلث، في حال وافق على تولي الأمور كلها بنفسه، كأن يكون كاتباً ومراسلاً ومحرراً، وكل شيء آخر من الألف إلى الياء. *لست معجباً جداً بالشروط، لكنني على الأرجح سأقبل بها*. على الرغم من اللغو الذي كان رأسي يضج به حول إيرنست، غير أنني لم أستطع منع نفسي من الإعجاب بصوته وحيويته، وكيف أن كلماته على الورق تبدو تماماً أنها تندّ عن إيرنست الذي لم يألُ جهداً في ابتداع أي سبب ليظهر فجأة في غرفتي في شيكاغو. فحروفه فعلت الشيء ذاته الآن، مستحضرة إيرنست إلى غرفة الجلوس التي كانت قبل هنيهة معتمة وتفتقر إلى الهواء.

دخلت فوني الغرفة بتنورتها الكئيبة الصوفية التي تصدر حفيفاً قائلة:

"إذاً، ماذا يقول؟"

"لا شيء غير اعتيادي" وطبعاً كنت بذلك أكذب عليها لأن كل شيء يتعلق بإيرنست هيمنغواي كان غير اعتيادي.

"حسناً، إنه لمن اللطيف أن تحصلي على أصدقاء جدد على أي حال. إنني سعيدة لأنك عثرت على مصدر طيب للإلهاء" ثم جلست متناولة شغل الدانتيل الخاص بها.

قلت لها متسائلة: "هل أنت كذلك؟"

فهتفت: "بالطبع. أنا أريدك أن تكوني سعيدة"

على الأغلب، كانت صادقة في قولها، إنما فقط إذا كانت السعادة تعني أن أمضي حياتي حبيسة الطابق العلوي كالخالة العانس الوحيدة.

قلت لها: "شكراً يا فوني" ثم نهضت مستأذنة للذهاب إلى حجرتي حيث بدأت على الفور بكتابة الرد له. لم أشأ أن أكون شديدة الحماسة، و لم أرغب في أن يحمل خطابي معاني أكبر مما سأسطره فيه، غير أنني ألفيت نفسي أحب الكتابة له. لقد جعلت جوابي يستغرق طيلة اليوم، مدونة أحداثه كما وقعت. لقد أردت له أن يكون قادراً على تصوري وأنا أنتقل من غرفة إلى أخرى، وأتدرب على البيانو، وأحتسي كوباً من شاي الزنجبيل الرائع مع صديقتي أليس هانت، ثم أراقب بستانيّنا وهو يشذب شجيرات الورد ويلفها بالخيش استعداداً للشتاء. *أشعر بالشوق للبحيرة الليلة، والكثير من الأشياء الأخرى. هل تريد أن تلتقيني في المطبخ لندخن معاً؟*

كانت والدتي تحتفظ بصورة لي وأنا ببزة السباحة وغاطسة لركبتيّ في نهر الميراميك مع أليس، وقد غمرتنا السعادة وأشعة الشمس معاً.

إن هذه النسخة من هادلي نادراً ما طفت على السطح في هذه الأيام. وعلى الرغم من حقيقة الأمر، إلا أنني فكرت في أن إيرنست سيعجب بوجهها المشرق والابتسامة التي توحي بتقبّل كل شيء. فدسست الصورة في المغلف إلى جوار رسالتي له. وقبل أن أمنح نفسي الفرصة للتردد وإعادة التفكير في الأمر، سرت حتى نهاية الشارع؛ إلى صندوق البريد المنتصب في الزاوية. كان الليل قد أرخى سدوله. وأثناء مسيري إلى صندوق البريد، أرسلت نظري إلى داخل المنازل، فبدت لي ككرات متوهجة. كل شيء كان يلمع على نحو ضعيف. ولدقيقة، استطعت أن أتخيل النور وهو يمسح المسافة ما بين سانت لويس وشيكاغو مغطياً حقول الذرة والحظائر. لدى وصولي إلى حيث يتواجد الصندوق، أمسكت برسالتي بين أصابعي، وقبلتها بصورة عفوية، ثم دفعتها إلى داخل الصندوق لتذهب في سبيلها.

الفصل السادس

لدي الكثير من المشاريع المتعلقة بالكتابة؛ الكثير مما أود رؤيته والشعور بـه. قولي لي، هل تذكرين تلك المرة التي كنت فيها تعزفين على البيانو وشعرك يـتلألأ على كتفيك، وكيف أقبلت عليّ وأنا جالس على الأريكة وقلت لي: "هل تفهمني يا بيغونيا؟"

هل تفهمينني يا هاش؟

هلاّ تأتين إلي الآن من فورك وتنفحينني شيئاً من ذاك اليقين الـذي جبلـت عليه.

لقد انهالت عليّ رسائله مسحوقة ومخنوقة المعاني، ولكنها تنضح عذوبة. وقد وصلت إليّ رسالتان أو ثلاث أحياناً في اليوم. حاولت في بادئ الأمـر أن أكـون أكثر تحفظاً، وآليت على نفسي أن أكاتبه مرّتين فقط في الأسبوع، لكنـه وعـدٌ سرعان ما ذرته الرياح. و لم يمض وقت طويل حتى ألفيت نفسي أسيرة ميثاق غليظ بأن أتواصل معه. فراحت الرسائل تطوي المسافات ذهاباً وإياباً بيننا. إنمـا، مـاذا كانت تعني؟ في كثير من الأحيان، كان صوت كيت يضج في رأسي وهي تقـول: "*إنه يحب النساء، جميع النساء كما هو واضح*" وقد فكرت ملياً في ما إذا كـان يجدر بـي إخبارها بالمدى الذي وصلت إليه صداقتنا، فلم أستطع تخيلها إلاّ وهي تشعر بالإساءة أو الغضب. فقد كنت بشكل سـافر ومقصـود أتعمـد تجاهـل نصيحتها. لكنني من ناحية أخرى، إن اعترفت لها بكل شيء فربما ستتحفني بالمزيد من نصائحها، وسيتوجب علي عندها الإصغاء إليها، بل وربما الإذعان لها.

لقد كنت ممزقة ما بين الرغبة بمعرفة ما إذا كنت أستطيع الوثوق بإيرنسـت، وبين أماني بأن أبقى عمياء لدرجة تحفظ الأمور تماماً على ما هـي عليـه بيننـا.

فكلماته حملت لي الكثير من المعاني مسبقاً، بل وأكثر مما ينبغي. فكل واحدة من رسائله كانت بمثابة مقوٍّ مثاليٍّ لي، والكتابة له كذلك كانت منشّطة. وقبل أن تمضي فترة طويلة أدركت أنه بات بمقدوري تمييز صوت ساعي البريد على دراجته الهوائية من مسافة عدة أبنية، وحتى إن لم يرنّ جرسها. قلت لنفسي إن كيت لا تعرف كل شيء عن إيرنست. وأنّى لأيّ كان أن يعرف كل شيء عن أي شخص آخر؟ فهناك صفات لديه أخذت تتكشف تدريجياً في ثنايا رسائله؛ كالحنان والدفء المحسوس اللذين ربما لم تُتَح لها فرصة رؤيتهما على الإطلاق طيلة فترات الصيف تلك التي أمضياها في ميشيغان.

كان ذلك ممكنا بل وشبه حتمي، إذ إن السعادة التي تمخضت عن اهتمام إيرنست بي قد سالت على كل جانب من جوانب حياتي. فقد أصبحت فجأة أكثر انشغالاً ورضاً بتواجدي في المنزل؛ أكثر من أي وقت مضى. كذلك انتقلت صديقتاي - وهما بيرثا دون وروث برادفيلد - لتقيما معي في الشقة العلوية كطالبتين داخليتين، فشعرت وللمرة الأولى منذ عقد من الزمن أنني لست وحيدة في منزلي الخاص. كذلك كان هناك عدد من الشبان الذين أبدوا اهتمامهم بي. وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا استثنائيين، إلاّ أنهم شكلوا تسلية لطيفة بالنسبة لي. لقد سمحت لهم باصطحابي إلى حفلات للرقص أو المسرح، حتى إنني أتحت لقلة منهم الفرصة لتقبيلي قبلة الوداع. لم يملك أي منهم رأس إيرنست الكبير مربع الشكل، أو يديه وقدميه. ولم يطرح أي منهم أسئلته الرائعة، أو حدا بي لأن أرغب بقول: *هل تفهمني يا بيغونيا؟*

واظبت على ذلك المنوال في الخروج تقريباً مع أي شخص يدعوني، لأن إيرنست الغالي على روحي كان شخصية افتراضية - نظرية عذبة - ويبعد عني مئات الأميال. أما في سانت لويس حيث قدر لي أن أعيش حياتي الواقعية، فقد كان هناك ديك بيرس، أخ إحدى صديقاتي المقربات. أحببت رفقته، وكنت أعلم أنني إن شجّعته فسيقع في غرامي، بل وسيتقدّم لخطبتي، لكن مشاعري تجاهه كانت في الحدود الدنيا؛ إن لم أقل معدومة. أيضاً كان هناك بيير رولاند، الشاب الأشعث على نحو محبب الذي كان يلم بالكثير من المعارف عن الكتب والموسيقى. غير أن المواعيد الغرامية لم تجذبني بقدر ما فعل انحشارنا كمجموعة في سيارة أحدهم، ثم

الذهاب لمشاهدة فيلم في البلدة، أو الذهاب إلى حفلة راقصة ترى الجميع فيها سعداء وعلى سجيتهم. وبعد عودتنا، كنا نسهر أنا وبيرثا وروث بأثواب النوم لنستعيد معاً أحداث أمسيتنا.

كنت قد بلغت لتوي التاسعة والعشرين من العمر، لكنني شعرت بطريقة ما أنني أصغر سناً من ذلك، ولا أحمل همّاً كما كنت في سنتي الأولى في برين ماير، حيث لم أستطع وقتها الاستمتاع بأدنى قدر من السعادة أو الحميمية. لقد كان الأمر كما لو أنني أختبر انبثاقاً لذاتي تأخر طويلاً، وكنت ممتنة ومقدرة لكل ثانية تمر عليّ فيه.

ثم كانت هناك الرسائل التي تصل تباعاً وبصورة يومية من شيكاغو؛ دائماً مغضنة على نحو محبب وجميل، ومليئة بالأخبار. لقد حكى لي إيرنست عن كل ما يتعلق بمقالاته في *كومونولث*، وعرض عليّ أفكاره عن المسوّدات ومن ثم الروايات التي ينوي كتابتها. لكنه وعلى نحو متزايد كان يشركني بقصص عن نشأته، وعن شهور الصيف الطويلة التي أمضاها في ميشيغان مع والده إيد الذي كان يعمل طبيباً مولّداً، وكان ذا نزعة طبيعية للصيد والتخييم. لقد علمه والده كيف يوقد النار ويطهو في الأماكن المفتوحة، وكيف يستخدم الفأس، وكيف يصطاد السمك ويتبله ويطهوه، ويصطاد سنجاباً، وطائر الذيّال، وطائر الحجل.

كتب إيرنست يقول: *كلما فكرت في والدي رأيته في الغابة يطيّر جمعاً من طيور الزمار الرمل، أو يسير على الحشائش اليابسة أو بين أعواد الذرة، أو وهو يقطع الخشب والصقيع يكسو لحيته.*

قرأت كلماته وقد ترقرق الدمع في عيني لتذكري والدي، وتفكيري في اللحظات القليلة الحانية التي حظيت بها معه لأتذكرها بقية حياتي. فعندما أفكر فيه تنحصر ذكرياتي بمسدسه والصوت المجلجل الذي ولده في المنزل عندما انطلق. لقد هزني إلى الأعماق تذكر كيفية وفاته، والطريقة التي اعتدت أن أحملق فيها بألم في الفراغ وأنا أتخيلها؛ إلى حد احتجت معه إلى أن أمشي مرتين حول البناء على الرغم من الرياح قارسة البرودة، قبل أن أهدأ كفاية لأتم قراءة رسالة إيرنست.

لكنني إن كنت قد شعرت بالغيرة من علاقته مع والده فإن علاقته بوالدته كانت مزعجة في نواحٍ أخرى. ففي كل مرة كان يأتي فيها على ذكرها كان يشير

إليها بقوله: *تلك السافلة*. وقد وصفها أنها متسلطة إلى أبعد الحدود في ما يتعلق بأمور المنزل، وسريعة الانتقاد، ولا يمكن ثنيها عن آرائها في ما يتعلق بالطريقة التي يجب أن تسير وفقها الحياة؛ حتى بأدق تفاصيلها. فقبل أن يتعلم القراءة، دفعته والدته لأن يحفظ عبارات وأبياتاً من أمهات الشعر الألماني واللاتيني. وعلى الرغم من محاولته احترام روحها المبدعة - لكونها كانت مغنية أوبرا وترسم قليلاً وتكتب الشعر - إلا أنه تشكّلت لديه مع الزمن القناعة بأنها امرأة وأم أنانية؛ تصر على تحقيق حاجاتها الخاصة دائماً، مخاطرة بتدمير كل من حولها، وبشكل خاص زوجها. فقد أرغمت الدكتور هيمنغواي على الاستسلام لرغباتها كلها؛ مما دفع إيرنست إلى مقتها.

على الرغم من أن نبذ إيرنست المتقد لوالدته قد أثار حفيظتي، إلا أنني لم أستطع إلا أن أفكر في التماثل في علاقة كل من والدينا ببعضهما، ووجدته أمراً عجيباً. ولكن، ما كان له أثر الصدمة في نفسي هو أنني بالرغم من مقتي لإرادة والدتي التي لا تقهر، وبالرغم من أنني في كثير من الأحيان لمتها ضمناً على انتحار والدي، إلا أنني لم أعمد إلى الإفضاء بمشاعري تلك لمخلوق، بل تركتها تستشيط غضباً في داخلي وتعكر عليّ صفو حياتي. وحتى في المناسبات القليلة التي طفت فيها تلك المشاعر إلى السطح، كنت أسارع إلى دفنها بصرخاتي في أعماق وسادتي الريشية. أما إيرنست فقد أفصح عن غضبه بكل حرية. فأي من ردتَيْ فعلنا مرعبة أكثر من الأخرى؟

في النهاية، شعرت بأن احترامي له قد تعاظم نتيجة للطريقة التي استطاع فيها التعبير حتى عن أسوأ ما يختلج في نفسه، وقد جذبتني إليه أكثر فأكثر. بت أترقب رسائل إيرنست أكثر من أي رسائل أخرى. لكنني سرعان ما أدركت أن صراحته معي كانت تنطبق على إخباره إياي عن كل شيء آخر في حياته. ففي أوائل شهر كانون الأول، وقبل ذكرى مولدي بفترة بسيطة، كتب لي أنه في الليلة الفائتة قد شعر بانجذاب نحو فتاة ترتدي فستاناً أخضر براقاً في إحدى الحفلات. كم أسقمتني قراءة ذلك الخبر. فأنا لم أملك فستاناً أخضر براقاً مطلقاً. وحتى لو فعلت فما كان ليراه. لقد كان يبعد عني مئات الأميال، وتستغرقه تفاصيل أيامه ولياليه هناك. لقد كنا صديقين، أجل، وكنا نأتمن بعضنا على أسرارنا، لكنه لم يكن مديناً لي بأي

شيء. فهو لم يقطع لي وعداً بشيء، ولا حتى وعداً زائفاً. وكان بمقدوره أن يتبع ذاك الفستان الأخضر كالسيرانة* حتى وسط البحيرة لو أراد. ولم يكن لي أي سلطان عليه.

في الحقيقة، لم يكن لأحد سلطان على أي شخص آخر. كان ذلك سائداً في ذلك الزمان. لقد كنا جميعاً الآن على الحافة من كل شيء؛ نتفجر شباباً ووعوداً وشيئاً من رجفة غناء الجاز الذي تلهج به ألسنتنا. في السنة الفائتة، لعب أوليفر توماس دور البطولة في فيلم *ذا فلابر*. وفجأة، باتت تلك المفردة التي تعني *المرأة التي لا تراعي الأعراف*، تشير إلى الجاز وتنتشر على نحو يشبه حركاته. فقد ألقت الفتيات في كل مكان بمشدات الخصر بعيداً، وقصّرن فساتينهن، وظللن أعينهن وشفاههن بألوان غامقة. رحنا نستخدم تعبيرات من قبيل: "بيجامات القطة، وأنا أقول، وهذا قوي" شبان عام 1921 وشاباته كانوا يعبرون عن كل شيء؛ وهذا تماماً ما كان يثير زوابع قلقي. لقد كنت في التاسعة والعشرين وأشعر أنني من العهد البائد، وإيرنست في الحادية والعشرين ومفعماً بالحياة، فيم كنت أفكر؟

"لعلي لست على مستوى هذه اللعبة" قلت لصديقتي روث بعد أن تلقيت رسالة إيرنست حول سيرانته. كانت بيرثا خارج المنزل، وأنا وروث نعد العشاء معاً، ونتحرك بانسيابية حول بعضنا في المطبخ الصغير، نعد الفاصولياء ونغلي الماء للسباجيتي؛ كما لو كنا عمتين عانسين اعتادتا على فعل ذلك معاً لعقود.

فأجابتني روث وهي ترش شيئاً من الملح فوق كتفها لأجل الحظ: "لست واثقة بأن أياً منا كذلك" كانت تملك يدين قويتين على نحو رائع، وألفيت نفسي أراقبهما وأتمنى لو كان باستطاعتي أن أكون مثلها. واستدارت لتواجهني وتسدد إلي ابتسامة ساحرة وهي تقول: "إنما، ماذا هناك بانتظارنا أيضاً؟ لو أننا استسلمنا الآن فسينتهي أمرنا"

"لعلي سأزحف تحت سريري وأختبئ هناك، ولن أخرج إلا وأنا عجوز هرمة مرتعشة وغير قادرة على تذكر مشاعري تجاه أي أحد"

فهزت رأسها قائلة: "أنت تريدين ذلك لكنك لن تفعلي

---

* السيرانة: واحدة من مجموعة كائنات أسطورية (عند الإغريق) لها رؤوس نسوة وأجساد طيور، كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك.

"لا لن أفعل   ودرت حول الطاولة الصغيرة وأنا أضع الأطبـــاق والملعقـــتين الفضيتين وأعد منديلين للاستخدام. "سأحاول كل ما بوسعي كي لا أفعل

كنت أتوق للعودة إلى شيكاغو لأرى الغرفة الكبيرة القديمة التي ســـكنتها في منـــزل كينلي، والبيانو، والأريكة، والسجادة وقد أزيحت بعيداً لتفســـح المجـــال لشخصين للرقص. أردت أن أنظر إلى عينين بنيتين صافيتين إلى حـــدٍّ مســـتحيل، وأتكهن ما يفكر فيه ذلك الشاب الوسيم. أردت أن أضمه وأن يضمني هو بدوره.

في منتصف شهر كانون الثاني، أعددت وصديقتي ليتيشيا باركر خطة توصلني إلى هناك. سننـــزل فيها في فندق لمدة أسبوع، وسنقوم بالتسوق طوال الوقـــت، وسيتسنى لي رؤية إيرنست ما طاب لي ذلك. ولكن هيهات، فقبل يومين من موعد مغادرتنا اتصلت بـــي ليتيشيا لتلغي المشروع؛ فوالدها مريضة، وما كـــان لهـــا أن تتركها كل تلك المدة. قلت لها إنني أتفهم الموقف، وفي الواقع لقد فعلت. فوالدتي وقعت فريسة المرض لشهور عدة، وكنت على دراية واسعة بما تتطلبه العناية بالأم في مثل هذا الموقف، لكنني مع ذلك شعرت بإحباط ساحق. فقد تهيّأنا لذلك منـــذ عدة أسابيع، وكان إيرنست سيلتقينا في محطة القطار، وتلك اللحظة وحدها قـــد أعملت فيها مخيلتي مئات المرات أو أكثر.

"ماذا الآن؟" قلت لروث في وقت لاحق من ذلك اليوم.

فقالت لي: "اذهبـــي

"بمفردي؟"

"ولم لا؟ لسنا في العصور المظلمة كما تعلمين. ألم تذهبـــي وحدك في المـــرة الماضية؟"

"أجل ولكنني كنت غير مرتبطة حينها. ستكره فوني الفكرة"

"وهذا سبب إضافي يدفعك للذهاب" قالت روث باسمة.

غادرت في المساء متجهة إلى شيكاغو. أوصلني رولاند إلى محطة القطـــار في الجزء الشمالي من سانت لويس بسيارته البيجو الجديـــدة ذات البـــابين واللـــون الأخضر الفاقع، والتي كان شديد الزهو بها. لعلها أيضاً كانـــت تشـــعره أكثـــر برجولته؛ مما كاد يصيب فوني بسكتة قلبية من شدة القلق والتوتر. كنـــت أحـــب رولاند، وإنما آسف لأجله في الوقت ذاته. فوضعه كان يشبه وضع والدي إلى حد

بعيد. كان يسترق النظر فقط عندما تسمح له فوني بذلك؛ لكم كان ذلك وضعاً مثيراً للشفقة. ومع ذلك، كان بمقدوره أن يكون شخصاً ساحراً كما يروى في الكتب، ومملوء الجعبة بالتبريرات. كنت أشعر بأنه حليفي في المنزل، وأتمنى أنه كان يشعر مثلي تماماً. كان بمقدور رولاند أن يضعني عند الحاجز ويكمل طريقه، لكنه لم يكتف بذلك، بل ركن السيارة وحمل حقائبي إلى أن أودعها لدى مستخدم القطار. ومن ثم وأثناء توديعه لي، أمال رأسه جانباً في واحدة من أكثر حركاته اللا إرادية المزعجة والمحببة معاً، وقال: "تبدين جميلة يا هادلي"

"أحقاً؟" شعرت فجأة بالخجل تجاهه، وعدلت تنورة بذلة السفر الرمادية التي كنت أرتديها.

"أجل، حقاً. لقد خطر لي للتو أنك قد لا تعلمين هذا الأمر عن نفسك"

"شكراً لك" وانحنيت نحوه وقبّلتُ وجنته، ومن ثم صعدت إلى قطاري، مسرورة بثيابي التي ارتديتها خصيصاً لأجل السفر، وبقبعتي الصوفية الرقيقة، وقفازيَّ قشديَي اللون، وحذائي المصنوع من جلد الظباء أسمر اللون ذي الأنشوطات على شكل حرف T. كانت المقاعد والأرائك تبدو وثيرة، وصوت فوني البوريتاني وهي تقول لي إنه عليّ عدم الاستمتاع بما أنا مقدمة عليه تلاشى بعيداً في الهواء. لقد كنت على متن قطار ميدنايت سبيشال، فغمرت نفسي بأغطيتي في سرير قمرتي، خلف ستائر خضراء غامقة اللون.

عندما وصلت إلى محطة يونيون ستيشن في صباح اليوم التالي، كنت قد نلت قسطاً وافراً من الراحة، وإنما كنت متوترة بعض الشيء إلى أن رأيت إيرنست واقفاً على الرصيف، ويكاد يكون تماماً في البقعة التي تركته فيها عندما غادرت في تشرين الثاني. عندها، شعرت بفمي جافاً كالقطن، ومعدتي تغلي كما لو أنها مملوءة بالنحل. كان يبدو بديعاً في معطفه الصوفي وكوفيته فحميِّي اللون، وعيناه تبرقان بفعل البرودة. وما إن ترجلت من القطار حتى ضمني بين ذراعيه ورفعني عن الأرض وهو يعصرني بين ذراعيه.

وعندما عادت قدماي لملامسة الأرض قلت له: "وأنا سعيدة برؤياك أيضاً" وابتسمنا كلانا محرجين من تواجدنا المفاجئ مع بعضنا مجدداً. التقت عيوننا ثم أشحنا ببصرنا معاً. آلاف الكلمات تبادلناها في رسائلنا، أين هي كلها الآن؟

سألني: "هل أنت جائعة؟"
فقلت له: "بالتأكيد"

حككنا أنفينا ببعضهما، ثم سرنا معاً في ذلك الصباح المتجمد لنعثر على فطور نتناوله. كان هناك مطعم صغير يعجبه قريب من شارع ستيت ستريت يمكن للمرء الحصول فيه على شرائح اللحم والبيض بستين سنتاً. فطلبنا وجبتين، ثم جلسنا إلى مائدة في حجيرة صغيرة جعلت ركبنا تتلامس تحت المائدة. وأثناء انتظارنا طفق يحدثني قائلاً:

"لقد رفضت صحيفة ذا ساتردي إيفننغ نشر قصة أخرى لي. وهي المرة الثالثة التي يفعلون بها ذلك. إن لم أستطع الانطلاق في هذا الأمر فسأمضي حياتي وأنا أكتب مخطوطات تافهة، أو أروي قصص أشخاص آخرين سواي لتلك المجلات. لا، لن أفعل ذلك"

"سوف ترى موادك الخاصة مطبوعة. لا بد من أن يحصل هذا وسوف يحدث فعلاً"

سدد إلي نظرة مباشرة، ومن ثم رفع مقدمة قدمه ليضغطها على بطة ساقي. وأبقاها هناك، دافئة وثابتة وهو يسألني:

"هل ظننت أنك لن تريني ثانية؟"

"ربما" أجبته وأنا أشعر بابتسامتي تتلاشى، ثم أكملت: "يمكنني أن أهيم بك حقاً يا نيستو"

فأجاب: "سيروقني إن كان بمقدورك أن تحبيني ولو لفترة قصيرة على الأقل"

"ولماذا لفترة قصيرة؟ أتخشى أنك لن تستطيع الالتزام لفترة طويلة؟"

هز كتفيه بعصبية وهو يجيبني: "هل تذكرين حين حدثتك عن جيم غامبل، صديقي في الصليب الأحمر؟ إنه يعتقد أنه علي أن أتبعه إلى روما. فالحياة هناك رخيصة التكاليف، وإن استطعت أن أوفر بعض المال قبل ذهابي فسيكون بمقدوري هناك الانكباب على كتابة الروايات والقصص لخمسة أو ستة. فرصة ثمينة كهذه قد لا تسنح للمرء مرتين"

روما! شعرت بصدري ينقبض. لقد عثرت عليه لتوي، وهو الآن يريد أن يهرب إلى ما وراء البحار؟ عصف برأسي الدوار، ولكنني كنت أوقن أن محاولتي

منعه والتمسك به ستكون خطأً فادحاً؛ فابتلعت ريقي بصعوبة، ورحت أنتقي كلماتي بعناية بالغة:

"إن كان عملك أكثر ما يهمك، فينبغي عليك أن تذهب" ثم استطردت وأنا أحاول النظر مباشرة إلى عينيه عبر الطاولة: "لكن، ثمة فتاة ستفتقدك كثيراً"

هز رأسه بجدية دون أن ينبس بكلمة.

مرت أيام أسبوع زيارتي سريعة، وقد ملأناها حفلات موسيقية ومسرحيات وحفلات، وختمناها كل ليلة في غرفة جلوس كينلي الطويلة مع أقداح الشراب والسجائر والحوارات الحامية حول كتب ولوحات رائعة. لقد كانت جميع التفاصيل شديدة الشبه بما خبرته في زيارتي الأولى في الخريف، عدا أن كيت ثابرت على الغياب.

تماماً قبل مغادرتي لسانت لويس، وضعت لها رسالة في صندوق البريد، ولم أكن واثقة من أنها ستصلها قبل أن نصادف بعضنا في شيكاغو كما هو محتم. إذ لم أستطع ألا أكتب لها؛ على الأقل لأمهد الطريق لإخبارها، فسطرت في رسالتي: *"لقد بتنا أنا ونستو مقربين من بعضنا تماماً، إننا صديقان بحق، وأنت صديقتي الحميمة أيضاً، ويزعجني أن أفكر أن هذا الأمر قد يقف حاجزاً بيننا. أرجوك لا تغضبي مني لفترة طويلة. صديقتك المحبة لك أكثر من أي شخص آخر، هاش*

أصر كينلي على أنها ببساطة كانت مشغولة بعملها قائلاً: "أنت تعرفين كيت، إنها تضطلع بالكثير من المهام، ومن ثم لا يتبقى لديها أي وقت فراغ. إنني على ثقة بأننا سنراها قبل مضي وقت طويل"

لكننا في الواقع لم نرها. وبمرور الأيام، تمنيت أكثر فأكثر لو يتسنى لي الحديث مع إيرنست عن الوضع القائم. لم تكن المراوغة من شيمي، غير أنني وضعت نفسي في ذلك الموقف عندما لم أبح له قط بأن كيت قد حذرتني منه. لقد كانت لدي قائمة طويلة من الأسباب تمنعني من فعل ذلك. فأنا بداية لم أشأ جرح مشاعره، كذلك لم أشعر أنني في موقع يخولني التدخل بينهما وخلق جو مشحون بالتوتر. مع اقتراب نهاية زيارتي، وبعد أن امتدت فترة الصمت والنأي بالنفس من جهة كيت، تساءلت عمّا إذا كان أي جانب من جوانب هذا الثالوث المنحرف يمكنه أن ينتهي

على خير. لقد كان من الممكن تماماً أن تسحب ثقتها فيّ كلياً. وكان من الممكن- بل ومن المرجح - أن إيرنست سيتوجه إلى روما لينكب على أدبياته؛ مخلفاً إياي في مواجهة وضع حرج على الجانبين.

لقد كان من الخطورة بمكان أن أترك قلبي معلقاً بإيرنست. لكن، أي خيار حقيقي كان لدي؟ لقد رحت أغرق في حبه أكثر فأكثر. وحتى لو لم أكن أشعر بأن لدي الشجاعة لمواجهة ما يخبئه لي المستقبل، إلا أن حياتي وبلا مراء قد تغيرت إلى الأفضل مذ تعرفت عليه. هذا ما شعرت به عندما كنت في سانت لويس، وهذا ما أشعر به الآن في منزل كينلي أيضاً. والواقع أنني مع بداية كل سهرة كانت تنتابني مشاعر التوتر والخجل والخوف من أن لا يكون لدي ما أشارك به في هذه المجموعة، لكنني سرعان ما كنت أسترخي وأصبح على سجيتي، وبحلول منتصف الليل أشارك في ما يدور حولي من استعداد لابتلاع الشراب كما يفعل البحارة مثلاً، والانخراط في أحاديث لا تنتهي حتى الصباح. شعرت في كل ليلة أنني كنت أولد من جديد، حيث أجد نفسي، ثم أضيّعها، ثم أعود لأجدها من جديد.

" لم يكن ذلك بالزمن البعيد حينما كنت لا أجد في نفسي القدرة على عزف البيانو لأكثر من نصف ساعة" قلت لإيرنست ونحن نتناول الفطور في أحد الصباحات: "لقد بقينا ساهرين حتى الثالثة صباحاً ليلة البارحة، وها أنذا الآن بعينين براقتين وفي أوج نشاطي، ولا تزال الساعة الثامنة صباحاً. لقد كنت دائماً شديدة الشعور بالتعب والإرهاق، وأيضاً حزينة نوعاً ما. فما الذي حصل لي الآن؟"

أجابني: "لست أدري، لكنني أشهد على موضوع العينين البراقتين"

قلت له: "كفاك، إنني جادة. نحن بصدد الحديث عن تحول هائل هنا"

فسألني: "ألا تؤمنين بالتغيير؟"

أجبته: "بلى أفعل. ولكنني أحياناً أنكر نفسي؛ كما في الحكايات حيث تقوم الجنيات باستبدال طفل بآخر

"أياً كان الأثر الذي يولده شعورك هذا، فإنك تعجبينني وأنت على هذا الحال يا هاش

"أشكرك. وحالي يعجبني هكذا أنا أيضاً"

كانت الأمسية التالية هي الأخيرة لي، وقد عقدت العزم على أن أستمتع بكل دقيقة فيها؛ إذ لم أكن واثقة من الوقت الذي سألتقي إيرنست فيه ثانية، أو ما إذا كنت سألتقيه على الإطلاق. فبعد يومنا الأول معاً لم يأت على ذكر صديقه جيم غامبل أو الذهاب إلى إيطاليا مرة أخرى، غير أنه في الوقت ذاته لم يكن يحيك أي سيناريو آخر حول المستقبل. وعندما سألته عمّا إذا كان سيزورني في وقت ما في سانت لويس أتى جوابه: "بالطبع سأفعل يا فتاة" كان جوابه رقيقاً كالرياح، دونما أي وعود أو ارتباطات أو أي إشارة إلى نية تنفيذه. لذا، لم آت على ذكر الموضوع ثانية. فالتشبث بشخص مثل إيرنست بالأظافر والنواجذ لم يكن بالطريقة المثلى للاستئثار به؛ هذا إن وجدت. كان علي بكل بساطة الانتظار لأرى ما سيأتي به الزمن.

مرت تلك الليلة على نحو مميز، ونحن نحتسي الكثير من الشراب، ونستمع إلى الكثير من الأغاني؛ فضلاً عن التدخين كما لو كنا مصانع للورق. طلب إلي إيرنست أن أعزف مقطوعة لراخمانينوف، وقد سرني النزول عند طلبه. وأتى وجلس على مقعد إلى جواري كما حدث في ليلة لقائنا الأول، فشعرت بوخزة حادة من الحنين تسري فيّ حتى أطراف أصابعي التي تضغط على المفاتيح. لكنه في منتصف المقطوعة نهض وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ناقراً كعبيه كجواد ثوروبريد الأصيل الذي يقف متململاً عند بوابة مضمار السباق. وحين أنهيت المقطوعة كان قد غادر الغرفة. وعندما عثرت عليه كان جالساً على عتبة المنزل يدخن.

فقلت له ممازحة: "أكان عزفي بهذا السوء؟"

فتنحنح ورفع بصره إلى سماء تلك الليلة الباردة الغنية بالنجوم قبل أن يقول: "أنا آسف، لست أنت السبب. كنت أود إخبارك عن فتاة"

"أوه لا" وجلست إلى جواره على إحدى العتبات الصخرية الباردة، وأنا أحاول احتواء موجة الاستياء العارم الذي شعرت به. إن كانت كيت محقة حيال إيرنست، فلست أدري ما إذا كنت سأستطيع تحمل الأمر.

"ليست فتاة من ذلك النوع. إنها حكاية قديمة عفا عليها الزمن. لقد أخبرتك أنني قد أصبت في فوسالتا أليس كذلك؟"

فأومأت برأسي.

"عندما أرسلوني إلى ميلانو للتعافي، وقعت في حب ممرضتي الليلية هناك. أليس هذا كلاماً فارغاً؟ وقعت في حبها أنا وعشرة آلاف من السذج المساكين الآخرين الموجودين هناك"

لعل ما كان يرويه لي حكاية قديمة، لكنني من النظر إلى وجهه أدركت أنها الحكاية الأكثر أهمية بل الوحيدة بالنسبة له.

"كان اسمها آغنيس، وقد كنا عاقدي العزم على الزواج عندما أتى أمر ترحيلي وإعادتي إلى الولايات المتحدة. لو أنني كنت أملك المال حينها، لكنت بقيت هناك وجعلتها تتزوجني، فقد كانت تؤثر الانتظار. إن النساء دوماً عاقلات إلى حد غير معقول، لماذا؟!"

لم أدر البتة ما كان عليّ قوله، فأجبته: "لقد كنت في الثامنة عشرة من عمرك وحسب، أليس كذلك؟"

فقال: "إن كنت في الثامنة عشرة أو في المئة، فقد كانت ساقاي مثقلتين بالمعدن. لقد أخرجوا ثماني وعشرين شظية مني. المئات من الشظايا الصغيرة كانت أعمق من أن يصلوا إليها. لكن أياً من ذلك لم يكن بسوء الرسالة التي تلقيتها منها أخيراً لتخبرني فيها أنها قد وقعت في حب شخص آخر؛ ملازم إيطالي أنيق" نخر بأنفه وقسمات وجهه تتلوى ألماً وتابع: "قالت إنها تتمنى أن أسامحها يوماً ما"

"لكنك لم تفعل"

"لا، ليس تماماً"

مرت بضع دقائق خيم فيها الصمت علينا. فكسرته بقولي: "عليك ألا تتزوج لفترة طويلة. فضربة كهذه مثل المرض طويل الأمد، تحتاج بعدها إلى فترة نقاهة لتسترد عافيتك مائة بالمائة"

"أهذه وصفتك لي إذاً أيتها الطبيبة؟ إجازة مرضية؟" تحرك تدريجياً نحوي وهو يتكلم، وبات الآن يمد يده باتجاه إحدى يديّ المغطاتين بزوج من القفازات. وبينما راح يمشط الصوف عليها بأحد الاتجاهات، ومن ثمة نحو الاتجاه الآخر، بدا لي أنه قد بات أكثر هدوءاً. وقال لي بعد هنيهة: "تعجبني صراحتك. أنت تنصتين لي، ثم تفضين بما يدور في خاطرك"

"أجل، أعتقد أنني أفعل لكنني في الحقيقة كنت محطمة. فقد كان من الواضح لي أنه كان غارقاً في حب تلك المرأة، وربما لا يزال كذلك. كيف لي أن أنافس شبحاً!؟ أنا التي كنت أعرف النزر اليسير، ولا شيء مما عرفته كان عن الحب.

سألني: "هل تعتقدين أن بمقدورنا يوماً أن نخلف الماضي وراء ظهورنا؟"

فأجبته: "لست أدري، لكنني حتماً آمل ذلك"

"أحياناً أفكر أنه كما اختفت آغنيس فيمكن لهذا أن يختفي أيضاً" ثم استطرد وهو يشعل سيجارة أخرى ويسحب منها نفساً عميقاً قائلاً: "لعلها لم تختف قط. لعلها لم تجئ يوماً. أليس الحب مخلوقاً كاذباً بديع التكوين؟" وتوهجت نهاية سيجارته بلون أحمر.

كان صوته ينضح مرارة، وقد واجهت صعوبة في النظر إلى عينيه طوال الوقت، لكنه الآن راح يحدق فيّ عن قرب وبشدة قائلاً: "الآن، لقد أخفتك"

"قليلاً فقط" وحاولت الابتسام.

"أعتقد أن علينا العودة إلى الداخل وأن نرقص حتى الصباح"

"آه يا نيستو، إنني شديدة التعب. ربما علينا الخلود إلى النوم وحسب"

"لا، أرجوك. أعتقد أن الرقص سيساعدني على تخطي أحزاني"

"حسناً إذاً" سلمته يدي.

في الداخل، كانت الحفلة بمعظمها قد انفضت. لكن إيرنست قام بطي السجادة بتأن، ودفع بها إلى أحد جوانب الغرفة، وقام بتشغيل الفونوغراف، فانبعث صوت نورا بايز مرتعشاً عبر الغرفة وهي تغني *تظاهر بأنك سعيد عندما تشعر بالأسف*.

قلت له: "إنها أغنيتي المفضلة. هل لديك القدرة على التوقع؟"

فأجاب: "كلا. ولكنني ذكي وحسب في ما يتعلق بحمل الفتاة على الاقتراب"

لست أدري كم من الوقت أمضينا ونحن نرقص تلك الليلة ذهاباً وإياباً في أرجاء الغرفة، وخطانا ترسم ببطء مداراً إهليلجياً طويلاً. وفي كل مرة تنتهي فيها

الأغنية، كان إيرنست يبتعد عني قليلاً ليعاود تشغيلها من جديد، ثم يعود إلى بين ذراعي دافناً وجهه في عنقي، ويداه معقودتان أسفل ظهري. ثلاث دقائق من السحر توقف عندها الزمن وامتد. لعل السعادة كانت كساعة رملية لا تفتأ ذراها تنهمر بلا توقف وتتغربل واحدة تلو الأخرى. ولعلها كانت أيضاً حالة ذهنية- كما كانت نورا بايز تصر - بلاداً تستطيع نحتها في الهواء ومن ثم الرقص فيها.

قلت له: "أنا لن أكذب عليك أبداً"

فأومأ وهو يُغرق وجهه في شعري: "فلنقل لبعضنا الحقيقة على الدوام. بإمكاننا الأخذ بهذا الخيار أليس كذلك؟"

دار بي مرة تلو مرة ببطء وبقوة. انتهت الأغنية، وإبرة الفونوغراف نقرت، ثم همست، ومن ثم سكتت. لكننا تابعنا الرقص متمايلين أمام النافذة ذهاباً وإياباً ثانية.

الفصل السابع

عندما عدت إلى دياري في سانت لويس، كانت فوني بانتظاري مع فيض من الأسئلة والتحذيرات. فمن كان إيرنست هيمنغواي هذا؟ وما هي إمكانياته؟ وماذا بمقدوره أن يقدم لي؟ وسرعان ما أنهت طرح أسئلتها وبدأت بتعداد نقائصي. فهل كان هيمنغواي ذاك على علم بتاريخي مع الانهيارات العصبية والضعف البدني؟ كان من يسمعها سيعتقد أنها تتحدث عن جواد أعرج، لكنها لم تكن لتزعجني كثيراً. كنت أحفظ أساليب فوني عن ظهر قلب، وأستطيع أن أخفت صوتها في رأسي إلى أقصى درجة ممكنة. أما صوتي أنا فقد كان من الصعب علي التحكم به للأسف. عندما كنت مع إيرنست في شيكاغو، شعرت بالقوة والقدرة على الصمود في وجه عواصف عدم اليقين تجاه المستقبل. لكنني خارج دائرة ذراعيه، وبعيدة مسافات عن مدى تأثيره الجسدي القوي علي، أضحي في حالة صراع مع المجهول.

ما أثار انزعاجي كذلك أن دفق رسائله بات مع الوقت متقطعاً وأكثر مزاجية. لقد كره عمله، وكان يتشاجر مع كينلي بخصوص زيادة في أجرة الغرفة والمعيشة. *إن كينلي على دراية تامة بأنني أكافح لأوفر كل درهم يتوفر معي لأجل رحلتي إلى روما، لكنه يصر على ليّ ذراعي على أي حال. أي صديق هو هذا؟!* أردت أن أشعر بالأسى لحاله وأتعاطف معه، لكنني بدلاً من ذلك شعرت بكل أنانية بالامتنان لكل عارض يؤدي إلى تأخر مخططاته في السفر.

كانت قد أضحت لدي حتى ذلك الحين خبيئة تفوق مئة رسالة، جمعتها كلها بأناقة وأخفيتها بعيداً في الرف العلوي من خزانتي. فصرت أخرج العلبة لأعيد قراءتها في الأيام التي لا تصلني فيها تلك الرسائل الخاصة، وهذا ما بات يتكرر أكثر

فأكثر. فإرسال الرسالة يكلف 10 سنتات بات إيرنست يوفرها كي يتمكن من السفر إلى إيطاليا. لقد أزعجتني معرفة أنه يؤثر مغامرة جيم غامبل وعمله على كل شيء.

كما لم أستطع نسيان كم كان أصغر مني. تسع سنوات ربما لن تشكل ذلك الفرق الشاسع إن وصلنا إلى أواسط العمر معاً. لكن إيرنست موفور الشباب ويضج حماسة وخططاً إلى حد أجد معه صعوبة في تخيله في أواسط العمر أساساً. لقد كان شاباً رشيق الخطى يطارد الحقيقة والجمال. فأين عساي أجد مكاني معه بالضبط؟

في إحدى جلساتنا أنا وروث في وقت الأصيل، حيث وضعنا صحناً من البسكويت على سريري بيننا، فيما كان الثلج ينهمر في الخارج كما لو كان لن يتوقف أبداً، قلت لها: "أحياناً أعتقد أنني قد كبرت على الوقوع في الحب"

فقالت: "أأنت الكبيرة على الحب أم هو اليافع أكثر من اللازم؟"

أجبتها: "الأمران معاً. بطريقة ما، لقد تسنى له أن يعيش الحياة أكثر مما فعلت أنا، وهو بلا ريب قد حصل على إثارة أكبر فيها. لكنه من ناحية أخرى يمكنه أن يكون في بعض الأحيان رومانسياً إلى حد فظيع بل وساذجاً أيضاً؛ كشأنه في قصته مع آغنيس. فقد فطرت قلبه، هذا ما أثق به تماماً، ولكنه أيضاً يدور حاملاً القصة كما لو كان طفلاً صغيراً مجروح المشاعر

فأجابتني: "هذا ليس عدلاً يا هادلي. لقد عانيت أنت أيضاً بسبب هاريسون ويليامز، أليس كذلك؟"

فأجبتها وأنا أضع رأسي بين يدي: "أجل لقد فعلت. آه يا روث، لست أدري ما الذي أصابني، أظن أنني خائفة وحسب"

قالت لي برقة: "بالطبع أنت كذلك. إن كنت تعتقدين بصدق أنه صغير في السن بالنسبة لك فعليك إذاً أن تتخذي قرارك وتلتزمي به"

"هل تعتقدين أنني سأكف عن القلق لو علمت أنه يحبني حقاً؟"

"فقط استمعي إلى نفسك الآن"

"هناك الكثير لأخسره"

"هذا هو الحال دائماً"

تنهدت وتناولت بسكويتة أخرى، ثم سألتها: "هل أنت دائماً على هذا القدر من الحكمة يا روث؟"

فكان جوابها: "فقط عندما يتعلق الأمر بحياة أناس آخرين

في اليوم التالي، لم تصلني رسالة من إيرنست، وكذلك في اليوم الذي يليه، والذي يليه. بدا لي بوضوح أكثر فأكثر أنه إما كان في طور نسياني، أو يتعمد استبعادي من حياته؛ مفضلاً روما وآماله في العثور على منطلق لكتاباته عليّ. لقد جرحني تصرفه، لكنني في الوقت ذاته شعرت بغيرة شديدة. لقد كان لديه شيء حقيقي يعلق آماله عليه، أمر يربط حياته به. أما أنا فقد كانت أحلامي أكثر بساطة بكثير، وبصراحة مطلقة، كان جلها مرتبطاً به. لقد أردت منزلاً بسيطاً في مكان ما مع إيرنست، وهو يسير على الممشى المؤدي للمنزل صافراً، وقبعته في يده. لكن أياً من أقواله أو أفعاله لم يوح على الإطلاق بأي شيء من هذا، فمن عساه كان الرومانسي والساذج بيننا؟

وفي مساء اليوم الثالث، قلت لروث وبيرتا: "إن كان الأمر قد انتهى فبإمكاني أن أكون شجاعة وأتحمل" وأنا أشعر بقبضة محكمة تمسك بقلبي، "سأشمر عن ساعدي وأعثر على شخص آخر غيره"

فعلقت روث: "آه يا صغيرتي، ستفرزين خياراتك الآن، أليس كذلك؟"

وبعد ذهابنا إلى السرير، بقيت أتقلب لساعات قبل أن أغفو في نوم خفيف بعيد الساعة الثانية. وفي صباح اليوم التالي، وبرأس مثقل بالأفكار ومعنويات منخفضة، توجهت لأتفقد صندوق البريد خاصتي. كان الوقت لا يزال مبكراً جداً على وصول أي بريد، ولكنني فعلت على أي حال؛ لم أستطع منع نفسي عن القيام بذلك. وهناك في الصندوق الصغير لم أجد رسالة واحدة بل اثنتين، كلتاهما سميكتان وواعدتان. منطقياً، كنت أعلم أن صبي البريد قد حملهما إلى هنا في الليلة الفائتة دونما انتباه مني. لكن جزءاً مني أراد التصديق أنني قد استحضرت هذه الرسائل بقوة أشواقي. أياً كان الأمر، فإن حبل الصمت الممتد من إيرنست قد انقطع أخيراً. استندت إلى عضادة الباب، وقد منعتني دموع الارتياح التي ترقرقت في عيني من الرؤية بوضوح.

هرعت إلى الأعلى وأنا أمزق الغلاف عن إحدى الرسالتين بشوق. أسرف في الأولى في الحديث عن الأمور المعتادة التي تجري في العمل والأحداث المسلية في

منزل كينلي، والذي أشار إليه لاحقاً *بالمسكن*. لقد جرت مباراة ملاكمة في غرفة الجلوس في الليلة السابقة، اتخذ فيها إيرنست دور جون إل. سوليفان، وهو يتمايل ويتفادى الضربات بلباس داخلي طويل وحزام حريري بني اللون. كم أضحكتني الصورة التي تخيلته عليها، وكنت لا أزال أضحك عندما بدأت بقراءة الرسالة الثانية، والتي افتتحها بقوله: *ما زلت أفكر في الذهاب إلى روما. لكن، ماذا لو رافقتني إليها، كزوجة؟*

زوجة. بعثت الكلمة القشعريرة في أوصالي. لم يسبق لي أن التقيت والدته أو أياً من أفراد عائلته. حتى إنه لم يأت إلى سانت لويس ليجلس على شرفتنا الأمامية ويحتمل نظرات أختي فوني المتعضة. ولكنه مع ذلك قد يكون جاداً. لقد كانت تلك هي الطريقة التي تليق بإيرنست ليعرض الزواج من خلالها، دون أي إعداد مسبق، وبعد مزحة عن مباراة ملاكمة. كتبت له في وقت لاحق من ذلك الصباح: *"إن كنت مستعداً للإقدام على هذا الجنون فسأكون شريكتك في اللعبة"*

روما، معاً. لقد كانت فكرة باهرة. عندما كنت أطلق العنان لمخيلتي لتسرح في موضوع الزواج من إيرنست، كنت أرانا نقطن في سانت لويس أو شيكاغو؛ في مكان شبيه تماماً بالمسكن، مسكن مترع بالمرح والأحاديث الشيقة في أي ساعة من النهار. أما الحياة مع إيرنست في إيطاليا فقد كانت فكرة مبهجة ومخيفة، وثورية تماماً. عندما كنت في السابعة عشرة من عمري، ذهبت في رحلة إلى فلورانسا وروما مع والدتي وشقيقيّ. لكن التجربة برمتها كانت مزرية، ولم أستطع تذكر سوى القليل فقط عن المناظر الجميلة هناك. وحدها الحرارة ونوبات الإغماء والبعوض هي التي طغت على ذكرياتي. لكن، أن أكون في روما مع إيرنست هي حتماً تجربة ستكون مختلفة على كل المقاييس. *أنا* أيضاً سأكون مختلفة. وكيف عساي ألا أكون كذلك؟! أستطيع من الآن أن أرانا نسير على ضفة نهر التيبر متأبطي الذراعين، ومجتازين جسوره كلها واحداً تلو الآخر. *فلننطلق، لقد حزمت أمتعتي سلفاً*. كلمات سطرتها له بحبور بالغ ونفسي تفيض بالتوقعات.

ثم اندفعت إلى الخارج دون معطف أو وشاح. كانت السماء متجهمة وتنثر ندف الثلج كثيفة على الأرض، فرفعت رأسي إليها وفتحت فمي لأتذوق الثلج.

الفصل الثامن

بعد أسبوعين من عرض إيرنست، توجهت إلى شيكاغو في رحلة لا مفر منها لألتقي كتيبة كاملة من آل هيمنغواي. كنت متوترة للغاية لدرجة أنني كدت أحتسي قارورة شراب بأكملها وأنا أذرع غرفة المعيشة في المسكن ذهاباً وإياباً؛ فيما حاول إيرنست جهده أن يطمئنني. ولم يكن ذا عون لي البتة أن كيت ظهرت أخيراً في أصيل ذلك اليوم حين كان إيرنست في عمله، فوجدتني وحدي في منزل كينلي.

"إنك لن تقدمي حقاً على *الزواج*، أليس كذلك؟ إن هذا سخيف" كان صوتها حاداً ومدوياً وهي تتقدم في الغرفة دون أن تخلع عنها معطفها أو قبعتها.

أجبتها: "كيت رجاء اجلسي وكوني منطقية"

"سوف تندمين على هذا. تعلمين أنك ستفعلين. إنه يافع ومتهور جداً"

"وأنا ماذا أكون؟ العانس المسكينة الوقورة؟"

"لا، أنت فقط فتاة ساذجة. أنت تعطينه من المصداقية ما لا يستحقه"

"في الحقيقة كيت، يفترض بك أن تكوني صديقته. ما الفعل الشنيع الذي قام به حتى قلبك ضده بهذا الشكل؟"

فجأة، ابتلعت لومها القاسي الصارخ، وألقت بنفسها على الأريكة وهي تقول: "لا شيء"

"إذاً، علام كل هذه الثورة؟" قلت لها بصوت خفيض وأنا أنتقل للجلوس إلى جوارها. "أرجوك أخبريني بما يجري"

فهزت رأسها ببطء رافضة وقد التمع الحزن في عينيها: "لا أستطيع. لا أريد للأمور أن تغدو أكثر صعوبة مما هي عليه، وأنت أيضاً لن ترغبي بذلك. سأكون سعيدة لأجلك. أقسم لك إنني سأفعل"

شعرت عندها بهدير في أذني ما كان ليهدأ حتى نهاية تلك الأمسية. وعندما عاد إيرنست من عمله إلى المنزل يومها، كنت لا أزال في قمة الانزعاج، وتقريباً كمنت له عند الباب لأباغته بالقول:

"أهناك ما تود قوله لي عن كيت؟ أعتقد أنها غارقة تماماً في حبك" لقد فاجأني أن أسمع نفسي أتلفظ بهذه الكلمات بصوت مرتفع، غير أن إيرنست تقبل الموضوع بهدوء غريب.

"ربما. لكن ذلك ليس خطئي، فأنا لم أشجعها يوماً"

"ألم تفعل؟ لكنني أعتقد أنها مجروحة جداً من أمر ما"

"اسمعيني، كيت هي كيت. وهذه الأمور كلها باتت وراءنا الآن. فهل تودين حقاً معرفة كل شيء؟"

"أجل أود ذلك. أريد أن أعرف كل تفصيل عن كل شيء. كل من قبلتهن أو تخيلت أنك واقع في غرامهن؛ ولو حتى لدقيقتين"

"لكن هذا جنون! لماذا"

"لكي تقول لي إن أمرهن لا يعنيك، وإنك تحبني أكثر منهن جميعاً"

"لكن هذا ما أقوله لك فعلاً، ألم تصغي إليّ على الإطلاق؟"

"كيف لنا أن نتزوج وهناك أسرار عالقة بيننا؟"

"ألا تريدين أن نتزوج؟"

"هل تريد أنت ذلك؟"

"بالطبع، ذاك ما أصبو إليه. إنت تضخمين الأمور أكثر من اللازم بكثير يا هاش. أرجوك كوني منطقية"

"هذا ما طلبته مني كيت، أن أكون منطقية"

نظر إلي بسخط شديد لم أستطع معه إلا أن أنفجر بالبكاء.

"هيا، تعالي إلى هنا يا قطتي الصغيرة. كل شيء سيكون على ما يرام. سترين فأومأت موافقة، وجففت عينيّ، ثم طلبت شراباً.

استعرنا سيارة كينلي كي نذهب بها إلى منزل العائلة الكبير في أوك بارك. وكلما اقتربنا من شارع كينلورث أفينو، ازداد هياج إيرنست.

سألته: "هل تعتقد أنني سأروق لهم؟"

"سيعشقونك. أنا من ليسوا معجبين به؛ هذه هي المسألة"

"كفاك، إنهم يحبونك. يجب عليهم أن يفعلوا"

فأجابني بمرارة: "أجل، يحبونني كما يمكن للمرء أن يحب قطيعاً من الذئاب. لم تعتقدين أنني أنــزل لدى كينلي في حين أن عائلتي تبعد مسافة خمسة عشر مـــيلاً فحسب؟"

"أوه يا الله! لم يخطر هذا الأمر على بالي البتة. هل فات الأوان على أن نعود أدراجنا؟"

"فات الأوان كثيراً" وركن السيارة في الممر الدائري الطويل.

قابلتنا غريس، والدة إيرنست، قرب الباب بنفسها، وقــد دفعــت حرفيــاً الخادمات جانباً لتفعل ذلك. كانت امرأة ممتلئة ومترفة، ذات شعر رمادي اللـــون. وكنت بالكاد قد وطئت العتبة حينما أقبلت علي باندفاع مبتلعة يدي بين كفيها. وعلى الرغم من ابتسامي وبذلي كل ما بوسعي كي أفتنها، إلا أنني اســتطعت أن أرى تماماً لم كان إيرنست يناضل ضدها. لقد كان حضورها طاغياً على كل شيء وكل من حولها؛ تماماً كوالدتي. لقد غيرت معايير الجاذبية في الغرفة، وجعلت كل شيء قابلاً للحدوث.

في قاعة الاستقبال، اصطفت شطائر صغيرة في صــحون أنيقــة، ووضــعت بالإضافة إلى مشروبات زهرية اللون على الطاولة. هناك تعرفــت إلى مارســيلين، الأخت الكبرى لإيرنست، والتي جلست على كرسي بالقرب مني. وعلى الــرغم من أنها بدت فتاة لطيفة إلى حد كبير، غير أنه بدا لي مربكاً مقدار الشــبه الكــبير بينها وبين أخيها. أورسولا أيضاً امتلكت نظرته وابتسامته بحــذافيرها وغمّازتيــه أيضاً. أما صني فقد كانت في السادسة عشرة من عمرها، وقد ظهــرت مرتديــة فستاناً من الشيفون الأصفر الباهت. في حين تبع ليسيتر الصغير ذو السنوات الست إيرنست كظله؛ إلى أن استسلم الأخير للعب جولة من ملاكمة وهميــة في غرفــة الطعام. في تلك الأثناء، سمّرتني غريس في غرفة الاستقبال وهي تستفيض بالحديث عن تفوق الشرائط والتخاريم الأوروبية، في حين حام الدكتور هيمنغواي في الغرفة مع صحن من الجبن والشمندر الذي خلله بنفسه من حديقته في والن ليك.

بعد الغداء، دعتني غريس إلى عزف البيانو، فيما وقفت إلى جانبه وغنت أغنية أوبرالية. بدا لي بكل وضوح كم يشعر إيرنست بالخزي، وقد تجرع الغصة الكبرى من الشعور بالمهانة عندما أصرت غريس على أن تعرض علي صورة من *ألبوم* بدا جلياً كم كان عزيزاً على قلبها. وقد تضمّن صورة لإيرنست وأخته مارسيلين وهما يرتديان ثياباً متطابقة، كلاهما في ثوب من نسيج الجنهام القطني، زهري اللون، مع قبعتين واسعتين من القش مزينتين بالزهور.

"ليس لهادلي الرغبة برؤية أي من هذا يا أماه" أتانا صوت إيرنست عبر الغرفة.

فأجابته وهي تربت على يدي: "بالطبع هي تريد ذلك، أليس كذلك يا عزيزتي؟" ثم وضعت إصبعها على الصورة بطريقة تملكيّة وهي تقول: "ألم يكن طفلاً جميلاً؟ أعتقد أنه كان سخفاً مني أن ألبسه ملابس فتاة، ولكنها كانت نزوة انتابتني، و لم يتأذَّ أحد منها"

فأدار إيرنست عينيه متذمراً: "هذا صحيح يا أماه؛ لا يمكن لأي شيء تقدمين عليه أن يسبب الأذية لأحد"

لكنها تجاهلته واستطردت قائلة: "لطالما أحب أن يروي القصص. أتعلمين هذا؟ قصصاً عن حصانه الهزاز، عن أمير، وعن مربيته ليلي بير. وقد كان ذا مزاج عسير حتى عندما كان طفلاً صغيراً. فإن لم يعجبه أحد أفعالك فلن يتوانى عن صفعك بكل قوته مباشرة، ولا يلبث أن يعود للحصول على القبلات لاحقاً"

فعلقت مارسيلين موجهة الحديث لإيرنست وهي ترفع حاجبها محذرة: "إياك أن تفعل الشيء ذاته مع هادلي"

فقالت أورسولا بابتسامة خبيثة: "لكنها قد تؤيد تصرفه ذاك"

فصاح بها الدكتور هيمنغواي محتداً: "أورسولا!"

خاطب إيرنست والدته: "ضعي *ألبوم* الصور بعيداً يا أمي

فكان رد غريس أن قلبت الصفحة: "هذا أحد الأكواخ التي كنا ننزل فيها في ويندمير، في والوونا الجميلة" وانطلقت مجدداً تتحدث بحماسة عن ذكرياتهم هناك.

امتدت السهرة طويلاً، قدمت لنا خلالها القهوة، ثم أقداح الشراب الصغيرة وقطع الكيك الأنيقة، ثم المزيد من القهوة.

وعندما حصلنا أخيراً على الإذن بالانصراف، نادتنا غريس بعد خروجنا لتدعونا إلى غداء يوم الأحد. فغمغم إيرنست من بين أسنانه وهو يقودني في الممر المفضي إلى السيارة: "في أحلامك"

وما إن أصبحنا بأمان في السيارة ومتجهين إلى منزل كينلي حتى قلت لإيرنست: "لقد عاملوني في غاية التحضر والرقي. لكنني أفهم تماماً رغبتك بالنأي بنفسك عنهم"

"أنا لا أزال طفلاً في نظرهم، وحتى بالنسبة لوالدي. وما إن أحاول الجموح حتى أغدو أنانياً، أو لا أفكر في غيري، أو سافلاً، ولا يمكنهم الوثوق بي

" لم يكن الحال مختلفاً بالنسبة لي عندما كانت والدتي على قيد الحياة. إن والدتينا متماثلتان تماماً. هل تعتقد أن هذا ما يربط بيننا على هذا الشكل؟"

فكان جوابه: "يا للهول! أنا حتماً لا أتمنى هذا"

مع بداية إعلان خطوبتنا، أتت قوانين جديدة تتعلق بإقامتنا في منزل كينلي؛ أتيح لي فيها أن أحتفظ بغرفتي نفسها، غير أن كينلي فرض عليه استضافة أصدقاء آخرين خلال فترة زيارتي هناك.

نقل إلي إيرنست الخبر ثم أردف معلقاً: "لست أدري لم يتصرف كينلي بهذه الاستقامة فجأة. فهو بالكاد يمكن أن يوصف بالنقاء والطهارة"

فقلت: "إنه يعمل على حماية سمعتي لا سمعته هو، وفي هذا نوع من الشهامة؛ إن فكرت في الأمر على هذا النحو"

"إن هذا مزعج جداً. أريد أن أكون أول من يراك حين تفتحين عينيك كل صباح. أهذا مطلب كبير جداً ويصعب تحقيقه؟"

"في الوقت الراهن فقط. ما إن نتزوج حتى يتسنى لك رؤيتي على الحال التي ترضيك"

"يا لها من فكرة سارة"

"أجل، سارة جداً"

لم يكن سرًّا يخفى أنني عذراء. فعدا عن قبلات متناثرة هناك وهناك تبادلتها مع من طلبوا ودي، فإن خبرتي في ذلك المجال كانت معدومة. إيرنست بالمقابل

كان يروق له التلميح بأنه قد عرف عدداً كبيراً من النساء. افترضت أنه كانت هناك آغنيس في إيطاليا - فقد كانا ينويان الزواج في النهاية - لكنني حاولت جهدي ألا أذهب بأفكاري أبعد من ذلك. فقد كنت أشعر بتوتر وقلق كبيرين حيال فكرة ما إذا كنت سأستطيع إرضاءه، لكنني دفعت بتلك الأفكار بعيداً، وحاولت التركيز على فكرة أن علاقتنا الحميمة ستتيح لي معرفته على نحو أفضل، وبالطرائق الممكنة كافة؛ دونما حواجز أو عقبات. ولن يكون افتقاري إلى الخبرة أمراً مهماً؛ إذ سيشعر حتماً بطوفان مشاعري يغمره دون حدود. وأنّى له ألا يفعل؟

بدا إيرنست مستعداً للانتظار حتى ليلة زفافنا - فهو حتماً لم يحاول الضغط علي مطلقاً بأي طريقة - لكن في الليلة التي زرنا فيها أوك بارك، وبعد عناق طويل على عتبة باب منزل كينلي، أخبرني أنه لن يتوجه إلى منزل دون رايت ليبيت فيه تلك الليلة: "سأخيم خارجاً"

"ماذا؟"

"تعالي، سأريك"

لحقت به صعوداً على سلالم طوارئ الحريق إلى سطح المنزل وأنا أتوقع أن يكون الطقس شديد البرودة، فقد كنا في شهر آذار حقاً، وإنما تفصلنا أشهر عن الربيع الفعلي في شيكاغو. غير أن إيرنست كان قد أعد في إحدى الزوايا أكواماً من اللحف والأغطية.

قلت له: "لقد أعددت لنفسك مملكة صغيرة بالفعل هنا، أليس كذلك؟"

"هذه هي الفكرة تماماً. هل تريدين بعض الشراب؟" ثم مد يده إلى داخل عشه وأخرج قارورة أغلقت فوهتها بفلينة وفنجان شاي. فسألته: "ماذا تخبئ هناك أيضاً؟"

فأجاب: "تعالي واكتشفي بنفسك" كان صوته رقيقاً ويحمل نبرة إغاظة لطيفة. ولكن، عندما كنت مستلقية إلى جواره على اللحف، راح يلف غطاء حول كتفي، فشعرت عندها بيده ترتجف.

قلت: "إنك متوتر

فأجابني: "لست أدري ما السبب"

"لكنك مررت بخبرات عديدة مع مختلف الفتيات، أليس كذلك؟"

"لم تكن أي منهن مثلك"

"حسناً، *هذا* نعم المقال"

جعلنا من الأغطية خيمة لففناها حولنا، وتبادلنا المشاعر لفترة طويلة، معزولين في شرنقتنا الدافئة عن سائر العالم. ومن ثم، ودون وعي مني، تقربت منه والتصقت به أكثر. كم كانت نظراته ولمساته دافئة، وانسابت الأمور طبيعية بيننا.

عندما كنت في سن المراهقة، قرأت مقالة نشرتها والدتي في مجلة *نيو ريبابليك* تقول فيها إن الزوجة التي تستمتع بعلاقتها الحميمة مع زوجها لم تكن أفضل من العاهرة. فالخضوع مطلوب لأجل الحصول على الأطفال بالطبع، لكن الهدف النهائي للنساء لا يمكن أن يكون سوى تبتلٍ صارم وهانئ. لم تكن لدي أي فكرة عما يجب أن أتوقعه من العلاقات، أو ما يمكن أن تنطوي عليه. وعندما كبرت أكثر وبت أكثر فضولاً حيال الأمر، تصفحت مقاطع من مقالات *سيكولوجية حول الجنس* لكاتبها هافلوك إيليس في مجلة *ليتراري دايجست* الخاصة برولاند طلباً لمعلومات شعرت أنني بحاجة ماسة إليها. لكن، كانت هناك أمور واجهت صعوبة في التفكير فيها على وجه الخصوص. لا أدري إن كان السبب هو القمع، أم إنني كنت سميكة الفهم في تلك الأمور. لكن في خيالاتي العذبة التي نسجتها حول ليلة زفافنا، يحملني إيرنست فوق العتبة المكسوة بالأزهار، ومن ثم يسقط فستاني الأبيض، وبطريقة مبهمة أصبح امرأته.

لكن، عندما أصبحت معه فعلاً على السطح في تلك الليلة، عرفت أن السعادة التي غمرتني لن تخبو ذكراها إلى الأبد، وشعرت أننا بتنا شخصاً واحداً قلباً وقالباً. بعدها، استلقينا على الملاءات، ورحنا نتأمل النجوم فوقنا، والتي كانت تتوهج بشدة في كل مكان.

قال لي بصوت رقيق ومفعم بالعاطفة: "أشعر أنني حيوانك المدلل، وأنت أيضاً قطتي الصغيرة البديعة"

سألته: "هل توقعت أن نكون على هذا النحو مع بعضنا؟"

فقال: "معك أستطيع أن أفعل أي شيء. أعتقد أن بمقدوري أن أكتب كتاباً. أعني، إنني أود ذلك، لكن ربما كان الأمر كله مشروعاً سخيفاً وعديم الجدوى"

"بمقدورك أن تفعل ذلك بالطبع، وسيكون كتاباً رائعاً. أنا واثقة من ذلــك. سيكون موفور الشباب والقوة والنضارة مثلك تماماً. سيمثلك أنت"

"أريد لشخصياتي أن تكون مثلنا؛ مجرد أشخاص يحاولون أن يعيشوا حيــاتهم ببساطة، وأن يعبروا عما يجول في أنفسهم"

"أجل، إننا نعبر عما في نفسينا، لكنه أمر صعب أيضاً، أليس كذلك؟ بل لعل الأمر الأصعب أن يكون المرء صادقاً"

"إن كينلي يعتقد أننا نستعجل الأمور. إنه لا يفهم لماذا أرغب في دفع علاقتنا نحو الزواج في حين أن حياة العزوبية تناسبني تماماً"

"إن هذا امتياز في نظره"

"أجل، لكن الأمر لا يقتصر عليه وحده. هورني أيضاً يخشى أن تبتلع هـــذه الخطوة مستقبلي المهني. وجيم غامبل يعتقد أنني سأنسى الهدف من ذهابــــي إلى إيطاليا ما إن نتزوج. وكيت لا تتحدث إلى أي منا"

فقاطعته: "لا تأتِ على ذكرها الآن أرجوك، ليس الآن"

فأجاب: "حسناً. ما أرمي إليه فقط هو أنه يبدو أن لا أحد يفهـــم حــاجتي إلى هذا؛ حاجتي إليك" ثم اعتدل في جلسته، ونظر إلى وجهي حتى ظننت أنني ســأذوب من حرارة نظراته، وقال: "أتمنى أن نكون محظوظين كفاية لكي نكبر في الســـن معـــاً. أترينهم في الشارع أولئك الأزواج الذين أمضوا سنين طويلة جداً من حيــاتهم وهـــم متزوجون إلى حد لم يعد بالإمكان التفريق بينهم. كيف يكون حالهم؟"

قلت: "لكم سيطيب لي أن أبدو مثلك. أنا أحب أن أكون أنت"

لم يسبق لي قط أن تفوهت بشيء أكثر صدقاً. كنت وبكل سرور أتمنى لـــو أزحف خارج جلدي لأتماهى فيه تلك الليلة، لأنني اعتقدت أن ذلك مــا يعنيــه الحب. ألم أشعر لتوي بأننا أضحينا كياناً واحداً لا يمكن التفريق بين أجزائه؟

وهذا تماماً ما سيشكل الدرس الأقسى الذي سأتعلمه في زواجي؛ ألا وهـــو الخطأ في آلية التفكير هذه. فأنا لم أستطع بلوغ جميع جوانب إيرنست، وهو لم يشأ لي أن أفعل ذلك. لقد كان يحتاج إليّ كي أشعره بالأمان وبالمؤازرة، كما احتجت إليه أنا أيضاً. لكن، كان يروق له أن يكون قادراً على الاختفاء في عملــه بعيـــداً عني، ومن ثم يعود عندما يشاء ذلك.

الفصل التاسع

ألقى إيرنست بجسده على سطح البحيرة قبل أن يندفع ليغوص فيها. ثم عاد ليظهر على سطح الماء، واستدار مواجهاً الرصيف حيث جلس كل من داتش ولومان هناك يمرران بينهما قارورة روتغات، ويخاطبان إيرنست وصوتاهما يصلان إليه بوضوح فوق سطح الماء:

"عمل جيد يا ويم. هل يمكنك أن تعلمني الغطس على هذا النحو؟"

فصاح مجيباً: "كلا، لا أستطيع تعليم أحد أي شيء"

فقال داتش ساخراً: "أيتوجب عليك أن تكون بخيلاً إلى هذا الحد؟"

لم يشعر إيرنست برغبة في الإجابة، فكوّر جسده كالصخرة، وغاص في أعماق البحيرة إلى أن وصل إلى قاعها المغطى بالطحالب، شاعراً ببرودة الطحالب وغرابتها أسفل قدميه.

أكان الصيف الماضي وحسب عندما جلست كيت وإدغار على الرصيف يأكلان الكرز المسروق ويبصقان نواه نحوه وهو يجول متمايلاً برفق قربهما؟ كيت، الرفيقة القديمة الغالية، بعينيها الخضراوين كالقطط، وساقيها القويتين، وجسمها الناعم. في إحدى الليالي، قالت له كيت: "أنت الطبيب، فافحصني" لقد عرضت نفسها عليه وهي تسأله: "بم تفكر يا ويميدج؟" فأجابها بصوت حاول أقصى جهده أن يكون ثابتاً: "لا شيء" الواقع أنه أراد أن يلقي بنفسه بين ذراعيها كما يفعل عندما يلقي بنفسه وسط البحيرة، لكنهما سمعا أصواتاً تقترب على الممر الرملي المفضي إلى مكانهما، فانتفضا، وعدّلت كيت من جلستها، فيما رمى هو بنفسه في الماء، شاعراً بها تحرق جسده هذه المرة.

الآن، أضحت كيت على بعد زهاء ميل في كوخ عمها تشـــارلز في أعلـــى الطريق وبصحبتها هادلي؛ تنامان معاً في الغرفة ذاتها على سريرين صغيرين رائحتهما كرائحة العفن. لقد كان يعرف تلك الغرفة جيداً، وبقية غرف ذلك المنـــزل أيضاً، لكنه وجد صعوبة في تصور هادلي هناك أو في أي مكان آخر كان شديد الألفـــة معه. عندما كان صبياً صغيراً، تعلم أن يسير على المنحدر المغطى بالحشائش أمـــام بحيرة ويندمير. وتلك كانت البداية فحسب، فقد تعلم كل ما يستحق التعلم هنـــا؛ من اصطياد السمك وتنظيفه واستخراج أحشائه، إلى الإمساك بحيوان حياً كان أم ميتاً، فضلاً عن إشعال النار بواسطة أحجار الصوان والتحرك بهدوء عـــبر الغابـــة. كما تعلم كيفية الإصغاء وتذكر كل شيء مهم كي يستخدمه عند حاجته إليه.

لم يسبق لهذا المكان أن خذله يوماً، لكنه شعر بالغربة عنه شيئاً ما هذه الليلة. غداً، في الرابعة عصراً سيتزوج هو وهادلي في الكنيسة الميثودية في شـــارع ليـــك ستريت. لقد شعر بموجة من الهلع حيال الأمر؛ مثل سمكـــة تتخـــبط في شـــبكة الاضطراب، وهي تقاوم الأسر بغريزتها. لم يكن ذلك خطأ هادلي، فالزواج برمتـــه كان فكرته هو، لكنه لم يخبرها كم كان خائفاً. لقد بدا أنه بحاجـــة إلى أن يجـــبر نفسه عليه، مثلما يفعل في جميع الأمور التي تثير رعبه. لقد كان خائفاً من الزواج، وخائفاً من أن يبقى وحيداً أيضاً.

وهو يصعد نحو الأعلى من قاع البحيرة الباردة في الليلة السابقة لزواجه، وجد أن علم شعوره بالارتباك أمر صعب. غير أنه يحبّ هادلي بصدق، فهي لا تخيفه كما تفعل كيت التي تتحداه بعينيها الخضراوين أن يلمسها كما فعلت وهي تقول: "هيا إذاً، مـــا الذي تخشاه يا ويميدج" مع هادلي بدت الأمور جميعها في وضعها الصـــحيح؛ كـــل الوقت تقريباً. لقد كانت طيبة وقوية وصادقة، وبإمكانه الاعتماد عليها. لقد كانـــت أمامهما فرصة جيدة لكي ينجحا في حياتهما كأي ثنائي آخر. ولكن، مـــاذا لـــو أن الزواج لم يحلّ شيئاً ولم ينقذ أحداً ولا قيد أنملة؟ ماذا سيحدث عندها؟

الآن وقد أضحى على السطح، أصبح بمقدوره سماع داتش ولومان مرة أخـــرى وهما يثرثران حول أمور تافهة دون أن يفهما شيئاً مما يمر به على الإطلاق. شعر بالمـــاء البارد يحيط بجلده، ويحمله ثم يفلته في الوقت ذاته. رفع نظره إلى السماء السوداء فوقه، ثم سحب نفساً عميقاً واندفع يضرب بقدميه بقوة شاقاً طريقه نحو الرصيف.

الفصل العاشر

أشرق الصباح في يوم الثالث من أيلول من عام 1921 بجو صحو معتدل وخالٍ من الرياح، لقد كان يوماً مثالياً للزواج. كانت أوراق الأشجار قد بدأت تغير ألوانها استعداداً لخريف جديد، لكنك ما كنت لتشعر بذلك في مياه البحيرة التي كانت حرارتها دافئة كمياه حوض الاستحمام. وصل إيرنست إلى هوتون باي في ذلك الصباح، بعد أن أمضى ثلاثة أيام في رحلة صيد مع أصدقاء عازبين، وقد أحرقت الشمس وجهه عند أنفه وخديه، وقد رسم الإرهاق خطوطاً على محيط عينيه، أو لعله التوتر، أو ربما كلاهما معاً.

سألته عندما وقعت عيناي عليه: "هل أنت مستعد لهذا؟"

فأجاب: "سؤال مباشر كنت أخدعه بمزاحي وهو يخدعني بجوابه. ألا يشعر الجميع بالذعر حتى الموت يوم زفافهم؟

في الوقت الذي أمضى فيه إيرنست ساعاته الأخيرة كرجل حر في كوخ في شارع ماين ستريت في هوتون باي، وهو يمرر قارورة من الشراب بينه وبين صديقيه، سبحت مع روث وكيت مطولاً بعد الغداء.

لقد كان الطريق شائكاً مع كيت حتى استطعنا إقناعها بالموافقة على القدوم إلى حفل الزفاف. لقد كانت هناك سلسلة من الرسائل المضنية والصعبة مع كيت، والتي كان معظمها في البداية من طرف واحد. لكن، بعد عدة أسابيع، اعترفت لي أخيراً في رسالة: "*أخشى أنني كنت مغرمة بإيرنست إلى حد الجنون في فترة ما. لست أدري لم لم أستطع قول ذلك من قبل، غير أنه كان من المؤلم حقاً رؤيته وهو يقع في حبك. ومجرد التفكير في احتمال أنكما تستهزئان بي لدى اجتماعكما معاً جعلني أشعر بحرج لا حدود له.*

اجتاحتني موجة غامرة من التعاطف معها لدى قراءتي كلماتها. لقد كنت أعرف جيداً معنى الانجراف وراء مشاعر حب غير متبادل، وكم يشعر المرء بالدونية حينها. ولكن، مع ذلك، ها هي كيت تثبت للجميع كم هي صديقة مخلصة. لقد أحبت إيرنست وخسرته أمامي، ومع ذلك كانت مستعدة لكي تدافع عنا أمام ذوينا وأصدقائنا.

لقد كنت شديدة الإعجاب بها عصر ذلك اليوم، ولم أتمالك نفسي من السباحة إلى حيث عامت في المياه الضحلة لأقول لها: "أنت طيبة القلب يا كيت"

فأجابتني والدموع تترقرق في عينيها: "وأنت أيضاً يا هاش

لو أننا عرفنا يومها أنه بعد ثماني سنوات من الآن، وفي باريس التي لم تكن أحلامنا قد بدأت بتخيلها، سيقع جون دو باسوس ضحية لتألق كيت، وسيلاحقها إلى أن توافق على الزواج منه - ذلك الرجل الذي كان على قدر من الذكاء والأهمية بالنسبة للأدب الأمريكي؛ تماماً كما كان إيرنست - لو أننا عرفنا ذلك كله لخفت وطأة تلك اللحظة علينا كثيراً. لكننا لا نعرف أبداً ما ينتظرنا من خير أو شر، وظل المستقبل خافياً علينا تحت أستار الغيب فيما ابتسمت لي كيت ابتسامة باهتة، وسبحت بعيداً نحو أعواد القصب.

كان الماء دافئاً للغاية ومثالياً للسباحة والاسترخاء؛ إلى درجة أنني بقيت فيه حتى الثالثة عصراً؛ عندما أدركت بغتة وبفزع أن شعري لن يجف أبداً قبل بدء المراسم. فهرعنا عائدتين إلى الكوخ، حيث ربطته بشرائط، ومن ثم ارتديت فستان زفافي عاجي اللون، والذي ناسبني بشكل رائع؛ إلى حد أنني اعتقدت أنه قد عوض عن شعري الرطب. وكان هناك زوج من الأحذية قشدية اللون، وإكليل زهر، وطرحة انسدلت على ظهري، وحملت في يدي باقة أزهار صغيرة.

عند الساعة الرابعة والربع دخلنا دار العبادة الصغيرة التي زينتها كل من كيت وروث بأزهار الزنبق والبلسم والعود الذهبي التي جمعتاها من حقل مجاور. اخترقت أشعة الشمس النافذة ورسمت أشكالاً على الحائط، فيما وقف إيرنست وصديقاه قرب المذبح، وقد توردت وجوههم جميعاً وبدوا في غاية الوسامة بسراويلهم البيضاء وستراتهم كحلية اللون. عطس أحدهم، وبدأ عازف البيانو يعزف موسيقى لحن الزفاف الخاصة بواغنر. عندها شرعت بالمسير نحو المذبح

متأبطة ذراع جورج بريكر، أحد أصدقاء العائلة. لقد أملت أن يحضر أخي جايمي من كاليفورنيا ليزفني إلى إيرنست لكنه كان مريضاً للغاية بالسل. خياري الثاني كان خالي آرثر ويمان، لكنه هو أيضاً لم يكن في حال تسمح له بالمجيء. شعرت بالحزن لأن عدداً كبيراً من أفراد عائلتي لم يستطع التواجد معي في هذا اليوم. لكن، ألم أكن بصدد الحصول على عائلة جديدة في ذلك اليوم نفسه؟

في طريقي إلى المذبح مررت بفوني التي اعتمرت قبعة صغيرة ضيقة زرقاء داكنة، وقد وقف رولاند إلى جوارها وراح يرمقني بنظرة مودة وعلى وجهه ابتسامة دافئة. ثم وقعت عيناي على ابنة أختي دودي التي افترت شفتاها عن ابتسامة ماكرة وهي تومئ لي نحو ركبتي إيرنست اللتين كانتا ترتعشان قليلاً في سرواله المصنوع من قماش الفانيلا. هل كان ذاك دليلاً آخر على تردده؟ أم إنه شيء آخر؟ الحقيقة أنني لم أكن أعرف الجواب، وقد فات الأوان على أي حال على طرح تلك الأسئلة؛ فات أوان التوقف أو الانسحاب حتى لو كنت أريد ذلك، ولكنني لم أكن أريده.

جرت المراسم على نحو هادئ وبديع، ودون أي عقبات. خرجنا بعدها من دار العبادة إلى نور الشمس الساطع. وفي وقت لاحق، بعد أن تناولنا طعاماً مكوناً من الدجاج وكعكة الشوكولا اللذيذة، وقفنا لالتقاط الكثير جداً من الصور في الفناء، وقد ظهر فيها الجميع شبه مغمضي الأعين من وهج الشمس. بعدها، تبرع هورني بإيصالنا إلى بحيرة والون ليك حيث سنمضي شهر عسلنا في ويندمير؛ في الكوخ الصيفي لعائلة هيمنغواي. حيث عرض علينا كل من الدكتور هيمنغواي وزوجته غريس أن نقيم فيه مدة أسبوعين كهدية لزفافنا. كان الغسق قد حل عندما صعدنا إلى القارب لنبدأ رحلتنا إلى الكوخ عبر البحيرة. راحت الأمتعة تصطدم بركبنا، وخيم علينا نوع من التوتر العذب الآن بعد أن باتت مشاغل اليوم خلف ظهرنا.

سألني برقة: "أأنت سعيدة؟"

أجبته: "أنت تعلم أنني كذلك. هل أنت بحاجة للسؤال؟"

قال: "أحب أن أسأل. وأحب أن أسمع إجابتك؛ إن كنت أعرف ما أنا بصدد سماعه"

فقلت: "بل ربما وبشكل خاص عندما تعرف ما ستسمعه. وأنت؟ هل أنت سعيد؟"

كان رده: "هل أنت بحاجة للسؤال؟"

ضحكنا برقة معاً. كان الهواء ساكناً ومشبعاً بالرطوبة، وقد امتلأ الجو بأصوات الطيور الليلية والخفافيش التي تسعى خلف طعامها. في الوقت الذي ركنا فيه القارب في الخليج الصغير ضحل المياه المخصص له في ويندمير، كان الظلام قد أرخى سدوله تماماً. ساعدني إيرنست كي أقفز إلى الشاطئ الرملي، ومن ثم سرنا إلى أعلى التلة ونحن متلاصقان. فتحنا الباب وأشعلنا الأنوار، ثم نظرنا إلى داخل الكوخ، فألفينا كل شيء نظيفاً للغاية بعد أن أخذت غريس والدة إيرنست على عاتقها مهمة تلميع الأشياء. ولكن، على الرغم من نظافتها، كانت الغرف باردة بعض الشيء. فتح إيرنست قارورة الشراب التي تركتها لنا غريس في وعاء من الثلج. ومن ثم أشعلنا ناراً على الشرفة، وسحبنا إليها الوسائد من عدد من الأسرة المتوفرة كي نصنع لنفسينا عشاً جلسنا فيه أمامها.

بعد برهة، قال إيرنست: "لقد بدت فوني اليوم في هيئة استثنائية، كانت مثالاً حياً للمصفّحة"

"يا لفوني المسكينة! إن زواجها يعد إخفاقاً، فلا عجب في كونها متصلبة معنا إلى هذا الحد"

داعب شعري وهو يقول: "ألست فتاة طيبة أم ماذا؟" تذكرت سباحتي بعد الظهر فعلقت:

"لقد تصرفت كيت اليوم في غاية الشجاعة. ألا تعتقد ذلك؟"

"بلى، صدقتِ. ولكنني مسرور لأن ذلك كله قد بات خلف ظهرينا"

نهض وتوجه عبر الغرفة إلى المصباح كي يشعله وهو يقول: "لعله كان علي أن أذكر ذلك قبلاً، لكنني بحاجة على الدوام إلى أن أنام والنور مضاء. هل هناك بأس في ذلك؟"

"لا أعتقد. ماذا سيحدث إن تركته مطفأً؟"

"لن ترغبي بأن تعرفي" عاد عشنا وضمني إليه بشدة وهو يقول: "بعد أن أطلقوا علي النار، وعندما كنت لا أزال في حال يرثى له، قال لي ضابط إيطالي

حكيم جداً إن الشيء الوحيد الذي أستطيع القيام به لأواجه ذلك النوع من الخوف هو أن أتزوج"

"فعندها تقوم زوجتك بالاعتناء بك؟ يا لها من طريقة مثيرة للاهتمام للتفكير في الزواج"

"في الواقع، لقد فهمتها على نحو مغاير؛ أي إن تمكنت من الاعتناء بزوجتي - أي بك - فعندها سيخف قلقي حول نفسي. لكن، ربما كنا كلانا محقين في ما فهمناه"

فقلت له: "وهذا ما أعول عليه"

الفصل الحادي عشر

ثلاث ساعات مسافرة
تيك
تصطف على رف المدفأة
فاصلة
لكن الشاب يتضور جوعاً.
إ. هـ. 1921

"لكن، بالكاد يمكن وصفنا بأننا نتضور جوعاً" قلت لإيرنست عندما عرض علي أحدث قصائده. فأجاب:

"ربما لسنا كذلك. لكن، لا تستطيعين القول إننا نفيض صحة"

كانت الشقة الأولى التي أقمنا فيها ضيقة وقذرة في شمال شارع ديربورن؛ وهو حي في الجهة الشمالية من شيكاغو. كم كرهت ذلك المكان، لكنه كان كل ما أتاحته لنا إمكاناتنا المادية آنذاك. حيث كان مصدر قوتنا وديعة قد أودعها جدي باسمي، وفرت لنا قرابة ألفي دولار سنوياً، وقد عشنا ضمن حدودها. وكنا أيضاً بانتظار مبلغ من المال من تركة والدتي؛ رغم أنه كان لا يزال معلقاً بإجراءات يتابعها عدد من المحامين. كان إيرنست يجني حوالى الخمسين دولاراً من كتابته لصحيفة *كووبراتيف كومنويلث*، لكنه استقال بعد أسابيع قليلة من عودتنا من شهر عسلنا، وذلك عندما أخذت الشائعات تنتشر بأن الصحيفة كانت متورطة في صفقات مالية ملتوية وفي طريقها إلى الإفلاس. لم يشأ إيرنست أن يتلطخ اسمه في خضم أي من تلك الأمور البشعة، وقد فهمته؛ لا سيما وأنه يطمح لأن يغدو

كاتباً مرموقاً في المستقبل، غير أن مشاريعنا للذهاب إلى إيطاليا باتت يوماً بعد يوم أكثر استحالة.

إن ضيق ذات اليد الذي عشناه لم يزعج إيرنست بالدرجة نفسها التي أزعجني فيها؛ لأنه كان غائباً عن المنزل طيلة اليوم، يكتب في المطاعم والمقاهي. أما أنا فكنت عالقة في تلك الشقة المكونة من غرفتين وحمام في نهاية الرواق، ولم يكن لدي الكثير لأشغل نفسي به. خطر لي في بعض الأوقات أن أعثر على عمل، ولكن لم أتطوع قط، حيث إن الانغماس في الأعمال المنزلية كان من حيث الفكرة على الأقل أكثر جاذبية بالنسبة لي. لقد افتقدت إلى حيوية المسكن لدى كينلي، غير أن كيت كانت قد رحلت إلى بوفالو لتلتحق بمدرسة للصحافة هناك، وشاب التوتر العلاقة بين إيرنست وكينلي. فقد كان الأول لا يزال يدين للأخير بأجرة إقامته منذ ما قبل زفافنا. لكن بمرور الوقت، تعامل إيرنست مع الموقف بعناد حين قال إن كينلي يحاول المراوغة فلِمَ يدفع؟ مما أغضب كينلي ودفعه في النهاية إلى أن يرسل إلى إيرنست رسالة يخبره فيها أن بمقدوره المجيء لاستلام بقية أغراضه من المستودع.

عاجله إيرنست برد قاس؛ مضحياً بالصداقة التي جمعتهما يوماً وكأنها لم تكن. كنت أعلم أنه يتألم لخسارته ولحماقته التي أفضت إلى ارتكابه تلك الأخطاء، لكنه لم يكن ليقر بذلك. لقد كان في مزاج شديد الكآبة في تلك الفترة، لأنه تم رفض عدد من القصص التي أرسلها إلى المجلات لتنشرها مما جرح كبرياءه. فممارسته الكتابة كعمل جزئي لا يحظى بالنجاح أمر، وتكريسه نفسه لها كلياً وانكبابه عليها كل يوم من دون أن يُصيب نجاحاً أمر آخر. ماذا عن المستقبل؟

كانت هناك بلا ريب لحظات من الفتور أثناء علاقتنا حيث تصبح معنويات إيرنست في الحضيض وينهال على نفسه تقريعاً. ولو تسنى للمرء قراءة إحدى رسائله السوداوية في تلك الفترة لوجدها منذرة بالشؤم الشديد. ثم تمضي بضعة أيام قبل أن تسترد لهجته الإشراق والإيجابية المعهودين. بالنسبة لي، كانت مراقبة تأرجحات مزاجه مرهقة وشاقة. وفي الواقع، في المرة الأولى التي حدث فيها هذا الأمر بعيد زواجنا بوقت قصير شعرت بانزعاج شديد على نحو يفوق قدرتي على الاعتراف.

عاد يومها إلى المنـــزل من أحد المقاهي التي جلس فيها يعمل وهو يبدو بكل بساطة في حالة مريعة. كانت علامات الإرهاق الشديد تعلو وجهه عديم التعـــابير، وعيناه حمراوان من التعب. فكرت بأنه قد يكون مريضاً، لكنه هز كتفيه بلا مبالاة نافياً ذلك الاحتمال، وقال:

"لقد أمضيت وقتاً طويلاً غارقاً في أفكاري. لم لا نتمشى قليلاً؟"

كنا في شهر تشرين الثاني والجو في الخارج بارد فعلاً، لكننا تلفعنا بملابـــس سميكة، ورحنا نجوب الشوارع بتثاقل مدة لا بأس بها متجهين نحو البحيرة.

كان إيرنست صامتاً، و لم أشأ أن أفرض الحديث. لدى وصولنا إلى الشاطئ، كان الظلام يزداد حلكة، وغدا الماء مخيفاً ومتكسر الأمواج. ومع ذلك، تمكنا مـــن رؤية شخص شجاع أو لعله كان أحمق، على بعد نصف ميل داخل الماء، في قارب تجذيف صغير راح يتمايل على نحو ينذر بالشؤم فيدخل إليه الماء من جانبيه.

"ما كان داروين ليقول عن هذا الهمجي الأخرق؟" تساءل إيرنست وقد افترّ ثغره عن ابتسامة متعبة.

فقلت: "آه، لقد خشيت ألا أرى هذه الأسنان الجميلة مطلقاً"

فكان رده: "إنني آسف. لست أدري ماذا دهاني" ودفن رأسه بين راحتيـــه متنهداً، ثم همس بحنق: "اللعنة على هذا" وراح يضرب جبهته بحدة بقبضتيه.

هتفت هلعة: "إيرنست!" ففعل ذلك مجدداً ثم شرع بالبكاء؛ على الأقل هذا ما اعتقدته، إذ لم أكن قادرة على رؤية وجهه المستقر خلف راحتيه.

قلت له بلطف: "أرجوك، أخبرني ما الخطب؟ أنت تعلـــم أن في مقـــدروك إخباري كل شيء"

"لكنني أنا نفسي لست أدري. إنني محطم، أنا لم أنم البتة ليلة البارحة"

"هل أنت نادم على إقدامك على الزواج؟ إن كان الأمر كـــذلك فـــأخبرني، أستطيع تحمل الأمر قلت له وأنا أحاول النظر مباشرة إلى عينيه.

"لست أدري. إنني أشعر بضياع شديد" وراح يفرك عينيه بشـــدة بكمـــي سترته الصوفية ثم تابع: "تراودني تلك الكوابيس فأشعر بألها واقعية للغاية. أستطيع سماع مدافع الهاون والشعور بالدم في حذائي فأستيقظ غارقاً في عرقي. بت أخاف من النوم"

شعرت بموجة عارمة من مشاعر الأمومة تجتاحني نحـــوه، أردت أن أحيطـــه بذراعي وأضمه بشدة إلى أن يزول عنه الشعور بالوحدة والخوف، ولكنني قلـــت: "هيا، لنذهب إلى المنـــزل"

سرنا عائدين إلى شقتنا بصمت. ولدى وصولنا، قدت إيرنست مباشرة إلى غرفة النوم، وخلعت عنه ملابسه؛ تماماً كما كانت والدتي تفعل معي عندما كنت أمـــرض، ثم وضعته في السرير ولففته جيداً بالأغطية والملاءات، ورحت أدلك كتفيه وذراعيه إلى أن غفا بعد دقائق. بعد ذلك، نهضت وأخرجت بطانية لنفسي، ثم توجهت إلى كرسي في الزاوية لأراقبه وأرعاه، عندها فقط أطلقت توتري ومخاوفي الخاصة من عقالها. يشعر بضياع شديد؛ هذا ما قاله، واستطعت رؤية ذلك الضياع في عينيه اللتين ذكرتاني بعيني والدي. ما معنى ذلك كله؟ هل كانت هذه الأزمة ذات صلة بمعاناته أثناء الحرب؟ هل كانت هذه الذكريات تنهال عليه من وقت لآخر فتقض مضجعه؟ أم إن الأمر كـــان شخصياً أكثر من ذلك؟ هل كان هذا الحزن يعشش في مشاعر إيرنست علـــى نحـــو سيودي به إلى حتفه كما فعلت أحزان والدي به؟

في الناحية الأخرى من الغرفة، أصدر إيرنست صوت شخير، ثم تقلب علـــى الجانب الآخر من السرير مواجهاً الجدار. سحبت بطانية فوق كتفي وشددتها علي وأنا ألقي بصري خارج نافذة غرفة نومنا متأملة سماء شهر تشرين الثاني العاصـــفة. كان المطر قد بدأ يهطل بغزارة، وأملت أن يكون ذاك الشخص الذي كان يصارع الأمواج في قاربه في البحيرة قد اهتدى إلى بر الأمان. لكن، ليس كل من يقع تحت رحمة الأعاصير يرغب بأن ينجو. أعلم ذلك من تجربتي الشخصية في الصيف الذي ماتت فيه دوروثي. لقد استطعنا أنا وصديقتي النجاة من خليج من إيبسويتش، لكن ذلك تم بمحض الصدفة. فلو أن الأمواج العاتية طالتني وحاولت ابتلاعي لما كنـــت قد قاومتها. لقد أردت أن أموت في ذلك اليوم، وتقت إلى ذلك فعلاً يومهـــا وفي أيام أخرى سواها. صحيح أنها لم تكن كثيرة لكنها حدثت. والآن، فيما أنا أراقب إيرنست يتقلب في نومه قلقاً، لم أستطع إلاّ أن أتساءل عمّا إذا كنا جميعنا نملـــك أفكاراً شبيهة.

بعد ساعات، استيقظ إيرنست وناداني عبر الغرفة المعتمة، فقلت له وأنا أتوجه إليه: "أنا هنا"

قال: "إنني آسف جداً. أحياناً تنتابني هذه الحالة، لكنني لا أريدك أن تعتقدي أنك قد ابتليت بجواد معطوب في هذه الصفقة"

"وما الذي يحفزها؟"

فهز كتفيه غير مبالٍ وهو يقول: "لست أدري. تأتيني من حيث لا أعلم"

استلقيت بجواره بصمت، ورحت أمسح جبينه بلطف وهو يتكلم؛ حيث استطرد قائلاً:

"حين أصبتُ بالطلق الناري، مررت بهذه المحنة شديدة الوطأة لبعض الوقت. ففي النهار، أياً كان العمل الذي أمارسه - صيد السمك، أو الكتابة، أو أي شيء آخر - كنت أشعر حينها أنني على ما يرام، أو حتى في الليل إن كانت الأنوار مضاءة واستطعت أن أشغل تفكيري بأمر ما إلى أن أغفو. بمعنى أن أحاول تسمية جميع الأنهار التي أعرفها، أو أرسم في مخيلتي خريطة لمدينة سبق لي أن عشت فيها، ومن ثم أحاول تذكر شوارعها كلها، ومقاهيها الجيدة، والأشخاص الذين التقيتهم فيها، والأحاديث التي تبادلناها. لكن، في أحيان أخرى، يكون الظلام حالكاً والصمت مطبقاً، فأبدأ بتذكر أشياء لم أكن لأرغب بوجودها في رأسي مطلقاً. هل تدركين ما أعنيه؟"

فعانقته بشدة وأنا أقول: "أجل، أدركه قليلاً. لكن الأمر يخيفني مع ذلك. فأنا لم أعرف شيئاً عن تعاسة والدي؛ إلى أن ذهب إلى غير رجعة في أحد الأيام. لا بد أن الأعباء باتت فوق طاقته" صمتُّ هنيهة لأستجمع أفكاري محاولة صياغتها على نحو مناسب. "هل تعتقد أنه سيكون بمقدورك معرفة الحين الذي تفوق فيه الأمور قدرتك أنت على الاحتمال؟ أعني قبل أن يفوت الأوان؟"

"أتنشدين وعداً؟"

"وهل بمقدورك أن تعطيني واحداً؟"

"أعتقد ذلك. بمقدوري المحاولة"

كم كنا ساذجين في تلك الليلة. لقد تعلقنا ببعضنا بشدة ونحن نقطع لبعضنا عهوداً لن نستطيع الوفاء بها، وكان يجدر بنا ألا نتحدث في ذلك الموضوع أصلاً. هذا حال الحب أحياناً. لقد أحببته أكثر مما أحببت أي شيء أو أي شخص على الإطلاق. وكنت أعلم أنه يحتاج إليّ يقيناً وبشكل مطلق، وقد أردت لهذا أن يستمر إلى الأبد.

حاولت أن أكون قوية لأجل خاطر إيرنست، لكن الحياة لم تكن سهلة علي في شيكاغو. لقد جعلني انغماسه الشديد في عمله أدرك أنني لم أكن أملك شغفاً خاصاً بي يشغلني ويملأ وقتي. صحيح أنني كنت لا أزال أتدرب على البيانو، إلا أن ذلك كان استمراراً لأمر لطالما فعلته، فضلاً عن أنني لم أعد أملك أي أصدقاء في شيكاغو، فقد مرت علي أسابيع لم أتكلم فيها مع أحد سوى إيرنست والسيد مينيللو صاحب محل البقالة أسفل الشارع. عصر كل يوم، كنت أسير إلى محله بعد ثلاث بنايات وأجلس هناك وأدردش معه. في بعض الأحيان، كان يصنع لنا كوبين من الشاي المكون من أوراق قوية النكهة طعمها كطعم الفطر والرماد لنحتسيه ونحن نثرثر معاً كالنساء السوقيات. كان أرملاً ولطيفاً، وقادراً على تمييز المرأة التي تشعر بالوحدة حين يراها.

لقد كان السيد مينيللو هو من ساعدني على تنظيم حفل العشاء الأول لي كامرأة متزوجة على شرف شيروود آندرسون وزوجته تينيسي. كان كينلي قد عرَّف كلاً من آندرسون وإيرنست على بعضهما في الربيع قبل وقوع الخلاف بينهما. وقتها كانت رواية *وينسبرغ، أوهايو* لا تزال تحتل الصدارة في أخبار عالم الأدب، وإيرنست لم يستطع تصديق أن آندرسون قد وافق على لقائه، فضلاً عن تصفح قصص أخرى له. الواقع أن آندرسون قد لمس وراء أعمال إيرنست كاتباً واعداً، ووعد بأن يساعده على إطلاق مسيرته المهنية ما أمكنه. غير أنه سرعان ما غادر وزوجته تينيسي البلاد في رحلة طويلة إلى أوروبا، وقد عادا لتوهما، وسعى إيرنست إلى دعوهما لتناول العشاء. كنت شديدة الحماسة للقائهما، وإنما مذعورة في الوقت ذاته. لقد كانت شقتنا في حالة مريعة، فكيف عساي أجملها؟

"استخدمي الأضواء الخافتة" اقترح السيد مينيللو محاولاً تهدئة أعصابي، خففي من وجود الشموع وإنما ليس الشراب، وقدمي شيئاً في صلصة الكريما"

صحيح أنني لم أكن طاهية بارعة، لكن الأمسية مرت بسلاسة وعلى خير ما يرام.

تمتع كل من آندرسون وزوجته بلباقة عالية، فتصرفا وكأنهما لم يلحظا وضاعة الظروف التي نعيش فيها البتة. لقد أحببتهما كليهما فوراً، وبشكل خاص آندرسون صاحب الوجه المثير للاهتمام. ففي بعض الأحيان، كانت قسماته تبدو

خالية من التعبير تماماً، وعادية وكأنها تعود لرجل من الغرب الأوسط. وفي أحيان أخرى، كان يظهر حدة درامية أضفت على كل شيء شعوراً مريحاً بالواقعية وتولي المسؤولية. لقد كاد يبلغ الكمال في ناظرينا عندما طفق يتحدث عن باريس أثناء العشاء.

فسأله إيرنست: "وماذا عن روما؟" وراح يخبره عن مشاريعنا المؤجلة طويلاً للانتقال إلى إيطاليا.

أجابه آندرسون وهو ينفث الدخان عن طبقه الفارغ: "لا دولتشه فيتا وغيرها... هل هناك ما يمكن ألا تحبه في إيطاليا؟ لكنك إن كنت تطمح للإتيان بأي عمل جدي فعليك بباريس. فهي موئل الكتاب الجيدين الآن، وسعر الصرف أيضاً مناسب. ودائماً هناك ما تفعله في أي ساعة كانت. كل ما حولك مثير للاهتمام، والجميع لديهم ما يسهمون به في الحياة هناك. إنها باريس يا هيم. فكر في الموضوع"

بعد أن آوينا إلى سريرنا الصغير البارد ليلتها، متعانقين كي ندفّئ أيدينا وأقدامنا الباردة، سألني إيرنست عن رأيي بالفكرة.

"هل يمكننا التحول عن فكرة الذهاب إلى روما بهذه البساطة؟ لقد وضعنا الكثير من المخططات"

"ستظل روما بانتظارنا متى رغبنا بأن بالذهاب إليها، وإنما باريس... أود أن نجاري التيار. إن آندرسون خبير في مجال عمله. وإن قال إن باريس هي المكان الذي يجدر بنا أن نقصده فعلينا على الأقل أن نفكر جدياً في الموضوع"

كنا لا نزال مفلسين إلى أبعد الحدود، والأمر برمته كان ليتوقف عند ذلك الحد، لولا أنه قد وصلتني أنباء عن وفاة عمي آرثر ويام تاركاً لي ميراثاً مقداره ثمانية آلاف دولار. لقد كان مريضاً منذ فترة، غير أن منحه لي ذلك المبلغ كان أمراً غير متوقع البتة. لقد كان بمثابة ثروة صغيرة بالنسبة لنا، ضمنت لنا القيام بتلك الرحلة بين ليلة وضحاها. وما إن سمعنا بالنبأ حتى انطلق إيرنست إلى مكتب شيروود ليخبره عن عزمنا على الذهاب إلى باريس، وليسأله عمّا إذا كان بوسعه القيام بأي شيء يمهد لنا الطريق هناك، ويستزيد منه عن المكان الذي يجدر بنا أن نقيم فيه، وعن أفضل سبيل للانطلاق في مجال الكتابة هناك.

بالمقابل، أجابه آندرسون على تساؤلاته كلها قائلاً إن مونت بارنيس كانت المقر الأمثل للفنانين والكتّاب، وإن أفضل مكان نقيم فيه ريثما نعثر على مسكن هو فندق جيكوب في شارع بونابرت. فقد كان نظيفاً وأسعاره مقبولة، ويضم في جنباته وفي المحيط المجاور له الكثير من المثقفين الأمريكيين. وفي النهاية، جلس آندرسون إلى طاولة مكتبه، وخط لإيرنست خطابات تعريف لعدد من المغتربين المشهورين الذين التقاهم مؤخراً وعقد أواصر مودة معهم؛ بمن فيهم غيرترود ستاين، وجيمس جويس، وإيزرا باوند، وسيلفيا بيتش.

جميعهم سيغدون في ما بعد عمالقة في مجال الأدب والفنون، غير أننا لم نكن لندرك حينها سوى أن رسائل آندرسون التي حملناها كبطاقات تعريف كانت أمراً في غاية الأهمية. شكر إيرنست آندرسون على كل ما فعله، ثم هرع إلى المنزل ليقرأ علي كلماته بصوت مرتفع في مطبخنا المعتم، والتي كانت كل منها تحوي الفكرة الأساسية ذاتها تقريباً؛ وهي أن إيرنست هيمنغواي هذا كان محرراً صحفياً غِرًّا وإنما راقي القلم جداً ويتمتع "بموهبة استثنائية" ستحمله بلا ريب إلى آفاق أبعد من حدود الصحافة.

عندما آوينا إلى السرير في ذلك المساء همست بأذنه: "هل أنت ذلك الكاتب الشاب المبدع الذي ما فتئت أسمع عنه؟"

فضمني إليه بقوة قائلاً: "رباه، كم أتمنى ذلك"

وفي كانون الأول من عام 1921، عندما أبحرت سفينة ليوبولدينا نحو أوروبا كنا على متنها. حياتنا المشتركة قد بدأت أخيراً. تشبثنا ببعضنا، وسرحنا بأبصارنا في البحر. كان ممتداً إلى ما لا نهاية، ومفعماً بالجمال والخطر على حد سواء، وقد أردنا ذلك كله.

الفصل الثاني عشر

شقتنا الأولى في باريس كانت تقع في كاردينا ليموان 74. وكانت عبارة عن غرفتين غريبتي الشكل في الطابق الرابع من بناء ملاصق لحلبة رقص عامة، حيث كان بمقدورك في أي ساعة من اليوم أن تبتاع بطاقة وتجر قدميك راقصاً في أرجاء الحلبة ما طاب لك ذلك على نغمات الأوكورديون الصاخبة. كان آندرسون قد نصحنا بمنطقة مونت بارنيس غير أنها كانت تفوق قدراتنا المادية، وكذلك أي من المناطق الأخرى الأكثر حداثة. هنا كانت باريس القديمة، الدائرة الخامسة من المدينة، بعيداً جداً عن المقاهي والمطاعم الجيدة، والتي احتشد فيها عوضاً عن السياح أبناء الطبقة العاملة من الباريسيين بعرباتهم الخشبية والماعز وسلال الفاكهة وأكفهم المفتوحة للتسول. الكثير من الأزواج والأبناء فقدوا خلال الحرب، فكان هناك الكثير من النسوة والأطفال والشيوخ؛ مما جعل المكان يبدو أكثر كآبة مما هو عليه. كان الشارع ذو الحجارة المرصوفة الضخمة يتلوى صعوداً كالثعبان من نهر السين قرب بونت سَلي، منتهياً عند بلايس دي لا كونتريسكارب؛ الساحة التي فاحت برائحة الثملين النتنة الذين ينامون في ممرات المنازل. كنت أحياناً ترى كومة ضخمة من الأسمال التي لا تلبث أن تتحرك فتدرك حينها أن شخصاً بائساً قد تكوم هناك لينام. وباعة الفحم المتجولون أيضاً كانوا يملأون الطرقات الضيقة المحيطة بالساحة وهم يغنون، حاملين أكياس الفحم القذرة على أكتافهم. لقد أغرم إيرنست بالمكان فوراً، أما أنا فقد كنت أشعر بالحنين إلى الوطن وخيبة الأمل.

استأجرنا الشقة مفروشة، بغرفة طعام قبيحة من خشب السنديان، وسرير هائل من خشب الماهوغاني الصناعي ذي التزيينات المذهبة. الفراش كان في حالة جيدة، كأفضل ما يمكن أن يكون في فرنسا، حيث كان الجميع على ما يبدو

يمارسون حياتهم كلها في السرير. فيأكلون ويعملون وينامون ويمارسون الحب كثيراً. ناسبتنا الشقة على الرغم من قلة الأمور التي كانت مرضية بالنسبة لنا فيها، ما عدا رف الموقد الأسود الجميل فوق المدفأة في غرفة النوم.

شرعنا على الفور في إعادة ترتيب الأثاث، فنقلنا طاولة الطعام إلى غرفة النوم، وحركنا البيانو المستأجر إلى غرفة الطعام. وما إن فعلنا ذلك حتى جلس إيرنست إلى الطاولة وشرع بكتابة رسالة إلى ذويه الذين كانوا يتحرقون شوقاً لمعرفة أخبارنا، في حين انكببت أنا على إفراغ حقائبنا وأواني الخزف الصينية وبضعة أشياء جميلة أخرى أحضرناها معنا، كطقم شاي بديع ذي نقوش لورود زهرية اللون مع أوراقها الخضراء كان هدية زفافنا من فوني ورولاند. وفيما احتضنت في كفيّ الإبريق الكروي وأنا أفكر في مكان ملائم أضعه فيه في مطبخي الذي ينتمي إلى العصور الوسطى باغتتني موجة عارمة من الحنين إلى موطني؛ إلى حد دفعني إلى البكاء. لم تكن بلدة سانت لويس تحديداً ما شعرت بالحنين إليه، بل فكرة أكثر شمولاً وضبابية عن الموطن؛ كالأشخاص الذين عرفتهم يوماً وتعلقت بهم والأماكن التي أحببتها. رحت أفكر في الشرفة الأمامية الواسعة لمنزل عائلتي في كابانيه بليس حيث سكنّا حتى ما بعد انتحار والدي بقليل، وفي الأرجوحة التي كانت تصدر صريراً لدى استلقائي عليها مسندة رأسي إلى الوسادة ومثبتة نظري على الألواح الخشبية تامة الاستقامة والمطلية في السقف. وخلال دقائق، غرقت في بحر من الأشواق والحنين إلى درجة أنني وضعت الإبريق من يدي ورحت أنتحب.

"أصوت النشيج ذاك صادر عن قطيطتي المزغبة؟" أتاني صوت إيرنست متسائلاً من غرفة النوم، فتوجهت إليه وأنا أمد ذراعي نحوه ليضمني، ودفنت وجهي الذي بللته الدموع في ياقته، فقال:

"يا للقطة المبتلة المسكينة! تنتابني المشاعر ذاتها يا حبيبتي"

أسندنا الطاولة إلى حافة نافذة ضيقة، أمكننا من خلالها رؤية جوانب الأبنية المجاورة وبعض المحال. وكان قد بقي على الكريسماس خمسة أيام فقط.

"عندما كنت طفلة صغيرة، علقت والدتي أغصاناً من شجيرة البهشية على طول النوافذ ذات الزجاج الأحمر في حجرة الاستقبال. وفي ضوء الشمس أو أضواء الشموع كان كل شيء يلمع متلألئاً. ذاك كان الكريسماس بالنسبة لي"

"دعينا لا نتحدث عن ذلك" رد إيرنست وهو ينهض ليضمني إليه، موجهاً رأسي إلى صدره؛ تماماً في الموضع الذي كان يعلم أنني أكثر ما أشعر فيه بالارتياح والطمأنينة. وعبر خلال ألواح الأرضية والجدران، تسربت إلينا أصوات الأكورديون آتية من قاعة الرقص، فبدأنا نتمايل على وقعها برفق.

قال لي: "سنشعر بالاستقرار هنا، سترين فأومأت برأسي المتكئ إلى صدره، فتابع: "ربما يجدر بنا الخروج الآن كي نتسوق أغراضنا الخاصة بالكريسماس. لا بد لهذا أن يبهج قطتي قليلاً"

فأومأت ثانية، ثم غادرنا الشقة لأجل نـزهتنا التسوّقيّة. في الفسحة القريبة من السلالم عند كل طابق، كانت هناك مغسلة ومرحاض عام يستخدمه المرء واقفاً على دوّاستين. أما الرائحة فقد كانت مريعة.

قلت: "إن هذا بربريّ! لا بد من وجود نظام أفضل لتسيير هذه الأمور

فأجابني إيرنست: "هذا أفضل من قضاء الحاجة من النافذة على ما أظن

في الشارع، توجهنا نحو اليسار قاصدين أسفل التلة، ووقفنا لنسترق النظر عبر باب قاعة الرقص حيث كان هناك بحاران يتمايلان بطريقة بذيئة حول فتاتين شديدتي النحول وتضعان الكثير من أحمر الشفاه. وفوق رؤوسهم امتدت حبال علقت فيها فوانيس من الصفيح ألقت ظلالاً متلألئة على المكان، وجعلته يبدو وكأنه يسبح ويترنح باضطراب.

فقلت: "المكان يبدو أشبه بالكرنفال"

فرد إيرنست: "أتوقع أن الوضع يتحسن عندما يكون المرء ثملاً" وسريعاً اتفقنا على أننا سنجد كل شيء أكثر مرحاً لو كنا ثملين نحن أيضاً.

كنا لا نـزال بحاجة إلى أن ندرك موقعنا في المدينة والطرقات التي تفضي إلى غايتنا، ولكننا مع ذلك اتخذنا طريقاً متعرجاً متوجهين نحو نهر السين، ومارين بالسوربون ومسرح أوديون إلى أن عثرنا على "بري أو كليركس وهو مقهى في رو دي سانت بيريس بدا مشجعاً فدخلناه واحتللنا طاولة بجوار مجموعة من طلبة الطب الإنكليز الذين كانوا يتحدثون عن آثار الكحول على الكبد. كان من الواضح أنهم قد أمضوا وقتاً حميماً مع الجثث مؤخراً.

داعبهم إيرنست بقوله: "بإمكانكم الحصول على كبدي ما إن أنتهي منه، إنما ليس الليلة"

كان تطبيق قانون منع احتساء الشراب الكحولي في أوجه عندما غادرنا الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أننا لم نتوقف يوماً عن احتساء الشراب – ومن تراه فعل؟! – إلا أن الجلوس في مكان عام والاستمتاع باحتساء الشراب بحرية كان أمراً يبعث على الارتياح. طلبنا نوعاً من الشراب أضحى أخضر اللون وشنيعاً ما إن أضفنا إليه الماء والسكر، وحاولنا مع ذلك التركيز عليه بدلاً من غدائنا المخيب للآمال بقطع الجزر الرمادية التي راحت تطفو في الحساء.

"ليس من الصواب أن نمضي فترة الكريسماس بعيداً عن منزلنا. علينا أن نبتاع شجرة مناسبة وأغصان البهشيّة وديكاً سميناً لنشويه في الفرن"

قال لي: "ربما، لكن عوضاً عن ذلك لدينا باريس، وهذا ما أردناه نحن الاثنان"

فقلت: "أجل، لكننا سنعود إلى وطننا يوماً، أليس كذلك؟"

قال: "بالطبع سنفعل" وغامت عيناه. أتراها كانت الذكريات أم القلق حيال المستقبل؟ لست أدري، لكنه استطرد قائلاً: "يجب علينا أولاً أن نعرف كيف نشق طريقنا هنا. أتعتقدين أننا سننجح؟"

فقلت مرائية: "بالطبع سنفعل

في الخارج، خيم الظلام على الشوارع رويداً رويداً، وخلت من المارة، ورأينا حصاناً يجر عربة من الصفيح مملوءة بمياه الصرف الصحي، راحت عجلاتها تلقي على الأرض ظلالاً متراكبة.

أشار إيرنست إلى النادل لكي يحضر لنا قدحين آخرين من الشراب، ورحنا نغرق في الشرب. عندما حان موعد الإغلاق كنا ثملين إلى درجة اضطررنا معها إلى التشبث ببعضنا كي نحافظ على توازننا أثناء سيرنا. ورغم أن طريق الصعود كان أشد صعوبة إلى درجة غير متناهية من النزول، وتحديداً في حالتنا الراهنة، غير أننا تدبرنا أمرنا بخطانا الوئيدة وبتوقفنا للاستراحة في مداخل المنازل، متبادلين قبلات رعناء أحياناً. هذا أمر كان لك أن تفعله في باريس دون أن تلفت الكثير من الانتباه.

وفي المنـــزل، رحنا نتقيأ تباعاً؛ الواحد تلو الآخر في وعاء التبـــول بجانـــب السرير. وعندما ذهبنا إلى السرير، كانت قاعة الرقص القريبة لا تـــزال تصـــخب بالثملين، وقد وصلت نغمات الأوكورديون المحمومة إلى أقصى مـــداها. فركنـــا جبهتينا الرطبتين ببعضهما وقد انتابنا شعور بالغثيان، فيما أبقينا أعيننا مفتوحة كي لا يعصف بنا الدوار. وعندما أوشكنا على الغفو قلت: "سوف نذكر هذا في مـــا بعد. يوماً ما سنقول إن هذا الأوكورديون كان صوت سنتنا الأولى في باريس "الأوكورديون، والتقيؤ. هذه موسيقانا"

أمطرت السماء بغزارة طيلة شهر كانون الثاني، والذي ما إن مر حتى أقبـــل برد شتاء باريس قارساً وصحواً. اعتقد إيرنست أن بمقدوره الكتابة في أي مكان، ولكنه بعد أسابيع من العمل في شقتنا المحشورة، وأنا أحوم حوله على الـــدوام، وجد أنه من الأفضل له أن يستأجر غرفة في مكان قريب جداً مـــن مســـكننا في روديكارت. فمقابل ستين فرنكاً حصل على سقيفة أشبه بدورة المياه في حجمها غير أنها كانت مثالية لاحتياجاته. هو لم يرغب بأي إلهاء وقد حصل على مراده. فقد كانت طاولة عمله مطلة على الأسطح الكريهة وأنابيب المـــداخن لمنـــازل باريس. كان الجو بارداً هناك، غير أن البرد يمكن أن يساعدك على التركيـــز، إلى جانب وجود مجمرة صغيرة حيث بمقدوره أن يحرق حفنة من الغصينات ليـــدفئ يديه.

غرقت حياتنا في الروتين، حيث كنا ننهض من النوم معاً كل صباح لنغتســـل صامتين؛ لأن العمل قد بدأ سلفاً في رأسه. وبعد تناول الفطور، ينطلق إيرنســـت بسترته الصوفية المهترئة وحذائه الرياضي ذي الفتحة في كعبه إلى غرفتـــه حيـــث يمضي يومه كله مناضلاً مع أفكاره وعباراته. وعندما يصبح الجو شديد البرودة، أو عندما تغدو أفكاره ضبابية على نحو يمنعه من الكتابة كان يجوب الشـــوارع علـــى قدميه لساعات طويلة عبر ممرات حدائق لوكسمبورغ البديعة. وعلى طول بوليفارد مونت بارنيس اصطفت مقاهٍ مثل ذا دوم، وذا روتوند، وذا سيلكت، حيث تجـــد الفنانين المغتربين المتأنقين يتحدثون ببلاهة ويعاقرون الشراب حتى يصابوا بالغثيان. كان إيرنست يشعر بالقرف منهم جميعاً.

"لماذا أجد بين كل شخص ألتقيه وآخر من يقول إنه فنان؟ الفنان الحقيقي لا يحتاج إلى التباهي، بل إنه لا يملك الوقت ليفعل ذلك حتى. إنه يقوم بعمله ويكدح بصمت، ولا يمكن لأحد أن يساعده"

من جهتي، كنت أدرك تماماً كيف أن التسكع في المقاهي طيلة اليوم لم يكن عملاً، لكنني في الوقت ذاته تساءلت سراً عمّا إذا كان الجميع يتناولون صنعتهم على القدر ذاته من الجدية كإيرنست. فقد تصورت أن الكثير من الكتّاب الآخرين يعملون في منازلهم ويحتملون إجراء محادثة على مائدة الفطور مثلاً، ويستطيعون النوم خلال أي ليلة دون أن يشعروا بالقلق أو يذرعوا الغرفة جيئة وذهاباً، أو يخربشوا أفكارهم على دفاتر مذكراهم في نور شمعة وحيدة تدخن وتتراقص. لقد افتقدت صحبة إيرنست طيلة اليوم، لكن لم يبدُ أنه كان يفتقد إلى صحبتي؛ ليس عندما يكون لديه عمل يقوم به. لكنه عندما كان يتوق إلى التواصل كان يتوقف لزيارة سيزان ومونت في متحف اللوكسمبورغ، معتقداً أهما قد سبق لهما أن فعلا ما يناضل هو لأن يفعله؛ وهو استخلاص جوهر الأشخاص والأماكن والأشياء. نهر سيزن كان كثيفاً وبنياً وممثلاً واقعياً لمبتغاه. في أيام أخرى، كان إيرنست يعاني شحاً في موارد إلهامه، فتراه يعود في كثير من الأيام إلى المنزل، تعلو وجهه علامات الإرهاق والهزيمة، كما لو أنه كان يصارع أكياساً من الفحم طيلة يومه عوضاً عن جملة واحدة تلو الأخرى.

عندما كان إيرنست يعمل، كنت أعتني بالمنزل فأسوّي السرير، وأمسح الأرض وأزيل الغبار وأغسل صحون الفطور. وفي وقت متأخر من الصباح، أحمل سلة التبضع وأخرج إلى السوق لأبتاع احتياجاتنا متوخّية على الدوام الحصول على الصفقات الفضلى. وعلى الرغم من أن سوق هيلز كانت على الضفة اليمنى من نهر السين وغير قريبة البتة من منزلي إلا أنني كنت أحب السير إليها؛ فتلك السوق تعرف بأنها معدة باريس. لكم أحببت متاهة الأكشاك تلك بعروضها الأكثر غرابة مما سبق لي أن رأيته في موطني على الإطلاق. فقد كانت هناك أنواع لحوم الطرائد، ولحم الغزال كافة، وأكوام هرمية من لحوم الأرانب البرية الطرية الرخوة. كل شيء كان يعرض بشكل طبيعي، فالحوافر والأنياب والفرو جميعها تركت دون أن تمس كي يعرف المرء ما الذي ينظر إليه. وعلى الرغم من أنه كان من المقلق معرفة أن

هذه المخلوقات كانت قبل برهة وجيزة حية وتعدو في الحقول والمزارع القريبة، غير أنه بمجرد حجم المعروضات وتنوعها يكاد يكون أمراً جميلاً، وجميعها قابلة للأكل بشكل أو بآخر. صحيح أنني لم أكن أعرف ما يمكن القيام به بغالبيتها كالإوز وطيور التدرج غير منتوفة الريش، أو سلال الطيور ذات اللون البني الرمادي التي لم أستطع حتى تمييز نوعها، غير أنني أحببت مشاهدتها قبل أن تجذبني إليها أكشاك الخضار والفاكهة. كنت على الدوام أمضي وقتاً أطول مما يلزمني وأنا أتجول في المكان معجبة بأكوام الكراث والجزر الأبيض والبرتقال والتين والتفاح سميك القشرة.

لكن، في الأزقة خلف السوق، كانت اللحوم والفاكهة تتعفن في صناديق، والجرذان تتراكض، في حين تجمعت الحمائم وراحت تنقر بعضها بوحشية مخلفة وراءها ريشها وقاذوراتها. هناك تجلى الواقع، وعلى الرغم من أن حياتي مع إيرنست قد منحتني القوة لمواجهة واقعي، وما لا عهد لي به من قبل في حياتي كلها، غير أنه يبقى واقعاً بغيضاً ومثيراً للغثيان بالنسبة لي. كان الأمر كما لو أنك تنظر إلى المزاريب في بليس دي لا كونتريسكارب، حيث تدفقت الأصبغة الملونة بحرية من عربات بائعي الزهور: جمال وافر يخفي تحته قبحاً. ما كان ذاك الذي قاله إيرنست منذ أمد بعيد عندما كنا في شيكاغو؟ *الحب كاذب وجميل*؟ والجمال كاذب أيضاً. عندما رأيت الجرذان للمرة الأولى، أردت أن ألقي سلتي على الأرض وأهرول بعيداً، غير أننا لم نكن غنيّين كفاية للقيام بمثل تلك الأفعال الرمزية، فتابعت المسير.

من الأزقة المتفرعة عن شارع لي هاليس سرت نحو نهر السين. كان رصيف الميناء صلباً ومهيباً، ونسائمه الباردة تخترق معطفي الرقيق. لكن بعده بقليل كانت جزيرة إيل سانت لويس، بمنازلها الجميلة المعتنى بها، وشوارعها الأنيقة التي جعلتها أشبه بالواحة. فسرت عبر تلك الجزيرة الغناء حتى وصلت إلى أطرافها، فألفيت نفسي أمام متنزه انتصبت فيه أشجار البندق الكثّة، جاءت بعدها سلالم صغيرة أفضت إلى ضفة النهر في الأسفل، حيث ألقى الصيادون صناراتهم أملاً باصطياد سمك *الغوجون*، ومن ثم قليه في المكان ذاته. ابتعت منهم كمية قليلة لفّوها لي بورق الجرائد، ثم جلست على حافة الجدار المنخفض أراقب السفن البخارية وهي تمخر

عباب النهر تحت جسر بونت سَلي. السمك الذي كنت أحمله في يدي كان هشاً وتكسوه طبقة من الملح الأبيض كالثلج، ورائحته البسيطة والزكية جعلتني أفكر في أنني قد أجد فيه منقذاً لحياتي ولو قليلاً؛ ولو للحظات.

الفصل الثالث عشر

"هذا مكان بديع الجمال إلى حد الألم" هذا ما قاله لي إيرنست في إحدى الأمسيات ونحن نسير متجهين لتناول وجبتنا المسائية في المقهى الذي أصبحنا نداوم التردد عليه في رو دي سانتس بيريز. ثم تابع: "ألسنا مغرمين به؟"

أنا لم أكن كذلك، على الأقل ليس بعد. بل كنت أشعر بالرهبة تجاهه. فالسير في أفضل شوارع باريس آنذاك كان أشبه بالستارة وهي ترتفع عن أبواب سيرك سيريالي فتتمكن من مشاهدة ما يحويه من غرائب وروائع في أي وقت كان. بعد التقشف الذي فرضته الحرب على الناس، حيث انهارت صناعة الأقمشة وأغلقت الكثير من دور الأزياء أبوابها، أضحى الحرير زاهي الألوان الآن يجري في شوارع باريس جريان الماء في الغدير بألوان مذهلة من الأزرق والأخضر والبرتقالي والذهبي. مستوحياً من العروض المستشرقة لفرقة الباليه الروسي الشهيرة Ballets Russes، قام بول بواريه بإلباس النساء سراويل قصيرة كحريم القصور، وعمامات مطرزة مع حبال طويلة من اللؤلؤ. وفي مقارنة صارخة، كانت شانيل أيضاً في طريقها لأن تصنع لنفسها اسماً، وإنما لديها كنت ترى في خضم كل تلك الألوان، لوناً أسود بأشكال هندسية. ومع الوقت، باتت كلمة "الأناقة" مكرسة أكثر فأكثر لوصف قصة شعر قصيرة، مع أظافر مطلية، وحامل سجائر مصنوع من العاج وطويل على نحو غير معقول. كما أصبحت مرتبطة بالجسم الضامر الجائع، وهو ما لم أكن عليه يوماً. حتى عندما عانينا من الجوع لم أفقد يوماً استدارة وجهي وذراعي الممتلئتين. فضلاً عن أنني لم أكترث قط بالملابس على نحو كاف يدفعني للتفكير في ما قد يناسبني. بل كنت أرتدي الأسهل بين ما هو متاح، والأقل حاجة للرعاية؛ كتنانير صوفية طويلة، وكنزات تفتقر إلى شكل محدد،

وقبعات صوفية تشبه الجرس في شكلها. ولم يبد على إيرنست أنه يمانع، فإن حدث وأبدى رأيه بالموضوع كان يرى أن النساء اللاتي يتأنقن بشدة سخيفات. وكان ذلك ينسجم مع طبيعته في تفضيل الأشياء كلها بسيطةً؛ كطعام لذيذ وبسيط الإعداد، وشراب ريفيّ يكاد يكون قابلاً للمضغ، والفلاحين ذوي اللغة والقيم غير المعقدة.

"أريد أن أكتب جملة واحدة صادقة. إن استطعت أن أكتب جملة واحدة بسيطة وصادقة كل يوم فسأكون في غاية الرضى

كان إيرنست مكباً على عمله مذ أتينا إلى باريس، وكان يعمل على قصة بدأها أثناء شهر عسلنا في ويندمير اسمها "Up in Michigan" كانت عن حداد وخادمة يلتقيان في خليج هورتن بي وتتطور علاقتهما فتصبح حميمة. وقد قرأ علي بعضاً من مقاطعها منذ البداية حيث كان بصدد وصف القرية والمنازل والبحيرة والطريق الرملي محاولاً الإبقاء على بساطة الأشياء ونقائها كما يتذكرها، ولم يسعني إلا أن أشعر بالصدمة لأن ما كتبه كان فجاً وواقعياً.

كانت طموحاته في ما يتعلق بكتابته شاملة ولا تعرف حدوداً. كانت الكتابة عقيدته الخاصة، ومع ذلك كان لا يزال متحفظاً تجاه فكرة إرسال رسائل التعريف التي كتبها له شيروود أندرسون إلى أي من المغتربين الأمريكيين. بتقديري، كان يخشى أن ينبذه البعض، فكان يفضل إقامة صداقات مع الطبقة العاملة في باريس ويشعر معهم بالراحة أكثر. لغتي الفرنسية كانت متصلبة ومستقاة من المدرسة، أما لغته فقد التقطها من هنا وهناك خلال الحرب، فكانت غير متقيدة بنظام أو بقواعد اللغة، بل كانت لغة العامة المناسبة للمحادثات التي تنشأ على ناصية الشارع مع الطباخين والبوابين وميكانيكيي السيارات، فبينهم كان يشعر بأنه على طبيعته دون الحاجة إلى أن يتخذ موقفاً دفاعياً.

لكننا مع هذا كنا في تلك الليلة على موعد للعشاء مع لويس غالانتيير، وهو كاتب صديق لشيروود، أصله من شيكاغو ويعمل حالياً في غرفة التجارة العالمية. وقد شاع عنه أنه من أصحاب الذوق الرفيع، فعندما التقاه إيرنست أخيراً في شقته في شارع حين غوجون ألفاها مملوءة بالتحف باهظة الثمن واللوحات المنقوشة التي وصفها لي بالتفصيل لدى عودته إلى المنزل. "الطاولات والكراسي جميعها قد

زينت بأقمشة مهفهفة طويلة تصل إلى الأرض. شخصياً، أراه مبهرجاً أكثر من اللازم. لكن يمكن للمرء أن يلمس بسهولة أن الرجل على اطلاع بما هو أنيق"

أما أنا فقد شعرت بالتوتر للقاء غالانتيير لأنني كنت أبعد ما يمكن عن الأناقة، و لم أشعر بأنني أنتمي إلى باريس على الإطلاق. فإن كانت نساء باريس كالطواويس فقد كنت كالدجاجة بينهن. ورغم أنني قد رضخت مؤخراً لما هو رائج وقصصت شعري قصيراً - لعلي كنت آخر امرأة أمريكية تفعل ذلك - إلا أنني كرهته. فقد جعلني أبدو كصبي ذي وجه شبيه بالتفاحة. صحيح أن إيرنست حرص على أن يخبرني كم أحب مظهري الجديد في كل مرة يراني فيها أختلس النظر إلى نفسي في المرآة، إلا أنني كنت أشعر برغبة شديدة في البكاء. لعل شعري كان بعيداً عن خط الموضة وعائداً للعصور الفيكتورية، إلاّ أنه كان شعري ويمثلني أنا. أما الآن فماذا أضحيت؟

دعانا لويس إلى مطعم حديث في ميشيغان اعتدت أن أقف أمام واجهته فقط كي أحدق عبر نوافذه. وعندما وصلنا، توقفت عند الباب ورحت أهندم ثيابي بيأس، لكن إيرنست على ما يبدو لم ينتبه بتاتاً إلى ما يدور في نفسي، إذ أمسك بمرفقي بعزم ودفعني بلطف وتصميم باتجاه لويس وهو يقول: "ها هي المرأة الذكية الفاتنة التي أسهبت بالحديث عنها أمامك"

فرد لويس: "هادلي، إنه لشرف لي" فيما تضرجت وجنتاي حمرة. لقد شعرت بالإحراج من الموقف لكنني أحببت كون إيرنست فخوراً بي إلى هذا الحد.

كان لويس في السادسة والعشرين من عمره، أسمر البشرة، نحيلاً وجذاباً على نحو غير متناهٍ. قام بتقليد عدد من الشخصيات بطريقة مضحكة للغاية، لكنه عندما قدم أفضل ما عنده مقلداً جيمس جويس توجب عليه أن يشرحه لنا. كنا قد لمحنا جويس مرات قليلة في شوارع مونتبارنيس، بشعره المسرح بعناية ونظارته التي بلا إطار ومعطفه عديم الشكل. لكننا لم نسمعه قط وهو يتكلم.

"إنه يتكلم بالفعل"، قال لويس مصراً، "وإنما تحت شيء من الإكراه فقط. ولديه بضع مئات من الأطفال كما تناهى إلي"

علقت قائلة: "لقد رأيت فتاتين معه"

"اثنتان أو مئتان، الأمر سيان في باريس أليس كذلك؟ يقولون إنه بالكاد قادر على تحمل تكاليف إطعامهم. لكنك إن أتيت إلى ميشاود في أي يوم في الأسبوع في تمام الخامسة، لوجدتهم جميعهم يلتهمون دلاء من المحار

سأله إيرنست: "الجميع يقولون إن قصيدته أوليسيس *Ulysses* رائعة. لقد قرأت بضعة فصول متسلسلة منها، فألفيتها تختلف عما اعتدت عليه. لكن أتعلم، هناك أمور هامة ستتبلور فيها"

"إنها مذهلة جداً. إن جويس سيغير كل شيء إن كنت تصدق بوند. هل ذهبت إلى استديو بوند؟"

أجابه إيرنست: "قريباً" رغم أنه لم يكن قد أرسل رسالة التعريف تلك أيضاً.

"أحسنت يا رجل، عليك أن تذهب. ليست لدى الجميع القدرة على احتمال بوند، لكن لقاءه أمر إلزامي

فسألت لويس: "ولكن، ما الصعوبات المرتبطة ببوند؟"

فضحك قائلاً: "هو بحد ذاته في الواقع. ستريان، إن كان جويس هو البروفيسور الهادئ بمعطفه القديم وعصا المشي الخاصة به، فإن بوند هو الشيطان، فهو متعالٍ وشبه مهووس بالحديث عن الكتب والفن"

تجرع إيرنست ما بقي في قدحه من شراب وهو يقول: "لقد التقيت الشيطان، وهو لا يكترث البتة بالفن"

ومع نهاية الأمسية، بتنا ثملين جميعاً، وكنا قد عدنا إلى شقتنا حيث حاول إيرنست إقناع لويس بأن يلاكمه قائلاً: "نصف جولة فقط لأجل الضحك" وهو يتمايل يمنة ويسرة بعد أن تعرى حتى خصره. غير أن لويس رده مبتعداً وهو يقول: "لم أكن يوماً رجلاً مصارعاً يا صديقي غير أن بضع كؤوس أخرى كانت كفيلة بأن تجعله يرضخ. كان يجدر بي أن أفعل شيئاً لأحذره بأنه أياً كان ما يقوله إيرنست، فإن الرياضة لم تكن يوماً بالنسبة له موضع هزل. لقد رأيت النظرة في عينيه في شيكاغو عندما كاد يلقي دون رايت على الأرض في شقة كينلي. مجريات هذه مباراة كانت مطابقة بحرفيتها لسابقتها. ففي الدقائق الأولى كان المشهد مسلياً كالرسوم المتحركة، فقد انحنى الرجلان ثانيين ركبهما ومكوّرين قبضاتهما. كان

من الواضح جداً أن لويس ليس رياضياً، فاعتقدت أن إيرنست سيتخلى عن الفكرة كلياً، ولكنه فجأة ومن دون أي حركة استفزازية من لويس، أرسل إليه وبكل قوة لكمة حيّة في منتصف وجهه.

حطت قبضته بقوة جعلت رأس لويس يتراجع إلى الخلف ومن ثم يعــود إلى مكانه، وأطاحت بنظارته عن وجهه إلى زاوية الغرفة لتتحطم مئة قطعة.

هرعت إليه لأساعده في لم شتات نفسه، لكنني وجدته غارقاً في الضــحك، فبدأ إيرنست بالضحك أيضاً، وبات كل شيء على ما يرام في النهاية. لكــنني لم أستطع منع نفسي من التفكير بأننا كنا على وشك أن نفقد الصديق الوحيد الذي لدينا في باريس.

يعود الفضل إلى لويس لكونه شحذ عزيمة إيرنست ليرســل بقيــة رســائل التعريف، وسرعان ما وصلته دعوة من إيزرا بوند. لم يكن بوند ذا شهرة واســعة في الولايات المتحدة الأمريكية بعد، إلا إذا كان المرء يعرف شيئاً عن الشعر ويقــرأ المجلات الأدبية من قبيل *ذا دايل، وذا ليتل ريفيو*، لكن سمعته في باريس كانت رائعة كشاعر وناقد يساهم في إحداث تغيير جذري في الفن الحديث. شخصياً لم أكــن أعرف سوى الفتات عما كان يعد حديثاً – فقد كنت لا أزال أقرأ لهنري جيمس ذي الأسلوب الصريح والمباشر، كما كان يطيب لإيرنست أن يذكرني – غــير أن لويس ذكر أشياء لطيفة عن زوجة بوند الإنكليزية، دوروثي. وقد كنت حريصــة على إنشاء صداقات جديدة، وسعيدة بمرافقة إيرنست عندما دعاه بوند لاحتســاء كوب من الشاي.

استقبلتنا دوروثي عند الباب، وقادتنا إلى داخل الاستديو الذي كان عبارة عــن غرفة فسيحة الأركان، ومملوءة باللوحات واللفائف المنسدلة اليابانية، مع أكوام متفرقة من الكتب تناثرت هنا وهناك. لقد كانت زوجة بوند رائعة الجمال، ذات جبهة عالية وبشرة كالدمى الصينية. يداها كانتا شاحبتين بأصابع أنيقة، وقــد كانــت تهمــس الكلمات همساً أثناء سيرنا إلى مكان وجود بوند الذي وجدناه جالساً على مقعد أحمر ضارب للرمادي، وقد أحاطت به رفوف رصفت عليها الكتب والمجلــدات المغــبرة، وأكواب الشاي التي علتها البقع، وحزم من الأوراق، والتماثيل غريبة المظهر.

"أنت صهباء!" بادرني بوند عندما قامت دوروثي بتعريفنا إلى بعضنا.

فرددت قائلة: "وأنت كذلك، هل يبشر ذلك بالخير؟"

"لا أحد يحمل الضغينة مثل الشخص الأصهب" قالها بمنتهى الفظاظة والجدية، ثم التفت إلى إيرنست مستطرداً: "كن على حذر أيها السيد الشاب هيمنغواي"

"أمرك سيدي" رد إيرنست كتلميذ مطيع.

وبالفعل، أضحى إيرنست تلميذ بوند منذ اللحظة التي التقت فيها عيونهما. فقد كان من الواضح أن بوند يتمتع بالقدرة على تمييز الشخص المتعطش للمعرفة، واستطاع ترويض إيرنست من خلال الحديث بلا توقف، فيما أشارت لي دوروثي لأنضم إليها في زاوية أخرى من الاستديو، بعيداً عن الرجلين. وتحت نافذة طويلة تدخل منها أشعة الشمس جلسنا، وصبت لي قدحاً من الشاي، وراحت تحدثني عن نسبها الشهير.

"إن اسمي هو شكسبير، إنما دون الحرف e في نهايته. والدي في الواقع سليل الشاعر العظيم نفسه"

سألتها: "لكن، لماذا دون الحرف e؟"

"ليست لدي فكرة. الواقع أنه بوهيميّ أكثر هكذا. علماً أنني لست بحاجة إلى الدعم في هذا المجال، فوالدتي كونت سمعة سيئة نوعاً ما لكونها كانت عشيقة ويليم باتلر ييتس لفترة من الزمن، وهكذا التقيت إيزرا، فقد كان مساعد ييتس. أعتقد أنه كان ينبغي لي أن أكون شاعرة مع تاريخي هذا، لكنني تزوجت واحداً عوضاً عن ذلك"

"كنا نقرأ القليل من أعمال ييتس في المدرسة إلى جانب روبرت براونينغ وأوليفر ويندل هولمز. لقد أراني إيرنست "*ذا سيكوند كومينغ*" في إحدى المجلات، وقد أذهلتنا كلينا"

فردت مقتبسة: "*أفضل الناس يفتقرون إلى الإيمان الراسخ والقدرة على الإقناع، فيما يتمتع أسوؤهم بعاطفة قوية حيال قناعاته*" ثم تابعت: "أتساءل كيف كان عمي ويلي ليشعر حيال العاطفة القوية الموجودة هنا كلها؟"

هناك في الزاوية الظليلة من الاستديو، جثم إيرنست حرفياً عند قدمي بوند، في حين استرسل الرجل الأكبر منه سناً في حديثه ملوحاً بإبريق شاي يحمله في يده.

بالنظر إليه أدركت لِمَ شبهه لويس غالانتيير بالشيطان. فشعره المتطاير الذي يزداد تشعثاً طول الوقت، ولحيته التي بدت كالأوتار لم يكونا السبب في ذلك وحسب، بل زادت طبيعته المتقدة الطين بلة. صحيح أنني لم أتمكن من سماع مفرداته، لكن الكلام ما فتئ يخرج من فمه كسيول من الحمم البركانية، والتعبيرات على وجهه لا تنضب، فضلاً عن كونه نادراً ما يجلس ساكناً.

شكل الزوجان برأيي ثنائياً غريباً، فدوروثي غاية في الأناقة والتحفظ بينما كان بوند صاخباً للغاية، لكنها ادعت أنه كان مهماً جداً لعملها. فقد كانت رسامة، وأثناء تجاذبنا أطراف الحديث في أصيل ذلك اليوم أرتني بعضاً من لوحاتها. أخبرتها أنني أجدها بديعة؛ بألوانها وأشكالها الناعمة المماثلة لصوت دوروثي نفسها ويديها. لكنني عندما بدأت بطرح الأسئلة عليها عن لوحاتها، سارعت بالقول: "إنها ليست للعرض

قلت لها: "أوه، حسناً. لكنك تعرضينها هنا أليس كذلك؟"

فأجابت: "على نحو عرضي فقط" وابتسمت ابتسامة عذبة جعلتها هي نفسها تبدو جزءاً من لوحة بديعة.

وبعد نهاية زيارتنا، ودعنا مضيفينا، ونزلنا السلالم الضيقة خارجين إلى الشارع. وهناك قلت له: "أريد أن أعرف كل ما جرى"

"إنه شديد الجلبة، لكن لديه أفكاراً جيدة، أفكاراً كبيرة حقاً. إنه يريد الشروع بحركات فنية، وتشكيل الأدب، وتغيير حياة الناس

"إذاً، من الجيد معرفة شخص مثله. إنما كن على حذر كي لا تثير حفيظته؛ فقد حذرك من ذوي الرؤوس الحمراء"

ضحكنا من تعليقي، وقصدنا أقرب مقهى حيث أخبرني إيرنست المزيد ونحن نحتسي الشراب، إذ قال: "لديه آراء مضحكة في ما يتعلق بعقول النساء"

"مثل ماذا؟ أهن لا يملكن عقولاً؟"

"شيء من هذا القبيل"

"وماذا عن دوروثي؟ ما رأيه بعقلها؟"

"من الصعب التوقع، رغم أنه أخبرني أن بينهما اتفاقاً يقضي بالسماح لبعضهما باتخاذ العشاق"

هتفت: "يا لها من جرأة في التفكير! هل تعتقد أن زيجات الفنانين كلهم في باريس تسير على هذا النحو؟"

"أنى لي أن أعرف؟"

"إنه أمر ليس بمقدور المرء فرضه على شخص آخر. عليك أن تكون متقبلاً للفكرة وموافقاً عليها، ألا تعتقد ذلك؟"

"هل تشعرين بالأسف لأجلها؟ ماذا لو كان الأمر يروق لها؟ ماذا لو كانت هذه فكرتها أصلاً؟"

"هذا وارد، لكنني أرجح أن يكون العكس هو الصحيح" وارتشفت من كأسي رشفة وأنا أنظر إليه.

"بالنسبة لي، لقد قال إنه سيرسل بعضاً من قصائدي إلى يكوفيلد ثاير في صحيفة *ذا دايل*

"قصائد وليس قصصاً؟"

"ليس في جعبتي شيء حسن لأقدمه بعد، لكن بوند قال إنه علي أن أكتب مقالات لهم عن المجلات الأمريكية"

"إن هذا لإطراء بحق"

"لا بد أن تكون هذه هي البداية لشيء ما. يقول بوند إنه سيعلمني كيف أكتب إن علمته كيف يلاكم"

فهتفت ضاحكة: "أوه، ساعدنا يا الله!"

لقاؤنا الهام التالي أتى بعد بضعة أسابيع حين وصلتنا دعوة من غيرترود ستاين لاحتساء الشاي. الغريب أن الأمور سارت تماماً مثل لقائنا مع بوند ودوروثي. فهناك أيضاً زاويتان؛ إحداهما للرجال - ولكنها ضمت في هذه الحالة ستاين وإيرنست - والأخرى للنساء؛ دون أي اتصال بينهما مهما يكن.

لدى وصولنا إلى الباب استقبلتنا خادمة فرنسية حسنة التصرف، وأخذت معطفينا، ثم قادتنا إلى الغرفة التي عرفنا حتى ذلك الوقت أنها تمثل أهم صالون في باريس. كانت الجدران مغطاة بلوحات من صنع رواد المدارس التكعيبية وبعد الانطباعية، وكذلك لوحات فناني الحداثة المشهورين أمثال هنري ماتيس، وأندريه

ديرين، وبول غاوغوين، وخوان غريس، وبول سيزانه. أحد الأمثلة الصارخة على أهمية تلك اللوحات كان لوحة عن ستاين نفسها نفذها بيكاسو الذي كان ضمن دائرة العلاقات الاجتماعية لفترة طويلة. وقد رسمها بـألوان غامقة من البني والرمادي، وظهر الوجه مستقلاً قليلاً عن الجسد. إذ بدا أثقل وأضخم مع عينين ثقيلتي الأجفان.

تراءى لي أنها ما بين الخامسة والأربعين والخمسين من العمر بثوبها القاتم قديم الطراز، وشالها الذي لفته على كتفيها، ولفافات شعرها المصففة فوق رأسها الجميل على نحو رائع. كان صوتها مخملياً، أمّا عيناها فبنيتان وقادرتان على أن تحيطا بكل ما حولها بنظرة واحدة. لاحقاً، تسنى لي الوقت كي أدرس تفاصيلها على نحو أفضل، ففاجأني الشبه الكبير بين عينيها وعيني إيرنست؛ فعيناها بنيتان غامقتان إلى أقصى درجة من درجات ذلك اللون، وناقدتان ومتقبلتان وفضوليتان وتعبران عن الاستمتاع؛ كل ذلك في آن واحد.

رفيقة ستاين، أليس توكلاس، بالمقابل بدت كحزمة من الأسلاك المشدودة. فقد كانت غامقة البشرة، وذات أنف حاد وعينين تولدان لديك الرغبة بالنظر بعيداً. وبعد بضع دقائق من التحدث بالعموميات، أمسكت بيدي وقادتني إلى "ركن الزوجات" اجتاحتني موجة من الندم لأنني لم أكن كاتبة أو رسامة أو أي شخص يتمتع بشيء خاص على نحو كاف كي أدعى للجلوس مع غيرترود أمام النار كما فعل إيرنست، وكي أتحدث معها حول أمور ذات قيمة. فقد أحببت أن أكون محاطة بأناس خلاقين ومثيرين للاهتمام، وأن أكون جزءاً من ذاك الازدهار الثقافي. لكنني حالياً استبعدت إلى الزاوية، حيث قامت الآنسة توكلاس باستجوابي حول أحداث الساعة والتي كنت جاهلة بها تماماً. شعرت أنني غبية، وطيلة فترة جلوسنا معاً تناولنا الشاي، ومزيداً من الشاي، ومعه كعكات صغيرة مرتبة بطريقة فنية. كانت مضيفتي تعمل بالتطريز على القماش، وطوال الوقت كانت يداها تتحركان بحرفية عالية ودونما توقف، دون أن تلقي أي نظرة على عملها، ودون أن تتوقف عن الكلام.

في تلك الأثناء، كان إيرنست يتشاطر قدحاً من الشراب مع غيرترود. أعتقد أنني أحببت تلك المرأة في ذلك اليوم ومن بُعد، وكذلك فعل إيرنست أيضاً. وأثناء

سيرنا إلى المنـــزل، كان في جعبته الكثير عن ذوقها الذي كان مجدداً وخالياً مـــن الشوائب. كما أنه عبر عن إعجابه بصدرها وتساءل:

"كم تعتقدين أنه يزن؟" بدا لي أنه جاد في رغبته معرفة الجواب.

أجبته ضاحكة: "ليس بمقدوري حتى أن أخمن

فاستطرد: "وماذا بشأنهما؟ اثنتان من النساء تعيشان معاً؟"

"لا أدري، ربما اعتادتا هذه الحياة"

"واللوحات وحدها جعلت المكان أشبه بمتحف هناك"

"بل وأفضل من المتحف، إذ لديهما كعك"

"لكنني لا ازال أجد الفكرة غريبة. لست واثقاً من أنني مقتنع بالأمر

"ولكن، ماذا تعني؟"

فأجاب بلهجة نـــزقة دفاعية: "لست أدري"

"أنت مريع!"

"أجل، لكنك تحبينني لذلك"

فقلت: "أحقاً أحبك؟" فصفع يدي بمحبة.

بعد أسبوعين، قبلت غيرترود وأليس دعوتنا لتناول الشاي في شقتنا الوضيعة. ترى، ماذا جال في خلدهما وهما ترتقيان السلالم المظلمة المتهالكة، وتمـــران أمـــام الحمامات المشتركة بروائحها المقززة؟ لم أكن أحتمل حتى الـــتفكير في جـــواب. لكنهما كانتا على قدر كبير من اللطف واللباقة، وتصرفتا وكأنهمـــا اعتادتـــا أن تقصدا هذه الأجزاء من باريس طوال الوقت. غير أنهما شربتا الشاي مـــن طقـــم الشاي الخزفي الصيني الذي كان هدية عرسنا - *وهذا* على الأقل كان شيئاً جمـــيلاً - وجلستا على سرير الماهغوني.

كانت غيرترود قد عرضت على إيرنست أن تطّلع على شيء من أعماله، والآن طلبتها منه، وراحت تقرأ بسرعة القصائد وبعض القصص وجـــزءاً مـــن رواية تدور أحداثها في ميشيغان. وتماماً كما كان حاله عندما قرأت عملـــه في شيكاغو للمرة الأولى، راح إيرنست يذرع المكان جيئة وذهاباً بقلق ويتلـــوى كما لو أنه متألم.

أخيراً قالت ستاين: "القصائد ممتازة جداً. فهي بسيطة وواضحة تماماً، وأنت لا تقف فيها عند حد"

سأل إيرنست متلهفاً: "ماذا عن الرواية؟"

برأيي، كانت جرأة كبيرة من إيرنست أن يسألها، أو حتى أن يريها الصفحات أصلاً؛ لأنه حديثاً كان مغرماً بروايته تلك. لقد كان مفرطاً في حمايتها، ولم يعرض علي منها سوى القليل جداً.

بعد صمت قصير قالت أخيراً: "إنها ليست من أنواع الكتابة التي تستجلب اهتمامي. ثلاث جمل لوصف لون السماء. السماء هي السماء، هذا كل شيء. الجمل البيانية القوية هي ما تبرع به أنت، فحافظ على ذلك"

بينما طرقت كلمات ستاين مسمَعَي إيرنست، بدت أمارات الإحباط على وجهه لثوانٍ، لكنه تعافى منها بسرعة. فقد كانت تعزف على وتر الأسلوب المباشر الذي اكتشف أهميته مؤخراً، أسلوب تجريد اللغة من جميع العوائق التي يمكن أن تثقل كاهلها.

واصلت ستاين حديثها: "عندما تبدأ العمل على الرواية من جديد، دع فقط ما هو ضروري فعلاً"

أومأ إيرنست برأسه وقد احمرت وجنتاه قليلاً، وكدت أسمع عقله وهو يغلق بالمتاريس على نصيحتها واضعاً إياها جنباً إلى جنب مع نصيحة بوند. فقد قال له الأخير: "احذف كل ما هو فائض، وانطلق دونما خوف من العوائق. لا تملِ على القراء ما يفكرون فيه، بل دع الأفعال تتحدث عن نفسها"

سألها: "ما رأيك في نظرية بوند حول الرمزية؟"

فقالت: "رأيي واضح أليس كذلك؟ الصقر هو الصقر دائماً، إلا... وهنا رفعت أحد حاجبيها الكثيفين، وابتسمت ابتسامة غامضة قبل أن تستطرد قائلة: "عندما يكون الصقر حبة ملفوف"

"ماذا؟!" قالها إيرنست مبتسماً بسخرية، وإنما كان من الواضح أنه محتار.

كان ردها: "تماماً"

الفصل الرابع عشر

خلال الأسابيع التالية، عمل إيرنست بنصيحة غيرترود وشطب الكثير من روايته ليبدأ بها من الصفر تقريباً. في تلك الفترة، كان يعود إلى المنزل مصفراً ومتهالكاً من شدة الجوع، وتواقاً لأن يريني ما أنجزه. حيث كانت الصفحات تضج طاقة وحيوية متحدثة عن مغامرات، وصيد حيوانات وأسماك... كان اسم شخصيته الرئيسة هو نيك آدمز، وقد تمثلت فيه صفات إيرنست؛ إنما كان أكثر جرأة ونقاءً؛ كما قد يكون إيرنست لو اتبع فطرته. لقد أحببت ما كتبه، وعلمت أنه أحبه هو أيضاً.

في تلك الأثناء، اكتشف إيرنست مكتبة شيكسبير آند كومباني الضخمة لمؤسستها سيلفيا بيتش على الضفة اليسرى لنهر السين، وتفاجأ حين علم أنها مستعدة لأن تعيره كتبها بالدين. فعاد إلى المنزل متأبطاً مجلدات لتورجينيف، وأوفيد، وهومر، وكاتولوس، ودانتي، وفلاوبيرت، وشتندهال. كان بوند قد أعطاه قائمة طويلة بكتب ينصحه بقراءتها، والتي تهدف إلى إعادته إلى أقطاب الأدب القدامى، وفي الوقت ذاته ترسم له الطريق نحو تي. إس. إيليوت، وجيمس جويس. كان إيرنست تلميذاً مجداً، فقد التهم كل ما وقعت عليه يداه؛ قارئاً ثمانية أو عشرة كتب في الوقت ذاته، فيضع واحداً من يده ويتناول آخر؛ مخلفاً كتبه مفتوحة ومقلوبة في أرجاء الشقة كلها. كما استعار من المكتبة كتابي *Three lives* *حيوات ثلاث*، و*Tender Buttons* *أزرار ناعمة*، وهما كتابان لغرترود نشرتهما على نطاق ضيق لخاصة القراء. بدا أن معظم العالم الأدبي لم يدر ما عساه يصنع مع غرابتها، وكذلك الحال مع إيرنست. لقد قرأ علي قصيدة من *Tender Buttons*:

"إبريق من الزجاج المصمت. نوع من الزجاج وابن عم، نظارة ولا شيء غريب، لون مؤلم وحيد وتسوية في نظام يسوق إلى الهدف"

وضع الكتاب من يده هازاً رأسه، ثم طفق يقول: "*لون مؤلم وحيد* عبارة جميلة، أما ما تبقى فلا أفهم كنهه"

"إنه مثير للاهتمام"

"أجل، إنما ماذا يعني؟"

"لست أدري. لعله لا يعني شيئاً"

"ربما" أنهى الحديث متناولاً كتاب تورجينيف ثانية.

بتنا في شهر نيسان، مما يعني ربيعنا الأول في باريس، فصل الأمطار الدافئة المتساقطة برقة. منذ وصولنا، كان إيرنست يدعم دخلنا المتواضع بكتابة افتتاحيات لمجلة *تورنتو ستار*. وفي أحد الأيام، وصله إشعار من المحرر فيها جون بون أنهم يريدونه في جينوا لتغطية مؤتمر اقتصادي عالمي، وسيدفعون له خمسةً وسبعين دولاراً أسبوعياً إلى جانب النفقات، لكن لم يكن هناك أي مخصصات لرحلة الزوجات. لذا توجب علي أن أبقى في باريس ليكون ذلك ابتعادنا الأول عن بعضنا في زواجنا الذي مضت عليه حتى ذلك الوقت سبعة شهور.

قال لي وهو يحزم مع أمتعته راديو الكورونا المحبب خاصته: "لا تقلقي يا قطتي، سأعود قبل أن تشعري بغيابي"

في الأيام الأولى بعد سفره استمتعت فعلاً بعزلتي. فقد كان إيرنست شخصاً كبيراً مجازياً. لقد شغل الهواء كله في الغرفة وجذب كالمغناطيس إليه النساء والرجال والأطفال وحتى الكلاب. وللمرة الأولى منذ أشهر عديدة تمكنت من الاستيقاظ بهدوء وصمت لأستمع إلى صوت أفكاري وأتبع اندفاعاتي الخاصة. لكن هذا الحال لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما حدث تحول لا أدري كيف أصفه. فبعد أن خبت متعة وحدتي غدوت واعية جداً لغياب إيرنست، كما لو *افتقاري إليه* انتقل ليعيش معي في الشقة. خياله كان معي أثناء الفطور ووقت النوم، متدلياً من ستائر غرفة النوم، تدفعه موسيقى الأكورديون داخلاً وخارجاً ككير الحداد.

اقترح علي إيرنست أن أذهب إلى مكتبة سيلفيا لتناول الشاي، وقد فعلت ذلك لمرة واحدة في الواقع، لكنني شعرت أنها أشركتني في أحاديثها بدافع التهذيب. كانت تحب الكتّاب والفنانين، وأنا لم أنتمِ إلى أي من تينك الفئتين. كذلك تناولت

الغداء مرة مع غيرترود وأليس في منـــزلهما. وعلى الرغم من أنني شعرت بأنهمـــا حقاً في طريقهما لأن تصبحا بمثابة صديقتين لي إلا أنني افتقدت إيرنست. صـــحبته كانت أقصى ما أحبه وأرغب فيه من بين الجميع. كان مـــن المحـــرج بالنســـبة لي الاعتراف إلى أي حد أصبحت متكلة على إيرنست. فحاولت أن أدرأ عن نفســـي الشعور بالكآبة بأن ألبـــي كل دعوة تأتيني، وأن أمضي أطول وقت ممكن خارج الشقة.

رحت أهيم في متحف اللوفر وفي كل المقاهي. أمضيت ساعات وأنـــا أتـــدرب على معزوفة موسيقية جديدة لهايدن على البيانو كي أعزفها لإيرنست عنـــد عودتـــه، معتقدة أن العزف سيجعلني أشعر بأنني أفضل حالاً، لكنني كنت مخطئـــة، إذ إنـــه في الحقيقة ذكرني بأسوأ أيامي في سانت لويس، عندما كنت وحيدة ومعزولة عن العالم.

طال غياب إيرنست حتى ثلاثة أسابيع، بت أعاني في نهايتها مـــن النـــوم في سريرنا، فأنهض في منتصف الليل لألجأ إلى كرسي عالي الظهر ذي جوانب لأتكور فيه مع أغطيتي. لقد فقدت القدرة على الاستمتاع بكل شيء تقريباً عدا السير إلى إيل سانت لويس ومنه إلى المنتزه الذي أضحيت مع الوقت مغرمة بـــه ومعتمـــدة عليه. غدت الأشجار مزهرة الآن، ورائحة أزهار الجوز تزكم الأنوف. كم أحببت تأمل المنازل المحيطة بالمنتزه، وسرحت بالتفكير في أحوال ساكنيها. كيف كانـــت زيجاتهم، وكيف أحبوا أو آذوا بعضهم. وكم تساءلت عمّا إذا كانوا يعتقدون أن السعادة ذات ديمومة. وهكذا، تمضي بـــي الساعات في المتنـــــزه وأنـــا أحـــاول إطالتها أقصى ما أمكنني، لأعود بعدها إلى المنـــزل وأنا أسير في أشعة الشمس ولا أكاد أشعر بها.

عندما عاد إيرنست أخيراً إلى المنـــزل في أيار، ضممته إليّ بقوة وقد امتلأت عيناي بعبرات الارتياح.

فقال ملاطفاً: "ما الداعي لهذا الآن؟ هل اشتقت لي يا قطتي الزغبة؟"

أجبته: "أكثر من اللازم"

"هذا جيد. يطيب لي أن أُفتقد"

أومأت وأنا متكئة إلى كتفه، لكن جزءاً مني لم يملك إلا أن يتساءل: هل كان أمراً حسناً حقاً أن أتكل عليه بهذه الصورة المطلقة؟ لقد أعجب إيرنســـت بقـــوتي

ومرونتي، لكن الواقع أنني كنت أحب الشعور بأنني قوية، وقد ساءتني معرفة أن ذلك كله قد تبخر عندما رحل. هل أضحت سعادتي مرتبطة به كلياً إلى درجة أنني لم أعد على طبيعتي عندما لا يكون قربي؟ لست أدري. كل ما أمكنني فعله هو أن أساعده في خلع ثيابه، فيما عزف الأكورديون في قاعة الرقص في الأسفل لحناً حزيناً.

كانت حصيلة ما جناه إيرنست من تورنتو ستار مئتي دولار تشتعل بالإمكانات، فقرر أن ينفقها متباهياً على رحلة إلى سويسرا. لقد كانت معنوياته مرتفعة حيال كل شيء تقريباً في ذلك الوقت. فمؤخراً، أعاد سكوفيلد تاير من صحيفة *ذا دايل* قصائد إيرنست التي كان بوند قد زكاها، مرفقة برسالة رفض لاذعة وإنما غير شخصية؛ غير أن إيرنست كان قد أقام شبكة من المعارف الجدد في جينوا تكونت من مراسلين عمل معهم هناك بصورة وثيقة مثل ماكس إيستمان، وهو محرر أمريكي أراد من إيرنست أن يرسل له بعضاً من مسوّداته في مجال النثر. وأيضاً لينكولن ستيفنس، وهو صحفي الفضائح الشهير الذي أثار إعجاب إيرنست إلى أقصى درجة بمواقفه السياسية الجريئة. كان ستيفنس قد سافر مؤخراً إلى الاتحاد السوفييتي، وعاد مترعاً بالحماسة للشيوعية، وقائلاً للصحافة وكل من يمكن أن يعطيه أذناً صاغية: "لقد تسنى لي السفر إلى المستقبل، والتجربة الشيوعية ناجحة" إيرنست بالمقابل كان شديد الابتهاج لأن ستيفنس قد انتبه إليه، وهكذا مدعّماً بحس جديد عن الشيوعية والطموح لم يتوانَ عن إرسال خمس عشرة قصيدة لهارييت مونرو في مجلة بوتري.

قال في هذا الصدد: "ولم لا بحق السماء؟ لعل الأبواب لن تشرّع لي إلا إذا طرقتها بقوة ولمدة طويلة"

فقلت مشجعة: "ستتحقق كل أمانيك، أشعر بالفرصة في طريقها إليك"

قال: "ربما، إنما دعينا لا نجلب لها النحس بحديثنا عنها"

ابتعنا بطاقتي سفر من الدرجة الثالثة إلى مونتري، ثم استقللنا القطار الكهربائي مباشرة عبر سفوح الجبال إلى تشامبي المطلة على بحيرة جينيف. كان الشاليه الخاص بنا واسعاً وغير منظم، كما كان هواء الجبل عليلاً على نحو رائع. أمضينا ساعات يومياً ونحن نتجول على الأقدام في ممرات جبال تكسوها الغابات الكثيفة،

ونعود لنتغدى لحماً مشوياً شهياً مع القرع والجزر الأبيض ومزيج الفاكهة بالكريما. في المساء، أخذنا نقرأ قرب النار ونشرب عصير الليمون الممزوج بالبهارات. نمنا كما نشاء، وتوددنا إلى بعضنا، وقرأنا، وكتبنا الرسائل، ولعبنا الورق.

" أنت قوية وفي صحة جيدة وقد اكتسبت سمرة محببة. يبدو أن كل ما هنا يناسبك تماماً" قال لي إيرنست بينما كنا نسير في الجبال في أحد الأيام. صحيح أنني كنت أحب سماع أي إطراء منه علي، لكن الأسابيع التي أمضيتها وحيدة في باريس كانت لا تزال حاضرة في ذهني. لقد أخافتني وجعلتني أفكر في المعنى الحقيقي لأن أكون قوية؛ ومن منظوري أنا، وليس أن أتمتع باللياقة والصحة البدنية واكتساب السمرة من الشمس وحسب. ولا أن أكون مرنة وهادئة ولطيفة فقط.

بعد أسبوعنا الأول في سويسرا، انضم إلينا رفيق إيرنست في السلاح تشينك دورمان سميث. كانا قد التقيا في شيو على الجبهة الإيطالية قبل أن يصاب إيرنست. تشينك كان إيرلندياً؛ في مثل طول إيرنست وإنما أشقر منه بكثير. وكان ذا وجه ضارب للحمرة وشارب أشقر محمر. لقد راق لي على الفور، فقد تمتع بأخلاق رفيعة كانت تليق بشخص أمضى وقته في قاعات المحكمة كمحام أكثر منها لجندي محترف كما كان هو.

في كل صباح، كان يأتي لتناول الفطور مدمدماً لحناً مرحاً ويدعوني السيدة بوبليثويت. لقد أحب إيرنست تشينك كأخ له، وحمل له فيضاً لا ينتهي من الاحترام، و لم يشعر نحوه بالمنافسة التي من الممكن أن يشعر بها حيال الكثيرين من أصدقائه الكتاب أو المراسلين الصحفيين. مما ساهم في أننا أمضينا معاً وقتاً سلساً يوماً تلو الآخر. كان وادي رون فالي في أروع حالاته في تلك الفترة، وقد أزهر النرجس على مدى المساحات الجرداء من السهول ومن شقوق الصخور. في المرة الأولى التي رأيت فيها زهرة نرجس تشق طريقها عبر الثلج وتنمو فكرت كم تبدو مثالية وكاملة، وأردت لنفسي أن تكون مترعة بذلك النوع من العزيمة.

كل يوم كنا نتنزه في الجبال بحثاً عن نُزُل لطيف أو أماكن اصطياد واعدة. وكان ذا ستوكالبر الجدول القريب من ملتقى بحيرة جنيف بنهر الرون هو البقعة المفضلة لدى إيرنست، حيث أمضى ساعات وهو يصطاد سمك السلمون بسعادة، في حين استرخينا أنا وتشينك على العشب ونحن نقرأ أو نتحادث.

وفي إحدى المرات، قال لي تشينك بينما جلسنا في ظل شجرة إجاص مزهرة بعد الظهر: "من الرائع أن أراكما أنت وإيرنست متحابين هكذا. مرت أوقات تساءلت فيها عمّا إذا كان إيرنست سيتمكن يوماً من نسيان ميلانو

"أتعني مدينة ميلانو أم ممرضته الجميلة؟"

"أعني كليهما حسبما أعتقد. فالوقت الذي مضى برمته لم يستطع إخراج أفضل ما في إيرنست، لكنك أنت فعلت" ثم عقد يديه تحت رأسه مستلقياً، وأغمض عينيه قائلاً: "يا لهيم الطيب" ثم غفا على الفور.

لقد أحببت كون تشينك قد رأى وفهم الجانب الحسن لدينا. كما أنه كان يعرف أشياء عن إيرنست لا أعرفها. كان بينهما تاريخ مشترك، وبحور من الشراب، واعترافات آخر الليل. أحياناً، كانا يجلسان على شرفة الشاليه الواسعة وهما يتحدثان عن الحرب خلال الأمسيات الطويلة الباردة؛ مما أعطاني إدراكاً أوسع لما شاهداه وتحملاه وتقديراً أكبر له.

كان تشينك وسيبقى على الدوام جندياً. فبينما عاد إيرنست إلى حياته في الولايات المتحدة، بقي تشينك ملازماً الجيش الإنكليزي. وطيلة السنوات الماضية، كان قد فرز مع الجيش الإنكليزي المحتل في إيرلندا الذي كان يحاول السيطرة على العنف المندلع جراء سعي الإيرلنديين لنيل استقلالهم. كان موقعه خطراً، وقد شهد كماً لا يستهان به من الموت؛ الأمر الذي أمكننا أن نشعر بأنه يحاول رميه وراء ظهره أكثر فأكثر في كل يوم أمضاه معنا.

قلت له في إحدى الأمسيات: "لا بد أنه أمر غريب في خضم ذلك القتال المريع أن تستقل سفينة لتأخذ إجازة. تبتاع ببساطة بطاقة سفر وتنزلق بعيداً عن كل شيء"

ضحك تشينك بسوداوية وأجاب: "في الحرب"، ثم توقف هنيهة ليومئ لإيرنست، "عندما وصل رجال الجبهة إلى القناة الإنكليزية، حصل بعضهم على إجازة قصيرة ليذهبوا إلى منازلهم لاحتساء الشاي. كانوا يعودون بعدها ليحملوا أسلحتهم ويضعوا أقنعة الغاز وينخرطوا في القتال من جديد، وطعم البسكويت لا يزال على ألسنتهم"

تابع إيرنست: "لا يمكن لذهنك النجاة من هذه المحنة. لا يمكنك مواكبة قفزة من هذا النوع، فتتجمد عالقاً في أحد المكانين، أو بينهما. وهنا يبدأ داخلك بالتصدع"

قال تشينك: "هذا صحيح"

استطرد إيرنست: "ومع ذلك، أحياناً ما إن يجرب المرء ماهية الحرب حتى يصبح بمقدوره العودة إليها. وهذا أشبه بما كنت تقولينه يا صغيرتي" وأومأ إلي عبر المائدة وقد التقت عيوننا: "كشراء بطاقة سفر والذهاب إلى أتونها، ومن ثم التنصل خارجاً منها عندما يستفيق المرء أو يعود إليه رشده فجأة"

علق تشينك: "وهذا ليس بالأمر السار على الدوام، أليس كذلك؟" كان على علم بكوابيس إيرنست المتعلقة بأيامه في الجبهة، وكيف أنه لا يزال يستيقظ في منتصف الليل وهو يتصبب عرقاً، وصارخاً وعيناه الجاحظتان تفيضان رعباً. وأومأ الصديقان لبعضهما ورفعا كأسيهما.

كانت تلك واحدة من الليالي التي أغرقنا فيها بالشرب، عندما طرح تشينك فكرة أن نعبر ممر غريت سانت برنارد إلى إيطاليا.

"هذا ما فعله كل ما نابليون وشارلمان" قالها وهو يمسح الشراب عن شاربه.

سألته: "كم يبعد باعتقادك؟"

"خمسين كيلومتراً ربما"

قال إيرنست: "إذاً، لنفعلها. ومن أوستا يمكننا أن نستقل القطار إلى ميلانو

قال تشينك: "أو إلى شيو، عائدين إلى مسرح الجريمة"

التفت إليّ إيرنست قائلاً: "لكم أحب أن أريك شيو. إنها من أجمل بقاع الأرض

ابتسم تشينك معلقاً: "هناك طاحونة قديمة حولناها إلى ثكنة، وأطلقنا عليها اسم نادي شيو الريفي. لا يمكنني أن أحصي عدد المرات التي سبحنا فيها في الجدول الموجود هناك في حر النهار

جاراه إيرنست: "والمطاعم الإيطالية ذات الحديقة الخلفية، حيث كنا نحتسي شرابنا تحت ضوء البدر المكتمل. هناك فندق ساحر في شيو يدعى ديو سبادي. سنقيم هناك ليلة أو اثنتين ومن ثم سننطلق إلى فوسالتا. بمقدوري حتى أن أكتب عن رحلتنا تلك كلها لصحيفة *ستار*. **الجندي المصاب يعود إلى الجبهة**"

قال تشينك: "رائع" وهكذا تم الاتفاق على الأمر.

في صباح اليوم التالي، غادرنا الشاليه وعلى ظهورنا حقائب ظهر ثقيلة. عندما دخل إيرنست غرفتنا رآني وأنا أحاول حشر قارورتي الكريم والعطر في حقيبتي. هتفت سائلة وأنا أمد يدي له بالقارورتين: "هل أجد لهما متسعاً في حقيبتك؟"

فأجابني: "على الأغلب لا. إنما قولي لي، هل تأملين أن تستخدميهما لتكون رائحتك جميلة لأسماك السلمون؟"

"هلا تنحيت!" لكنه لم يفعل، فطلبت في النهاية إلى تشينك أن يحملها لي، وقد امتثل فعلاً وإنما على مضض. لكن عبثية تشبثي بقارورة عطري فيما كنا على وشك أن نقطع ممراً جبلياً غادِر التضاريس تكاد لا تقارن أمام خياري السيئ للحذاء، والذي كان حذاء أكسفورد منخفض الساق بدلاً عن جزمة مناسبة للمغامرة. لست أدري ما دهاني حينها، فقد انحصر تفكيري في أن ساقي تبدوان أجمل بحذاء الأكسفورد، ولكم أفادتني الساقان جميلتا المظهر! إذ لم نقطع أكثر من خمسة أميال عندما أرهقت تماماً. وكدفاع عن نفسي أمام رفيقي السفر أخبرتهما أنني لم أكن أدري ما ينتظرنا. عادة، كان يسهل عبور الممر في الربيع، لكنه لم يكن مفتوحاً تلك السنة. لم يكن أحد قد قطعه بعد، والثلج لا يزال يصل إلى ارتفاع الفخذ في بعض المواضع. ومع ذلك، تابعنا طريقنا بخطى ثقيلة عبر أودية ومسارات بين غابات كثيفة من شجر الصنوبر وسهول مرقطة بالأزهار البرية. كان مشهداً يفوق الوصف بجماله، غير أنني وإيرنست كنا في حال سيئة. فخطواتي باتت مهتزة وساقاي تؤلمانني بشدة. أما إيرنست فقد ظهرت عليه بوادر انزعاج من المرتفعات كالغثيان والألم في الرأس، وكلما ازددنا صعوداً ازدادت الأعراض حدة. حتى إنه أخذ يشعر بالدوار مما اضطره إلى التوقف بعد كل ميل نقطعه لينحني متقيئاً على الثلج. لكن، إجمالاً نال تشينك النصيب الأكبر من التعب لكونه اضطر إلى أن يحمل عنا حقيبتينا. فكثيراً ما حمل حقيبتين وسبقنا بضع مئات من الياردات، ليسقطهما أرضاً ومن ثم يعود ليحمل الثالثة. وأثناء مسيرنا، سرحت بأفكاري فتخيلت أنه قد تم إنقاذنا بالاعتماد على كلاب سانت بيرنارد الشهيرة، والتي ستجرنا نحن الثلاثة ما بقي من الجبل على متن مزلج مريح.

وفي منتصف الطريق الصاعد، توقفنا في بورغ سانت بيير وتناولنا الغـداء في رقعة من أشعة الشمس. كانت قدماي متورمتين إلى حد أنني خشيت أن أخلع حذائي فيتعذر علي بعدها أن أعاود انتعاله. ولأنني شعرت بإعياء منعني عن الإتيان بأي حركة، تمددت على مقعد خشبي طلباً لقيلولة قصيرة فيما انطلق إيرنست وتشانك يجولان في المكان ويختبران الشراب الموجود في البلدة.

ولدى عودهما في وقت لاحق، أيقظني تشينك قائلاً: "لقد فاتتك رؤية مقبرة صغيرة رائعة"

أكمل إيرنست: "هناك صفوف وصفوف من شواهد القبور لأناس أنهى الجبل حياهم"

فهتفت مذعورة: "هذا الجبل؟! هل نحن في خطر حقاً؟"

رد إيرنست: "هل ترغبين بإلغاء الفكرة والبقاء هنا؟"

فقال تشينك: "وتفوّت رؤية الناسكين؟! كيف سنسامح نفسينا على ذلك؟"

كان مأوى سانت برنارد متوضعاً على أعلى بقعة في الممر، حيث كرّست مجموعة من المتطوعين أنفسهم لمساعدة المسافرين لألف سنة ونيف. كل من يطرق باهم سيحصل على الخبز والحساء وقدح من الشراب، وسرير من القش ليمضي فيه ليلته. وهكذا قصدناهم في وقت متأخر من ذلك المساء، بعد أن قطعنا ثلاثين كيلومتراً صعوداً في الجبل، وقد أثقل رؤوسنا نوعاً ما الشراب الذي رحنا نرشف منه كل عشرين دقيقة كي يعيننا على الوصول إلى هناك من بورغ سانت بيير. كانت ليلة صافية شع فيها القمر خلف المأوى وأضاءه بشكل غريب.

"يبدو المكان كالثكنة العسكرية" قال تشينك ذلك وهو يتقدمنا ليقرع بشدة على الباب الخشبي المهيب.

فأجابه إيرنست: "كل بناء قديم ترى فيه أنت ثكنة" عندها، فتح الباب على مصراعيه على شخص أنيق أصلع.

لم يطرح علينا الناسك أي أسئلة، بل قادنا وحسب عبر الممرات الصامتة المعتمة إلى غرفنا. كانت غرفاً بسيطة كما قرأنا عنها مع فُرش من القش للنوم، لكن كانت هناك إنارة جيدة للقراءة ونار دافئة لطيفة. وبينما استرخى كل من

إيرنست وتشينك قبل العشاء، رحت أنا أستكشف المكان آملة أن أعثر على مطبخ وحوض أنقع فيه قدمي المسكينتين. لكن كل ممر بدا كالآخر تماماً. فخطر لي أن أتبع الأصوات، لكن لم يكن هناك أي منها. وأخيراً، قررت أن أجرب حظي في أحد الممرات الطويلة المعتمة، فإذا بي أجد نفسي في القسم الخاص بالناسكين. فتحت أمامي عدة أبواب دفعة واحدة، وأطل من كل منها رأس حليق تلو الآخر شبهتها بالشامات. شعرت بالخوف الشديد فهرعت إلى غرفتي، حيث انهرت أرضاً، ورحت أروي للشابين ما حل بي، واللذين بدورهما ضحكا بالطبع قبل أن يخبرني إيرنست أنه يعتقد أنه من المرجح أن أكون المرأة الأولى التي تطأ هذه الممرات منذ ألف عام! ولم يتوانَ عن أن ينقل الخبر إلى غيرترود وأليس في رسالة قال فيها: *"السيدة هيمنغواي تحاول إغواء الناسكين هنا. أطلب نصيحتكما في الموضوع رجاء"*

مع انبلاج صباح اليوم التالي، انطلقنا متجهين إلى أوستا ونحن مشحوذو العزيمة لكي نقطع ما بقي من الممر أكثر من السابق؛ أو هذا ما ظننته إلى أن فغرت فردة حذائي الأكسفورد اليمنى فاهها بعد أن انفتقت درزاتها.

فصاح بي إيرنست: "تستحقين هذا، سيدة مغرورة" لكنه للحق لم يكن أفضل حالاً، فقد كانت نوبات من الغثيان لا تزال تجتاحه بسبب الارتفاع، وقد تكبد عناء شديداً كي يقطع ما بقي من الرحلة على قدميه. وحده تشينك كان لا يزال في حال حسنة. وقد تناول سكيناً وعدّل بواسطتها فردة حذائي الثانية، وعلى هذه الشاكلة عرجنا داخلين أوستا في اليوم التالي، مخلفين وراءنا ممراً مترعاً بالثلوج، ومقبلين على هضاب خضراء توشحت بكروم العنب على جوانبها كلها. قلت مازحة في رسالة أرسلتها إلى صديقتي روث إن الشابين كانا على وشك الاضطرار إلى حملي إلى البلدة، لكن الواقع أنني فوجئت بقدرتي على الاحتمال. لقد أظهرت من الجلد أكثر مما اعتقدت أنه كان ممكناً حتى. لولا هذا الحذاء المريع لكنت ربما قد اجتزت الياردات المئة المتبقية إلى أوستا جرياً.

الفصل الخامس عشر

في القطار الذي أقلنا إلى ميلانو نمت كالقتيل، واستفقت على صوتي إيرنست وتشينك وهما يتحدثان عن بينيتو موسوليني؛ القائد الفاشي الجديد كان في المدينة، وقد أراد إيرنست أن يحاول استخدام بطاقته الصحفية كي يرتب لقاءً معه. برأيه، كان موسوليني هو الخدعة الكبرى في زمانه في أوروبا، وقد كان يتحرق شوقاً للقائه. في تلك الأثناء، توجب على تشينك العودة إلى موقعه، فودعناه هناك متبادلين القبلات والوعود بأن نلتقي من جديد قريباً.

كان إيرنست سعيداً لوجوده في ميلانو ثانية. وبعد أن عثرنا لي على حذاء جديد مناسب، كانت وقفتنا الأولى عند الصرح الحجري المهيب البديع في فيا مانزوني والذي تم تحويله إلى مشفى للصليب الأحمر حيث تلقى كل من إيرنست وتشينك العلاج من إصاباتهما. وقفنا مبهورين أمام بواباته، ورفعنا بصرينا إلى الأعلى ناظرين إلى الشرفات والمصاطب التي ظللتها الشوادر المخططة، والمفروشات المصنوعة من أغصان الأماليد المجدولة، وأشجار النخيل المغروسة في أوعية ضخمة.

قلت لإيرنست: "يبدو لي المكان كفندق فخم"

"بالفعل، كان نموذجاً عن الحياة الرغيدة. من المؤسف أنه توجب علينا أن نصاب في ساحة القتال حتى نتمكن من دخوله"

"إنني آسفة، فليس بمقدوري أن أستشعر تماماً ما خضته"

"لا بأس، فوجودك هنا لتمسكي بيدي يسرني بالقدر ذاته"

"هذا أمر أستطيع فعله، وبسرور واحتضنت يده بين كفيّ.

سرنا بعدها إلى كاتدرائية ميلانو، ومن بعدها إلى بيفي في مركز تسوق غاليريا الشهير، حيث توقفنا لاحتساء شراب منعش طفت على وجهه حبات الفريز المنعشة. وعلى الرغم من أن إيرنست لم يكن يتحدث كثيراً عن الوقت الذي أمضاه في الجبهة، إلا أن صحبة تشينك قد أعطته دافعاً فباتت نفسه تفيض بالذكريات، وقد توج وصولنا إلى ميلان عملية استعادة تلك الذكريات، فغدت الرحلة بمحملها كآلة للزمن أعادته إلى هناك.

قال: "إنه لأمر يدعو للسخرية، لكنني أحياناً جلّ ما أستطيع تذكره من الليلة التي تعرضت فيها للإصابة هو البعوض. كانت تدخل أذني المرء وزوايا عينيه فتحول بينه وبين النوم. علماً أننا لم نكن لنحظى بقدر وافر من النوم على أي حال. ثم اشتعلت السماء لهباً فأطاحت بي أرضاً، كان هذا حالنا جميعاً. في البداية، لم أستطع الشعور بشيء، ومن ثم كان هناك ضغط على صدري فلم أعد قادراً على التنفس، وباتت أصوات متنافرة تضج في رأسي

سألته برقة: "أترغب حقاً في الحديث عن هذا كله الآن؟ لست بحاجة لأن تفعل"

"بل أعتقد أنني يجب أن أفعل" ثم صمت برهة لبضع دقائق قبل أن يستطرد قائلاً: "لم يكن سمعي في حال جيدة، بل كنت أدخل مرحلة من اللاوعي. لكنني مع ذلك تمكنت من سماع أحدهم يصرخ طلباً للمساعدة. وبالفعل، شققت طريقي إلى هناك بطريقة ما، وحملته إلى مركز القيادة. حتى إنني لست أدري كيف فعلت ذلك، فأنا أذكر ذلك الجزء بصعوبة. كل ما أذكره هو أن قدمي كادتا تتهشمان إلى قطع تحتي. سمعت الرشاش بعدها، وكما لو أن الأمر لم تكن له علاقة بي، تابعت الركض، ثم وضعت ذاك المسكين على الأرض، وهويت أرضاً إلى جانبه أنا أيضاً. ثم لا شيء، لا أدري شيئاً عدا عن ذلك"

قلت: "ثم كان المشفى الميداني والقطار إلى ميلانو"

"أجل. في كل مرة كان ذلك القطار يتوقف فيها، كان الذباب يندفع داخلاً أسراباً من النوافذ المفتوحة ليغطي ضماداتي المدماة. أمضيت يومين على متن ذلك القطار

أومأت برأسي. ما رواه لم يكن عن حادثة خلفها وراءه منذ سنين على الإطلاق، بل كان واقعاً ينضح من وجهه وعينيه ويحكي عن حاله عندما قدم إلى

ميلانو كدمية محطمة. لم تكن قصة بطل، بل قصة صبي قد لا يشفى يوماً بشكل حقيقي مما رآه وأحس به. لكم أشعرني بحزن حاد ومؤلم تفكيري بأنني مهما عظمت مشاعر الحب لدي تجاهه، ومهما بذلت في سبيل مساعدته ليجمع شتات نفسه ثانية، فإنه من المحتمل أن يبقى مكسوراً في داخله إلى الأبد.

قلت له بعد برهة صمت: "لا بد أنك تفكر في آغنيس اليوم"

فأجاب: "قليلاً فقط. أنا سعيد لأننا تمكنا من القيام بهذا معاً" وغطى يدي بيده.

"وأنا أيضاً" كنت على يقين من أنه يقول لي الحقيقة. لكنني كنت أعرف أيضاً أنه لو تسنى له أن يحظى بنا معاً أنا وآغنيس في ذلك المكان لما تأخر. لقد كنا بمثابة ماضيه وحاضره، وكلتانا نحبه حباً جماً ودون تردد. لقد أراد إيرنست كل شيء، وأكثر.

أمضيت فترة بعد الظهر التالي في الفندق بين القراءة والنوم، فيما سعى إيرنست لترتيب مقابلة مع موسوليني الذي كان قد انتخب مؤخراً لمجلس النواب الإيطالي؛ الأمر الذي فتن إيرنست. بدا الرجل كتلة من المتناقضات؛ فقد كان وطنياً إلى حد بعيد، وأراد أن يعيد لإيطاليا مجدها القديم الذي بلغته في العصر الروماني. لقد بدا منغمساً بصدق في المصاعب الاقتصادية التي تعانيها الطبقة العاملة، وكذلك النساء، وهو ما ذكره مفصلاً في *البيان الرسمي للصراع الفاشي*. ولكنه مع ذلك استطاع أن يجعل نفسه ذا حظوة لدى الطبقات الأرستقراطية والبرجوازية، ضامناً لها استمرار وجودها. لقد بدا أنه راغب في أن يحقق أماني الناس برمتهم، التقليدية والثورية، وأن تحبه الفئات العسكرية والطبقة العاملة والليبراليون. وكان الحزب الفاشي القومي يحصد التأييد بسرعة هائلة بدا معها التغيير حتمياً"

سألت إيرنست فيما كان ينظم دفاتره قبل أن يغادر: "هل أنت متوتر؟"

"وممَ سأتوتر؟ إنه مجرد متنمر كبير أليس كذلك؟"

"لست أدري. البعض يقول عنه إنه وحش

"ربما كان كذلك. لكن الوحوش لا تظهر دائماً بشكل مريع. إنها تملك أظافر نظيفة وتستخدم الشوكة والسكين في مأكلها، وتتحدث بلغة راقية كالملوك"

أغلقت أزرار معطفه، ومسحت على كتفيه بيدي فقال:

"أنت تثيرين زوبعة في فنجان يـــا زوجـــتي. خـــذي قيلولـــة صـــغيرة ولا تقلقي

غاب يومها قرابة الساعتين، وعندما عاد إلى الفندق لطباعة ملاحظاته، كـــان شديد الابتهاج وهو يخبرني بأنه كان على حق:

"إنه مخادع كبير ومملوء بالترهات حتى هنا، ولا شيء فوق" قالها وهو يشـــير إلى رقبته ومن ثم رأسه.

سألته وأنا أشعر بارتياح شديد: "أكان يرتدي قميصه الأسود؟"

قال: "أجل، هو وكل من معه" ثم جلس إلى مكتبه وهو يضع ورقة جديـــدة في آلته الطابعة متابعاً: "إنه أكبر حجماً مما قد يعتقد المرء أيضاً، وذو وجه مســـطح وعريض قاتم اللون. أما يداه فبديعتان، وكأنهما يدا امرأة حقاً"

"ما كنت لأكتب هذا لو كنت مكانك"

ضحك وشرع بالكتابة بسرعة محمومة كعادته، وأصابعه تطعن المفاتيح دون توقف أو تنفس.

قال من دون أن يرفع نظره: "سأخبرك شيئاً أيضاً، كان هناك جرو جميل من نوع الكلاب الذئبية معه في الغرفة"

"إذاً، الوحش الفاشي محب للكلاب"

فعلق مبتسماً: "لعله يخطط لأكله لاحقاً"

"أوه، أنت مريع"

انتصبت سبابتاه فوق المفاتيح استعداداً لهجوم عنيف آخر وهو يقول: "أجل، ذاك كان كلباً جميلاً"

في اليوم التالي، ركبنا الحافلة إلى شيو، حيث أراد إيرنست أن يريني الطاحونة ونباتات الويستيريا وكل جزء من البلدة التي تمكنت على نحو ما من الحفاظ علـــى جمالها في ذاكرته، أياً كان ما يجري حولها. ولكن في الطريق، أضـــحت الســـماء رمادية، ثم بدأ المطر يهطل حبالاً. وعندما وصلنا إلى البلدة أخيراً، بـــدا إيرنســـت متفاجئاً إذ قال: "إنها أصغر بكثير

فمازحته محاولة تلطيف الجو: "لعلها تقلصت بفعل المطر لكنني سرعان ما أدركت أن ذلك غير ممكن. خلال الزيارة كلها كان إيرنست يتصارع مع ذاكرته، فكل شيء قد تبدل وأضحى أغبر داكناً خلال السنوات الأربع التي مرت مذ كان هنا للمرة الأخيرة. مصنع الصوف – بعد أن أغلق أثناء الحرب – تقيأ قذارة سوداء اللون على حفرة السباحة التي قام إيرنست وتشينك بالاستحمام فيها عدداً كبيراً من المرات في ساعات الأصيل الحارة. سرنا في الشوارع المتعرجة ذهاباً وإياباً تحت المطر، لكن كل شيء بدا مملاً وكئيباً. فواجهات المحال مملوءة بالصحون الرخيصة ومفارش الطاولات والبطاقات البريدية، والمقاهي فارغة. دخلنا أحدها فوجدنا فتاة جالسة تمشط الصوف.

خاطبها إيرنست بالإنكليزية قائلاً: "إنني بالكاد أستطيع التعرف على البلدة، هناك الكثير من الأشياء الجديدة"

فأومأت برأسها وتابعت عملها وهي تسحب المحراك إلى الأمام والخلف لتصبح الخيوط البيضاء طويلة وناعمة.

سألت إيرنست بصوت خافت: "هل تعتقد أنها تفهمك؟"

فأجاب: "إنها تفهم ما أقوله"

فخاطبتها بقولي: "لقد كان زوجي هنا أثناء الحرب"

أجابتني من دون أن ترفع رأسها: "الحرب انتهت"

شعرنا بانقباض دفعنا إلى التخلي عن فكرة الجولة السياحية، وقررنا الذهاب لتفقد المهجع الذي تلقى فيه إيرنست العناية الطبية عند إصابته، لكننا وجدناه قد تغير هو أيضاً. فقد أخذ السرير يصرّ، والشراشف صارت مهترئة ومثيرة للشفقة، والمصابيح تعلوها طبقة كثيفة من الغبار.

أثناء وجبة غداء بلا طعم قال لي إيرنست: "لعل شيئاً من ذاك لم يحدث فعلاً"

فأجبته: "بالطبع حدث. ليت تشينك كان معنا، لكان قد عثر على طريقة تجعلنا لا نشعر بهذا السوء"

"لا، ما كان ليقدر على التحمل هو أيضاً"

حتى نومنا كان سيئاً تلك الليلة، وعندما طلع الصباح كان المطر لا يزال ينهمر بغزارة. وتحت إصرار إيرنست على أن يصحبني إلى فوسالتا حيث أصيب،

عثرنا على سائق قبل أن يقلنا أطول مسافة ممكنة حتى فيرونا، ومن ثم ركبنا القطار إلى ميستر حيث توجب علينا العثور على سيارة أخرى لتقلنا. طول اليوم وطيلة الرحلة ودون انقطاع، راح إيرنست يدرس الخرائط التي معه محاولاً مطابقة ما شاهده في الريف الإيطالي على ما يحمله في ذاكرته من تفاصيل قبل سنوات خلت، لكن لا شيء بقي على حاله. فوسالتا كانت للأسف أسوأ من شيو من هذا المنظور؛ لأنه لم يكن هناك أي أثر للدمار فيها. الخنادق والأنفاق تلاشت، والمنازل والمباني التي تعرضت للقصف جميعها استبدلت بأخرى جديدة. وعندما عثر إيرنست على المنحدر الذي أصيب فيه وجده سليماً ومخضوضراً وبديعاً للغاية. لا شيء كان يبدو صادقاً وحقيقياً. آلاف الرجال ماتوا هنا قبل بضع سنوات وحسب. إيرنست نفسه سالت دماؤه على هذه البقعة من الأرض وأصيب بالعديد من الشظايا. ومع ذلك، كل شيء كان نظيفاً ولامعاً، وكأن الأرض ذاتها قد نسيت كل ما جرى.

قبل أن نغادر، مشّط إيرنست السياج بناظريه، وعثر أخيراً على قطعة وحيدة وصدئة من شظية قذيفة لا يزيد حجمها عن الزر. نظر إلي قائلاً: "إن ملاحقة الماضي لعبة عفنة مقيتة، أليس كذلك؟ لم أتيت إلى هنا؟"

أجبته: "أنت تعرف لماذا"

راح يقلب الشظية في يده مرات ومرات، فخمنت أنه يفكر في حديثنا مع تشينك، وكيف أن الحرب التي في رأسه لا يمكن الركون إليها لمدة طويلة. الذاكرة لا يمكن الاعتماد عليها، وكذلك الوقت فكل شيء تحلل وتلاشى؛ خصوصاً عندما بدا يضج بالحياة. بدا وضّاحاً كالربيع. فكل ما حولنا؛ من العشب الأخضر النامي، إلى العصافير التي بنت لنفسها مسكناً على الشجر، إلى أشعة الشمس يُطلق وعوداً ويمنح أملاً. منذ تلك اللحظة، أضحى إيرنست يكره فصل الربيع على الدوام.

الفصل السادس عشر

لم نعد إلى باريس حتى وقت متأخر من حزيران، و لم يمض وقت طويل حتى بدأت احتفالات ذكرى يوم تحرير الباستيل، وكان هناك رقص وغناء في الشوارع على مدار الساعة. كان الجو حاراً، والصخب شديداً، ولا جدوى من محاولة النوم. كنت أرى خيال إيرنست القلق في الظلام وهو يغطي عينيه بذراعه. فقلت له: "قريباً ستحل ذكرى زواجنا"

"هل نرحل من هنا؟"

"وأين عسانا نذهب؟"

"إلى ألمانيا، أو ربما إسبانيا"

"لسنا مضطرين إلى ذلك. بإمكاننا البقاء في المنزل واحتساء الشراب، ثم نمضي وقتاً مرحاً معاً"

فضحك قائلاً: "بإمكاننا فعل ذلك الآن"

فقلت: "أجل، بإمكاننا ذلك"

انسابت من النافذة سلسلة ألحان خفيضة من عازف الكلارينت الذي كان ينتظر من يرافقه العزف، ثم صمت ثانية. لمس إيرنست كتفي العارية بأصابعه، فسرت قشعريرة في جسمي، ثم سحبني إليه برفق.

بعدها، وبينما كنا مستلقيين في الظلام. انبعثت تلك الضحكة العالية من الشارع ثانية، لتنطلق في أثرها الموسيقى عالية وعشوائية. انغمس إيرنست في هدوئه وصمته ثانية، فرحت أتساءل في سرّي عمّا إذا كان يفكر في شيو وكل الأشياء التي لم يكن ليجدها هناك ثانية، وفي الحزن الذي حمله معه عائداً إلى المنزل.

سألته: "هل أنهض لإغلاق النافذة؟"

فأجابني: "الجو شديد الحرارة، ولن يفيد ذلك على أي حال. فقط حاولي أن تنامي

"هناك ما يشغل تفكيرك. هل تريد إخباري به؟"

"الكلام أيضاً لم يكن ذا عون على الإطلاق"

صوته جعلني أدرك أنه قد هوى في قاع سحيق، وظننت بكل سذاجة أنني إن دفعته للحديث عما يزعجه فسأخفف من وطأة الأمر عليه. فواظبت على دفعه برفق للبوح بمكنونات نفسه إلى أن قال أخيراً:

"إن كنت تريدين حقاً أن تعرفي، فإن السبب هو علاقتنا الحميمة. هناك خطب ما، إذ أشعر بعدها أنني فارغ ووحيد أيضاً"

"يا للفظاعة!" شعرت بكلماته كسوط يجلدني، فقد كنا لتونا قريبين جداً من بعضنا، أو على الأقل هذا ما شعرت به أنا.

"إنني آسف. ليس السبب أمراً ارتكبته"

"تباً لهذا. حتماً لست أنا الملامة. فلنتوقف عن ممارستها البتة. لسنا مضطرين إلى ذلك، ولن أهتم"

"ومع ذلك فنحن نفعل، أنت تحسين بما أقوله. أعلم أنك تفعلين"

"لا"

سحبني إليه مجدداً وهو يقول: "أرجوك لا تقلقي. فقط قولي لي إنك تحبينني"

فقلت: "أنا أحبك" وقبلت يديه وجفنيه وحاولت أن أنسى ما قاله، لكنني لم أستطع، فأنا لم أنس يوماً حرفاً مما قاله لي من قبل.

"اخلدي إلى النوم الآن"

"حسناً"

نهض من السرير، وشرع بارتداء ملابسه. لا بد أن الساعة كانت حوالى الثالثة أو حتى الرابعة فجراً.

سألته: "أنت لست ذاهباً إلى العمل الآن، أليس كذلك؟"

"ربما لا، لكنني سأحاول"

سمعته وهو يغادر، طرق سمعي صوت خطواته على السلالم نزولاً حتى الشارع. ثم استسلمت للنوم لبضع ساعات. عندما نهضت كان لا يزال في الخارج

يعمل، وكان الجو حاراً، فركلت عني الغطاء، ولبست ثوبي وتوجهت إلى المطبخ لأعد القهوة. كان الموسيقيون لا يزالون في الشارع منذ الليلة الفائتة، وقد شعرت بالإعياء لمجرد سماعهم. لست أدري كيف استطاعوا المضي في العزف، هل ناموا وقوفاً في مداخل البيوت؟ هل ناموا على الإطلاق؟

بعد تناول الفطور، اغتسلت وبدلت ثيابي، ثم جلست إلى البيانو لبضع ساعات، لكن أدائي لم يكن مرضياً. كان يوماً شديد الحرارة، وكنت أشعر بتشوش شديد منذ الليلة الفائتة، فاستلقيت على السرير مجدداً، ثم سمعت ماري كوكوت تعمل في المطبخ، وتنظف الصحون. كنا قد حصلنا على اسمها من بواب المبنى، والآن باتت تتردد علينا كل صباح كمدبرة للمنزل، فتغسل وتجلي الصحون وتطبخ مقابل فرنكين في الساعة. لم يكن لدى ماري أطفال، وهي تخطو نحو أواسط العمر. إنها دقيقة الجسم وإنما قوية البنية وذات كفاءة عالية. أطلقنا عليها لقب كوكوت، والذي كان من العامية الفرنسية بمعنى خادمة، تيمناً بطبق لذيذ كثيراً ما أعدته لنا اسمه بوليه إن كوكوت. ولعدة أيام في الأسبوع، كانت تعود في وقت متأخر من بعد الظهر كي تعد لنا الغداء، ولأن ما حضرته كان ممتازاً دائماً فقد طلبت إليها أن تعلمني الطبخ الفرنسي. ولكن الآن والصيف في أوجه، لم أرد أن أكون في المطبخ على الإطلاق، وكنت سعيدة بتناول بعض الفاكهة أو لا شيء إلى حين عودة إيرنست من عمله. بعدها، كنا نخرج إلى أحد المقاهي، فنتناول مشروباً فاتحاً للشهية بعد أن يكون المساء قد حل والحرارة قد انخفضت. عندها يصبح المرء في حال طبيعية مجدداً، وقابلاً لأن يشعر بالجوع ويتناول الطعام.

"صباح الخير مدام" قالت لي ماري كوكوت وهي تدخل غرفة النوم حيث كانت الستائر لا تزال مفتوحة من الليلة الماضية، فنحن لم نغلقها قطّ.

سألتها بفرنسيتي الثقيلة وأنا أشير إلى النافذة: "ألن تتوقف الموسيقى يوماً؟"

فأجابت ضاحكة: "ليس اليوم"

قلت: "أعتقد أن ذكرى تحرير الباستيل ستستمر إلى الأبد"

فضحكت ثانية وهي تقول: "هكذا نحبها"

تطاول الصيف على هذا الحال؛ ممتداً وكأنه عدة فصول متلاصقة ببعضهما، مر الوقت فيها وئيد الخطى، بل كأنه لا يمشي أصلاً. بت أواجه صعوبة أكبر في إيجاد نشاطات تملأ أيامي. وشعرت بأن آلام الرأس ستعاودني. وعلى الرغم من أنني كنت أعلم أنه لا يجدر بي أن أمتعض من عمل إيرنست أو أحاول منعه عنه، إلاّ أنني كنت دائماً في أسعد حالاتي عندما يستيقظ معلناً أنه لن يحاول كتابة أي شيء طيلة اليوم، وأنه يجدر بنا الذهاب إلى مباراة ملاكمة عوضاً عن ذلك، أو أن نقود السيارة إلى الريف لمشاهدة سباقات الدراجات الهوائية.

في إحدى المرات، دعتنا كل من غيرترود وأليس لتناول الغداء في منزلهما الريفي في موكس. فذهبنا جميعاً بسيارة غيرترود من نوع تي موديل، وتناولنا غداء نزهتنا المكون من نوعين من البيض والبطاطا والدجاج المحمر، واحتسينا عدة قوارير من الشراب. كل ما حولنا كان جميلاً؛ الواديان والجسور، المنزل الساحر والأشجار المزهرة التي حفت به. وبعد الغداء، استلقينا على العشب وأطلقنا العنان لأنفسنا لنتكلم بحرية.

انغمس إيرنست في عرض جميع أعماله على غيرترود، وقارئاً أعمالها أيضاً. فعلى الرغم من أن صعوبة ما تكتبه قد أرجأت اهتمامه بأعمالها في بداية صداقتهما، إلا أنه تعلم كيف يقدّر غرابتها فأضحى مهتماً بما تفعله أكثر فأكثر. حتى إنها بدأت تؤثر على أسلوبه، وبشكل خاص عادتها في تسمية الأشياء الملموسة والأماكن والأشخاص، وتكرار ذكرها دون محاولة البحث عن تنوّعات أخرى في المفردات بل الاستمتاع بما لكل كلمة من قوة تأثير مدهشة عندما تستخدم مرة تلو مرة. وقد قرأت شيئاً لنيك آدامز من إنتاجه الجديد يتبع فيه هذا الأسلوب مستخدماً أبسط العبارات والأشياء - بحيرة، سمكة سلمون، جذع شجرة، قارب - ولاحظت كيف أن ذلك أضفى على العمل حساً نقياً يكاد يكون خرافياً.

كان من الواضح أن الصلة القائمة بين غيرترود وإيرنست على قدر من الأهمية بالنسبة لهما كليهما. وقد أحببت كوننا نصبح أصدقاء مقربين من بعضنا جميعاً؛ رغم أننا في كل مرة نلتقي فيها ننفصل تلقائياً إلى ثنائيين. إيرنست وغيرترود كانا الفنانين، وعندما كانا يتبادلان الأحاديث كان رأساهما يقتربان من بعضهما فيبدوان كشقيقين. أما أليس وأنا فكنا الرفيقتين، وحتى دون جدران

الصالة الأربعة لتحدد مواقعنا، بدا لي أنها راضية بمكانتها تلك. إنما هل كنت أنا كذلك؟ لقد أظهر إيرنست دعماً مطلقاً لعزفي، وغالباً ما أشار إليه على أنه "عملي"، كما لو أنني كنت فنانة أيضاً. لقد أحببت العزف فعلاً، وشعرت بأنه جزء هام جداً من حياتي، غير أنني لم أكن مقتنعة البتة بأنني أتمتع بالتميز مثل إيرنست. لقد عاش داخل ميدان الإبداع وأنا عشت خارجه، و لم أكن أعلم ما إذا كان هناك شيء بمقدوره أن يغير ذلك قط. بدت أليس مرتاحة في دورها الذي تلعبه كرفيقة، ملقية نفسها تماماً في ظل طموح غيرترود. لكن، لعل مرد ذلك هو كونها قد أمضت وقتاً أطول مني فيه، أو أنها تستطيع إخفاء غيرتها على نحو أفضل.

سرحت في القدح الذي في يدي متأملة انكسارات الضوء الملونة التي تركها على البطانية الباهتة المصنوعة من الصوف الإيرلندي. قلت لنفسي: إننا هنا معاً الآن. كل شيء كان جميلاً وعلى ما يرام. عليّ فقط أن أدرك ذلك وأتمسك به وأسعد به. سأفعل. سأحاول أن أفعل.

في اليوم التالي، استيقظنا في وقت متأخر وأنا لا أزال أحس بتأثير الشراب علي. لا بد أن إيرنست كان يحس به أيضاً، لأننا لم نكن قد غادرنا السرير بعد عندما قال: "لن يكون من المجدي أن أحاول العمل اليوم. لن أزعج نفسي بالمحاولة حتى"

قلت له: "بإمكانك أن تذهب وتبذل جهدك على أي حال، لبضع ساعات فقط" شعرت بوخز في صدري وأنا أتكلم؛ لأنني لم أكن أعني ما أقوله.

فأجاب: "لا، لن يكون ذلك مجدياً، أعرف هذا منذ الآن"

نهضنا وتناولنا فطورنا، ثم قررنا بعدها الذهاب إلى أوتييه لمشاهدة سباق الخيول. سيكون الجو أكثر رطوبة من المدينة. وستوضّب لنا ماري كوكوت سلة من الشطائر والشراب، ومن ثم سنحصل على الصحيفة الخاصة بالسباق ونقرأها في القطار. ما إن تم الأمر حتى شعرت بالضغط في رأسي يتلاشى؛ منسحباً بسرعة كشبح تم طرده من أحد المنازل. شعرت بالذنب بسبب السعادة التي اجتاحتني لأنني لم أضطر إلى مشاركته؛ كنت مذنبة وسعيدة في الوقت ذاته.

إيرنست وأنا كلانا أحببنا أوتييه. كنا على الدوام نراجع أخبار صحيفة السباق معاً، ثم نتوجه إلى المستراد* لمشاهدة الخيول. لكم أحببت الرائحة القوية للأحصنة ومضمار السباق نفسه، وضجيج الحشود التي تنتظر ما يحمله إليها حظها. كذلك إيرنست كان مفتوناً بكل شيء؛ بالتماوج البديع لعضلات الحصان، وفرسان السباق المكتنزين ببزاتهم الحريرية، والمدربين الواقفين بمحاذاة السياج والذين يبدون وكأنهم على اطلاع على أمر غامض، واللغة العامية لصبية الإسطبلات، ورائحة فضلات الجياد. لم نملك يوماً مبلغاً كبيراً لننفقه على السباق. لكن، كان لدينا دوماً شيء ما، إلى جانب كون تمضية الوقت معاً في يوم مشمس أمراً ممتعاً. فكان إيرنست يمد معطفه على العشب ونجلس فوقه لتناول الغداء، ثم آخذ قيلولة أو فقط أستلقي هناك متأملة الغيوم بانتظار السباق التالي. عندما كنا نفوز كنا نتناول الشراب، وأحياناً كنا نفعل ذلك عندما نخسر أيضاً لأننا كنا سعيدَين بتواجدنا هناك مع بعضنا. وما كان المال بالنسبة لنا على أي حال؟ لم نملك يوماً مبلغاً ذا قيمة كي يشكل فرقاً إذا خسرناه.

في ذلك اليوم، كان الحصان المفضل حصاناً أسود جميلاً لامعاً وثاباً وسريعاً. لكننا مع ذلك لم نراهن عليه، بل على حصان آخر أخف وزناً يدعى شيفر دور كان يركض. أحياناً كنا نختار الأحصنة معاً بعد أن نتمشى في المستراد أو نقف عند السور مراقبين حركة الأحصنة ومنتظرين ذاك الشعور الغامر بأنه: "ذاك هو في بعض الأحيان، كان إيرنست يلتقي أحد معارفه فيرشح له اسماً أو اثنين يحظيان باحتمالات ربح جيدة. في هذه المرة، اعتمدت كلياً على حدسي، وانتقيت الحصان بنفسي. أمكنني أن أحمل الحظ لكلينا في ذلك اليوم، فقد حصل ذلك قبلاً، وفي ذلك اليوم شعرت بما يشبه اليقين بأنه سيحدث مجدداً. لم يكن شيفر دور سريعاً وغامقاً، ولكنه كان يتحرك مثل الشراب في الكأس. تأملت قائمتيه الرشيقتين وأخبرت إيرنست أننا قد وجدنا ضالتنا.

"دعنا نراهن عليه جدياً، هل بحوزتنا ما يكفي من المال؟"

فأجاب: "ربما"

---

* المستراد: حقل معشوشب في نادٍ لسباق الخيل تسرج فيه الأفراس وتستعرض قبل تباريها.

"إذاً، دعنا ننفقها على أي حال، وحتى إن لم نكن نملكها"

ضحك، وتوجه إلى كشك وضع الرهانات، وهو لا يزال يبتسم لي؛ فقد كان يحب الأوقات التي أتصرف فيها بجرأة. ولدى عودته سألني:

"ألا تزالين مصممة على هذا الحصان؟"

"أجل، أنا كذلك"

"جيد، فقد راهنت عليه بمبلغ يغطي نفقاتنا لستة أشهر قادمة"

"أنت لا تعني ما قلته"

"بل أعنيه" وسحبني لنشق طريقنا إلى السور مع بقية المتفرجين ونحن نشعر بالحماسة.

منذ البداية، تقدم حصاني على الأحصنة المتسابقة جميعها. ولدى وصوله إلى الحاجز الثاني ما كان لشيء أن يلامسه. عند الحاجز الرابع، كان متقدماً بأربعة أطوال.

هتفت: "سينجح" وقد تضرجت وجنتاي حمرة، وأحسست بمعدتي تتشنج.

"أجل سينجح بلا ريب" قال إيرنست وعيناه تراقبان بقية الأحصنة والمسافة التي تفصلها عن حصاننا تزداد. لكن الأوان كان قد فات لأي منها، فقد كان شيفر دور سريعاً للغاية ومتصدراً المقدمة بعشرة أطوال ازدادت مع الوقت. في تلك الأثناء، تقدم الحصان المفضل على البقية وصوت فرقعة سوط فارسه يعلو في الهواء، غير أن حصاني كان يخوض سباقاً خاصاً به بعيداً عن الآخرين.

لقد كان متقدماً بعشرين طولاً، ولا تزال أمامه عشرون أخرى ليصل إلى خط النهاية عندما وقعت الكارثة. بقدر ما كان كل ما مضى جميلاً وبديعاً، كانت سقطته عند الوثبة الأخيرة مريعة وبشعة. إن كان من قبل يشبه البرق في سرعته، فقد بات الآن كعربة يدوية محطمة، كدمية طفل من العصي والخيوط تهشمت.

كم كان المشهد مريعاً إلى حد أنني لم أستطع متابعته. دفنت وجهي في كتف إيرنست و لم أشاهد بقية السباق، حيث تفرقت بقية الجياد حول الحصان المستلقي على الأرض متابعة عدوها، وحصل الحصان المفضل على كل ما لم يكتسبه بحق.

أمضيت نصف طريق العودة وأنا أنتحب وسط القطار الذي كان يعبر الأحياء الكئيبة بحبال الغسيل المعلقة في أرجائها، والقاذورات، والأطفال المرتدين الأسمال البالية، ومحاولة نسيان ما رأيناه في ذلك اليوم.

الفصل السابع عشر

عندما حانت ذكرى زواجنا الأولى، قررنا أن نمضيها بصحبة تشينك في كولونيا في ألمانيا، واستأجرنا قارباً في نهر الراين لنلتقي فيه. كان الجو لا يزال حاراً حينها والنهارات طويلة وجميلة، وعندما التقينا تشينك غمرتنا جميعاً السعادة لاجتماعنا. كان من المفيد له ولنا أن نكون معاً، وكولونيا أغدقت علينا من جمالها.

في إحدى المرات بعد الظهر، كنت مستلقية على العشب، ومراقبة إيرنست وتشينك وهما يصطادان السمك. مد إيرنست يده إلى حقيبة الصيد قربه ليخرج منها قارورة شراب فتحها بأسنانه، وبيده الأخرى ثبت الصنارة بخيطها المستقيم نزولاً إلى الماء، فيما الماء يترقرق حوله بلطف. هبت نسمة لطيفة حملت معها غبار الطلع من الأشجار المزهرة مشكلة حولنا غمامات رقيقة صفراء.

قلت لرفيقيّ وأنا أتأملهما بعينين نصف مغمضتين: "تبدوان أيها الشابان جزءاً من لوحة مرسومة"

فقال إيرنست لتشينك: "هل سمعت هذا؟ لدينا معجبة"

نهضت عن العشب متوجهة نحو إيرنست، ورحت أراقب ما يفعله عن كثب لبضع دقائق قبل أن أقول له: "أرني كيف تقوم بذلك"

"هل مللت الإعجاب بنا بهذه السرعة؟"

فأجبته مبتسمة: "مطلقاً. إنما أود أن أحاول الصيد بالصنارة"

"حسناً إذاً" ونهض ليقف ورائي على الضفة العشبية الطرية، وأراني كيفية توجيه الصنارة. أرجحت ذراعي إلى الخلف ومن ثم إلى الأمام بشكل قوس مرنة تماماً كما قال، واستطعت تحرير البكرة بشكل ممتاز فأبحرت صنارتي مع التيار كما الأحلام.

قلت: "لقد منحني هذا شعوراً طيباً"

فقال تشينك: "وهذا دليلك لمعرفة ما إن كنت قد أحسنت عملاً"

"وماذا الآن؟"

رد إيرنست: "الآن تنتظرين ثم سار متجهاً إلى صندوق الصنارة. وقبل أن يصل إليه شعرت بجذب صغيرة للخيط، ثم جذباً أقوى. ومن دون تفكير، سحبت الصنارة فعلق الخطاف، وبت قادرة على الإحساس بالسمكة وهي تقاوم.

صاح تشينك: "إنها موهوبة بالفطرة"

هرول إيرنست عائداً إلي، وساعدني على سحب سمكة السلمون ووضعها على العشب بلونها البني الباهت المرقط.

قلت: "أشعر بشيء من الأسف عليها"

فمازحني تشينك قائلاً: "بمقدروك إرسالها إلى الماء ثانية إذا شئت" فهتف إيرنست ضاحكاً: "لا، لن تفعل!"

قلت: "كلا، أريد أن آكلها. أريد أن أعرف إن كان مذاقها سيكون مختلفاً عندما تصطادها بيدك"

قال إيرنست: "فتاة طيبة. إنه مختلف فعلاً"

"هذا ما ظننته"

علق تشينك: "هذه امرأة تتمتع بغريزة القتل وضحكنا جميعاً.

بعد أن اصطدت سمكتي الثانية ثم الثالثة، الواحدة تلو الأخرى، قال لي إيرنست: "لم لا تتعلمين الأمر برمته إذاً" وعلمني كيفية تنظيف أحشاء السمكة وغسلها جيداً بماء الجدول قبل طهيها.

قلت له: "أشعر بقرف شديد مما نفعله"

"أدرك ذلك جيداً صدقيني، فقد جربته"

قمنا بعدها بشي سمكاتي الثلاث على النار، إلى جانب نصف الدزينة التي اصطادها إيرنست وتشينك.

قلت وأنا ألعق الملح عن أصابعي: "إن مذاق سمكاتي هو الأفضل

فقال إيرنست: "وأنا أحببت مذاق سمكاتك أكثر من الأخرى" وفتح قارورة شراب جديدة، فيما انسحبت أنوار الغسق وأقبل علينا المساء.

في كولونيا ذاتها كانت الأجواء مضطربة. ففي الحامية الاستعمارية البريطانية التي عين فيها تشينك مؤخراً، قامت جماعة من الرعاع بالتعدي على تمثال لفيلهلم الثاني الذي كان فيه ممتطياً صهوة حصان، فلوَوا سيفه المعدني إلى الأسفل وحطموا المهمازين. جماعة أخرى من مثيري الشغب عمدت إلى قتل شرطي ألماني عندما لاحقوه إلى النهر، ثم بتروا أصابعه عندما حاول التمسك بالجسر لينقذ نفسه من الغرق. من بعيد، بدت تلك المدينة خارجة من حنايا القصص الخيالية، بمنازلها حمراء الأسطح، وسكانها بثيابهم القروية. لكن، شأنها شأن المدن الألمانية الواقعة تحت سيطرة الحلفاء، كانت في حالة غليان شديد الخطورة.

بعد بضعة أيام، وفي الرابع عشر من شهر أيلول، كنا في أحد المقاهي نقلب صفحات الجرائد، ونطالع فيها خبر مدينة الميناء التركي سميرنا* التي كانت تشتعل. كانت الحرب التركية اليونانية قد استعرت منذ ثلاث سنوات؛ منذ إعادة تقسيم الإمبراطورية العثمانية التي خرجت من الحرب. غير أن الصراع قد وصل إلى نهايته أخيراً بهذا الحريق الهائل الذي لم يدر أحد على عاتق من تقع مسؤوليته. فاليونانيون ألقوا باللائمة على الأتراك، والعكس كان صحيحاً. وحدها النتائج المأساوية التي تمخض عنها الحريق هي التي كانت ظاهرة بجلاء للعيان. فقد اضطرمت النار لأيام في الميناء بفعل البترول الموجود فيه، وكذلك كان حال الأجزاء الأرمينية واليونانية في المدينة. اضطر الناس إلى الخروج من منازلهم إلى الشوارع، فغرق عدد كبير منهم في الميناء، فيما ذبح آخرون في أماكنهم. ومن نجا آثر اللجوء إلى التلال. لدى قراءتنا الخبر، قرعنا أنفسنا بشدة ونحن جالسون في ذلك المقهى نتناول غداءنا الفاخر لأننا لم نكن على اطلاع أكثر بمجريات الصراع.

"أتوقع أنني سأفرز إلى هناك قريباً جداً" قالها تشينك وقد تصلبت ملامحه.

فرد إيرنست: "لعلي سأكون هناك قريباً أنا أيضاً" شعرت بقشعريرة باردة تسري في جسدي وقلت له: "أنت لا تعتقد ذلك حقاً"

فأجاب: "لست أدري. ذلك ممكن

قال تشينك: "لطالما أردت رؤية إسطنبول"

---

* سميرنا: مدينة إزمير اليوم.

فعلق إيرنست: "القسطنطينية كلمة أفضل. أو *بيزنطة*"
"صحيح. لكن، في كلتا الحالتين باتت الآن في الحضيض. أليس كذلك؟"

لدى عودتنا إلى باريس، لم يتسنَّ لنا الوقت لنرتب أمتعتنا عندما وصلت برقية إلى إيرنست من مجلة *ستار*، مفادها أن جون بون سيرسله إلى تركيا ليعد تقريراً عن الصراع هناك؛ تماماً كما توقع، ويطلب إليه أن يستعد للمغادرة في غضون ثلاثة أيام. لقد قرأ الخبر لتوه، والمظروف الممزق الخاص بالبرقية لا يزل في يده، فيما شعرت بأنني على حافة الانهيار.

"ما الأمر؟" سألني إيرنست وهو يراقب الإحباط البادي على وجهي متعجباً.
"لن يطول غيابي. ستكون المدة مماثلة لفترة غيابي في جنوا. بعدها سأعود إليك، وسنكون معاً مجدداً"

الواقع أنني لم أخبره يوماً عن حالي عندما سافر إلى جنوا. لم أخبره كيف أن كل يوم كان بمثابة كفاح مع نفسي كي لا أفقد توازني.

قلت له: "لا أريدك أن تذهب"
"ماذا؟"
"أخبرهم أنك لا تستطيع. قل لهم إنني مريضة"
"ما تقولينه غير منطقي"
"بل إنه كذلك. ألا ترى؟ إنني ولأول مرة أخبرك بالحقيقة "
"كلا، بل أنت تتصرفين على نحو طفولي. وما هذه إلا نوبة من نوبات غضب الأطفال، وأريد منك التوقف عنها الآن"

وهنا بدأت بالبكاء، وكان ذاك أسوأ ما فعلته لأنه كان يمقت الدموع.

هتف بي: "أرجوك توقفي. لقد حظينا لتونا بوقت رائع في كولونيا، ألم نفعل؟ لم لا نستطيع فقط أن نكون سعيدين؟"

"وهذا جل ما أتمناه" لكن دموعي ظلت تفيض من عيني، ففتحت حقيبتي، ثم عدت فأغلقتها، وتوجهت إلى المطبخ لأغلي الماء للشاي. وظننت أنه قد ذهب إلى غرفة النوم لكنه أتى في أثري سائراً بتؤدة.

قلت له أخيراً: "إنها بعيدة للغاية"

"هذا هو لب الموضوع، أليس كذلك؟ أنت لا تريدين الشعور بأنفاس الحر تلفح عنقك"

"ألا نستطيع التظاهر بأن البرقية لم تصل؟"

"كلا، لا يمكننا ذلك" أضحى وجهه فجأة قاسياً لأنني كنت أطلب إليه تفضيلي على عمله.

صاح بي: "فليذهب الشاي إلى الجحيم" لكنني بقيت مستغرقة في تحديد كمية الأوراق اللازمة لأضعها في الإبريق، وفي سكب الماء عبر المصفاة الخزفية فيما راح يذرع المكان الضيق خلفي جيئة وذهاباً بانتظار اعتذاري. لكن، عندما لم أفعل، بل و لم أستدر حتى، اندفع على نحو عاصف خارجاً من الشقة.

كنت أعلم أنه سيتوجه إلى أحد المقاهي. وكان بمقدوري العثور عليه بسهولة، ولعل الأمور كانت ستحل حينها لو أنني فعلت ذلك. لربما كنا تناولنا الشراب معاً، واتفقنا على رمي خلافنا وراء ظهرينا، لكنني لم أفعل، بل بقيت مكاني، واحتسيت الشاي اللعين الذي لم أرغب به أصلاً.

عندما عاد إيرنست إلى المنزل كنت أتظاهر بالنوم. فقد هجرت الشاي وانكببت على قارورة شراب، و لم أتناول شيئاً من الطعام. وعندما أصبحت منهكة، تناولت الإبريق الخزفي الصيني البديع الذي حملته معي عبر المحيط وألقيت به أرضاً ليتحطم إلى قطع صغيرة. أردته أن يبقى هناك ليراه إيرنست، لكنني ما إن فعلت فعلتي حتى استصغرت نفسي وشعرت بأنه بالفعل تصرف نابع عن نوبة غضب طفولية، كما وصفني. كم كرهت شعوري باليأس الشديد، وبأنني فاقدة السيطرة، لكنني في الوقت نفسه لم أتمكن من كبح جماح نفسي. لملمت القطع المكسورة الرطبة واحدة واحدة، ووضعتها في كيس ورقي صغير، ثم ذهبت إلى السرير. شعرت بالدوار يعصف برأسي الملقى على الوسادة، لكنني أغمضت عيني وحاولت تهدئة أنفاسي. بعد وقت ليس بالقليل، سمعت خطواته وهو يرتقي السلالم، ثم يدخل الغرفة. جلس إلى جواري على السرير، وخاطبني برفق وهو يمسح وجهي وعنقي بأصابعه: "هادلي، دعينا لا نتصرف على هذه الشاكلة يا قطتي الزغبة"

أغمضت عيني بإحكام كي لا تفر منهما الدموع، وحاولت الظهور بمظهر النائمة، لكنه كان يعلم أنني لم أكن كذلك. وعندما لم أفتح عيني و لم أجبه صاح: "اللعنة عليك" ودفعني بقوة من كتفي.

"إنه عمل، وأنت تعلمين أنني مجبر على الذهاب"

"لا، أنت لست مجبراً، بل أنت تريد الذهاب"

"فلتذهبي إلى الجحيم على أي حال" ثم غادر لينام خارج المنزل.

لعله ذهب إلى غرفته في شارع ديكارت تلك الليلة، أو نام على المقعد الطويل أسفل السلالم في قاعة الرقص. لست أدري. لكنه غاب عن المنزل حتى أصيل اليوم التالي ثم عاد ليحزم أغراضه ويعد ما يلزم من إجراءات. راح يتحرك في الشقة ملقياً بأشيائه في حقيبته بإهمال، وجامعاً كراساته كلها معاً.

"أهذا ما سيكون عليه الحال إذاً؟" لكنني لم أجبه، بل حدقت من النافذة إلى الفراغ.

"لقد قلتِ إنك لن تفعلي هذا بي أبداً، أتذكرين؟"

كان محقاً، فلطالما أقسمت له مراراً وتكراراً إنني لن أحول بينه وبين عمله، وبشكل خاص عندما كنا في بداية علاقتنا؛ عندما كنت أرى في مستقبله المهني مستقبلي أيضاً؛ معتقدة أن دوري، بل حتى قدري، يتلخص في مساعدته على شق طريقه. لكنني شيئاً فشيئاً أدركت ما كانت تعنيه تلك الوعود حقاً. جزء مني أراد له أن يشعر بالتعاسة التي أشعر بها، عساه حينها يستسلم ويبقى إلى جواري. لكنه لم يفعل.

لم نتبادل أي كلمة أو لمسة طيلة ثلاثة أيام. وعندما غادر في الخامس والعشرين من أيلول كان مجروحاً وغاضباً إلى حد أنني لم أعد أستطيع معه النظر إليه. فوقفت عند الباب أراقبه وهو يتخبط مع حقائبه على السلالم. وقبل أن يصل إلى الأسفل، أوقع الحقيبة التي يضع فيها آلته الكاتبة فصدر عنها صوت قعقعة كريهة، فركلها بغضب قبل أن يرفعها، ثم توجه إلى الباب فركله أيضاً ليفتح، ثم لم أسمع شيئاً بعدها.

الفصل الثامن عشر

قد تكون ملاريا تلك التي استشرت، لكن كل شيء كان أصفر اللون بشكل غريب. نهر الماريتزا راح يجري بسرعة وكثافة لأن السماء كانت تمطر على مدى خمسة أيام متواصلة. والمطر أيضاً كان أصفر اللون.

لم يحظ بنوم هانئ مذ غادر باريس؛ مما جعل مهمة السير تحت المطر أكثر صعوبة. فليست هناك نهاية لأي منهما؛ المطر والسير. تدفقت أعداد كبيرة من اللاجئين إلى طريق كاراغاتش، وهم يدفعون أمامهم عرباتهم الخشبية، وقد حملوا عليها كل ما لم يطيقوا تركه وراءهم. وهم وغيرهم ممن لا يجرّون العربات قد ربطوا صرراً إلى أجسادهم أو حملوا أطفالهم. الأطفال أنفسهم حملوا ما أمكنهم حمله، وراحوا يبكون أحياناً عندما شعروا بالتعب أو الخوف الشديد. الجميع كانوا خائفين ومبتلين والمطر لا يزال ينهمر عليهم مدراراً.

إنه هنا كي يكون شاهداً، وهو يفهم ذلك، لذا يحمل نفسه على رؤية كل شيء ولا يشيح بوجهه عن أي تفصيل، رغم أن معظم ما يراه يثير شعوراً بالغثيان في معدته. إنها المرة الأولى التي يعود فيها إلى ساحة حرب ليتذوق مرارتها بعد أن شارك فيها في ما سبق. وهذا الأمر وحده أثار رعدة رهيبة في جسده خلال اليومين الأولين له هناك. لكن الرعدة تلاشت الآن بعد أن كبح جماحها وبات بمقدوره أداء ما يتوجب عليه.

عبر طريق كاراغاتش تحدث إلى الكثيرين ممن أتوا من سميرنا وشاهدوا الحرائق هناك، بل وما هو أسوأ من الحرائق. رجل ذو وجه أحمر متقد شاهد أخته وهي تركض إلى رصيف الميناء وقد اشتعلت فيها النار حتى أطراف شعرها. رجل آخر ضمدت ذراعه من الكف إلى الكتف بقماشة قذرة فاحت منها رائحة الغارغرينا

حتى تحت المطر. تحدث إليه الرجل عبر مترجم، فروى له كيف اختبأ تحت مرسى السفن معظم اليوم والليلة، والماء يرتفع حتى صدره في بعض الأحيان. وكيف أن المحارات العالقة على أساسات المرسى هي التي سببت له الجروح على يده وذراعه عندما دفعه المد والجزر باتجاه الأصداف.

"كانت أضواء مصابيح البحث تسطع في الميناء، لكنك لم تكن لترغب برؤية الأشياء التي تطفو حولك في كل مكان"

في نهاية الأمر، استطاع الرجل الخروج من الماء، وعثر على أفراد عائلته وأخذهم معه إلى الطريق؛ مثل آخرين كثر. كان قد تعرض لجروح عميقة في أماكن عدة من ذراعه، لكنه لم يكن ينزف فاعتقد أن مياه البحر قد تكفلت بغسل جروحه وأنها ستشفى من تلقاء نفسها وسيكون بخير دون الحاجة للجوء إلى جراح.

"لكنني لست بخير كما ترى" قال تلك الجملة فنقلها المترجم إلى إيرنست، فيما تابع مسيره.

أجابه إيرنست: "أجل، باستطاعة أي امرئ أن يرى ذلك"

كانوا يسيرون إلى جانب عربة خشبية يجرها ثور واحد ضخم وتدلف الماء منها. استلقت فيها امرأة في المخاض على فرشة يعصر الماء منها، فيما وقف فوقها ولدان يمسكان ملاءة من أطرافها جعلاها كخيمة يحاولان بها عبثاً أن يقيا أمهما من الأمطار. جلست امرأة عجوز القرفصاء بين ركبتي المرأة، بينما حاول الأطفال النظر بعيداً. لقد شعر إيرنست بالغثيان لدى رؤيته إياها وسماعه صراخها الذي لن ينقطع إلا بولادة الطفل؛ وربما لن يفعل حتى حينذاك.

لم يتوقف الرجل لحظة عن المسير وهو ينظر أمامه عبر المطر ويقول: زوجتي تعلم أنني جبان. لقد اختبأت تحت المرسى، تعمدت التخلي عنهم جميعاً"

هز إيرنست رأسه ونظر أمامه ليرى ما هم مقبلون عليه، فوجده جسراً فوق النهر، عبارة عن هيكل خشبي صقيل إنما متين استطاع حمل الأثقال التي تمر عليه جميعها، من عربات وثيران وجمال، والأجسام المزدحمة دون أن يتحرك أي منها إلى الأمام أو إلى الخلف.

سرح ببصره بعيداً فوق الرؤوس، فرأى المآذن الجميلة للمساجد تنهض فوق السحاب الأصفر، منفصلة عن الواقع الحي الذي يحدث على الأرض، وعن الوحل

والصراخ والجبن والمطر. في جيب معطفه، استقر كراس أزرق طواه نصفين وقلما رصاص. كان يعلم دون الحاجة إلى تفقدها أنها باتت مشبعة بالماء، وما كان ليستطيع تدوين أي مما يشهده الآن على أي حال. سيعد رسالة إخبارية يرسلها الليلة من الفندق؛ هذا إذا لم يفض بماء الأمطار. أما الآن، فكل ما استطاع الإتيان به كان أن يرغم نفسه على رؤية كل شيء دون أن ينهار ودون أن يشيح ببصره بعيداً.

مر أسبوع، لكنه شعر وكأنه لم يتواجد يوماً في مكان آخر سوى هذا. إنه أحد الأمور التي تفعلها بك الحرب. فكل ما تراه فيها يعمل على استبدال ما سبق لك أن عايشته في حياتك من أشخاص أو لحظات؛ إلى أن تصل إلى مرحلة لا تتذكر بعدها أهمية أي منها. ولن يفيدك كونك لست جندياً، فالأثر هو ذاته.

راح إيرنست ينام على سرير نقال في فندق أدريانوبل ملتحفاً بطانية قذرة وقد غطته القروح نتيجة قرصات القمل. أمضى أيامه وهو يجري المقابلات مع اللاجئين، ثم يدونها ويرسلها إلى مجلة ستار، وإلى أي إن أس تحت اسم جون هادلي. في بعض الأحيان، كان يبلغ من التعب مبلغاً يجعله يرسل القصة ذاتها مرتين. ولكنه ما كان ليكترث؛ فليفصلوه من عمله. عليهم أولاً إيجاده ليفعلوا ذلك، وهو كان في اللامكان.

عندما يخيم الليل، كان إيرنست يتوجه إلى مقهى تعمل فيه فتاة أمريكية سوداء، ذات ظلال غامقة تحت عينيها، ترتدي ثوباً ملوناً تربطه عند خصرها. كان بمقدوره رؤية شكل صدرها، وأراد لمسها بشدة. ذات مساء، دخل المقهى رجل آخر، جندي إنكليزي، ووضع يديه على خصر الفتاة فابتسمت له. في تلك اللحظة، اشتعل إيرنست غضباً، ووجه لكمة إلى الجندي. لم يكن يعني ما فعله تماماً، فكل ما فكر فيه أن عليه التحرك إذا كان يريد تلك الفتاة لنفسه. إنهن لا يأتين إليك طواعية أبداً، ولم عساك سترغب أن يفعلن؟ شعر بقبضته تعانق فك الجندي فيرتخي. إنه لم يشعر بشيء بعد، لكن الجندي وقع على إحدى ركبتيه، ثم نهض بعدها سريعاً وعيناه تستعران، ورمى بنفسه على إيرنست، لكنه لم يكن سريعاً كفاية إذ عاجله الأخير بلكمة في معدته هذه المرة أحس معها بأنفاس الرجل تنهار حول يده.

صاحت الفتاة بهما قائلة شيئاً ما لم يفهمه، لكنه يبدو مثل "يكفي" فسحبها من يدها وخرج بها مسرعاً. كانت هناك سيارة أجرة واقفة في الخارج فاستقلاها إلى غرفتها دون أن يتبادلا أي كلمة. وهناك كان له ما أراد، لقد تحكّم بالأمر كما يشاء كي يشعر بأنه لا يزال حيّاً؛ على الأقل في تلك الليلة. وفي الصباح، قبل أن يغادر، ترك عنوان فندقه على قصاصة ورق من كراسه، ودولارين أمريكيين. إنه يفكر في أنه لن يلتقيها مجدداً، لكن إن فعل فلا بأس بذلك. بات الآن يملك مالاً أكثر لينفقه، وربما إن رآها ثانية فلن يشعر بالغثيان إلى هذه الدرجة كما يشعر الآن. ربما سيكون في حال أفضل، وربما سيصلح ذلك شيئاً في ذاته المحطمة.

نزل إلى الشارع حيث كان الوقت لا يزال باكراً جداً، وكان الطقس بارداً ولم يبدأ المطر بالهطول بعد. وراح يسير إلى فندقه مفكراً:

"لقد فعلتها الآن، أليس كذلك؟ لقد فات الأوان كثيراً على أن تمحو ما جرى. إنك لن تفعل ذلك على أي حال. عليك أن تتذكر هذا لاحقاً، عندما تشاهد بأم عينيك الألم يعتصر قلب زوجتك وتتمنى الموت لأنك تسببت بإيذائها. تذكر أن أحداً لم يرغمك على فعل شيء، بل أنت من تولى زمام الأمور. ولهذا السبب وحده عليك ألا تشعر بالأسف"

والآن، عاد المطر ينهمر بقطرات ناعمة جداً انسلت لتتحد مع قماش قميصه وسرواله. شعر أثناء مسيره في الطريق الموحل بأن الأبنية المحيطة به تكاد تطبق عليه، وها هي تلك الفكرة الحقيقية لا تبارحه؛ وهي أنه لا يوجد أي عالم آخر سوى هذا. في أي شيء تهم معرفتك أن إقامتك علاقة مع امرأة أخرى ستقتل زوجتك إن كنت لا تملك زوجة هنا والآن؟ ليست لديك زوجة، ولست في باريس، ولا أي شيء آخر. بل بمقدورك أيضاً أن ترى الفتاة مجدداً. بإمكانك أن تهوي بنفسك أكثر فأكثر وتصاب بحالة من القرف المستديم من أفعالك، لأن هذا هو العالم الوحيد الذي لديك.

الفصل التاسع عشر

بعد مغادرته شعرت بالحزن وبتأنيب الضمير، وكرهت نفسي على مر الدقائق. نظرت إلى قارورة الشراب على الرف، بل وأمسكت بها للحظات قبل أن أعيدها إلى مكانها. ليس قبل الغداء، لن أستطيع أبداً النجاة من الموقف بهذه الطريقة. لذا صنعت قهوة لنفسي، وقشرت برتقالة وحاولت أن لا أفكر به وهو على متن القطار. سيستغرق سفره يومين على الأقل، وبعدها سيصبح في عالم آخر؛ وعالم خطر أيضاً. كل ما استطعت فعله كان أن آمل أن يكون بخير، وأنّ الخيط الذي يربطنا متين كفاية لكي نتخطى الأذى الذي لحق بعلاقتنا.

بطاقتان بريديتان مخربشتان وصلتاني من إيرنست قبل أن يصل إلى الحدود التركية، وبعدها لم يصلني أي خبر منه، فألقيت باللائمة على خدمات البريد لأنني لم أشأ التفكير في ما يمكن أن يعنيه صمته تجاهي. عندما نشرت مجلة ستار قصته الأولى بعد أسبوعين على سفره قرأتها وأنا أفكر في أدق التفاصيل الخاصة بما يجري هناك – ليس العنف وحده، بل الأمراض من قبيل الملاريا والكوليرا التي استشرت على نحو وبائي على ما يبدو – مما جعلني في وضع أسوأ من ذي قبل؛ فأحرقت المجلة وخرجت للتمشي قليلاً.

جاءت ماري كوكوت إلى منزلي كل يوم بعد الظهر. وفي أحد الأيام، أحضرت لي مئزراً وقالت وهي تربطه حول ثوبي المنزلي: "يتوجب عليك الخروج من سريرك" ومعاً شرعنا بإعداد مأكولات فرنسية متنوعة، وبالفعل كانت شهية وحسنة المظهر رغم أنني لم أستطع حمل نفسي على تناولها.

جاء لويس غالانتيير لزيارتي، وجلس إلى مائدة الطعام في منزلي، وبذل جهده ليحملني على الخروج إلى ميشاود.

"يبدو أن جيمس جويس قد أصبح أباً لستة أطفال آخرين هذا الأسبوع. إنهم جميعاً هناك يلتهمون كميات هائلة من لحم الضأن والحليب يخرج من فتحات أنوفهم. لا تخبريني أنك لا تودين رؤية ذلك بنفسك"

أرغمت نفسي على الابتسام، ثم ارتديت ثياب الخروج، ووضعت على معطفي، وانتعلت أقل أحذيتي بعداً عن الحداثة. ثم قلت له: "لنتمشَّ إلى ناصية الشارع، لا ميشاود الليلة، اتفقنا؟"

"خادمك المتواضع تحت أمرك سيدتي"

لم أخبر لويس أو أي أحد آخر عن الأمور السيئة التي حدثت بيني وبين إيرنست، فقد كنت أشعر بإحراج شديد. في الصباح، أمضيت الوقت وأنا أكتب الرسائل وأكذب فيها على غريس والدكتور هيمنغواي والدي إيرنست قائلة لهما إن كل شيء على خير ما يرام. شرحت لهما كيف أن عمل إيرنست لدى مجلة *ستار* كان يمضي بمنتهى السلاسة، وكم كان يبدو واعداً. لكنني لم أقل لهما إنه كان عازماً مؤخراً على نقض العقد الحصري الذي بينهما وإرسال قصصه وتحت اسم مستعار إلى وكالة الأنباء الدولية INS. بالطبع جرت المفاوضات حول هذا الأمر سرًّا؛ مما يعني اللجوء إلى الكذب والخداع عندما تصل إحدى قصصه "الحصرية" إلى آي إن أس قبل أن تصل مجلة *ستار*. لكنه ادعى أن الأمر مجز ويستحق مادياً. لقد استطاع أن يجري تسوية مع ضميره، أما أنا فقد واجهت صعوبة في تقبل عدم أمانته؛ لأن سلوكه ذاك عبّر بنظري عن جوانب أخرى في شخصيته، وفي الطريقة التي يسعى فيها لتحقيق أهدافه مهما كان الثمن.

لكن التفكير على هذا النحو لم يفضِ بي إلى أي مكان، فقط عاد بي إلى قارورة الشراب. لذا نحيت أفكاري جانباً مع رزمة الرسائل التي كتبتها، وخرجت إلى متحف لوكسمبورغ لأرى لوحات مونيه. وقفت وتأملت الرقع الأكثر إشراقاً في لوحات الزنابق، واللون الأرجواني في الماء، وحاولت ألا أرى أي شيء آخر غيرها.

في نهاية شهر تشرين الأول، وفي الصباح الباكر، وطئ إيرنست رصيف محطة القطار في غاري دي ليون وقد بدا عليه الضياع؛ وكأنه كان خارجاً من معركة

رهيبة. كان ضعيفاً ومرهقاً ومحموماً بسبب الملاريا، وقد خسر عشرين باونداً من وزنه، حتى إنني بالكاد استطعت التعرف عليه. تحرك نحوي ثم انهار بين ذراعي، واتجهنا بعدها معاً إلى المنزل؛ حيث جعلته يسند رأسه إلى المغسلة ورحت أغسل له شعره بالشامبو، وقد كان يغلي بالقمل.

"أنا آسفة على كل شيء يا تاتي" همست له عندما أغمض عينيه.

فقال: "دعينا لا نعد إلى هذا الحديث، فلم يعد ذلك مهماً الآن"

تناولت المقص وقصصت شعره بطول قصير جداً، وأخذت ألتقط ما تبقى فيه من قمل واحدة واحدة بعد أن قربت المصباح كي أستطيع الرؤية بوضوح. بعدها، دهنت جسمه كله بالكريم، وساعدته على الاستلقاء في السرير ذي الملاءات النظيفة حيث نام أربعاً وعشرين ساعة. وعندما استيقظ، كنت قد حضرت له وجبة مكونة من البيض والتوست واللحم والخردل، تناولها جميعها بامتنان، ثم نام ثانية.

لم يغادر إيرنست السرير مدة أسبوع. في بعض الأحيان، أمضيت الوقت وأنا أراقبه فقط وهو نائم، وقد عرفت من مجرد النظر إليه أنه قد ذاق من صنوف المعاناة ما لن يستطيع البوح به لفترة طويلة. كان الصدع الذي حصل بيننا مريعاً، وكذلك الصمت. لكن الوقت الذي أمضاه في تركيا زاد الطين بلة. ولعله كان محقاً بأن نضع ما حدث خلف ظهرنا، وأنه لم يعد مهماً. فقد عاد إلى منزله الآن، والتأم شملنا ثانية، وربما سيغدو كل شيء على أحسن حال طالما أننا لم نفكر في الأمر أو نعطه مجالاً ليتضخم.

بعد أسبوع، أضحى قادراً على الخروج من السرير والاستحمام وارتداء ثيابه، وبات تقريباً جاهزاً للقاء أصدقائه. تناول حقيبته القماشية مبعداً كراساته جانباً، ليخرج هدايا ملفوفة بورق الجرائد وطبقات من الملابس. كان قد أحضر لي قارورة من عطر الورد، وأيضاً عقداً من الكهرمان الثقيل ذا حبات ضخمة اصطفت إلى جوارها حبات المرجان الأسود وقطع الفضة.

هتفت وأنا أرفع العقد إلى الأعلى: "إنه في غاية الجمال"

"إنه عائد إلى دبلوماسي روسي رفيع المستوى، يعمل الآن نادلاً"

"أرجو أن تكون قد أجزلت له العطاء"

"لقد فعلت، وجعلته يشرب على حسابـــي طيلة الليلة"

كان إيرنست قد عاد إلى طبيعته تقريباً. انتظرت منه أن يستفيض في الحديث أكثر عن الموضوع لكنه لم يفعل، بل انكب على قهوته يشربها ويسأل عن الصحف اليومية.

لقد عرفت أنه عاد يحبني مجدداً، استطعت أن أشعر بذلك. أياً كانت المشاعر التي انتابتنا خلال الأسابيع الماضية التي افترقنا فيها عن بعضنا فقــد انتــهت الآن. فتحت زجاجة عطر الورد ذات اللون الأصفر الفاقع، والتي تفوح رائحتها برائحــة الورود الطبيعية النقية. وبطريقة ما، ومن دون محاولة العثور على الكلمـــات، بـــدأ الجزء التالي من قصتنا.

الفصل العشرون

"كوني حذرة. إنك تفتحين الباب على مصراعيه للشيطان" قال لي إيرنست.

"هل أفعل؟"

"تعلمين أنك تفعلين"

"فليدخل إذاً، إن كان سيأتي على هذه الشاكلة، مثل ضباب أخضر

كنا في مقهى سيلكت بصحبة بوند ودوروثي التي اعتدنا على أن ندعوها شكسبير. كان بوند قد تولى لتوه إدارة التحرير لصحيفة أدبية تدعى *ثري ماونتنز – الجبال الثلاثة* – وكان حريصاً على أن ينشر أعمالاً لإيرنست فيها. كنا جميعاً في معنويات عالية في تلك الليلة، وقد أردت أن أحتسي قدحاً واحداً فقط من الشراب للاحتفال.

قال بوند: "عليك بالتمهل"

أجبته: "أحقاً علي ذلك؟"

لكن، تبيّن لي أنه لم يكن يخاطبني أصلاً، بل كان يوجه الحديث إلى النادل الذي يصب الشراب.

همست له شكسبير بلهجتها المتحضرة المعتادة: "أنت ثمل يا عزيزي"

فقال لها إيرنست: "أحاول أن أتخيلك وأنت ثملة. لا ريب أنك لن تريقي أي قطرة"

فأجابته ضاحكة: "إن كنت لن أفعل فذلك لأنني لن أمس الشراب أبداً"

فقلت لها: "إنه مجرد شراب العرق سوس

فتدخل إيرنست معلقاً: "ستتمنين لو أنه كان مجرد ذلك غداً"

قلت: "ربما، لكنه يجعل كل شيء يبدو رائعاً الآن، أليس كذلك؟"

قال وهو يلمس قدحه بقدحي: "بلى. لذا، لنستزد منه وليذهب الغد إلى الجحيم"

"هيا، هيا" قال بوند وهو يميل إلى الأمام بسترته الصوفية المجعدة ويستند بمرفقيه على الطاولة. كنت قد بدأت أعجب به أكثر فأكثر؛ لكنني بصورة عامة نزعت إلى الإعجاب بالجميع. حتى إنني ظننت أنني قد بدأت أغرم بنادلنا؛ فقد كان يملك أجمل شارب وقعت عليه عيناي. لكم رغبت بأن ألمسه.

أشرت إلى إيرنست دون أن أتوخى الرقة في حركتي، قائلة: "عليك أن تدع شاربك ينمو كي يضحي على هذا النحو"

"ولكنني فعلت يا عزيزتي. أنا أملك الشارب ذاته"

فنظرت إليه متفحصة وقلت: "بالفعل، إنه كذلك. أين كنت غائباً عني في الفترة الماضية؟" وغرقنا جميعاً في الضحك.

لاحقاً، عندما انتقلنا إلى مقهى دوم بدأ بوند يتحدث عن الولايات المتحدة قائلاً:

"لن أعود يوماً إلى الغرب الأوسط. إنني أعتزله وأتنكر له في الواقع. ولاية إنديانا مليئة بأناس منافقين وحمقى

علقت شكسبير بصوتها الهامس الرائع: "أوه، تلك القصة المتكررة القديمة"

نظرت إلى المرآة دخانية اللون الطويلة المنتصبة قربنا، ولمست وجهي ثم كأسي وقلت: "لا أستطيع الشعور بشيء. أليس هذا رائعاً؟"

قال لي إيرنست: "تناولي كأساً أخرى تاتي، أنت جميلة جداً"

نظرت إلينا شكسبير بعينين ضاحكتين، وافتر ثغرها الجميل عن ابتسامة وهي تقول لبوند: "انظر إلى هذين العاشقين البديعين"

لكن الأخير استطرد قائلاً: "ولكن، انتبهوا فإنديانا لطالما كانت أرض قفار مثقفة" ثم نفث حلقة من الدخان حامت فوق رؤوسنا قبل أن تضيع بين الهالات الزرقاء التي انتشرت في المكان وأزاغت الأبصار، وتركتنا جميعاً نتنفسها شهيقاً وزفيراً.

"كل ما يملكه الناس هناك هو القيم الأخلاقية العالية ولا شيء سواها في متناول اليد. كنت أحاول عبثاً التدريس في واباش، فعمّ كان أولئك اليافعون

يريدون سماعي أتشدق بالحديث؟ حتماً ليس عن ييتس. وليس عما يمت للشعر بصلة"

قالت شكسبير: "الممثلة كانت كقطعة صغيرة من الشعر

فأجاب بوند: "ذات أجمل ركبتين سبق لي أن رأيتهما على الإطلاق"

هتف إيرنست: "زدني من هذا الحديث، فقد بدأت أشعر بالفضول"

"كانت ليلة ماطرة – إن المطر لا ينقطع في إنديانا، من ناحية ثقافية، أفهمتم ما أعني؟ – والممثلة... ما كان اسمها؟"

أسعفته شكسبير: "بيرثا"

فسأل: "أليس كاميل؟"

"لا، لا. لم تكن الفتاة مصابة بداء السل، وإنما فقط لم ترد لشعرها أن يبتل. كم كان شعرها جميلاً! اقترحت عليها الذهاب معاً لتناول الغداء، ولكن برزت مسألة عدم التعرض للبلل"

قال إيرنست: "هذه واحدة من المشاكل المفضلة لدي"

فضحك الجميع، وتابع بوند: "عندما شاع خبر أنني استقبلتها وسلّيتها في غرفتي بدا وكأنني عمدت إلى قتل الفتاة بدلاً من شيّ دجاجة"

قالت شكسبير: "إيزرا المسكين. لقد طرد من عمله في اليوم التالي"

"لست مسكيناً البتة. كان من الممكن أن أبقى حتى الآن في إنديانا أدرس الشعر لأكوام من أكواز الذرة"

قلت: "وتقوم بشي الدجاج في المناسبات"

فرد: "حتى الدجاج ما كان لينقذك في إنديانا"

في وقت متأخر من تلك الليلة، بعد أن غادرنا مقهى دوم واتجهنا إلى الريتز، دخل إيرنست وبوند في نقاش حامي الوطيس حول وقائع تريستان تزارا كحالة موضوعية. رأى بوند أن السيرياليين قد يكونون مقبلين على شيء مهم إن تمكنوا من البقاء نائمين لفترة طويلة كفاية. أما برأي إيرنست فقد كانوا حمقى ويفضل أن يستيقظوا جميعاً كي يتمكن الجميع من الانتقال إلى شيء آخر.

قالت شكسبير: "أصابني النعاس من الإصغاء إليكما" ونهضنا معاً إلى الجانب الآخر من الغرفة وجلسنا إلى طاولة صغيرة.

بادرتني قائلة: "أنت وهيم رائعان معاً فعلاً"

"أحقاً؟" كنت قد أمضيت الساعة الأخيرة وأنا أشرب الماء الدافئ وحسب، وبت أخيراً قادرة على الإحساس بلساني.

"أتساءل كيف عساه يحدث، أعني الحب" قالتها وهي تلمس شعرها الذي ما زال إلى تلك اللحظة ناعماً ورائعاً.

"ألا تملكانه أنت وبوند؟"

ضحكت مع نفخة من فمها وهتفت: "أوه لا. لكن لدينا ما لدينا"

"لست متأكدة من أنني أفهمك"

"وأنا لست واثقة من ذلك أيضاً" قالتها بضحكة حزينة، ثم صمتت وراحت تحرك شرابها.

كان الجو في غاية الروعة ذلك الخريف. وعلى الرغم من معرفتنا أن فصل الرطوبة والبرودة سيأتي حثيثاً، إلا أننا كنا غارقين حتى الأعناق في ما هو متاح بين أيدينا، ونشعر بالسعادة والقوة. كان إيرنست يعمل بجهد على رواية نيك آدامز، ومجموعة قصص أخرى جديدة حتى غدا قادراً تماماً على رؤية الكتب التي ستصير إليها تلك الكتابات، وكأنها باتت موجودة سلفاً. في حلقتنا، آمن الجميع أنه سيصيب نجاحاً باهراً، وأن المسألة مسألة وقت لا أكثر.

قال له بوند في إحدى المرات في الاستديو الخاص به: "إنك تجترح شيئاً جديداً. لا تنسى هذا عندما يبدأ الألم"

"الألم في الانتظار وحدِه"

"الانتظار يعينك على كبح جماح نفسك، هذا أمر جوهري. والألم يساعدك لتخطي كل ما يعترض طريقك"

طوى إيرنست هذه الحِكَم في جوفه، ووضعها حيث يضع ما يتفوه به بوند كله.

سرعان ما بدأت حدة الضوء في الشارع تتغير أوقات الأصيل المتأخرة، فغدا مضمحلاً ورقيقاً. وبدأنا نتساءل عمّا إذا كنا على استعداد لمواجهة الشتاء الطويل هنا.

قال لي إيرنست في إحدى الأمسيات: "كنت أفكر في الكتابة لأغنيس. الأمر في بالي منذ أن كنا في ميلانو. فهل تمانعين؟"

"لست أدري. إلام تطمح بهذه الرسالة؟"

"لا شيء، سوى أن تعلم أنني سعيد وأفكر فيها"

"وأن مستقبلك المهني يسير على نحو رائع كما قلت إنه سيحدث"

"هذه هي الكرزة التي ستزين طبق حلواي"

"حسناً، أرسل رسالتك"

"أجل، لقد فعلت"

شعرت بعاصفة من الغيرة تجتاحني: "هل كنت واثقاً أنني لن أمانع؟"

فأجاب: "ربما، لكن إن مانعت لسبب ما، فقد كنت على يقين من أنني سأقنعك بأنه لا ضير في ذلك. فهي ليست بأكثر من رسالة على أي حال، ونحن لدينا بعضنا"

"هذا ما قالته شكسبير في اليوم المنصرم"

"شكسبير؟ ولكن، ماذا تعرف هي عن الحب؟"

"ربما أكثر مما نعرف نحن. نظراً إلى كونها لا تمتلكه فهي ليست واقعة تحت تأثيره"

"لهذا السبب لا أستطيع الكتابة عن باريس الآن، لأنها في كل مكان حولي"

"ولهذا تكتب عن ميشيغان عوضاً عن ذلك"

"أشعر بأنها قريبة جداً، وكأنني لا أستطيع أن أفقدها أبداً" كان يراجع ما أنجزه في يومه ذاك قارئاً في كراس على الطاولة أمامه، وقد استراحت يداه على الصفحات. "لكن الأمر ليس متعلقاً بالأمكنة الحقيقية وحسب. إنني أخترع أماكن أخرى أيضاً، وهذا هو الجزء الأفضل من العمل"

على طاولة الكتابة الخاصة به، ثبت خريطة باهتة زرقاء لشمال ميشيغان، وجميع الأماكن ذات الأهمية كانت موجودة هناك - خليج هورتون باي، بيتوسكي، بحيرة والن، تشارليفوك - إنها الأماكن نفسها حيث وقعت له هو إيرنست الأمور المهمة في حياته، وإنما أيضاً لنيك أدامز. لم يكن إيرنست ونيك الشخص ذاته، ولكنهما كانا يعرفان الكثير من الأشياء ذاتها. كأن يعرفا أين ومتى يبحثان عن الحشرات النطاطة الندية لاستخدامها كطعم، وكيف تتحرك المياه مشيرة إلى أماكن تواجد سمك السلمون فيها. كانا يعلمان عن قذائف المورتر في منتصف ليلة مدلهمة ساكنة، وعن ماهية الشعور الذي ينتاب المرء إن رأى مكاناً

يحبه يحترق ويفرغ من محتواه ويتغير. لم يكن ذهن نيك سوياً تماماً، وكان بمقدورك كقارئ أن تشعر بالضغط يتصاعد في داخله في قصة مثـــل Big Two-Hearted River" رغم أن إيرنست لم يجعله قط يخاطب تلك المشكلة مباشرة أو يسميها.

قلت له: "أحب قصصك الخاصة بميشيغان"

فنظر إلي شزراً في نور القنديل وعبر الطاولة وقال: "أهذا صحيح؟"

أجبته: "أجل، بالطبع"

"أحياناً أتساءل عمّا إذا كنت تريدينني أن أكتب على الإطـــلاق. أعتقـــد أن ذلك يجعلك تشعرين بالوحدة"

"ليست الكتابة ما تجعلني وحيدة، بل غيابك عني. لقد مضى وقت طويل جداً منذ أن حاولت بجرد محاولة الكتابة هنا في المنـــزل. لربما استطعت أن تفعل ذلـــك الآن. لن أتحدث إليك أو أزعجك أبداً"

"أنت تعلمين أن علي الذهاب إن أردت إنجاز أي شيء"

وأغلق كراسه ووضع قلمه فوقه وراح يدحرجه يمنة ويسرة بـــين أصـــابعه. "يجب أن أكون وحيداً كي أشحذ فكري. لكن، إن كنت وحيداً تماماً فلن يجـــدي ذلك أيضاً. فأنا بحاجة لأن أغادر ذلك المكان وأعود إليك هنا فنتحـــدث. فهـــذا يجعل الأمر حقيقياً وذا ديمومة. هل تفهمين ما أقوله؟"

"أعتقد ذلك" سرت خلفه، ووضعت رأسي على كتفه وأنا أدلك وجهي في رقبته. لكن الحقيقة أنني لم أفهم، ليس تماماً، وهو عرف ذلك.

قال: "ربما لا يستطيع أحد أن يدرك تماماً كيف هو الحال لأي شخص آخر

فاعتدلت وسرت نحو النافذة حيث وقفت أراقب المطر الـــذي راح ينـــهمر سيولاً ويكوّن بركة على حافة الشباك.

قلت: "إنني أحاول"

"وأنا أيضاً"

تنهدت قائلة: "أعتقد أنها ستمطر طيلة اليوم"

"لا تخدعي نفسك. سيستمر المطر طيلة الشهر

"لعله لن يفعل في نهاية الأمر

فابتسم لي وقال: "حسناً. لعله لن يفعل"

الفصل الحادي والعشرون

قرب مناسبة الشكر في عام 1922 أرسلت مجلة ستار إيرنست كـــي يغطـــي أحداث مؤتمر سلام في لوزان سيُبتّ بموجبه النـــزاع الإقليمي القائم بـــين تركيـــا واليونان، وهو النـــزاع الذي تمخضت عنه الأحداث المريعة في سميرنا، وجعلـــهم بصورة عامة يقتلون بعضهم بعضاً على مدى ثلاث سنوات تقريباً. عندما وصلت البرقية، استطعت أن أرى توتر إيرنست، فهو لم يكد يستطيع فتحها وكنت أعرف لماذا. إذ إنّ زواجنا لم يكن يحتمل شجاراً آخر مثل الذي حدث ســـابقاً، وقـــد لا يصمد.

أخيراً، قال لي: "لوزان. إننا نملك المال الكافي لكي ترافقيني

"ليست هناك ضرورة لأن أفعل. سأكون على ما يرام"

"لا. أريدك معي هناك"

شعرت بالارتياح لأنه أصر على ذهابـــي، ووافقت على مرافقتـــه. لكـــن، عندما حل موعد الرحيل كنت مريضة وطريحة الفراش وأشعر أن رأســـي ثقيـــل ويؤلمني. لم أستطع تناول أي طعام دون أن أتقيأه. فقررنا أن يذهب بمفرده على أن أنضم إليه عندما أصبح قادرة على السفر. وقد صادف أن صديقتي ليتيشيا بـــاركر كانت في زيارة لباريس في ذلك الوقت، فتعهدت بزيارتي كل يوم والعناية بـــي أثناء غياب إيرنست. لن يكون الحال كما كان لدى غيابه في تركيا أبداً، أو حـــتى عندما ذهب إلى جنوا.

عندما أصبحت في حال جيدة كفاية لكي ألحق به كان قد حل شهر كانون الأول. حزمت حقائبـــي مبتهجة، وأنا أعلم أنه عند انتهاء المؤتمر وجميع أعمـــال المراسلة هناك فسنحصل على إجازة طويلة للتزلج في تشامبـــي، وسنمضي فتـــرة

الكريسماس هناك مع تشينك، ومن ثم سنذهب إلى إيطاليا وإسبانيا. بالمجمل، لن نعود إلى باريس قبل أربعة أشهر، وقد كنت مستعدة لاستراحة طويلة من البرد والبلل. لم أكن قد غادرت السرير لقرابة الأسبوع. و لم أكن على ثقة بأن لدي الطاقة الكافية للتزلج، لكنني كنت حتماً ويقيناً على استعداد للمحاولة.

بالتوازي مع مخططاتنا للسفر التي تراسلنا حولها، أرسل لي إيرنست برقية يخبرني فيها أن لينكولن ستيفنس - وهو واحد من الصحفيين الذين التقاهم في جنوا - كان أيضاً في لوزان، وقد أعجب بشدة بكتاباته. لقد أراد أن يطلع على كل ما خطه إيرنست حتى ذلك الحين، لكن الأخير لم يكن بحوزته سوى عمل واحد هو "My Old Man"، وهي قصة تتمحور حول صبي ووالده فارس خيل السباق المحطم. وجد ستيفنس القصة رائعة، وقارنها بأعمال شيروود أندرسون الأمر الذي لم يرق لإيرنست كثيراً لأنه لم يكن يحب أن يقارن بأحد، والأسوأ أن المقارنة كانت مع أندرسون؛ صديقه ومنافسه أيضاً. لكن ما أصلح الموقف هو أن ستيفنس عرض عليه أن يرسل القصة إلى محرر صديق له في *كوزموبوليتان*. حتى تلك الفترة، كان إيرنست قد حظي بنشر عمل واحد له في مجلة فنية صغيرة خارج نيو أورلينز تدعى *دبل ديلر*. ذاك فقط إلى جانب وعد من بوند بأن ينشر له شيئاً ما في *ثري ماونتنز*. لكن هذا العرض كان واعداً أكثر من أي عرض آخر، بل وباعثاً على البهجة والحبور.

بينما كنت أحزم حقيبتي الكبيرة فكرت في الفترة الزمنية التي سنغيبها، وكم سيكون إيرنست تواقاً للعودة إلى قصصه وروايته. فخلال مراسلاتنا لم يذكر أنه يرغب في عرض المزيد من أعماله على ستيفنس، لذا توجهت إلى غرفة المائدة حيث الخزانة التي يبقي فيها إيرنست مخطوطاته كلها، وجمعتها كلها ووضعتها في حقيبة قماشية صغيرة. تلك كانت مفاجأتي له، وقد شدت من أزري وأنا أغادر الشقة متجهة إلى محطة غير دي ليون.

كانت المحطة مزدحمة، لكن الواقع أنني لم أرها يوماً على نحو لم تكن فيه كذلك. راح الحمّالون يتدافعون بين الحشود بثيابهم حمراء اللون مارين أمام المقاعد الخشبية المطلية بالشمع وأشجار النخيل والمسافرين حسني الثياب، والمتجهين إلى منازلهم أو المبتعدين عنها والترقب يعلو الوجوه. بحلول الصباح سأكون مع

إيرنست ثانية، وسيكون كل شيء على ما يرام. وكانت هذه الفكرة هي وحدها ما استحوذ عليّ وأنا أشق طريقي عبر المحطة وأسلم حقائبـي للحمال. ساعدني الأخير على الصعود إلى القطار، ثم وضع حقيبة ثيابـي الكبيرة على الرف العالي فوق رأسي، فيما وضعت الحقيبة القماشية الصغيرة تحت الكرسي الخاص بـي على نحو أتمكن معه من الوصول إليها أنّى أردت. كان القطار شبه خال، فقد كان لا يزال أمامه نصف ساعة ليتحرك. فقررت النزول لأريّض ساقي وأحضر الصحيفة. مشيت الهوينا عبر المحطة مارة بالباعة المتجولين الذين يبيعون التفاح الشهي والجبن، وحيث تجد عند غيرهم الملاءات والوسائد للإيجار، وآخرين يبيعون الشطائر الدافئة الملفوفة والمشروبات صغيرة الحجم. وعندما نادى قاطع التذاكر على الركاب كي يصعدوا إلى متن القطار حثثت الخطى بين موج من المسافرين لأصعد، ووجدت مقصورتي كما تركتها قبل قليل، باستثناء الحقيبة القماشية؛ فقد اختفت.

لم تكن تحت الكرسي، و لم ألمحها في أي مكان.

أصبت بالذعر، وناديت قاطع التذاكر، فقالت لي السيدة التي تجلس بجواري أثناء انتظاري له بصبر نافد ليلبـي ندائي، والتي كانت سيدة أمريكية في أواسط العمر بدا أنها تسافر وحدها: "بإمكاني أن أعيرك شيئاً من ثيابـي لترتديه"

فصرخت بها بصوت ثاقب: "إنها ليست ثياباً!" فأشاحت المرأة المسكينة بوجهها بعيداً وقد أخافتها ردة فعلي على نحو مفهوم. عندما وصل قاطع التذاكر أخيراً، لم يبد أنه قد فهم المشكلة أيضاً. فأنا لم أستطع كبح دموعي لوقت كافٍ لكي أعثر على الكلمات الفرنسية الكفيلة بشرح المشكلة له. في النهاية، قام باستدعاء رجلي شرطة فرنسيين اقتاداني إلى خارج القطار وأخذا يحققان معي فيما كان الجميع يحدقون بنا. بدأا بطلب أوراق التعريف عن الهوية خاصتي، وفيما كان أحدهما يتحقق من صحتها، طلب الثاني إلي وصف الحقيبة وما قمت به بالضبط.

"هل كانت تلك الحقيبة عائدة إليك؟"

"بل هي لزوجي

وهل هو على متن القطار؟"

"كلا، إنه في سويسرا. كنت آخذها له. إنها تحوي أعماله، أعماله على مدى سنوات ثلاث" وهنا فقدت ما تبقى لدي من قدرة على ضبط النفس؛ إذ شعرت بالغثيان وبالخوف يتنامى في داخلي، فصحت بالشرطيين بعصبية: "لم تقفان هنا وتستجوبانني؟ إنه يهرب في هذه اللحظة! بل لعله قد أضحى بعيداً الآن!"

"أتعنين زوجك مدام؟"

"بل اللص، أيها الأحمق!"

"لن نتمكن من مساعدتك إن تصرفت بهستيرية مدام"

"أرجوك، أتوسل إليك فقط فتش القطار، فتش المحطة" شعرت أنني أوشك أن أفقد عقلي.

"هل تستطيعين تقدير قيمة الحقيبة ومحتوياتها؟"

فأجبته مشوشة: "لست أدري، إنها *أعماله*"

"أجل هذا ما قلته. حسناً سنفعل ما بوسعنا" وانصرف الرجلان بعيداً بصلف.

وافق قاطع التذاكر على تأخير القطار عشر دقائق ريثما يقوم رجلا الشرطة بالبحث. لقد سارا من أول القطار إلى آخره وهما يسألان الركاب عما إذا كانوا قد رأوا الحقيبة على نحو ما.

لم أفكر للحظة بأن من سرقها كان لا يزال على متن القطار، فقد كان من الواضح أن العملية لم تتعدَّ كونها كونها عملية نشل اعتيادية، رأى فيها السارق فرصة فانتهزها آملاً بالعثور على أغراض قيمة. لكنها بدلاً من ذلك كانت تحوي كل فكرة وجملة نحتها إيرنست وكد في سبيلها منذ أن أتينا إلى باريس وقبل ذلك أيضاً بزمن؛ المسودات التي كتبها في شيكاغو، والرسومات، كل قصيدة وكل خاطرة. فهو لم يرمِ شيئاً قط، وكانت كلها هنا.

ترجل الشرطيان من القطار خاليي الوفاض. قال لي أحدهما: "لم نجد شيئاً مدام. سنكمل بحثنا، لكن إن كنت لا تزالين عازمة على السفر إلى سويسرا فأقترح عليك أن تجلسي في مكانك"

أعطيتهما عنواننا ورقم هاتف صالة الرقص المجاورة لنا لأننا لا نملك هاتفاً في شقتنا، لكنني لم أتعلق بآمال كاذبة بأنهما قد ينجحان فعلاً في مساعيهما. لقد

كانت باريس هائلة الاتساع، وقد مر وقت أطول من اللازم بكثير. صرت أتخيل اللص وهو يهرع إلى أحد الأزقة الخالية من المارة، فيفتح الحقيبة ومن ثم يغلقها على الفور وقد أصيب بالخيبة. لعله أسقطها أرضاً حيث كان يقف، أو أطاح بها في مكب النفايات. من الممكن أن تكون في أي زقاق أو مجرى صرف صحي أو حاوية نفايات مشتعلة في باريس. ومن المحتمل أن تكون في هذه اللحظة في طريقها إلى أعماق نهر السين.

"إنني شديدة الأسف لمتاعبك" قالت لي زميلتي في السفر بعد أن عدت أخيراً إلى مقصورتي.

"بل أنا المتأسفة على ما بدر مني ثم بدأت أنتحب وأنا أكمل بصوت مرتجف: "في العادة، أنا لا أفقد أعصابي على هذا النحو"

"هل كان ما فقدته عزيزاً جداً عليك؟"

هدر القطار تحتنا، ثم تمايل مبتعداً عن الرصيف على نحو لا يمكن الرجوع عنه. لم يعد بالإمكان التوقف أو التراجع الآن. ما من سبيل لتفادي حقيقة ما حدث. شعرت بالغضب يستقر في أعماقي ويفيض في نفسي، فيما باتت الحقيقة الثابتة الجديدة التي تجيب عن سؤالها هي:

"لا يقدر بثمن

ثم نظرت بعيداً.

الفصل الثاني والعشرون

كانت تلك الليلة هي الأكثر طولاً في حياتي كلها. بدت لي الجبال وكأنها تطبق على صدري ونحن متجهون إلى سويسرا وقد خيم الظلام. فكرت طوال الوقت في كيفية إخباري إيرنست أن عمله ضاع، لكنني لم أستطع تخيل الموقف. لم أجد الكلمات المناسبة.

عندما وصلنا إلى وزان أخيراً في صباح اليوم التالي، ووقعت عيناي على إيرنست واقفاً على الرصيف وستيفنس إلى جواره، لم يكن أمامي أي خيار سوى أن أقف وأسير نحوه. كنت أبكي، فالتفت إيرنست إلى ستيفنس عندما شاهدني وهز كتفيه كمن يقول: "من بمقدوره فهم النساء" لكنني عندما لم أستطع إيقاف سيل دموعي شعر بأن هناك خطباً ما.

مع ذلك، مر وقت طويل قبل أن أتمكن من التفوه بالكلمات. أمام هذا الموقف، استأذن ستيفنس للذهاب، قائلاً لإيرنست إنه سيتصل به لاحقاً ليرتبا موعداً. وبعد أن ذهب، اجلسني إيرنست إلى طاولة مقهى قرب مدخل المحطة، وحولنا كان الأزواج والأسر يودعون بعضهم، وقد بدوا لعينيّ غير قلقين على نحو أثار شجوني وولد موجة جديدة من الدموع في عينيّ.

سألني إيرنست: "ما الخطب؟" مراراً وتكراراً، بقلق وحنان بداية، ثم بغضب، ومن ثم بقلق ثانية. "أياً كان الأمر فسنجتازه معاً. لا شيء يمكن أن يكون بهذا السوء"

ولكنه كان كذلك؛ بذاك السوء. هززت رأسي وانتحبت أكثر، واستمر الأمر على هذا المنوال إلى أن تمكنت أخيراً من إخباره أنني قد حزمت كتاباته في حقيبة ووضبتها لآخذها معي في رحلتي إليه.

لم أكن بحاجة لأن أقول المزيد، فقد تجهم وجهه وشحب لونه: "فقدهما في القطار!"

"لقد سرقت من تحت مقعدي"

هز رأسه وهو يحاول استيعاب الموقف، وأخذت أراقب عينيه بدقة؛ كيف تغيرتا ثم استقرتا، ثم تغيرتا ثم توازنتا ثانية. كان يحاول الحفاظ على رباطة جأشه لأجلي، كنت أعرف ذلك؛ لأنه لم يكن واثقاً مما قد أقدم عليه.

"لا يمكن أن تكوني قد حزمتها كلها. لم عساي سأحتاج إليها كلها؟"

"إن كنت ستجري تعديلات على النسخ الأصلية، فقد فكرت في أنك سترغب في النسخ الاحتياطية أيضاً، كي يكون كل شيء صحيحاً"

"لا بد أنك قد تركت شيئاً منها"

هززت رأسي نافية وانتظرت. هل تراه سيثور في وجهي الآن ويدخل موجة غضب عارم نتيجة فعلتي؟ إنني أستحق ذلك دون أدنى شك. لقد أخذت ما كان يخصه - أكثر شيء يخصه في العالم أجمع - ودون أن يطلب إلي ذلك، كما لو أنني أملك الحق لكي أفعل ذلك. والآن قد ضاع كل شيء.

"يجب أن أعود أدراجي. يجب أن أتأكد بنفسي

"إنني في غاية الأسف يا تاتي" وأخذت أرتجف ندماً وأسفاً.

"سيكون كل شيء على ما يرام. أنا كتبتها وأستطيع أن أفعل ذلك مجدداً"

كنت أعلم أنه يخدع نفسه إن لم أقل يكذب عليها، لكنني عانقته بشدة وهو عانقني وتبادلنا جميع العبارات التي يمكن للناس أن يقولوها عندما يعلمون أن مصيبة قد حلت بهم.

في وقت متأخر من تلك الليلة، استقل إيرنست القطار عائداً إلى باريس، في حين انتظرته في لوزان وقد بلغ بي التوتر كل مبلغ. ورغم أن ستيفنس قد اصطحبني لتناول الغداء في محاولة لتهدئة أعصابي، لكنني حتى بعد تجرعي عدة أقداح من الشراب تشاحنت مع من حولي.

لقد غاب يومين لم يرسل خلالهما أي برقية. لكنني كما رحت أتذكر نفسي كيف توجهت إلى الخزانة مرة تلو مرة مفرغة محتوياتها تماماً في الحقيبة، فقد أمكنني تصوره وهو يعود إلى الشقة الهادئة ليكتشف بنفسه الحقيقة المرة؛ لقد ضاع كل شيء.

سيشعل الأنوار كلها، ويمسح بنظره كل ما حوله: الطاولة، والسرير، والمطبخ. ثم سينظر إلى الأرض ويسير بين الغرفتين ببطء، مبقياً الخزانة للنهاية بعد أن يتفقد كل مكان آخر. لأنها ستكون المكان الأخير، وما من مكان آخر سواها يمكن أن يبحث فيه، وسيتلاشى الأمل بعدها تماماً. سيتناول كأساً من الشراب، ثم آخر، لكنه في النهاية سيتوجب عليه أن ينظر بنفسه، فيضع يديه على مقبض باب الخزانة ويفتحه ليدرك كل شيء. لا شيء في الخزانة، ولا أي ورقة، ولا ملاحظة ولا قصاصة. يبحث ويبحث، ثم سيقف هناك ممزقاً، وخاوياً، ومقفراً؛ تماماً مثل الخزانة التي أمامه، لأن الصفحات لم تكن له وحسب، بل إنها هو. كان الأمر كما لو أن أحدهم تناول مكنسة وراح يكنس كل ما في داخله نحو الخارج، إلى أن أضحى كل شيء نظيفاً ولامعاً وقاسياً وخاوياً.

الفصل الثالث والعشرون

عندما عاد إيرنست من باريس كان رفيقاً بـــي، وما فتئ يكرر لي أنـــه قـــد سامحني على كل شيء، لكن عينيه بدتا مليئتين بالحزن. كان لا يزال بانتظاره عمل في المؤتمر عليه أن يؤديه ففعل كما هو دأبه أبداً، ملقياً بنفسه في خضـــم مشـــاغل يومه، ثم عاد إلى المنـــزل متعباً وراغباً في شرب كأس بسرور. أما أنا، فقد أمضيت وقتي أتمشى عبر البلدة باحثة عن هدايا كي أرسلها إلى الوطن. وشعرت أنني قـــد بت أكثر إصراراً من عامنا الأول في فرنسا للعثور على هـــدايا. رحـــت أجـــوب الشوارع لساعات، وأنظر إلى واجهات المحلات.

وفي نهاية الأسبوع، جهزنا أغراضنا لأجل رحلتنـــا إلى تشامبـــــي. قلـــت لإيرنست ونحن نحزم أمتعتنا: "لا يبدو لي أمراً صائباً أن نمضي في مخططاتنـــا بكـــل بساطة بعد كل ما حدث"

فأجابني بصوت متعب: "لعلك محقة، وإنما ما عسانا نفعل سوى ذلك؟"

"نعود إلى باريس؟"

فقال: "لكن ذلك سيكون أسوأ، أليس كذلك؟"

"لا أعتقد أنني أستطيع تحمل فكرة أن أمضي عطلة ونحن على هذه الحـــال. كل شيء حولنا باء بالإخفاق. لعله آن الأوان لكي نفكر في العودة إلى ديارنا"

فهتف بـــي: "إلى الولايات المتحدة؟ وأقر بفشلي؟ هل تحاولين قتلي؟"

"إنني آسفة. إنه فقط من الصعب معرفة كيف يتوجـــب علينـــا أن نمضـــي قدماً"

"أجل وحضن آلته الكاتبة، ووضعها برفق وحرص في حقيبتها السوداء قبل أن يغلقها بحركة سريعة ثم يتمتم قائلاً: "إنه صعب حتماً"

عندما وصلنا إلى تشامبـــي ألفينا البلدة على حالها. حتى إن الكوخ الخاص بنا كان مثالياً؛ تماماً مثل المرة الماضية، وكذلك كانت الجبال المغطاة بالثلوج، ومالكو الكوخ آل غانغفيشه الذين حيونا بحرارة بالغة كما لو كنا من أفراد عائلتهم وقـــد طال بيننا الفراق.

كل ما حولنا كان يشع حفاوة تبعث الدفء في الأوصال، على نحو جعلنـــا نستسلم تماماً بعد أوقات الكمد التي أمضيناها في لوزان. وقبل أن نفرغ حقائبنـــا، ارتدينا ثياب التزلج، ولحقنا بآخر رحلة للقطار الصـــاعد إلى جبـــل لي آفـــانتس. وعندما وصلنا، كانت الشمس قد شحب لونها إيذاناً باقتراب المغيـــب، فانتعلنـــا زلاجاتنا وهوينا من المنحدر الثلجي نحو القرية. وفيما كانت الرياح تزأر في آذاننـــا وبرودتها تلفع وجهينا تسابقنا معاً. تقدم علي إيرنست قليلاً، وقد لـــف ركبتـــه المصابة سالفاً بقماش أسود متين. صحيح أنه لم يلق بثقله عليها، إلا أنه بدا بصورة عامة أخف حركة مما شاهدته عليه منذ فترة مضت. شعرت بالراحـــة والامتنـــان، وشكرت في سرّي أشجار التنوب المغطاة بالثلج، والسماء القشـــدية المتحولـــة إلى جميع درجات اللون الزهري، وبحيرة جينيفا التي بدت من بعيد مسطحة ومصقولة كالبلّور.

في اليوم التالي، نمنا حتى ساعة متأخرة من النهار على سريرنا الطري الكـــبير ذي الأعمدة، ولم نستيقظ حتى على وقع خطوات الخادمة المتسللة إلى غرفتنا بهدوء كي تشعل لنا النار. لاحقاً، حثثنا نفسينا على النهوض عندما باتت الغرفة دافئـــة، وراح اللهب يئز في الموقد الفخاري.

قلت لإيرنست: "فعلنا صواباً بمجيئنا" واحتضنت إيرنست مـــن الخلـــف بحنان.

قال: "أجل. فلنستمتع بكل دقيقة، ودعينا لا نفكر في أي شيء آخر

"ليس هناك أي شيء آخر

وصل تشينك يوم الكريسماس. وفي نهاية الأمر، لم تكن عطلتنا محزنة علـــى الإطلاق. فقد تناولنا غداء يليق بالملوك. فقط عندما تحلقنا حول النار تلك الليلـــة، أتى إيرنست على ذكر حادثة فقدان المخطوطات المشؤومة.

قال له تشينك عندما وصل إلى نهاية الحكاية: "هل تستطيع حقاً أن تبدأ مجدداً من الصفر؟"

أجابه إيرنست: "لست أدري. لقد كتبت تلك المواد اللعينة مرة، ألم أفعل؟ يجب علي أن أحاول على أي حال"

فأومأ تشينك برأسه بجدية.

قال إيرنست مستطرداً: "لقد كنت أعمل كالثور المربوط في الساقية لأجل مجلة ستار. والآن، بات لدي من المال ما يكفينا لثمانية أشهر؛ ثمانية أشهر سأكرسها كلها للأدب، للأدب وحده"

فقلت: "هذا هو تاتي الذي أعرفه" ورفع تشينك كأسه محيياً.

لكن، مرت الأيام وبقيت كراسات إيرنست وأقلامه مكدسة بعيداً. وآلة الكتابة الكورونا خاصته لم تبارح حقيبتها السوداء. هو لم يأت على ذكر الأمر، وأنا لم أشر إليه طبعاً، فقد كنت أوعى من أن أفعل. وأثناء ذلك، أمضينا وقتنا بالتزلج طيلة اليوم، وفي بعض الأحيان مساء أيضاً؛ حيث تنزف الشمس آخر أشعتها الحمراء على الأرض عبر الغيم وكأنها ترينا من بهائها شيئاً لم يسبق أن رآه أحد من قبل. لقد استمتعنا بكل دقيقة من صحبة تشينك، كما استمتعت بوجودي مع إيرنست كذلك. فقد ازدادت علاقتنا حميمية بشكل يومي، ولأكثر من مرة أحياناً، وذلك إلى أن أخبرت إيرنست أنني قد نسيت اتخاذ التدابير الوقائية كما نفعل في باريس.

كنا قد دأبنا على تتبع مواعيد دورتي الشهرية بمنتهى الحرص. لقد تولى إيرنست الموضوع بنفسه، بأن خصص للأمر جدولاً كما فعل مع كل شيء آخر في زواجنا. فكانت هناك دفاتر لتسجيل النفقات والدخل، وأخرى للمراسلات، وأخرى لتدوين أفكار لقصصه. وكان هناك دفتر عُنوِن باسم *هادلي*، خصصه لمواعيد الإخصاب لدي شهرياً كي نتمكن من التقارب دون وسائل حماية كلما سنحت لنا الفرصة لذلك. فوسائل منع الحمل التي استعملناها في بداية زواجنا كانت غير مريحة، كما أنها غير مضمونة.

عند وصولنا إلى باريس سألتنا غيرترود التي تمتعت بصراحة مذهلة في الحديث عن هذه الأمور، عما إذا كنا على اطلاع على مسألة الحاجز الأنثوي كوسيلة لمنع

الحمل. ومن دون مشقة تُذكَر، استطعنا العثور على طبيب أرشدني إلى آلية استخدامه، وهذا ما ركنا إليه منذ ذلك الحين. كان إيرنست على دراية أكثر مني بالوسائل الأكثر جدوى، والأيام الأكثر أماناً. وهكذا، بعد وصولنا إلى تشامبـــي بأسبوع، ذكرني بأننا بتنا على شفير أيام الإخصاب لدي، إذ قال لي ونحن في السرير في أحد الأيام:

"هل باستطاعتك القيام بالإجراءات اللازمة؟"

تلك كانت عبارته الرمزية المعتادة. وأنا بدوري أجيبه: "أمرك سيدي" كما لو كنت سكرتيرته التي طلب منها لتوه حجزاً في المطعم للغداء أو إرسال برقية ما. لكن، في هذه الليلة تحديداً لم أتناول الأمر على نحو فكاهي، ولم أنهض لأبحـــث في درج جواربـــي عن العلبة، بل بدلاً من ذلك قلت: "أوه لا"

"لا تقولي لي إنك قد تركتها في باريس"

لم يسعني سوى أن أومئ بالإيجاب.

"توقيتك من أسوأ ما يمكن" قالها وقد احتقن وجهه على نحو أيقنت منه أنـــه في غاية الغضب.

"كنت أنوي إخبارك في لوزان ما إن انتبهت للأمر، لكن ذلك لم يكن الوقت المناسب أيضاً"

"ماذا تخفين عني أيضاً؟"

"لا شيء. أنا آسفة، كان علي أن أخبرك"

"بلا ريب" وركل الغطاء عنه قافزاً إلى الأرض، حيث راح يـــذرع الغرفـــة جيئة وذهاباً بسرواله الداخلي وهو يستشيط غضباً.

"أحياناً أتساءل: ممن عساي تزوجت بالضبط؟"

"أرجوك كن عادلاً يا تاتي. ليس الأمر كما لو أنني نسيتها عمداً"

"لا؟!"

"بالطبع لا" اجتزت الغرفة، ووقفت قريبة منه كفاية لكـــي أرى وجهـــه في النور الخافت قبل أن أكمل قائلة: "لم أفعل. ومع ذلك، سأكذب إن قلت إنـــني لا أعتقد أن إنجابنا طفلاً فكرة رائعة"

"ها أنت تخرجين ما بداخلك الآن. كنت أعرف ذلك. لطالما قلنا إنني يجـــب أن أحظى بانطلاقة جيدة في حياتي المهنية قبل مجرد التفكير بإنجاب طفل. لقد اتفقنا"

"أعلم أننا فعلنا"

"لقد بدأت أخيراً وللتوّ بوضع قدمي على الدرب. هل تريدين حقاً أن تدمري فرصتي؟"

"بالطبع لا. ولكن، لدي مخاوفي أنـــا أيضـــاً. أنـــا في الحاديـــة والـــثلاثين يا إيرنست"

"كما أنك لم تكوني مولعة بالأطفال في يوم من الأيام. وأنت لا تكترثين البتة بأطفال الناس الآخرين"

"الأمر مختلف عندما تحصل على طفلك من دمك ولحمك، وليس لدي الوقت بطوله لأفعل ذلك"

"ولا أنا أيضاً. إن الحياة لا تمنحك عادة أكثر من فرصة واحـــدة، وأريـــد أن أحصل على فرصتي الآن"

كانت عيناه صافيتين وتومضان بالتحدي؛ كما هو الحال دائماً عندما يطالبني بالولاء. "هل أنت إلى جانبـــي؟"

أجبته وأنا أضع يدي حول عنقه وأهم بتقبيله: "بالطبع أنا كذلك" غير أنـــه كان متصلباً و لم يستجب لتوددي. عيناه اللتان تبعدان إنشات قليلة عن عيني كانتا مفتوحتين على وسعهما وتنضحان بالتساؤلات والشكوك:

"أفترض أنك تظنين أنني سأنام معك الآن"

هتفت مستاءة: "إيرنست، كفاك! إنني لا أحاول الإيقاع بك!"

لم يتفوه بكلمة.

"تاتي؟"

فلم يكن منه إلا أن قال: "إنني بحاجة لمشروب" وتوجه إلى الباب ساحباً معه رداءه المنـــزلي وهو في طريقه إلى الخروج.

ناشدته: "أرجوك ابقَ كي نتمكن من الحديث عن الموضوع"

أجابني: "اخلدي إلى النوم" وغادر الغرفة.

ولكنني لم أستطع النوم لشدة انـــزعاجي، وهو لم يخلد إلى السرير البتة. وفي الصباح، ارتديت ملابسي ونـــزلت لأبحث عنه، فوجدته في غرفة الطعام يحتســـي قهوته، وقد ارتدى مسبقاً بزة التزلج.

قلت وأنا أسير نحوه: "هل بإمكاننا أن نتصالح، رجاء؟ أشعر بالسوء حيال كل شيء"

فأجابني: "أعلم أنك كذلك" ثم تنهد مستطرداً: "اسمعيني، علينا أن نكون متفقين حيال هذا الشأن. إن لم نكن كذلك، فلن ينفعنا شيء. أنت ترين هذا أليس كذلك؟"

فأومأت برأسي موافقة، وأسندته إلى كتفه.

"إن كنت حقاً راغبة بإنجاب طفل فسيأتي يوم يكون الوقت فيه مناسباً"

قلت: "ولكن، ليس الآن"

قال: "لا يا قطتي، ليس الآن"

دخل تشينك الغرفة ملقياً علينا تحية الصباح، ثم توقف وهو يرمقنا بنظرات فاحصة قبل أن يسألنا: "هل كل شيء على ما يرام؟"

"هادلي متأثرة بأحوال الطقس"

فقال تشينك بعطف: "يا للسيدة بوبلثويت المسكينة. عليك أن تكوني في السرير

فوافقه إيرنست قائلا: "أجل، اصعدي وخذي قسطاً من الراحة، وسنأتي للاطمئنان عليك عند الغداء"

وفعلاً، انطلقا للتزلج معاً، في حين فعلت كل ما بوسعي لكي أسترخي وأعثر على بعض السلام والهدوء. فدسست قدمي في جوربيَّ الصوفيين السميكين وحذائي المنزلي، ثم تكورت على أريكة مريحة مقابل نار المدفأة وأنا أقرأ قصة *The Beatiful and damned*. كانت شيكسبير قد وصفت كاتبها فيتزجيرالد بأنه شاعر حين نصحتني بقراءتها؛ تماماً قبل أن تسافر برفقة بوند في رحلة إلى إيطاليا تستغرق شهوراً. والواقع أن الكتابة كانت فاتنة بحق ورفيعة المستوى، غير أن القراءة عن أنتوني وغلوريا غمرتني بالحزن. كان حديثهما رقيقاً، وقد جمعتهما أشياء لطيفة، غير أن حياتهما كانت خاوية. وأنا لم أقوَ على الاطلاع على مثل هذه الصورة الرهيبة المؤلمة عن الزواج، ليس الآن.

وضعت الرواية جانباً، واندسست في فراشي كي آخذ قيلولة عندما وصل إيرنست. كان شعره رطباً وملتصقاً برأسه تحت قبعته الصوفية، ووجهه وردي اللون من شدة البرد. جلس إلى جواري على السرير، ونظر إلي بعينين بدا لي جلياً أنهما أصبحتا حانيتين مقارنة بالسابق. لقد أفادته تمضية الوقت بصحبة تشينك.

قال لي: "تبدين دافئة جداً. هل تمانعين إن شاطرتك عشك؟"

"بل أرحب بذلك إن كنت تعتقد أنها فكرة جيدة"

"لقد توقفت عند صيدلية القرية" قال ذلك وهو يخرج من جيب سرواله واقياً ذكرياً.

"أنا متفاجئة، فلطالما كنت تكرهها"

"ليس بدرجة كرهي للابتعاد عنك"

لقد تركني برهة وشكّ بي، لكنه عاد فأضحى ملكي الآن، وقد أردت أن أبقيه هنا بين ذراعيّ إلى أن تهدأ جميع الأصوات في داخلي لنثبت أننا على ما يرام.

بعد ثلاثة أسابيع أمضيناها في تشامبي، وبعد أن امتلأنا طعاماً لذيذاً وتشققت بشرة كل منّا من الشمس، وبعد أن افترقنا عن تشينك، انطلقنا إلى راباللو في الريفيرا الإيطالية، حيث استأجر آل بوند فيلا هناك.

قال لي إيرنست ونحن على متن القطار: "إيزرا يظن أنه قد اكتشف المكان. رغم أن وردسورث وكيتس قد جربا حظهما فيه قبله"

"إيزرا يظن أنه اكتشف الأشجار والسماء"

"لكن يجدر بك الإعجاب بالرجل على أي حال، أليس كذلك؟"

"لا، لست مضطرة إلى ذلك. ولكنني سأفعل من أجلك على ما أظن

بعد أن استغرق سفرنا إلى الجنوب يوماً وبعض اليوم، اقتربنا أخيراً من جنوا حيث غدا الريف أكثر جمالاً.

علقت عند رؤيتي المناظر الطبيعية المذهلة: "المكان خلاّب. لم يطرأ في بالي قط أنه سيكون بهذا الجمال"

وعَبْر نافذتنا، استطعت أن أرى ومضات من البحر الذي بدا أزرق ومكسواً بالزبد، ومن ثم الصخور ثانية، ثم البحر. وعندما دخل القطار بنا في نفق صخري

هتفت قائلة لإيرنست: "ألسنا محظوظين بأن نكون على هذا القدر من السعادة يا تاتي؟"

فأجابني: "بالطبع إننا كذلك" وقبلني وصوت القطار يهدر في آذاننا وهو يثب فوق الصخور السوداء.

عندما وصلنا إلى راباللو، ألفيت البلدة ساحرة بمينائها الخالي الهادئ، وبفنادقها ذات اللون الزهري والأصفر الشاحب، والممتدة على طول الشاطئ. أما إيرنست فقد كرهها فور وقوع عينيه عليها.

قال عندما وصلنا إلى فندقنا: "لا يوجد أحد هنا"

"ومن يجب أن يتواجد إذاً؟"

"لست أدري. إنه مكان يبدو خالياً من الحياة" وقف إلى جوار نافذة غرفتنا المواجهة للشاطئ يراقب البحر قبل أن يقول: "ألا يبدو لك البحر هائجاً؟"

أجبته: "إنه يبدو كالبحر بالنسبة لي" ثم توجهت نحوه، وأحطته من الخلف بذراعيّ وضممته بقوة. كنت أعلم أن المكان لم يكن ما يزعجه. ففي أسبوعنا الأخير في تشامبي، استيقظت عدة مرات صباحاً لأجده جالساً إلى طاولته، وبجوار يده أقلامه المبرية ملقاة بلا حياة، وكراسه الأزرق مفتوح وإنما أجرد. كان لا يزال لا يكتب، وكلما طال به الحال هكذا شق عليه البدء من جديد. لقد كان مصمماً على نحو مطلق أن يكتب، بل وسوف يفعل. ولكن كيف؟

لعبنا التنس يومياً في راباللو، وتناولنا الغداء مع آل بوند في حديقتهما. وبعد فترة، وصل زوجان آخران وانضما إلينا في عطلتنا؛ وهما مايك ستراتر - وهو رسام صديق لبوند - وزوجته ماغي. وكانت لديهما طفلة صغيرة رائعة ذات شعر أصفر وعينين رماديتين. كم أحببت مراقبتها وهي تستكشف العالم من حولها خارج إطار ملاءة سريرها، فتنزع من الأرض بقبضتها الصغيرة بعض الأعشاب، وتتأملها بتمعّن كما لو أنها تحمل سراً من الأسرار. في تلك الأثناء، كان إيرنست ومايك منهمكين في جولة ملاكمة على الأرض المرصوفة بالحجارة. فإلى جانب كونه رساماً ماهراً، كان مايك شخصاً رياضياً ومؤهلاً لمنازلة إيرنست، وقد تمكنت بسهولة من رؤية أنه راق لإيرنست على الفور. كان مايك من الناحية

الجسدية نظيراً ممتازاً بالنسبة لإيرنست، وأفضل بكثير من بوند الذي حاول بشـدة بطريقته المهتاجة لكنه كان يملك يدي شاعر رقيقتين.

كان شهر شباط في إيطاليا متقلباً للغاية. ففي بعض الأيام، كـان الضـباب مقيماً إلى حد أنه أخفى معالم الهضاب الواقعة خلف البلدة، وولّد لدينا شعوراً قوياً بالانعزال والانقطاع عن العالم، وصارت أوراق النخيل تقطر ماء، وطيور السنونو اختفت في مكان ما. وفي أحيانٍ أخرى، يكون الهواء رطباً ومشبعاً بأشعة الشمس. كنا نتمشى في الساحة أو المتنـزه فنراقب الصيادين على الرصيف الإسمنتي وهـم يؤرجحون صناراتهم في أمواج المد. اشتهرت القرية بصناعة التخـاريم، فأحببـت تمضية الوقت في تأمل واجهات المحلات بحثاً عن أفضل القطع لأمنحهـا كهـدايا للأصحاب، في حين ذهب إيرنست في هذا الوقت مع إيزرا في رحلات طويلة سيراً على الأقدام على الجانب الصخري من التل، حيث أمضيا جل وقتهما في الحـديث عن الشعراء الغنائيين الإيطاليين (التروبادوري)، والمناقب المختلف عليها للكتابـة الآلية المستندة إلى ترابط الأفكار. كان يطيب لإيرنست القول إنه لم يكن يرغب في أن ينغلق ذهنه عندما يعمل؛ لأنه الشيء الوحيد الذي كان يرتبط به ارتباطاً وثيقاً. رغم أن ذلك كان صحيحاً إلا أنه لم يكن ليستطيع أن يمضي ساعات نهـاره دون التفكير بعمله إلا عند تناول كأس من الشراب. وفي بعض الأحيان، حتى ذلـك لم يكن ليجدي. وفي الأوقات التي لم يكن يكتب فيها قطّ، كان الوضع أكثـر مـن قدرته على التحمل. وقد كان من الصعب علي مشاهدته هكذا؛ وقد أثار الأمـر قلقي عليه.

مضى أسبوع على إقامتنا في رابالو عندما طرأ أمـر أقـض مضـجعي. إذ استيقظت وأنا أشعر بالدوار وبدوي غريب في رأسي. وعندما حاولـت تنـاول الفطور لم أستطع أن أبقيه في معدتي، فآويت ثانية إلى فراشي.

قلت لإيرنست: "لا بد أن السبب هو المحارات التي تناولناها الليلة الماضـية" وبقينا في غرفتنا حتى منتصف اليوم، إلى أن تلاشى الدوار.

وفي صباح اليوم التالي، ألفيت نفسي تحت وطأة الأعراض ذاتها، وفي الوقـت ذاته تماماً فعفوت عن المحار وبدأت أحسب الأيام. لقد وصلنا إلى تشامبـي تمامـاً قبل الكريسماس، وبعد بضعة أيام من عادتي الشهرية. والآن نحن في العاشر مـن

شهر شباط، وما من أثر لعادة شهرية جديدة. انتظرت إلى أن غادر إيرنست الغرفة للقاء إيزرا، وهببت لأراجع سجلاته المتعلقة بأموري الأنثوية كي أزيل الشك باليقين. وكان من الواضح بلا ريب أن عادتي خلال السنة المنصرمة لم تتأخر ولا مرة لأكثر من يوم أو يومين. أما الآن فقد مضى أسبوع على الأقل؛ عشرة أيام ربما. شعرت بالحماسة والابتهاج، لكنني لم أنبس بكلمة لإيرنست، فالأمر ليس مؤكداً بعد، وقد كنت خائفة مما ستكون عليه ردة فعله.

لكنني مع ذلك لم أستطع إخفاء سري إلى الأبد. إذ بالكاد كنت قادرة على تحمل رؤية الطعام أو حتى رائحة الشراب والدخان. لقد أرضى إيرنست أن يلقي باللائمة في حالتي على الطعام الغريب، لكن الشك كان قد بدأ يتسرب إلى شكسبير. وفي أحد الأيام، عندما كنا جالستين إلى المائدة في الحديقة نراقب إيرنست ومايك وهما يتدربان على التنس، نظرت إلي متأملة وقد أمالت رأسها جانباً وقالت: "هناك أمر مختلف فيك هذه الأيام، أليس كذلك؟"

فأجبتها: "إنها عظام وجنتي البارزة، فقد خسرت بضعة باوندات"

قالت مفكرة: "ربما" لكن نظرتها كانت واضحة ومباشرة على نحو جعلني أعتقد أنها عرفت الحقيقة، فحاولت تجاهل الأمر وقلت:

"يبدو لي أنك أنت أيضاً تفقدين وزنك يا عزيزتي. فأنت توشكين على أن تتلاشي

فأجابتني متنهدة: "أجل، أعلم ذلك. والسبب هو تلك المرأة أولغا رادج"

كانت قد أخبرتني عن أولغا رادج منذ مدة؛ عازفة الكمان التي كانت عشيقة لبوند لما يزيد عن السنة. سألتها:

"ما الذي حدث؟ هل تغير شيء ما؟"

"لا، ليس فعلياً. أتوقع أن يكون مغرماً بنصف دزينة من النساء، هذه طبيعته بكل بساطة. لكن الوضع مختلف مع هذه المرأة، فعلاقتهما ليست في أفول. كما أنها تظهر في مسرح كانتوس، متنكرة كشخصية خيالية بالطبع، لكن بمقدوري رؤيتها" وهزت رأسها الجميل وكأنها تنفض عنه الصورة العالقة في ذهنها، وأردفت: "لقد تغلغلت فينا تماماً. أتساءل عمّا إذا كنا سنتحرر منها بعد اليوم"

"إنني آسفة. ولكن، يبدو لي أنك صبورة على تصرفاته إلى حد رهيب. لا يمكنني أبداً أن أفهم الزواج على هذه الشاكلة. أعتقد أنني امرأة متزمتة"

فهزت كتفيها على نحو أنيق دلالة على اللامبالاة: "مايك ستراتر أيضاً في خضم علاقة الآن؛ مع ممثلة على ما أظن

"رباه! وهل تعلم ماغي بالأمر؟"

"الجميع على علم بالأمر. لقد طار صواب الرجل"

"لا يبدو أنه من ذلك النوع"

"كلا، ولكنهم جميعاً لا يبدون كذلك. الرجال رواقيّو السلوك* في ما يخص أمور القلب"

قلت لها: "أنت تبدين رواقيّة جداً في نظري أيضاً"

فأجابت: "أجل. ولكنني أكابد المستحيل كي أظهر كذلك يا عزيزتي"

اشتهر إيزرا بعواطفه الهائمة فلم أتفاجأ بما سمعته. لكن الخبر الذي عصف بي كان ذاك المتعلق بمايك ستراتر، فقد بدا لي أنه وماغي يتمتعان بأواصر لا تنفصم عراها. كنت أراقبهما وأعجب بهما وبابنتهما، وأنسج على غرارهم في ذهني صورة عن طفلي أنا وإيرنست، وأتخيل كيف سيشق دربه في حلبة الحياة فيغير حياتنا ويؤثر في عمل إيرنست أيضاً. لكن حلمي الآن قد تحطم. طفلي يوشك أن يكون حقيقة، ولكن إلى أي عالم هو آت؟

يمكن أن يكون الزواج أرضاً مهلكة. في باريس، لم يكن من الممكن أن يتلفّت المرء من دون أن يرى نتائج القرارات السيئة التي يتخذها العشاق. فأن يستسلم الفنان للعلاقات الجسدية كان بمثابة فكرة مبتذلة سائدة. فما دمت تقدم شيئاً جيداً أو مثيراً للاهتمام أو حساساً فباستطاعتك أن تحظى بالقدر الذي تريده من العاشقين وتدمرهم جميعاً. الأمر غير المقبول بحق هو القيم البرجوازية؛ كأن ترغب بشيء صغير ورزين ويمكن توقعه كحب واحد حقيقي ومخلص، أو كطفل.

---

* الرواقي: أحد أتباع المذهب الفلسفي الذي أنشأه زينون حوالى العام 300 قبل الميلاد، والذي يقول إن الرجل الحكيم يجب أن يتحرر من الانفعال، وألا يتأثر بالفرح أو الترح، وأن يخضع من غير تذمر لحكم الضرورة القاهرة.

في وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم، عندما عدنا إلى غرفتنا في فندق سبلينديد، بدأ المطر يهطل مدراراً، وبدا كما لو أنه لن يتوقف أبداً. وقفت أمام النافذة ورحت أراقبه والقلق يتنامى في داخلي.

قلت لإيرنست ووجهي إلى النافذة: "مايك ستراتر واقع في حب ممثلة في باريس. هل كنت تتوقع شيئاً كهذا؟"

كان جالساً على السرير منكباً على قراءة *Green Mansions-W.H. Hudson* للمرة المائة. ودون أن يرفع رأسه أجابني: "لا أعتقد أن هذا يعني شيئاً. إيزرا يقول إنه زير نساء بامتياز

"ومتى سيعني الأمر شيئاً بالفعل؟ عندما يتحطم الجميع إلى شظايا؟"

"أهذا ما يزعجك اليوم؟ الأمر لا يعنينا البتة؟"

"أحقاً؟"

"بالطبع لا. فالمرء لا يصاب بعدوى الخيانة"

"لكنه يروقك رغم ذلك"

"أجل، هذا صحيح، فهو رسام بارع. بالمناسبة، إنه يرغب بالمجيء إلى هنا غداً ليرسم لي لوحة شخصية. وربما لك أيضاً، لذا من الأفضل أن تجدي تعابير وجه أقل انزعاجاً حتى ذلك الحين" وابتسم قليلاً قبل أن يتابع القراءة.

في الخارج، ازداد المطر شدة، وهبت الرياح عاصفة فأمالت حبال المطر جانباً على نحو جعل القوارب في المرفأ تترنح على نحو خطير وتكاد تنقلب.

قلت: "إنني جائعة"

فكان جواب إيرنست دون أن يرفع رأسه: "إذاً، كلي شيئاً"

"فقط لو أن المطر ينقطع لكنّا تناولنا الطعام في الحديقة على البقعة المرصوفة"

"ستمطر اليوم بطوله. لذا، فلتأكلي شيئاً أو فالتزمي الصمت"

سرت نحو المرآة، ورحت أتفحص انعكاس صورتي على صفحتها بصبر نافد.

"أريد أن أطيل شعري ثانية. لقد سئمت منظري كصبي

"لا تبدين كصبي، أنت مثالية هكذا" قالها وكأنه يتحدث إلى كتابه.

"صبي مثالي. لقد سئمت"

"أنت جائعة وحسب، تناولي إجاصة"

راقبته وهو منحن فوق كتابه، لقد أرسل شعره حتى بات بطــول شــعري تقريباً. لقد بدأنا نشبه بعضنا في الواقع؛ تماماً كما تمنى إيرنست منذ أمد بعيــد في إحدى الليالي المقمرة على سطح المنــزل في شيكاغو. لكن ذلك لن يدوم طويلاً, فخلال أشهر معدودة سيستدير بطني منتفخاً على نحو لا يمكن تجنبه.

"لو أنني كنت أملك شعراً طويلاً وبديعاً لربطته من الخلــف عنــد رقــبتي، وسيكون حريرياً ورائعاً، ولن أكترث لشيء بعدها"

"ممم، أحقاً؟ إذاً، افعلي ذلك، أطيليه مجدداً"

"نعم، سوف أفعل"

كان هناك مقص صغير على الطاولة الملحقة بالمرآة فتناولته مندفعة بحماســة، وقصصت القليل من شعري تحت أذني اليمنى ثم اليسرى.

راقبني بفضول ثم قال ضاحكاً: "لقد فقدت عقلك، أتعلمين ذلك؟"

"ربما. والآن حان دورك"

توجهت إليه ووثبت فوقه وقصصت الشعر تحت أذنيه حتى طابق شــعري، ثم دسست شعره في جيبــي وقلت: "الآن أصبحنا متشابهين تماماً"

"أنت غريبة الأطوار اليوم"

"أنت لست مغرماً بممثلة ما في باريس، أليس كذلك؟"

علا ضحكه وقال: "رباه! كلا"

"أهي عازفة كمان إذاً؟"

"لا، لا أحد"

"وستبقى معي على الدوام؟"

"ما خطبك يا هريرتي؟ أخبريني"

فنظرت إلى عينيه مباشرة وقلت له: "سوف نرزق بطفل"

"الآن؟!" وبدا الفزع في ردة فعله على الفور.

"بل في الخريف"

"أرجوك أخبريني أن الأمر غير صحيح"

"ولكنه كذلك. ابتهج يا تاتي، إنني أتحرق شوقاً لهذا الأمر

تنهد متسائلاً: "منذ متى وأنت على علم بالأمر؟"

"ليس منذ أمد بعيد. منذ أسبوع ربما"

"إنني لست جاهزاً لهذا. بل أنا أبعد ما أكون عن ذلك"

"لعلك ستغدو كذلك عندما يحين الوقت. بل وربما ستفرح به"

"لقد خبرنا شهوراً صعبة ومزرية"

"ستعمل مجدداً، سيأتيك الإلهام، إنني على يقين من ذلك كما لو كنت أراه"

"شيء ما آتٍ حتماً" ختم الحديث بحزن.

عصيبة كانت تلك الأيام التي تلت، وصعبة على كلينا. جزء مني تأمل أن تتلاشى الأسباب التي تلاها إيرنست على مسمعي رفضاً للطفل ما إن يدرك أن قدومه بات حقيقة، وأنه سيكون سعيداً به بحق، أو على أقل تقدير فرحاً لفرحي. لكن، لم يبدُ أنه قد تزحزح عن موقفه قيد أنملة. صحيح أن أيامنا مضت كسابق عهدها، إلا أنني كنت أشعر بوطأة الهوة التي تشكلت بيننا وأتساءل عن كيفية تمكننا من ردمها ليعثر كل منا على الآخر ثانية.

ومن ثم، وفي غمرة اكتئابي وتفكيري وصل ضيف جديد إلى فيلا بوند؛ كان إدوارد أوبراين، وهو كاتب ومحرر كان يقيم في التلال المطلة على البلدة قرب ألبيرغو مونتاليغرو، وقد سمع إيزرا بوجوده هناك فدعاه إلى الغداء.

"إن أوبراين يشرف على تحرير مجموعة من أفضل القصص هذا العام" هكذا عرفنا إليه بوند ونحن نجلس على الشرفة قرب ملاعب التنس. "وهو يقوم بهذا العمل منذ الحرب" ثم التفت إلى إيرنست مردفاً: "هيمنغواي هنا يؤلف قصة في غاية الجودة. إنه بارع في حرفته بحق"

فقال أوبراين موجهاً حديثه إلى إيرنست: "إنني الآن بصدد جمع مواد لطبعة عام 1923، هل لديك شيء من مؤلفاتك في متناول يدك؟"

وكان الحظ حليفه هذه المرة، إذ أخرج من حقيبته نسخة مهترئة نوعاً ما من قصته عن فارس السباق: "The old Man" والتي أعادها له لينكولن ستيفنس. سلمها لأوبراين راوياً له باختصار كيف ضاعت أعماله كلها، ثم ختم قائلاً بطريقة مسرحية: "إذاً، هذا النص هو كل ما تبقى لديّ من أعمالي. هذا هو العمل الأخير. إنه مثل قطعة صغيرة من مقدمة سفينة غاصت في قاع المحيط ويتآكلها العفن

فعلق أوبراين: "حسناً، إن هذا شاعري للغاية" ثم أخذ النص معه إلى منـــزله أعلى التلال كي يقرأه.

بعد أن غادر قلت لإيرنست: "تمنيت لو أنك لم تتحدث هكذا أمام أوبراين. فقد أشعرني وصفك بالسقم، وبالألم في معدتي"

"حقاً؟! إذاً ربما كان الطفل السبب في ذلك"

"هل أنت غاضب مني؟"

"ولِمَ عساي أكون غاضباً؟"

"أنت لا تعتقد أنني فعلت ذلك عمداً، أليس كذلك؟"

"ماذا؟ أتقصدين أنك أضعت نصوصي؟" شعرت وكأنني تلقيت صفعة قاسية على وجهي، ولكنني أجبته:

"كلا، بل حملي

"الأمر سيان، أليس كذلك؟"

عند هذا الحد بات همسنا حاداً وعنيفاً إلى درجة أنه لفـــت انتبـــاه الأزواج الجالسين معنا إلى أننا كنا في خضم نقاش جـــدي وحـــامي الـــوطيس، فأخـــذوا ينسحبون نحو المنـــزل بهدوء الواحد تلو الآخر.

قلت له وعيناي تفيضان دمعاً: "لا أصدق أنك تعني حقاً تعني ما تقوله"

"سأخبرك ما الذي قاله لي ستراتر. قال إنه ما من كاتب أو حتى رسام – مـــا من شخص يصب روحه في ما ينتجه – يمكنه على الإطلاق أن يترك تلك الحقيبـــة على القطار ويترجل منه؛ لأنه سيعلم تماماً قيمتها"

"هذا في منتهى القسوة. لقد عانيت الأمرين من أجل ضياع تلك المؤلفات أنا أيضاً"

تنهد بصوت عالٍ وأغمض عينيه، وعندما فتحهما مجدداً قال: "إنني آسف، لقـــد وعدت نفسي ألا أتكلمّ في الموضوع؛ إذ لن يعود ذلك بأي نفع على أي حال"

وعلى وقع كلماته، نهضت عن مقعدي بعنف وأنا أتقـــد غضـــباً وكمـــداً، وذهبت في اتجاه، فيما ذهب هو في اتجاه آخر. وعلى الرغم من أنه عنـــدما حـــان موعد الغداء كان الجميع حريصين على أن يبدوا وكأنهم لم يسمعوا شيئاً، إلا أنني كنت على يقين من أن الصراحة برأي الجميع هي الحل الأمثل. لذا، قلت لهم وأنا

أمد يدي نحو يد إيرنست لأمسكها، في حين لم يسحبها هو: "نريدكم أيها الأصدقاء الأفاضل أن تكونوا أول من يعلم أننا سنرزق بطفل"

فقالت شكسبير: "هذا ممتاز" ونهضت نحوي لتعانقني بحرارة، وأردفت هامسة في أذني: "قلت لك إنني أراك أكثر بهاء"

في حين علق مايك قائلاً: "يا له من عرض ممتاز!"

أما بوند فقد قال: "أجل، أجل. إنه قدر القردة السعيد"

فصاحت به شكسبير بحدة مؤنبة: "إيزرا!"

"ماذا؟ وهل أكذب؟!"

ماغي ستراتر بدورها قالت لي وهي تعانقني: "تهانينا، علينا نحن القردة أن نؤازر بعضنا"

بعض ظهر اليوم التالي، جلسنا نتأمل الرجال الثلاثة وهم يلعبون التنس. كان إيرنست هو الأسوأ بينهم، لكن ذلك لم يمنعه من اللعب بعنف. إذ راح يؤرجح المضرب بقوة وعلى مدى واسع كما لو كان لاعب غولف. وحين أرسل مايك نحوه الكرة بضربة موفقة جعلتها تعبر الشبكة وتسقط تقريباً عند قدمي إيرنست، ثار الأخير لأنه أخطأها، ثم راح يرسل السباب القذر بصوت عالٍ رامياً مضربه على الأرض.

قالت لي ماغي متوددة: "سيعتاد فكرة الطفل في نهاية المطاف، لا تقلقي. هذا ما حدث مع مايك"

فأيدتها شكسبير بالقول: "بالطبع سيفعل. ستسيطر عليه كبرياؤه أول الأمر، لكنه في النهاية سيعتقد أن الفكرة كانت فكرته أصلاً"

قلت لهما: "لست واثقة من ذلك"

في الواقع، كان لدي شعور مريع حيال الطريقة التي ربط فيها إيرنست في ذهنه بين قدوم الطفل وضياع مؤلفاته. فإن طرأ له في أعمق خبايا نفسه وأكثر لحظاته سوداوية أنني قادرة على تخريب عمله ومسيرته المهنية وطموحه بهذا الشكل، فأنى لشيء بعدها أن يقينا من العثرات في علاقتنا! الثقة التي تنكسر بين اثنين نادراً ما يمكن إصلاحها، وبشكل خاص بالنسبة لإيرنست. فما إن يتلطخ المرء في عينيه حتى لا يعود من الممكن أن يراه بأي صورة أخرى.

كانت نفسيتي في الحضيض فعلاً إلى أن عاد إلينا إدوارد أوبراين من أعلى التلال وهو يفيض حماسة وثناء على قصة إيرنست. لقد كانت مذهلة، وأراد أن ينشرها رغم أنه بذلك سينقض العرف السائد الذي اعتاد عليه؛ وهو أن يختار من بين القصص التي سبق أن نشرت في المجلات. ليس ذاك فحسب، بل وقد أراد أن يفتتح الإصدار بقصة إيرنست ويضمنها في المقدمة؛ إلى هذا الحد كان متحمساً لها.

توقيت أوبراين كان الأمثل على الإطلاق، فقد أتى استجابة لدعواتي ودعوات إيرنست معاً. فثقته بنفسه المتراجعة على نحو محزن قد تلقت حافزاً عظيماً، وبات هناك أمر ملموس يطمح له ويتطلع إليه. كل من كان ذا قيمة في مجال الأدب سيقرأ قصته عند إصدار المجموعة. وسيغدو لاسمه معنى وصدى، وكل ما كدّ لأجله لم يكن سراباً.

في اليوم التالي، عندما استيقظت ألفيت إيرنست جالساً إلى مكتبه قرب النافذة، لقد كان يكتب.

أمضينا أسبوعين آخرين في راباللو، وقد مرا على نحو مثمر لكلينا. فقد تراءى لي أنه قد خفت لدى إيرنست حدة شعوره بالتهديد من قبل الطفل. لعل السبب كان في أنه قد استوعب الأمر وبدأت عواطفه تتحرك. أما أنا فلم أعد متوترة وقلقة حيال المستقبل كما كنت قبلاً لأن إيرنست عاد إلى سابق عهده مرحاً ويشتعل حماسة حول ما أراد أن يحققه. أخيراً، أصبح بمقدوري أن أكون سعيدة بحملي. الشيء الوحيد الذي قوّض سعادتي كان إيزرا، إذ انتحى بي جانباً قبل مغادرتنا وقال: "أنت تعلمين أنني لم أكن يوماً متحمساً لفكرة الإنجاب. لكن تلك مسألة أخرى، إنما في حالة هيم أعتقد أنك سترتكبين خطأ مريعاً إن حاولت تدجينه، أي أن تجعليه يكرس نفسه للحياة المنزلية كلياً"

فأجبته: "أنا أحبه كما هو. لا بد أنك تصدقني في هذا"

"بالطبع هذا ما تشعرين به الآن. لكن، تذكري كلماتي، هذا الطفل سيغير كل شيء. هذا ما يفعلونه دائماً. فقط لا تنسي هذا الأمر، وكوني حذرة على الدوام"

"حسناً يا إيزرا، أنا أعدك بذلك"

قلت ذلك، ثم اتجهت نحو القطار وإيرنست. بوند كان بوند نفسه الذي يدمن إلقاء الخطب، وأنا لم أحمل كلامه على محمل الجد يومها. لقد كنت في حالة من التفاؤل حيال كل شيء، وتعذر علي معها أن أضع أي نصيحة أسمعها موضع عنايتي. لكن، بعد سنوات من هذا الموقف سأتذكر هذه النصائح بحدة. بوند كان بوند، لكنه في ما يتعلق بهذا الأمر تحديداً كان محقاً بكل معنى الكلمة.

الفصل الثاني والعشرون

لدى عودتنا إلى باريس في أوائل شهر نيسان، كنت في غاية الاستعداد للعودة إلى منزلي؛ للأشجار المزهرة، للشوارع التي غسلتها الأمطار، للغسيل المنعش الذي علق خارجاً ليجف، وللأطفال الذين راحوا يجرون على الممرات المكسوة بالحصى في حدائق لوكسمبورغ. كان إيرنست يكد في العمل. وعلى الرغم من أني كنت أفتقده عند غيابه، غير أني بت الآن أكثر سعادة من ذي قبل عندما أكون وحدي.

لعله من المضحك أن أفكر على هذا النحو. ولكن، للمرة الأولى أضحى لدي مشروعي الخاص. لقد دأبت على المشي لفترات طويلة يومياً، وحاولت أن آكل على نحو جيد، وأنال قسطاً وافراً من الراحة لأجل صحتي. كما اشتريت ياردات وياردات من القماش القطني الناعم، وأمضيت ساعات جالسة في الشمس وأنا منكبة على تطريزها لأجل الطفل القادم. وفي المساء، كنت أقرأ رسائل أبيلارد وهوليس، وهي عبارة عن قصة حب وجدتها مناسبة لي أكثر بكثير من قصة فيتزجيرالد Jazz Age والعلاقة المفككة بين الزوجين فيها. كنت مفعمة بمشاعر من التفاؤل شملت كل شيء على الإطلاق. وفيما تقدمت أشهر الربيع حثيثة نحو أوائل الصيف، ازداد محيط خصري وامتلأ صدري. كنت وقتها برونزية البشرة وقوية البنية وفي غاية الرضا - أي أكثر بهاء كما قالت شكسبير - وقد بدأت أعتقد أنني قد عثرت أخيراً على ضالتي واكتشفت هدفي في الحياة.

أما إيرنست، فعندما لم يكن يكدح خارجاً في غرفته في شارع ديكارت، فقد كان بصحبة غيرترود التي رثت لحاله عندما سمعت بضياع مخطوطات مؤلفاته طبعاً، غير أنها كانت أقل تعاطفاً مع مخاوفه بشأن قدوم الطفل.

"ستفعلها على أي حال. ستجتاز الأمر
فقال لها: "ولكنني أبعد ما يمكن عن أن أكون جاهزاً لهذا"
فنظرت إليه بعينين ضيقتين وقالت: "لم أعرف رجلاً كان جاهزاً قط. ستكون على ما يرام"
وعندما روى لي ما جرى بينهما سألته: "ماذا كنت تأمل أن تقول لك؟"
"لست أدري. ظننت أنها ستسديني نصيحة ما"
"وهل فعلت؟"
"كلا. في الواقع، جلّ ما قالته كان: امضِ في ذلك على أي حال"
"وهذه نصيحة ممتازة لك. فأنت ستمضي في الأمر على أي حال"
"من السهل عليكِ أن تقولي ذلك. فكل ما عليك فعله ينحصر في قص الأقمشة وخياطة الملابس للمولود الجديد"
"ذاك بالإضافة إلى حمله، شكراً جزيلاً لك. إنه لن ينزل علينا من السماء كما تعلم"
"صحيح" قالها بذهن مشتت، ثم عاد إلى كتابته.

لم يكن قد مضى على عودتنا إلى باريس وقت طويل عندما كتب جين هيب محرر *ذا ليتل ريفيو* لإيرنست طالباً إليه المساهمة بشيء من أعماله لإصدار العدد التالي. من بين المخطوطات المفقودة، كان إيرنست قد ألّف سلسلة من المشاهد أسماها *باريس 1922*، وبدأت جميعها بعبارة "لقد رأيت"، ودون فيها مشاهداته التي تركت أعمق أثر في ذاكرته، والتي غالباً ما كانت حول مواقف عنيفة شهدها أو قرأ عنها خلال السنة الماضية. فأحد المشاهد صوّر الانهيار المدمر لشيفر دور في أوتييل. فيما وصف آخر كيف قام عاشق بيغي جويس التشيليُّ بإطلاق النار على رأسه لأنها لم تقبل الزواج منه. الجميع تابعوا بشوق القصة المأساوية لتلك الممثلة في العناوين الرئيسة للأخبار، غير أن إيرنست نقل الصورة على نحو ينبض حيوية وحياة أكثر من أي شيء آخر يمكن أن تقرأه في الصحف. وسواء أكان يستقي معلوماته من مصدر آخر أم لا فإن كل فقرة كانت تصور المواقف بحذافيرها؛ بكل قسوة وبمنتهى الإقناع. باعتقاد إيرنست، إن أياً من أعماله لم يكن ليرقى إلى هذا

في قوته وحدته، وقد وافقته غيرتردو الرأي. كان كمن يسدد ضـــربات قاضـــية بكتاباته.

قالت له غيرترود مرة: "لعلك لن ترغب في سماع هذا، لكن فقدانك لكل ما خطه قلمك يمكن أن يكون نعمة. لقد كنت بحاجة لأن تتحرر، وأن تبـــدأ بجعبـــة خالية، وتبتكر شيئاً جديداً تماماً"

هز إيرنست رأسه متجهماً، لكنني كنت أعلم أنه شـــعر بارتيـــاح هائـــل، وكذلك شعرت أنا.

"أود أن أقوم بمحاولة أخرى مع مشاهد باريس، خاصة تلك المتعلقـــة بجـــين هيب. لكنني لا أريد أن أحيي رميمها. الجديد يعني الجديد. أفكـــر في أن أتوســـع بالفكرة لتشمل مقاطع؛ كي يصبح بمقدورها الحركة فعلاً" أثناء كلامـــه، كـــان إيرنست يرقب وجهها بدقة ويتغذى على تشجيعها له. ثم استطرد قائلاً:

"بمعنى أن كل مشهد سيغدو صورة وصفية أكثر من كونه منمنمة أختمهـــا سريعاً وأرسلها"

فكان جوابها: "افعل ذلك ولا تتردد"

وفي غضون وقت قصير جداً، كان جاهزاً لكي يريها مسودة تصف بقســـوة النهاية الوحشية لمصارع ثيران بقرون ثوره. وقد كان قلقاً وهو بانتظار ردة فعلـــها عند قراءتها المشهد؛ لأنه كان مبنياً على حكاية كانت قد روتها له عـــن مصـــارعة الثيران في بامبلونا. لكن المرء ما كان ليعرف البتة لدى قراءته المقاطع أن إيرنســـت لم يسبق له أن كان هناك قط.

وكان تعليق غيرترود: "هذا عمل استثنائي. لقد أعـــدت صـــياغة الموقـــف بحذافيره"

فقال إيرنست وقد علت محياه علامات السرور: "هذا كان الهدف. لكـــنني أريد أن أعرف كيف تسير عملية مصارعة الثيران. إن تســـنى لي الـــذهاب لأرى بنفسي فسيكون بمقدوري أن أجمع مواد لمشاهد أخرى. إن مايك ستراتر حـــريص على الذهاب، وكذلك بوب ماكالمون الذي يتمتع بوفرة مادية تمكنه مـــن تـــولي مصاريف الرحلة كلها"

قالت غيرترود: "إذاً، اذهب"

فوافقتها بقولي: "أجل، يجدر بك أن تفعل، فكل شيء يدفعك إلى ذاك الاتجاه"

لدى عودتنا إلى المنزل تلك الليلة سألت إيرنست إن كان بمقدروي قراءة جميع منمنماته التي أنجزها حتى الآن. وعندما فعلت، استوقفتي إحداها، وجعلت الرعشة تسري في أوصالي. فقد كانت تتعلق بالوقت الذي أمضاه في تركيا. لقد وقعت على طريق كاراغاتش، ووصف فيها من بين عدة أمور أخرى، امرأة تضع مولودها في الطريق تحت المطر كما لو كانت حيواناً.

أعدت إليه المشاهد وأنا أغدق عليها الثناء، وهو ما كانت تستحقه بالفعل. لكنني أيضاً لم أستطع منع نفسي من أن أقول:

"ليس عليك أن تخفي خوفك من مجيء الطفل إلى حياتنا. ليس عني"

"بالطبع إنني خائف. كيف سأعمل؟ ماذا سيحصل لأوقاتنا الممتعة التي نمضيها معاً؟"

"ليس هذا وحسب. أعلم أنك قلق لأجلي

"قليلاً"

"أرجوك لا تقلق. لن يصيبني أي مكروه"

"كيف يمكنك أن تعرفي ذلك؟ يمكن أن يقع خطب ما دائماً. لقد رأيت ذلك من قبل بأم عيني"

"سيكون كل شيء على ما يرام. أشعر بذلك"

"وعلى المنوال ذاته، كنت أتساءل عمّا إذا كان علينا أن ننجب الطفل في تورنتو بكندا. يمكنني الحصول على عمل بدوام كامل في مجلة *ستار*، والمشافي هناك يفترض أن تكون جيدة، وسأحصل حينها على عمل ثابت؛ إذ سنحتاج إلى المال بكل تأكيد"

"ألست أباً جيداً منذ الآن؟"، قلتها وأنا أقبله بنعومة.

"إنني أحاول أن أرغب بكل هذا، وأحاول أن أدرأ عني الأفكار المزعجة كذلك"

"ولكي تحظى بفرص الحياة كلها ما أمكنك قبل مجيء الطفل، أليس كذلك؟"

"أجل، ذاك أيضاً"

تمخضت الأسابيع التالية عن مشاريع متقلبة في ما يخص الرحلة إلى إسبانيا. فقد اجتمع إيرنست بستراتر وبوب مكالمون في المقاهي ليخططوا لمسار الرحلة، لكن لسبب أو لآخر كان إيرنست يعود منها على الدوام حانقاً ومنزعجاً من الرجلين الآخرين. كان مكالمون شاعراً وصديقاً لكل من إيزرا وسيلفيا، وزوجاً للكاتبة البريطانية آني إيلرمان التي كانت تنشر كتاباتها تحت اسم مستعار هو بريير. وقد كان شائعاً في الأوساط كلها أن زواجهما كان زواج مصلحة. آني والشاعرة الأمريكية أتش دي التي كانت واحدة من تلاميذ بوند، جمعت بينهما صداقة قوية. وعلى الرغم من أنه لم يبدُ أن ذلك يزعج بوب البتة، فقد أثار حفيظة إيرنست للغاية، ولم أكن متأكدة من السبب في ذلك. فقد كانت آني وريثة لثروة ضخمة، لكونها ابنة قطب مهم من أقطاب الشحن وصاحب أضخم ثروة في إنكلترا برمتها. وعلى الرغم من أن بوب كان يملك المال إلا أن ما يملكه لم يكن حتى يقارن بما لدى آني. وكان هناك انطباع بأنها أبقته طوع بنانها، وهو كان بحاجة إليها إن كان سيطلق دار طباعته الجديدة التي أسماها: كونتاكت إيديشنز. كان بوب يعتمد على آني، وإيرنست قد يغدو يوماً معتمداً على بوب إن أراد لمؤلفاته أن تجد سبيلها إلى النشر. كانت كونتاكت إيديشنز جديدة في مضمار الطباعة، لكنها شكلت معلماً لما هو رائع، وراحت تبحث على نحو فعال عن أكثر الكتابات حدة وجدية على الساحة الأدبية.

معرفة إيرنست أنه يجب عليه إثارة إعجاب بوب دفعته على نحو لا مناص منه إلى الشعور بالاستياء. وحين آن أوان رحيل الثلاثة إلى إسبانيا، كان إيرنست وبوب بالكاد يتكلمان معاً. أضحت الرحلة مربكة من عدة نواحٍ. فبوب (بمساعدة من آني) كان يتولى دفع المصاريف كلها، وقد أخرج هذا أسوأ ما لدى إيرنست. فقد كان دائم الانتقاد للأغنياء، وكره ضرورة الشعور بالالتزام نحوهم. علمت لاحقاً من مايك أن إيرنست تولى قيادة الفريق منذ وطئت قدماه إسبانيا؛ متخذاً صفة الخبير بينهم، وواعظاً إياهم بلا هوادة. لقد أحب مصارعة الثيران منذ اللحظة الأولى. ففي رسائله إليّ، تمحور حديثه عن شجاعة كل من المصارع والثور أيضاً. فالأمر برمته كان مأساة عظيمة تحرك المشاعر، أمكنه رؤيتها والشعور بها بدرجة من القرب.

عندما عاد بعد أسبوع كان يفيض حماسة، حتى إنه راح يتدرب بصورة مسرحية على الانحناءات إلى الوراء التي تعلمها في روندا ومدريد مستخدماً غطاء

المائدة في شقتنا. إذ وقف مقابل المائدة – الثور الوحيد المتوفر حالياً – ثم قال: "يخيم هدوء لا معقول، بينما يراقب المصارع الحيوان آتياً، وينحصر تفكيره كاملاً في ما سيفعله كي يحضره إليه على نحو صحيح، وليس في الخطر المحتمل. هنا يكمن جمال الأمر، وصعوبته بطبيعة الحال"

قلت: "لكم أحب أن أشاهد ذلك"

فردّ: "قد يكون من الصعب عليك مشاهدته"

"ربما، لكنه يبدو لي أمراً سأحرص على ألا يفوتني إن استطعت. وهذه النزالات قد تكون ذات أثر مفيد على الطفل"

"أجل، سيصبح رجلاً حقيقياً قبل أن يولد حتى"

"وما الذي يجعلك متأكداً من أنه صبي؟"

"وما عساه يكون سوى ذلك؟"

وضعنا مخططات بأن نعود معاً إلى هناك في شهر تموز؛ إلى فييستا دي سان فيرمين في بامبلونا، حيث ذهبت غيرترود وأليس في الصيف الماضي، وحيث يفترض أن تكون أفضل حلبة على الإطلاق؛ إذ تحوي الثيران الأكثر شراسة، والمصارعين الأكثر خبرة. وعلى الرغم من أنني لم أظهر سوى الحماسة تجاه المشروع، غير أن إيرنست كان مصراً على أن يُهيّئني نفسياً للعنف المنتظر، إذ قال:

"ليس بمقدور الجميع تحمل ما يجري هناك، فقد راح مكالمون يتجرع الشراب طيلة الوقت خلال مصارعة الثيران الأولى التي شهدها. ففي كل مرة هجم فيها الثور، شعر بالغثيان وامتقع وجهه. لقد قال إنه ليس بمقدوره تخيل أن أي شخص يمكن أن يجد ما يحبه في هذه المصارعات على الإطلاق. وإن حدث ووجد ما يحبّه، فهو بلا ريب إنسان مختلّ"

"لا أعتقد أنكما يمكن أن تصبحا صديقين في يوم ما"

"ربما لا، لكن يتراءى لي أنه وآني يرغبان في إصدار مجموعة قصصية لي، أو ربما يرغبان في إصدار قصص وأشعار"

"أحقاً؟ إن كنت تكرهه إلى هذه الدرجة فلِمَ ترغب بأن يصدر لك كتاباً؟"

"أحد ما يجب أن يفعل. علي الآن فقط أن أؤلف الكتاب الملعون"

* * *

بامبلونا كلها كانت مستيقظة عندما تهادت حافلتنا في منتصف الليل داخل المدينة المسورة. كانت الشوارع تعج بالناس؛ لدرجة دفعتني إلى التساؤل حول كيفية تمكّن الحافلة من شق طريقها عبر تلك الأمواج المتلاطمة من البشر. غير أن الراقصين تنحّوا جانباً لدى سماعهم هدير المحرك ليعاودوا ملء الفراغ ما إن مرّت الحافلة. واصلنا المضي في الطرقات الملتوية نحو الساحة العامة، وعندما وصلنا إليها ألفينا فيها صخباً وحركة لا تهدأ - راقصون يدورون، وموسيقيون يقرعون الطبول وينفخون في المزامير، وألعاب نارية تنفجر مصدرة أصواتاً مرتفعة ودخاناً أبيض - وفي غمرة هذا كله كدنا نفقد أمتعتنا. لكن، ما إن استلمناها باليد وعثرنا على فندقنا حتى واجهتنا عقبة أخرى؛ وهي أن حجزنا الذي أجراه إيرنست قبل أسابيع قد ألغي وأعطيت الغرفة لنزلاء آخرين.

عدنا إلى الشارع ثانية، حيث طلب إلي إيرنست الانتظار قرب الحقائب، فيما يذهب هو للعثور على مكان نأوي إليه. راقبته وهو يمضي بعيداً، شاقاً طريقه بين الحشود، وأنا فاقدة الأمل تقريباً من أنه سيعثر على غرفة؛ ناهيك عن إيجاد طريق العودة إلي. لقد تراءت لي الشوارع نفسها وكأنها تتغير، فأسندت ظهري إلى جدار صخري سميك، وحاولت الحفاظ على موقعي تحت وطأة الراقصين الذين راحوا يدورون بأزيائهم البيضاء والزرقاء، والنسوة بتنانيرهن الطويلة البراقة وشعرهن الجميل الذي يتطاير في الهواء. راح الجميع يطقطقون بأصابعهم وينقرون بكعوب أحذيتهم السوداء على الأرض الحجرية. بعضهم حملوا آلة الرق وآخرون الأجراس. وعلى الرغم من أن الموسيقى بدت مشوشة بالنسبة لي مع كل أصوات المزامير الصارخة والطبول القارعة التي جعلت عظام ركبتيّ تهتز، إلا أنه تراءى لي أن النسوة كن قادرات على سماع إيقاع واضح، وعلى الرقص على نغماته بشكل ممتاز، فيرفعن أرجلهن في الوقت المناسب، ويقوّسن أذرعهن جانباً. الرجال كانوا يرتدون قمصاناً وسراويل زرقاء، ويربطون أوشحة حمراء اللون حول رقابهم وهم يرقصون معاً في مجموعات كبيرة. وأخذوا ينادون بعضهم بعضاً بصيحات مجلجلة فرحة يبتلعها الضجيج على الفور. كان مشهداً لم يسبق لي أن رأيت مثله في حياتي.

استطاع إيرنست بطريقة ما أن يقتحم غمار الجنون المحيط بي، وأن يعود لاصطحابي معه. وعلى الرغم من أن الفنادق جميعها كانت محجوزة مسبقاً

لأسابيع، فقد استطاع أن يؤمن لنا غرفة خاصة في أحد المنازل القريبة لست ليال مقابل ضعف إيجارنا الشهري لمنـزلنا في باريس.

هتفت باستهجان وأنا أشعر بالانـزعاج من ضخامة المبلغ: "كل هذا! كيف لنا أن ندفع مثل هذا المبلغ؟"

"ابتهجي يا حبيبتي، سيدفعون لي مقابل ما سأكتبه. إنني بحاجة إلى أن أكون هنا، أشعر بذلك على نحو طاغٍ"

لم أستطع مناقشته عندما يتعلق الأمر بما يشعر به، فضلاً عن أنني شعرت بأنني سأموت من الألم في قدمي. أخذنا الغرفة، وكنا ممتنين لحصولنا عليها. لكن في النهاية، كان بمقدورنا البقاء في الشارع طوال الليل كما فعل الجميع. فالمدينة برمتها كانت تنتظر بترقب هذا الأسبوع من السنة، وهذه الليلة البهيجة. بدا لنا أن بمقدورهم الرقص إلى الأبد، وقد وجدت الأمر مسلياً؛ فقد كنا حريصين على القدوم إلى هنا في هذا الموعد هرباً من الاحتفالات بذكرى تحرير الباستيل في باريس لنقابل هنا بوضع على المستوى نفسه من الجنون والهيجان؛ إن لم يكن أسوأ.

غادرت السرير أخيراً عند الساعة السادسة صباحاً، وأنا أعلم أنه ليس لي في الراحة نصيب، وسرت خارجة إلى الشرفة. كان الشارع أسفلنا يعج بالناس كالبارحة، لكنهم بدوا أكثر تركيزاً وتوجّهاً. وكان الوقت الذي تطلق فيه الثيران قد بات وشيكاً، لكنني كنت أجهل ذلك، فقط شعرت أن شيئاً ما يحدث. عدت إلى الداخل وارتديت ملابسي بهدوء، لكن رغم ذلك استيقظ إيرنست من نومه الخفيف. وعندما عدنا معاً إلى الشرفة، سمعنا صوت مدفع ينطلق مجلجلاً، ورأينا دخانه الأبيض ينتشر فوق الساحة العامة، عندها بدأ الحشد المجتمع هناك بالغناء. كان موقع غرفتنا مناسباً جداً، إذ أمكننا رؤية كل شيء وسماعه من مكان وقوفنا، حيث رأينا مجموعة من الرجال والصبية ينشدون أغنية عاطفية بالإسبانية لم أفهم منها أي كلمة، ولكنني لم أكن بحاجة إلى ذلك.

قلت لإيرنست: "أعتقد أنها تتحدث عن الخطر

فأجاب: "خطر سعيد. إنهم متحمسون لاختبار أنفسهم، وليروا ما إذا كانوا قادرين على تخطي خوفهم"

كان يعلم أنه سيتم إطلاق الثيران قريباً، فقد روت كل من غيرترود وأليس بالتفصيل الأحداث التي شاهدتاها في المهرجان في السنة الماضية، وكذلك فعل مايك ستراتر. لكن، لم يكن ليشفي غليل إيرنست سماعه بالأمر من أفواه الآخرين، لقد أراد أن يراه بأم عينه. ولولا أنني كنت معه يومها فأنا على يقين بأنه ما كان ليكون واقفاً على الشرفة الآن على الإطلاق. لقد أراد في الحقيقة أن يكون في الساحة، وأن يحضر نفسه للجري.

صاح الحشود: *"فيفا سان فيرمين، غورا سان فيرمين"*

انطلق المدفع مرة ثانية، وانطلقت معه الثيران، وشاهدنا العدائين يجرون بأقصى سرعتهم على الشوارع المرصوفة بالحجارة، وقد ارتدوا جميعهم قمصاناً وسراويل بيضاء اللون، ووضعوا أوشحة حمراء اللون على أعناقهم وخصورهم، فيما حمل آخرون بأيديهم صحفاً كي يلوحوا بها مبعدين الثيران عنهم، وجميعهم علت وجوههم علامات النشوة والإثارة. وخلف العدائين رأينا ستة ثيران تنهب الأرض بسرعة وقوة جعلت المنزل يهتز تحت أقدامنا، وحوافرها تقرع الأرض الحجرية تحتها، ورؤوسها السوداء الضخمة منخفضة، وغريزة القتل تفيض منها. بعض الرجال انهزموا فتوجب عليهم تسلق المتاريس المصطفة على طرفي الشارع، فيما حاول المراقبون الوصول إليهم لإنقاذهم. لكن أيضاً كان من السهل على المرء استشعار الترقب لدى الحشود أثناء فترة الانتظار لرؤية ما إذا كان هناك شخص قليل الحظ ستعوزه المرونة أو تخونه سرعته.

لم تحدث أي حوادث أليمة بين الثيران والحشود؛ على الأقل لم نشهد نحن أياً منها. وشعرت بالارتياح لأن الثيران وصلت سالمة إلى الحلبة. صحيح أن الطقس كله لم يستغرق أكثر من دقائق عدة إلا أنني أدركت أنني كنت أحبس أنفاسي إلى أن انتهى.

تناولنا فطورنا في مقهى رائع، ثم حاولت بعدها أخذ قيلولة في غرفتنا، فيما انطلق إيرنست يجوب شوارع بامبلونا مسجلاً ملاحظاته عن كل ما يراه. بالنسبة له، كان كل شيء كوحي من الشعر؛ وجوه الرجال الباسكيين المسنين المغضنة بأخاديد سماوية، وكل منهم يعتمر القبعة الزرقاء نفسها، والشبان الذين اعتمروا قبعات وحملوا على أكتافهم حقائب قماشية يدوية الصنع خاصة بقوارير الشراب،

وعضلات أذرعهم وظهورهم المفتولة نتيجة الأعمال الشاقة... عندما عاد إيرنست إلى الغرفة كان شديد الحماسة حيال كل شيء، وطفق يتحدث عن الغداء الذي تناوله وكان عبارة عن سمك السلمون النهري المقرمش والمحشو باللحم المقلي والبصل.

"إنها السمكة الألذ مذاقاً التي تذوقتها على الإطلاق. ارتدي ثيابك، يجب أن تجربيها"

"أتريد حقاً العودة إلى المقهى ذاته فقط لتراقبني وأنا آكل؟"

"لن أراقب شيئاً، بل سأتناولها معك مجدداً"

في وقت لاحق من بعد الظهر، بدأ النزال الأول، جلسنا في *باريرا* حسنة الموقع حيث كان مقعدانا قريبين تماماً من موقع الأحداث. لقد دفع إيرنست مبلغاً إضافياً كي يضمن لنا مشاهدة ممتازة للحدث. لكنه إلى جانب ذلك كان حريصاً على سلامتي.

"أشيحي ببصرك بعيداً الآن" قال لي ذلك قام الخيال الأول بغرز *الباندريللا* الطويلة الشائكة في حدبة الثور، فانسال الدم دفاقاً. وقالها ثانية عندما طُعن الحصان الأول بقرن الثور بصورة سيئة، وأخرى عندما عمد المصارع الأنيق اليافع نيكانور فيلالتا إلى قتل ثوره بدقة متناهية، غير أنني لم أنظر بعيداً.

لقد جلسنا على مقعدينا في *باريرا* طيلة بعد ظهر ذلك اليوم، وشاهدنا ستة ثيران وهي تقتل. وطوال الوقت، رحت أراقب وأنصت، وشعرت بالذهول من الأمر كله. وما بين النزالات أخذت أطرّز بطانية بيضاء قطنية للصغير.

قال لي إيرنست عندما شارف اليوم على نهايته: "لقد فاجأتني

"هل فعلت؟"

"لم تتم تنشئتك على نحو يحضرك لمشاهدة شيء كهذا. لقد توقعت أن تضعفي، إنني آسف، ولكن هذا ما ظننته"

"لم أكن واثقة مما ستكون عليه مشاعري، لكنني أؤكد لك الآن أنني متماسكة وبأحسن حال"

كنت قد وصلت إلى نهاية صف من القُطَب، فصنعت عقدة مرتبة ومسطحة؛ تماماً كما علمتني أمي أن أفعل وأنا فتاة صغيرة. وبينما لمست الخيط بين إصبعيّ،

مسرورة بإنجازي، لم أستطع إلا أن أفكر في مقدار الصدمة التي كانت والدتي ستشعر بها لو رأتني في مكان يغلي بالحماسة والعنف مثل هذه الحلبة، ودون أن أتقوقع خوفاً البتة، بل وأنا أستقبل الموقف كشخص طبيعي تماماً.

"عندما كنت صغيرة، كنت لا أعرف الخوف كما أخبرتك سابقاً"

أومأ برأسه موافقاً.

"لكنني عندما فقدت هذه الشجاعة أعتقد أن ذلك أسعد أسرتي"

فقال: "لست أدري إن كنت قد فقدتها يوماً. ها أنا أراها تشع منك الآن"

"إنني أقوى بسبب الجنين. أشعر به يتحرك في أحشائي على وقع المزامير وهدير الحشود. يبدو أنه يحب مصارعة الثيران"

فابتسم إيرنست بكبرياء واضحة قائلاً: "يمكن لأسرة المرء أن تكون شريرة، لكن أسرتنا لن تكون كذلك"

"سيعرف طفلنا كل ما نعرفه نحن. سنكون نزيهين معه، ولن نحجب عنه شيئاً"

"ولن نحط من شأنه"

"أو نرعبه من الحياة"

"يمكن لقائمة الطلبات هذه أن تصبح طويلة جداً، أليس كذلك؟" وضحكنا بسعادة مبتهجين بعذوبة أمانينا.

في وقت متأخر من تلك الليلة التي لم نتمكن فيها من النوم مرة أخرى بسبب الألعاب النارية وقرع الطبول، قال لي إيرنست:

"ما رأيك بأن نسمي الطفل نيكانور؟"

"سيغدو مصارع ثيران متميزاً بهذا الاسم. لن يسعه سوى أن يكون كذلك"

فقال وهو يضمني بشدة بين ذراعيه: "لقد حظينا بقدر من المرح، أليس كذلك؟"

"لم ينتهِ كل شيء"

"كلا، ولكن أعتقد أنه سيتوجب علي الثبات بعد مجيء الطفل. سأجني المال، وسأكون الأب الصالح، ولن يتسنى لي الوقت لأفعل ما أريده"

"ربما في السنة الأولى، وإنما ليس إلى الأبد"

"سنة من التضحية إذاً. وبعدها، سيتوجب عليه أن يختبر حظه معنا"

"نيكانور، للاسم وقع مميز أليس كذلك؟"

"أجل. لكن ذلك لا يعني أن ذلك الشقي الصغير سيحظى بأكثر من سنة من تفرغي

الفصل الخامس والعشرون

أردت بطيخاً أصفر، وقطعة من الجبن الشهية، وقهوة، ووافل شهياً بـــالمربى. كنت جائعة جداً؛ لدرجة أن التفكير في هذه الأطعمة حال بيني وبين النوم.

"وافل" قلت لإيرنست وأنا أتكور باتجاهه وقد كاد الفجر ينبلج، "ألن يكون ذلك بديعاً"

عندما لم ينهض قلت ذلك مرة أخرى بصوت أعلى، وأنا أدفعه بلطف مـــن ظهره.

فإذا به يتقلب على السرير هاتفاً: "يا الله! لقد طارت الآن!"

"ما الذي طار؟"

فنهض ليجلس على حافة الفراش السميك قائلاً وهو يحك ركبته: "الكلمات المناسبة لمسودتي"

فقلت: "أوه، أنا آسفة إذاً"

راقبته وهو يرتدي ملابسه ويتجه نحو المطبخ، وفي غضون دقائق أمكنني سماع صوت آلة القهوة، وشممت رائحتها مما جعلني أتضور جوعاً. سمعته يصب قهوتـــه، ومن ثم سمعت صرير الكرسي وهو يرجعه إلى الوراء ويجلس إلى المائدة. ثم صمت.

ناديته وأنا لا أزال في السرير: "تاتي، ما رأيك بالوافل؟"

فإذا به يتأوه منـــزعجاً، وسمعته يدفع كرسيه إلى الوراء: "ها هي تتبخر كلها مجدداً"

كانت الشهور تمضي بسرعة، فموعد ولادة طفلنا كان في نهاية شهر تشرين الثاني، وقد رتبنا أمورنا كي نسافر بحراً إلى كندا في أواخر شهر آب؛ مما يعطينـــا ستة أسابيع أو سبعة لنعثر على شقة ونهيئ ما يلزمنا. وكلمـــا اقتربـــت الســـاعة

الموعودة ازداد إيرنست توتراً، وانكب على عمله بدأب أكبر. كان مذعوراً من ألا يتاح له الوقت الكافي لإعداد المنمنمات لجين هيب و*ذا ليتل ريفيو*. كان يعمل على خمسة مشاهد جديدة في الوقت نفسه، كل منها تناول بالوصف جانباً من جوانب مصارعة الثيران. وعندما كان يعود إلى المنـــزل من معتكفه حيث يعمل، كثيراً ما احتاج إلى عدة كؤوس من الشراب ابتلعها الواحدة تلو الأخرى قبـــل أن يصـــبح قادراً على إخباري عن عمله الذي كان يمضي على نحو جيد وإنما بدا أنه ينـــهب كل ما لديه من طاقة.

"أحاول أن أبقي المشاهد حية، وأن أحصر الكتابة بالموقف ذاته متجنباً إسقاط مشاعري الخاصة عليه. أحاول ألا أفكر بنفسي على الإطلاق، بل بما حدث فعلاً"

كان هذا واحداً من أحدث أساليبه في الكتابة. ولأن المنمنمات كانت ستضع ذاك الأسلوب موضع الاختبار فقد كان مستميتاً لكي ينجح في كتابتها على النحو الصحيح. شخصياً، لم يكن لدي أدنى شك في أنه سيبرع بها، وأنها ستكون رائعـــة ومثالية، لكن في الوقت ذاته كان من الصعب عليّ رؤيته منهكاً في العمل إلى هـــذا الحد.

على صعيد آخر، كان إيرنست يكد ليثبت جدارته أمام بوب مكالمون. فعلى الرغم من الوقت الشائك الذي أمضياه معاً في إسبانيا، فقـــد وفى بـــوب بوعـــده لإيرنست بأن يطبع له كتاباً في مطابع كونتاكت إيديشنـــز. كان سيطلق علـــى الكتاب اسم *Three Stories and Ten poems* – ثلاث قصص وعشر قصـــائد. وعلى الرغم من أن إيرنست كان يفيض حماسة لهذه الفرصة، إلا أنه كان قلقاً من ألا يتمكن من تصحيح التجربة الطباعية في الوقت المحدد. كان يعمل طوال الليـــل على ضوء الشموع. وعندما أنهى إعداد ملاحظاته جميعها وأرسل كل شيء بالبريد إلى مكالمون كان قد آن أوان الوداع.

في سلسلة من العشاءات المحزنة ودعنا آل ستراتر وآل بوند وسيلفيا وغيرترود وأليس، قائلين لهم في كل مرة إننا سنعود في غضون عام، عندما يصبح الطفل مهيّأً للسفر.

"احذرا ألا يطول بكما الغياب أكثر من ذلك. فالمنفى يثقل على العقل" قال لنا بوند بنبرة متشائمة.

فرد إيرنست: "إنه ليس منفى، أهو كذلك؟"
فتراجع بوند قليلاً قائلاً: "عالم النسيان إذاً"
فدمدم إيرنست: "وصف أخف وطأة"
بعد عشرة أيام انطلقت باخرتنا.

في أوائل شهر أيلول وصلنا إلى الكيبيك، وعند بلوغنا تورنتو ألفينا بانتظارنا رسالة قصيرة حماسية من جون بون وأخرى من غريغ كلارك وهو مراسل صديق لإيرنست، كانا يرحبان بنا في المدينة بحرارة. بدا لي كل ما حولنا يبشر بالخير، لكن عندما ذهب إيرنست ليستلم عمله في العاشر من شهر أيلول، علم أن بون لن يكون رئيسه المباشر كما توقع، وإنما هاري هيندمارش الذي كان مدير التحرير المساعد في مجلة *ستار*. وبعد اجتماع واحد، أدرك إيرنست أن العلاقة بينهما ستكون مضطربة. فهيندمارش كان رجلاً ثقيلاً بجسده وأيضاً بكلماته وأفعاله، وكان يحب أن يلقي بثقله على من حوله.

قال لي إيرنست عندما عاد إلى غرفتنا في فندق سيلبي: "منذ اللحظات الأولى أراد تحجيمي. لم أكن قد قلت ثلاث كلمات عندما قرر أنني لا أستحق الصيت الذي اكتسبته" راح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً مكفهراً ثم أردف: "وماذا عنه هو؟ لو لم يكن متزوجاً من ابنة الناشر لوجدته في قارعة الطريق يكنس الأرصفة"

"إنني آسفة لانزعاجك يا تاتي، لكنني واثقة من أنه سيدرك أنك رائع قريباً"

"أستبعد ذلك. إنه يبدو عاقد العزم على معاملتي وكأنني مراسل تعوزه الخبرة. لذا، لن أحصل على العنوان الثانوي في مقالات المجلة فقط، بل وسيرسلني إلى خارج البلدة"

"متى؟"

"الليلة. طلب إليّ الذهاب إلى كينغستون كي أغطي قصة هروب أحدهم. الرحلة تستغرق خمس ساعات أو ست فقط بالقطار، لكنني أجهل كم ستبقيني تلك القصة هناك ريثما تنتهي"

"هل يعلم هيندمارش أن هذا الطفل قد يطرق الباب في أي ساعة؟"

"لا أعتقد أنه يكترث لذلك"

أرسلت إيرنست في رحلة عمله مع القبلات والكثير من الطمأنات بأن كل شيء سيكون على ما يرام. لقد جعلني أقسم إنني سأجد من يؤازرني في فترة غيابه، وقد فعلت. كان غريغ كلارك متزوجاً من سيدة لطيفة تدعى هيلين، وقد رحبت بحرارة عندما طلبت إليها المساعدة في العثور على شقة. كان المال مسألة ينبغي مراعاتها كما كان حالنا على الدوام، بل وعلى نحو أكبر الآن؛ لأننا نحاول ادخار كل قرش نستطيع ادخاره لأجل الطفل. لذا، لم يكن بمقدورنا استئجار منزل في أحد الأحياء الجميلة التي نصحتنا بها، ولكننا عثرنا على ما يفي بالغرض في شارع باثرست. كانت شقة من طراز مقصورات القطار في الطابق الرابع، تحوي حوض استحمام منفصلاً ذا قوائم، وسرير مورفي الذي يرفع ليحاذي الجدار عند عدم استخدامه في غرفة النوم التي كانت محشورة على نحو غريب بين المطبخ وغرفة الجلوس. وعلى الرغم من أن الشقة نفسها كانت تفتقر إلى الدفء والجاذبية إلا أنها كانت مطلة على ملك آل كونابل.

كان إيرنست على معرفة برالف وهاربيت كونابل منذ أيام الحرب؛ عندما قدم إلى تورنتو سعياً للعثور على عمل في الصحافة. امتلك رالف سلسلة متاجر وولوورث الكندية التي تبيع البضائع رخيصة الثمن، وقد كان من أثرى الأثرياء بالنسبة لنا. وقد أبدى هو وزوجته لطفاً شديداً تجاهي ما إن علما بأننا أصبحنا جارَيْهما، وأنا من جهتي كنت سعيدة للغاية لمعرفتي أن هناك شخصاً ما – أيًّا كان – على مسافة قريبة مني مع اقتراب موعد وضعي للطفل.

عاد إيرنست إلى المنزل من كينغستون متعباً ومنزعجاً، ومن ثم غادر مجدداً ليغطي قصة عن عمل المناجم في سدباري بيزن التي تبعد عن تورنتو ضعفي المسافة التي تبعدها كينغستون. وبالتالي، بالكاد تبقى لديه وقت لكي يزور الشقق ويوافق على التي اخترتها.

"آه يا قطتي، أشعر بضيق شديد لأنني لن أكون هنا كي أساعدك على الاستقرار

"ليس هناك الكثير لتفعله. سأستأجر من يحمل الأغراض إلى الأعلى

"لا أستطيع منع نفسي من التفكير بأن قدومنا إلى هنا كان عملاً سخيفاً. فأنت وحدك طوال الوقت، وأنا أعمل مثل العبيد، ومن أجل ماذا؟ مقتطفات إخبارية من أماكن مجهولة؟ يا لها من خيبة!"

أجبته: "أعلم أنك مرهق في العمل يا تاتي، لكن كل ذلك سيؤتي أكله ما إن يبصر الطفل النور"

"أتمنى من كل قلبي أن تكوني محقة"

"أعلم أنني كذلك، سوف ترى" وقبلته مودعة.

كنت أقوم بذلك إلى حد بعيد لأجل راحتي، فقد كنت موقنة بأن المجيء إلى تورنتو الباردة جداً والموحشة سيؤتي أكله ما إن يولد طفلنا سليم الجسم معافى. حتى ذلك الحين، حاولت ما استطعت أن أجعل مكان إقامتنا الجديد مريحاً. كنا قد أحضرنا معنا صناديق كرتونية من باريس تحوي ثيابنا وصحوننا وصورنا، فاستأجرت عاملة تنظيف وبواباً هرماً ليحملاها عبر الأدوار الأربعة إلى شقتنا. لم نكن نملك الكثير من المفروشات، وخلال الأسابيع الأولى التي أمضاها إيرنست وهو يقطع أونتاريو جيئة وذهاباً مثل مندوب المبيعات، خيّمتُ على سرير المورفي وقد لففت نفسي بالبطانيات بسبب الحرارة التي تنزل درجاتها باستمرار، وقد أوشكت على ختم رسائل أبيلارد وهيلويز.

كنت حريصة على العثور على أي نوع من الإلهاء. مرت أيام لم أنهض فيها إلا لكي أصنع بعض الشاي أو أحشو بطانيات تحت الأبواب وتحت حواف النوافذ، عساني بذلك أدرأ عني البرد الذي يزحف من هناك. كذلك كتبت خطابات إلى الأصدقاء في باريس الذين كنا نفتقد صحبتهم، وإلى الأهل في موطننا في الولايات المتحدة. كانت فوني تحاول أن تستحضر كل السعادة التي في مقدورها إظهارها لي بشأن الطفل، لكنها كانت على شفا الانهيار في عدة نواحٍ. فزوجها رولاند عانى مؤخراً من انهيار عصبي أفضى به إلى مشفى للأمراض العقلية في ماساشوستس للنقاهة.

قالت فوني في إحدى رسائلها وهي تصف الوضع: "إنه واحد من أفضل المرافق التي تُعنى بهذه الحالات، لكن الأطفال مشوشون ويسألونني باستمرار عمّا إذا كان سيعود إلى المنزل يوماً. لست أدري كيف أجيبهم" شعرت بالأسف لأجلهم جميعاً، غير أنني لم أكن متفاجئة من حدوث أمر كهذا. فلطالما كانت العلاقة بينهما متقلقلة، كما كان الحال بين والديّ. وعندما يحط التوتر رحاله لفترة

طويلة بين اثنين فلا بد أن تفلت الأمور من عقالها على نحو ما. كيف لها ألا تفعل؟

كذلك كتبت لوالدي إيرنست، فقد كان وقته أضيق من أن يتمكن من الإجابة على الرسائل التي تأتيه. غير أن شحه مع والديه في هذا المضمار كان يعزى لأسباب أكثر تعقيداً من مجرد انشغاله. فهو لم يرد أن يفسح لهما المجال بأن يُشاركاه على نحو مفرط في حياته، وبشكل خاص والدته غريس. عندما غادرنا الولايات المتحدة متجهين إلى باريس، شعرت بأنه قد أحس للمرة الأولى بأنه حر كفاية لكي يعيد ابتكار نفسه. فوالداه كانا يذكرانه ببداياته وبنشأته التي كان يفضل أن ينفضها بعيداً وكلياً عن كاهله. لقد تفهمت حاجته إلى الاستقلالية. لكن، الآن تفصلنا عن مولد ولادة الطفل أسابيع فقط، ولم يكن إيرنست قد أخبرهما بشيء حول الأمر. وشعرت بأنه يحق لهما أن يعرفا، وهذا ما فتئت أعيده على مسمعيه في كل من المرات الخاطفة التي عرج فيها على المنزل بين المهام التي تسند إليه.

أخيراً قال لي مستسلماً: "سأخبرهما فقط إن كنت مصرة على ذلك. ولكنها ستكون غلطة، فكل ما سيفعلانه هو المجيء متشممين أخبارنا كما تفعل الذئاب"

"إنك لا تعني هذا حقاً"

"تباً، بل أعنيه. هل بمقدورك أن تتخيلي أن والدتي لن تحاول فرض آرائها على كل ما يتعلق بهذا الطفل، مكيلة لنا آراءها ونصائحها التي لا تنتهي؟ لسنا بحاجة إليها. لسنا بحاجة إلى أي كان"

"هي وإد سيرغبان بأي فرصة تلوح لهما لمساعدتنا"

"إذاً فليفعلا، لكنني لن أطلب منهما قرشاً واحداً"

"هذا كلام عادل" غير أنني كنت ممتنة عندما استجابا لبرقية إيرنست بسرعة وبإسراف؛ حيث أرسلا إلينا صناديق ملأى بهدايا العرس خاصتنا التي أودعناها لديهما قبل سفرنا ومفروشات أيضاً من شقتنا في شارع ديربورن. لم يكن أي من تلك الأغراض جميلاً على نحو متميز، لكن امتلاكنا لأشيائنا الخاصة حولنا جعل شقتنا في شارع باثرست لا تبدو مؤقتة كثيراً. وقد وصلت جميعها في الوقت المناسب تماماً.

* * *

مرة أخرى، أرسل هيندمارش إيرنست في مهمة في الأسبوع الأول من تشرين الأول، وهذه المرة كانت لتغطية وصول رئيس الوزراء البريطاني ديفيد لويد إلى نيويورك سيتي.

قلت له وأنا أراقبه وهو يحزم أشياءه للرحلة: "تصرفه أشبه بثأر شخصي"

"أستطيع التحمل على ما أظن. ولكن، ماذا عنك؟"

"قال الطبيب إن لدينا حتى نهاية هذا الشهر، بل وربما حتى بداية تشرين الثاني. ستكون هنا حينها"

"هذه هي الرحلة الأخيرة. سأطلب من جون بون أن يتحدث مع هيندمارش ويقنعه بالتصرف بعقلانية"

"إن أتاه الحديث من بون مباشرة فعليه أن يستجيب له، أليس كذلك؟"

"هذا هو القصد. اعتني بقطيطنا"

"أجل، أعدك بذلك"

"وبالقطة الأم أيضاً"

"سأفعل تاتي، لكن يستحسن أن تسرع. فلن يؤخروا القطار لأجلك"

بعد عدة أيام، في 9 تشرين الأول، اتصلت بي هارييت كونابل لتدعوني إلى العشاء.

قلت لها: "كم أحب ذلك، لكنني ضخمة المقاس الآن إلى حد أن ثيابي كلها لا تناسبني. سيتوجب علي ارتداء مفارش الطاولة"

فردت ضاحكة بلطف: "إنني واثقة من أنها ستبدو بديعة عليك يا عزيزتي. سأرسل لك السيارة حوالى الساعة الثامنة"

في النهاية، كنت في غاية السرور لأنها أصرت، فطوال فترة بعد الظهر كنت أشعر بشيء اعتبرته سوء هضم. لكن بالطبع كان الأمر أكثر من ذلك، فقد كان جسمي يعد نفسه لما هو قادم، ولكنني حاولت تجاهله ظناً مني أنني إن بقيت هادئة ولم أفرط في إجهاد نفسي فسيمتنع الطفل عن المجيء حتى عودة إيرنست. رشفت حسائي اللذيذ بهدوء الفأر، ومن ثم جلست على أريكة آل كونابل الفاخرة المخملية لأستمع إلى هارييت وهي تعزف بحيوية لحن "سأصحبك إلى المنزل اليوم يا كاثلن"، ولم تصدر عني أي حركة، ولا حتى نقرت بقدمي. ولكن، بالطبع كان

الطفل في طريقه لإبصار النور سواء أكنت مستعدة لذلك أم لا، وقد بدا لي ذلك جلياً أكثر فأكثر بمرور ساعات المساء.

"عزيزتي هادلي، لا تبدين على ما يرام" قالها لي رالف بعد أن أضحى غير قادر على تجاهل التعابير الجادة والمرهقة المرتسمة على وجهي.

فأجبته: "إنني على خير ما يرام" كنت عنيدة حتى النهاية، لكنني أجهشت بالبكاء ما إن أنهيت جملتي، وقد فاض سيل مشاعري مدمراً السد المنيع الذي كنت قد بنيته حولها. أصبح الألم هائلاً الآن، فانثنيت إلى الأمام وأنا أبكي.

هتفت هارييت: "يا للفتاة المسكينة! لا تقلقي حيال شيء، سنحرص على أن تتم العناية بك بأفضل ما يمكن

اصطحباني بسيارتهما إلى المشفى، وهارييت تدلك يدي وتصدر أصواتاً مطمئنة ومريحة، فيما نهب رالف الطريق بسيارته بكل عزم وتركيز وضوء الغاز المحترق يومض على إسفلت الطرقات.

"هل بمقدوركما التواصل مع أحد من مجلة *ستار*؟ لا بد من وجود وسيلة لإخبار إيرنست"

فطمأنتني هارييت قائلة: "سنحرك الجبال إن اضطررنا لذلك. لا يزال هناك بعض الوقت حسبما أظن

لكنها كانت مخطئة، فبعد نصف ساعة فقط كنت أرتدي ملابس المشفى، ومستلقية ومغطاة على طاولة العمليات، ويحيط بي الطبيب وعدد من الممرضات الذين راحوا يحثونني كي أبدأ عملية الدفع. هذا كان السبب وراء مجيئنا إلى تورنتو، كي أحظى والطفل برعاية هؤلاء الناس المختصين، وكي يشرفوا على كل شيء. في باريس، كانت ستأتي لنجدتي قابلة، وستغلي الماء على موقدي لتعقم أدواتها. حتى في الولايات المتحدة، كان الأطباء قد بدأوا لتوهم بإجراء عمليات الولادة في المشافي. فوالد إيرنست كان لا يزال يستيقظ في منتصف الليل على اتصالات يطلبونه فيها عندما كان في ميشيغان. وعلى الرغم من أنّ النساء كن يلدن الأطفال في المنازل منذ الأزل، مثل والدتي وحتماً والدة إيرنست، إلا أنني شعرت بأن الوضع سيكون أكثر أماناً بكثير على هذا النحو، وبشكل خاص عندما لم يجدِ دفعي نفعاً على الإطلاق.

مرّت ساعتان من المخاض الأليم، وأنا أحاول دفع طفلي نحو الخارج، إلى أن آلمتني رقبتي وارتجفت ركبتاي من التعب. في النهاية، أعطوني الإيثر فتنفست رائحته الحادة الشبيهة برائحة الدهان وهم يضعون القناع على أنفي وفمي، وشعرت بوخز في عيني. بعدها غبت عن الوعي، ولم أشعر بشيء إلى أن استيقظت من غيبوبتي ورأيت الممرضة تحمل صرة ملفوفة بإحكام. كان ذاك ابني مدثراً بطبقات من الصوف الأزرق. نظرت إليه من خلال دموعي، لقد بدا مثالياً؛ من الثنيات الحلزونية زهرية اللون لأذنه بديعة التكوين، إلى عينيه المغمضتين بإحكام، إلى شعره البني وسالفيه المزغبين. لقد كنت محطمة لأن إيرنست قد فاتته ولادتي، لكن ابننا سالم وآمن وبديع. هذا كل ما يهم.

عندما وصل إيرنست أخيراً في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، كان يلهث وفي حالة من الغضب العارم. كنت وقتها جالسة على السرير أرضع الطفل.

وقف إيرنست عند الباب منهاراً، وراح ينشج بصوت عالٍ وقد غطى وجهه بيديه:

"يا الله! لقد كدت أموت من القلق عليك يا حبيبتي. تلقيت برقية حين كنت في سيارة الصحافة تقول إن الطفل قد أبصر النور وإنه على ما يرام. لكنها لم تأتِ على ذكرك ولا بكلمة"

"هيا يا زوجي الحبيب، هدئ من روعك، فبمقدورك أن ترى أنني بخير. كل شيء سار بسلاسة. تعال وانظر إلى هذا الصغير هنا. أليس رائعاً؟"

اجتاز إيرنست الغرفة نحوي، وجلس برفق على طرف الفراش: "إنه يبدو صغيراً بشكل رهيب. ألا تخشين القيام بخطأ ما؟" وضع إصبعاً واحدة على يد الصغير المليئة بالعروق.

"كنت خائفة في البداية، لكنه في الواقع صلب تماماً. أعتقد أن مصارعة الثيران كان لها تأثير عليه في نهاية الأمر. فقد جاء مندفعاً كمصارع جيد"

"جون هادلي نيكانور هيمنغواي. إنه كامل الأوصاف. وأنت، ألست امرأة متميزة بمضيك في الأمر كله على هذا النحو الممتاز؟"

"أشعر بأنني متماسكة على نحو مفاجئ. ولكن، ماذا عنك يا تاتي؟ تبدو مريعاً، ألم تنم على متن القطار؟"

"حاولت، ولكن شعوراً فظيعاً بأنك كنت في خطر منعني من النوم"

"لقد كنت في رعاية أيد أمينة. فالزوجان كونابل كانا متعاونين وعطوفين جداً، إننا مدينان لهما بالكثير"

"لعلنا كنا محقين في قدومنا إلى تورنتو في النهاية"

"بالطبع كنا كذلك. أخبرتك أنه سيكون فعلاً منطقياً تماماً"

"إنني متعب جداً، وأكاد أسقط على الأرض

"نم إذاً" وأشرت إلى كرسي في زاوية الغرفة.

"سيتساءل هيندمارش عن مكاني"

"دعه يتساءل. أنت أب جديد"

"أتصدقين ذلك؟"

ابتسمت و لم أجبه، فيما تكوّر تحت بطانية وغرق في سبات عميق. كنت أفكر في نفسي وأنا أشعر برضا عميق: *باتا رجلين الآن. وكلاهما لي.*

الفصل السادس والعشرون

أرسل إيرنست لاحقاً في ذلك الصباح عدداً من البرقيات يقول فيها إن الأمور سارت بشكل رائع. لقد شعر بفخر شديد بالسرعة التي أنجبت فيها الوليد، وكنت أنا أيضاً راضية عن نفسي. صحيح أنني تلقيت مساعدة من الأطباء كما ساعدني المخدر، كل هذا صحيح، ولكنني تحملت المحنة بشجاعة مثل بطل رواقي، فضلاً عن كون إيرنست بعيداً مئات الأميال عني.

عندما غادر متجهاً إلى عمله، كان يحضر نفسه ليتلقى توبيخاً من هيندمارش، ولكنه قوبل بما كان أسوأ مما يتوقع. إذ لم ينتظره هيندمارش في مكتبه، وإنما أهانه بحضور الجميع قائلاً إنه كان ينبغي عليه أن يرسل قصته للنشر قبل الذهاب إلى المستشفى. كان هذا مطلباً سخيفاً بالطبع؛ ولكن حين روى لي إيرنست القصة في ذلك المساء، بعد أن أعاد تنظيم الأمور كلها مع غريغ كلارك أثناء احتسائهما عدداً من الكؤوس في أحد المقاهي كان لا يزال غاضباً ومجروحاً.

"لقد انتهت تورونتو بالنسبة لنا. لا يمكننا البقاء هنا" لم يكن الشراب قد هدأ ثائرته كثيراً، وقد خشيت أن تدخل الممرضة وتخرجه قبل أن أكون قد سمعت القصة كلها.

"هل الوضع حقاً غير قابل للإصلاح؟"

"بل أكثر من ذلك بكثير. كنا كلانا نشتعل غضباً. لم يوفر ذلك الأخرق شيئاً و لم يقله، وأنا أيضاً قلت أشياء سيتكلم الناس عنها غالباً لسنوات قادمة"

"أوه يا عزيزي، هل طردك؟"

"بل نقلني إلى مجلة ويكلي. ولكن ذلك لا يعني أنني سأقبل المركز الجديد. أخبريني، متى تعتقدين أن بمقدورك السفر مرة أخرى؟"

"سأكون بخير خلال بضعة أيام، لكن الوليد لن يتمكن من الإبحار حتى بعد شهور، ويتحتم علينا أن نصمد خلالها"

"بودي لو أقتل ذاك الأحمق. قد يحل ذلك المشاكل كلها"

"ولكن، ليس لمدة طويلة"

قطب جبينه وهو يسحب الكرسي على الأرض محدثاً صوتاً عالياً، وارتمى عليه جالساً، ثم سأل: "على كل الأحوال، أين هو ابننا الصغير الرائع؟ أريد أن ألقي نظرة أخرى عليه"

قلت: "إنه نائم في الحضانة. وأنت أيضاً يجدر بك أن تنام. اذهب إلى البيت تاتي، وسنواجه الأمر في الصباح"

"ماذا سنواجه؟ لقد انتهى كل شيء، لقد أخبرتك بذلك"

"لا تفكر في الموضوع. فقط اذهب الآن وتناول شيئاً من البيكاربونات، وإلا سوف تستيقظ وأنت تشكو من ألم شديد في الرأس

لم نقفل عائدين إلى باريس على الفور. والسبب الوحيد هو أننا لم نكن قادرين على فعل ذلك. فقد كان الطفل فعلاً صغيراً جداً على السفر، وكنا سنستنفد مدخراتنا كلها بالانتقال. كنا على وشك الإفلاس، علاوة على كم من فواتير المشفى. لم يكن هناك ما يمكن فعله سوى أن نرضخ ونتحمل. لقد قبل بقرار نقله إلى مجلة ويكلي، ورغم من أنه لم يعد يعمل مباشرة تحت إمرة هيندمارش، إلاّ أنه كان لا يزال يشعر بثقل وطأة الرجل على كاهله. ففي كل مرة كان يتلقى فيها مهمة حقيرة كان يتساءل عمّا إذا كان هيندمارش وراءها؛ كما حدث حين أرسل إلى حديقة الحيوانات في تورونتو للترحيب بوصول طاووس أبيض.

"طاووس يا هادلي! إنهم يحاولون قتلي. والموت نتيجة الإهانة هو أقبح أنواع الموت"

قلت: "ربما، ولكنهم لن يستطيعوا، فأنت أقوى من ذلك بكثير

"لست واثقاً جداً من ذلك"

حط فصل الشتاء رحاله في تورونتو مع ثلوجه ورياحه التي هبت عاصفة فهددت بإلقائنا أرضاً. فإذا كان شتاء باريس رطباً ورمادياً فهو دائماً شديد البياض هنا. اخترقت الريح المعاطف والبطانيات بكل يسر، وشقت طريقها إلى كل ركن من شقتنا حيث خيّمتُ أنا وطفلي أمام المدفأة المشعة. كنت أغلي الماء لأحافظ على الرطوبة في الهواء، وأرتدي معطف إيرنست حين أرضع الصغير. لم آخذ الطفل إطلاقاً إلى الخارج، واستأجرت خادمة لترعاه حين يتوجب علي الذهاب للتسوق. كان إيرنست يعود إلى البيت كليلاً كل مساء بعد هبوط الظلام، ومستنفد القوى، ومرهقاً على الدوام.

كان العجب يتملك إيرنست من إنجازات الطفل الصغير الجديدة حين أنقلها له - كابتسامته لي في الحمام، وكيف يرفع رأسه مثل بطل - غير أنه كان من الصعب على إيرنست أن يشعر بالبهجة حيال أي أمر في الوقت الراهن.

عبّر لي عن ألمه قائلاً: "لا يمكنني تخيل كيف سأمضي عاماً بهذا الشكل"

فأجبته: "أعرف أن ما سأقوله سيبدو مستحيلاً الآن. ولكن، حين نتقدم في السن حتى ترتعش أطرافنا، سوف تبدو لنا هذه السنة كلمحة بصر

"ليس الإحراج من بذل جهد كبير على قصص أدنى من مستواي بكثير ما يؤرقني، فهذا لا شيء. لكن المشكلة تكمن في عدم قدرتي على العمل على مواضيعي الخاصة، في حين أن هذا هو كل ما أطمح إليه. إنني أشعر بأن المواد تفسد في داخلي، وإن لم أخطها سريعاً فسوف أفقدها إلى الأبد"

"اسهر واكتب الآن، سأعد لك بعض القهوة"

"لا يمكنني، فأنا مرهق إلى حد يتعذر علي معه التفكير. تأتيني الأفكار أحياناً في الصباح، ولكن ما إن أحاول الكتابة حتى يبكي الصغير أو يحين وقت الذهاب إلى العمل. وفي نهاية اليوم تكون الكلمات قد تلاشت. ونحن بعيدون جداً عن كل شيء هنا أيضاً. فأنا لا أعرف من يكتب عن ماذا، أو المواضيع السائدة"

"صحيح، ولكنك عقدت بعض الصداقات، فأنت ترتاح لغريغ كلارك، وهذا شيء رائع"

"نعم، أنا أستلطف غريغ، ولكنه لا يلاكم ولا يفقه شيئاً عن سباق الجياد. كما أنني لم أره يوماً ثملاً"

"ليس الجميع يحتسون الشراب مثلك، تاتي"

"مع ذلك، لا أزال لا أثق بإنسان لم أر أفعاله وهو ثمل"

مر شهر تشرين الثاني ودخلنا شهر كانون الأول ومزاج إيرنست يسوء بشكل مثير للقلق. فقد كان لا ينال قسطاً كافياً من النوم ليلاً، وزاد الوضع سوءاً استيقاظ الطفل ليلاً. كانت نسخ كتابه *ثلاث قصص وعشر قصائد* *Three Stories and Ten Poems* قد وصلت، وأرسل إيرنست عدداً منها لإيزرا وغيرترود وسيلفيا، وأرسل نسخاً عديدة أخرى إلى أسرته في أوك بارك، ثم جلس ينتظر المديح. كان يمشط الصحف والمجلات يومياً متلهفاً لقراءة مراجعة عن الكتاب، غير أن جل ما عثر عليه لم يكن سوى تنويه بوجود الكتاب. إذا لم يعرف العالم بالكتاب فهل حدث الأمر فعلاً؟ كان يمتلك نسخة جين هيب ليتل ريفيو تحوي منمنماته عن مصارعة الثيران. وفي بعض الأحيان، كان يقلب الصفحات مقطباً جبينه قائلاً: "لست واثقاً من أنني الكاتب نفسه الذي أنتج هذه. يا للجحيم! أنا لن أكتب أبداً"

لم أتمكن من إخباره بأنني أعتقد أنه كان يتصرف على نحو درامي مبالغ فيه، لأنه كان حقاً يشعر وعلى نحو عميق بفقدانه حياته ككاتب.

كان يحتاج إليّ لأمنحه الدفء والمحبة، وليشعر بأنه على أرض ثابتة، ويحتاج إلى عمله ليحافظ على سلامته العقلية. ذاك جانب لم أستطع أن أقدم له العون فيه. كل ما أمكنني فعله هو مراقبة أحوالنا والشعور بالانزعاج لأن حياتنا باتت منسوجة بالقلق في وقت كان ينبغي أن نكون فيه في غاية السعادة.

"لقد كان قدومنا إلى هنا خطأً فادحاً" قال لي في إحدى الليالي بعد أن عاد إلى البيت في حالة ذهنية مخيفة. لم أستطع تحمل رؤيته يصارع آلامه لمدة أطول، فقلت: "أنت محق، لقد كان القدوم إلى هنا خطأ. سنرجع إلى باريس، ويمكنك أن تمنح طاقاتك كلها لكتابتك"

"كيف سيكون بمقدورنا تحمل نفقة ذلك؟"

"لست أدري، ولكننا سنفعل

"وديعتك الائتمانية تعود علينا بألفي دولار سنوياً. ودون الدخل الذي أؤمنه لست أدري كيف يمكن أن نتدبر أمورنا"

"إن لم تستطع الكتابة فسأغدو أنا والطفل عبئاً عليك، وسينتهي الأمر بأن تستاء من وجودنا. كيف يمكننا العيش هكذا؟"

"نحن في مأزق من دون شك"

"دع عنا التفكير من هذا المنظور. يمكن أن نعتبر الأمر مغامرة؛ مراهنتنا الكبرى. وربما سنخرج من المحنة ونحن في القمة بعد كل شيء"

"لست أدري ماذا كنت سأفعل بدونك هادلي"

"اشتر بطاقات السفر. سأراسل والديك من أجل النقود، فهما يرغبان بالمساعدة"

"إنهما يريدان أن يمنا علي. لن آخذ المال منهما"

"إذاً، لا تفعل. أنا من سيأخذ المال؛ من أجل الطفل الصغير"

"ما رأيك بأن أعمل على سلسلة أخيرة لمجلة *ويكلي*؟ يمكنني أن أقتل نفسي بالعمل لأحصل على ثماني مقالات أو عشر وبعدها أستقيل. بهذا المبلغ وبشيء من أوك بارك قد يصبح معنا ألف دولار لنؤمن انتقالنا. ألف ومعها دعاء"

"ينبغي أن يكفينا هذا تقريباً لإنجاز المشروع"

بعيد بداية كانون الثاني بقليل من عام 1924، وما إن اعتقدنا أنه بمقدور رضيعنا أن يسافر بأمان حتى استقللنا القطار إلى نيويورك، ومن ثم ركبنا الباخرة *أنتونيا* المتجهة إلى فرنسا. بدأنا ننادي طفلنا الصغير باسم بامبي نظراً لاستدارته ومتانته كدب محشو. لففته بعناية بالبطانيات على ظهر السفينة، وتحدثت معه وتركته يلعب بشعري، في حين لم يدخر إيرنست أي شخص يلتقيه ليبثه حنينه إلى باريس.

كان بودي البقاء في تورنتو لعام أو لخمسة أعوام أو أي مدة كفيلة بأن تؤمن لبامبي المأوى الجيد؛ ولكن هذا لم يكن ليكلفني كما سيكلف إيرنست. بعض الرجال قادرون على تجرع المر وابتلاعه لفترة من الزمن، ولكن إيرنست كان سيفقد نفسه تماماً هناك. أما في باريس فلم يكن هناك أحد يتوقع كيف ستكون أمورنا، ولكنني لم أستطع القلق حيال ذلك. لقد كان إيرنست بحاجة لأن أكون قوية الآن؛ من أجلنا كلينا، وسأكون كذلك. سأتحمل الوضع الصعب. سأفعل

ذلك من دون أي امتعاض لأنه كان خياري في نهاية المطاف. لقد اخترته هو؛ الكاتب في باريس. لن نعيش أبداً مرة أخرى حياة تقليدية.

الفصل السابع والعشرون

"أعلم أنه كان من المفترض أن نغيب سنة" قال إيرنست لغيرترود في زيارتنا الأولى لها في شقتها بعد عودتنا. ثم تابع: "لكن أربعة شهور في كندا تعادل عاماً كاملاً"

أجابته غيرترود: "لقد انتهيت من الصحافة وهذا هو الشيء الأهم. وحان الوقت الآن للعودة للكتابة عن الأشياء التي تحب الكتابة عنها"

فقال وهو يسكب لنفسه كأسا أخرى من الشراب: "أقسم بالله إنني جاهز لذلك"

راقبت أليس حين انبرى الاثنان يدعمان بعضهما بهذه الطريقة ويرفدان بعضهما بالثقة والحماسة، فبدت لي في حالة من الضيق والانطواء على النفس. وتساءلت عمّا إذا كانت سعيدة لرؤية إيرنست قد عاد، وعمّا إذا كانت قد اعتادت الاستئثار بغيرترود في فترة غيابنا. من المسلم به أن هناك على الدوام من يحوم حول غيرترود ليلفت انتباهها ويحظى بآرائها، لكن الأخيرة وإيرنست كانا يمتلكان شيئاً عميقاً خاصاً، كما لو كانا توأمين لهما لغة خاصة، وقد جعلا من الأشخاص حولهما نكرة، بينما لا يسمع كل منهما سوى الآخر تقريباً. شعرت بذلك أيضاً. وبالرغم من أنني تألمت في بعض الأحيان من قوة ارتباطهما، إلاّ أنه بالكاد يمكنني أن أتذكر أن شعوراً بالوحدة قد انتابني. فالطفل الصغير كان يحتاج إليّ ويستجيب لي بشكل كامل: إنه يلتفت باتجاه صوتي، ويشعر بهدهدة ذراعي له، ويرتاح للطريقة التي أرعاه فيها وأدلك بها ظهره حين يستيقظ ليلاً. كنت أساسية بالنسبة له وبالنسبة لإيرنست أيضاً. فقد بت أنا من تسيّر الأمور كلها الآن.

يمكن للأمومة أن تكون مرهقة، هذا ما لا شك فيه. فقد كنت على الدوام محرومة من كفايتي من النوم، وأحياناً لم تكن لدي القدرة على أن أغسل شعري أو أن أتناول من الطعام سوى الخبز والزبدة.

ولكن، حين كان بامبي يرضع، كان يمسك ثوبي بقبضة يده، ويثبت عينيه اللطيفتين وعميقتي النظرات عليّ؛ ناظراً إلى عينيّ كما لو كنت القلب النابض لعالمه، و لم أكن أملك حينها سوى أن أذوب حباً فيه. وحين يعود إيرنست إلى البيت بعد يوم طويل قضاه في العمل وفي عينيه تلتمع تلك النظرة التي تخبرني أنه أمضى وقتاً طويلاً وحيداً مع أفكاره كنت أشعر أنه هو أيضاً يحتاج إليّ. وكان من الضروري أن يجدني وبامبي كذلك إلى جواره كي يخرج من عزلته النفسية ويشعر مرة أخرى أنه بخير.

سارت حياتنا الأسرية بشكل واضح وسلس طالما كنا وحدنا؛ ففي نهاية النهار، حين يلتئم شملنا مرة أخرى وندعم بعضنا بعضا. لكن هذا كان يتعارض مع حياة باريس البوهيمية. فقد كانت غيرترود وأليس لطيفتين مع بامبي فأهدتاه خشخيشة من الفضة اللامعة، وحذاء أطفال محبوكاً. وأحضرتا شراباً تناولناه مع كعك الشاي والفواكه المجففة واللوز بالسكر، حتى إن غيرترود وافقت على أن تكون راعيته. ولكن، لم يكن جميع أصدقائنا قادرين على معرفة كيفية التصرف معنا الآن وقد بتنا نجر في ذيلنا طفلاً صغيراً. فبوند وشيكسبير كانا يرغبان بزيارتنا في شقتنا لتناول مشروب في وقت متأخر من الليل، أو بلقائنا في المقهى إن وجدنا من نترك بامبي في عهدته أثناء غيابنا. لكن بوند قال بكل صراحة إن الأطفال غير مرحب بهم في الاستديو الخاص به. ليس بسبب الضجة أو الفوضى التي قد يحدثها، وإنما من حيث المبدأ، وحسب قوله حرفياً: "أنا لا أحب الأطفال. أنا لا أقصد الإهانة هادلي"

لقد ساعدنا بوند على إيجاد شقتنا الثانية في باريس، وهي مهمة ليست بالسهلة. إذ كانت قيمة الدولار تهبط مقابل الفرنك الفرنسي، وكان غباء منا عدم توقع ذلك. في الماضي، تمكنا من العيش بتكلفة رخيصة جداً، واعتقدنا أننا سنتابع بالطريقة نفسها مع ثلاثة أفواه بدلاً من اثنين، غير أن الإيجارات ارتفعت بشكل جنوني. وحين وجدنا شيئاً قد يفي بالغرض، كان إيجاره ثلاثة أضعاف ما كنا

ندفعه في كاردينال لوموان، ولكن كان لا بد لنا من أن ندفع. فسلمنا إيجار الشهر الأول مع غصة، وركنا عربة الأطفال الخاصة ببامبـي في الباحة إلى جانب كومة من الفحم. وسميناه منـزلنا.

تلك كانت شقة المنشرة الواقعة في شارع نوتردام دي شان، أو "مخزن النجارين" كما صار يحلو لبعض أصدقائنا تسميتها. كان الغبار والضجة المنبعثان من ساحة قطع الخشب ونشره يفوقان قدرة المرء على التحمل أحياناً، ولكن موقعها كان أفضل بكثير مما كانت عليه شقتنا فوق قاعة الرقص. إذ كانت قريبة جداً من شقة غيرترود وآليس، وحدائق اللوكسمبورغ، وأيضاً على مرمى حجر من بوليفار مونبارناس والكثير من المقاهي الممتازة.

على الرغم من أن إيرنست كان قديماً يشعر بالاشمئزاز من عمل الكتاب في المقاهي واصفاً إياهم بالزيف وحب الظهور، إلا أنه هو نفسه بدأ الآن يتردد عليها. كان ذلك عملياً إلى حد ما؛ لأنه يحتاج إلى الهدوء والسلام في وقت بدأت فيه مرحلة التسنين لدى بامبـي، وغالباً ما كان سريع الاهتياج. ولكنه ما إن بدأ يعمل في مقهى كلوزريه دي ليلا بصورة منتظمة حتى فوجئ بنفسه يفضل العمل هناك على أن يقبع في غرفته وحيداً ويكد في العمل بصمت، كما كان يقول. فهو أكثر دفئاً وسحراً أيضاً، ويمكن لأصدقائه أن يجدوه بسهولة إذا رغبوا برؤيته، كما أن هناك دوماً أشخاصاً مبهجين يتجاذب معهم أطراف الحديث، أو يحتسي الشراب معهم حين ينتهي من الكتابة.

أحياناً، كان يتحدث عن الشروع برواية جديدة، لكنه لم يجد بعد الفكرة المناسبة. واتضح له أكثر فأكثر أن المسودة التي فقدت في الحقيبة مع المخطوطات الأخرى لم تكن هي أيضاً تمثل الرواية المنشودة؛ بغض النظر عن مقدار الجهد الذي بذله فيها، وعن مدى رغبته في أن تكون كذلك. ومع ذلك، كان لا يزال غير مستقر الرأي حول الالتزام مرة أخرى بعمل ضخم ويستنفد الوقت. كان يرغب بالانتظار، وفي غضون ذلك سيكتب القصص. إذ قال لي: "قصة واحدة تكرس كل ما أعرفه؛ كل ما أعرفه يقيناً ويسكن جوارحي وأعماق نفسي

حين قال ذلك تساءلت في سري عن الشيء الذي كنت *أنا* أعرفه يقيناً بالمعنى الذي رمى إليه، وكانت إجابتي الوحيدة إيرنست وبامبـي وحياتنا معاً. كانت

فكرة مخجلة وعفا عليها الزمن، كنت أعرف ذلك، ولو أنني أسررت بـــذلك لأي من النساء في أحد مقاهي مونبارناس فسأغدو موضع سخرية، وسيضحك علـــيّ كل من في الشارع. إذ يفترض بـــي أن أملك أفكاري وطموحاتي الخاصـــة، وأن أكون متلهفة على نحو لا يصدق لتكوين الخبرات في الميادين كافة. ولكنني لم أكن كذلك، بل كنت سعيدة وراضية بحياتي.

لم تكن غاية بعينها ما يملأ حياتي، بل أضحت أيامي أكثر غنى وأكثر منطقية. لقد كان بامبـــي يمثل الجمال عينه بالنسبة لي، وحين كنا نتمشى يومياً، مرتين كل يوم، كان المعجبون به يوقفوننا ويتجاذبون معنا أطراف الحديث. وصحيح أن لغتي الفرنسية كانت متلعثمة كعهدها دائماً، لكن طفلاً صغيراً وسعيداً يشـــكل علـــى الدوام الباعث الأمثل لبدء محادثة؛ حتى إن كانت أحادية الجانب بشكل رئـــيس. تغريده في السوق كان مراراً سبباً في إهدائنا تفاحة أو إجاصة. وحتى عندما كنت أصطحبه إلى المقهى أحياناً للقاء إيرنست كي نتناول وجبة طعام معاً كان بامبـــي يكسب ود الجميع. ربما كان بعض أصدقائنا مرتبكين حياله نوعاً ما، ولكن الغرباء كانوا دائماً مفتونين به.

غادر الزوجان بوند إلى رابالو كعادتهما في هذا الربيع أيضاً. ولكن، حتى من تلك المسافة البعيدة، سعى إيزرا إلى أن يحصل لإيرنست على وظيفة مـــع فـــورد مادوكس فورد كنائب رئيس التحرير في *ترانس أتلانتيك ريفيو*. كان مكتب فورد محشوراً ومعتماً وواقعاً في منطقة الكي دانجو. وفي مطلع شباط، وطئـــه إيرنســـت بحذائه المهترئ وسترته البالية ذات الشق الصغير على كتفه ليستلم إدارته. لم يكـــن هناك مال ليجنيه من عمله هناك، ولكنه أراد أن يكتسب خبرة في التحرير، فضـــلاً عن إنشاء العلاقات. رغم ذلك، لم يكن بإمكانه أن يطلع فورد على نواياه لأنه لم يكن يتحمل ألا تكون له اليد العليا، وبصورة خاصة عندما يستحيل على المـــرء أن تكون له اليد العليا. حظيت رواية فورد ***The Good Soldier*** باهتمام طيب. وكان قد كتب روايات أخرى أيضاً، ونشر أعمالاً لييتس، وتوماس هاردي، وجوزيـــف كونراد، وغيرهم في مجلة كان قد أسسها سابقاً ودعاها ذا إنغليش ريفيو. كل هذه الأمور كانت سيئة بما فيه الكفاية، لكن ما زاد الطين بلة هو أن فورد كان شخصاً

مهذباً يملك المال والنسب؛ وهما أمران لم يمتلك إيرنست أي صبر تجاههما. لذا عاد من الاجتماع وهو يدمدم حول ذوق فورد الذي كان يميل بصورة حادة لما هو رجعي إلى درجة كاد يسقط معها على ظهره.

علقت قائلة: "إذاً، الرجل لم يكن مع الحداثة. ولم ينبغي أن يكون الجميع معها؟ فأنا لست كذلك"

"كلا، أنت لست كذلك، قطتي الصغيرة. ولكنك جميلة جداً وطيبة، وإضافة إلى ذلك أنت أم ممتازة من الطراز الأول. أما ذاك الشخص فورد فممتلئ عجباً بنفسه وبأفكاره. وهو يصفر حين يتكلم، وحاله سيئة جدًّا إلى حد يحسب معه المرء أن أواخر كلماته يجب أن تسبح عبر رئتيه قبل أن تصل إلى فمه"

"يا الله يا تاتي! أرجوك أخبرني بأنك قد قبلت الوظيفة على أي حال"

"بالطبع فعلت" وابتسم ابتسامة عريضة ماكرة، ثم انثنى ليقرص إحدى قدمي بامبي تحبباً ثم قال: "أتظنين أنني مجنون؟"

حين التقيت فورد ملت للإعجاب به رغم كل ما قاله إيرنست عنه. فقد دعانا هو ومعشوقته الرسامة ستيلا بووين للغداء، وسررت حين علمت أن لديهما طفلة صغيرة أيضاً. كانت طفلة محببة صغيرة بعمر بامبي تقريباً واسمها جوليا. لم أصطحب بامبي معنا مراعاة لمضيفينا، ولكنني أخبرت ستيلا بأنني سأحضره في المرة القادمة، فشجعتني بحرارة على أن أفعل، وعلى أشياء أخرى أيضاً؛ إذ قدمت لنا غداء من أربعة أصناف، وأشركتني في الحديث بلهجتها الأسترالية الفاتنة. كان فورد متورد الوجه، وممتلئ الجسم، وذا خصل شعر شقراء وشاربين، مما دفعني في البداية إلى التساؤل حول كيفية تمكن فورد وهو رجل في أواسط العمر من كسب ود امرأة رائعة مثل ستيلا. ولكنه سرعان ما كشف عن تصرفات راقية، وتكلم بجاذبية مقنعة حول كل شيء كان يهتم به، بما في ذلك الشراب الجيد، والحساء بالكريما، والأدب؛ وبالتأكيد ستيلا.

أكد فورد خلال الغداء كله مدى اهتمامه وحرصه على مساعدة الكتاب الشباب مثل إيرنست حتى يشقوا طريقهم. كنت أعلم أن إيرنست كان يفضل ألا يحتاج إلى مساعدة فورد أو أي شخص غيره، ولكنه في الحقيقة كان يحتاج لهذه المساعدة.

قال إيرنست بعد أن ودعناها واتجهنا إلى بيتنا: "يمكنني أن أحقق الكثير لهذه المجلة. وينبغي أن يكون ممتناً لأنني سأعمل لديه"

"أنا معجبة به"

"طبعاً أنت معجبة به"

"ماذا تقصد بقولك هذا؟"

"لا شيء" وصادف حجراً غير ثابت فركله إلى الشارع.

"ألا تعتقدين أنه يبدو مثل حصان البحر؟"

"بلى، بعض الشيء"

"والصفير؟"

"ذلك شيء خطير، أليس كذلك؟ قالت ستيلا إنه أصيب به نتيجة هجوم بالغاز في الحرب"

"يمكنني أن أسامحه عليه إذاً، ليته لم يكن متعالياً جداً"

"لست ملزماً بأن تحبه. فقط قم بعملك"

"يوجد كم كبير من العمل. أعتقد أن هذا من حسن حظي

"العمل الكثير هو بالفعل حظ طيب يا تاتي وسوف ترى"

اعتاد فورد وستيلا أن يشربا الشاي كل خميس في لقاء الشاي الأدبي في الكي دانجو. وغالباً كنت أذهب إلى هناك طلباً للصحبة وآخذ بامبي معي أيضاً، فأوقف عربته في أي مكان تدخله الشمس من خلال النوافذ. وفي أحد لقاءات الشاي الأدبية، اجتمعت للمرة الأولى بهارولد لوب الذي بدا بعمر إيرنست وكان ذا مظهر رائع، وطويل القامة، وذا أنف حاد ومستقيم، وذقن قوي وأمواج هائلة من الشعر غامق اللون. وما إن قدمنا فورد لبعضنا حتى انطلقنا نتحدث عن الولايات المتحدة.

قال: "إنني لا أفتقد الوطن بشدة، ولكن يبدو أنه لا يمكنني التوقف عن رؤيته في أحلامي. وأتساءل عن تفسير لذلك؟"

قلت: "إنه جزء منك، على ما أظن، وهو مختبئ في مكنونات نفسك. أليس كذلك؟"

قال وهو يحدق بـي بعينيه الزرقاوين بنظرة صافية ومركزة: "هـذا تعليـل لطيف. إذاً، هل أنت كاتبة أيضاً؟"

ضحكت وقلت: "ليس تماماً. وإن كنت أظن أنني لست سيئة جداً في ذلك. لطالما كنت شغوفة بالكتب وأحس أنها تتحدث إلي. وعزفت على البيانو منـذ أن كنت طفلة، ولكن ليس بالجدية الكافية"

قال هارولد: "أنا لست واثقاً من أنني أكتب على نحو جاد. في الواقـع، أنـا أحاول جهدي أن أكون مضحكاً"

"باعتقادي، ستكون هزلياً جداً إن ركزت وصممت على ذلك"

"رائع منك أن تقولي ذلك. هيا أخبري كيتي فهي تعتقد أن نكاتي كلها ذات مستوى متدنٍّ"

قطعنا القاعة معاً لنلتقي صديقته، كيتي كانيل التي كانت جميلة حقاً، وممشوقة القوام، ورشيقة، وبهية الطلعة.

قال: "كيتي كانت راقصة محترفة، وإذا تحركت لتحضر مزيداً من الشـراب فسوف يتبين لك ذلك على الفور"

قالت: "ماذا بك هارولد؟ رجاء لا تحاول أن تكون جذاباً"

"أترين يا هادلي؟ علي أن أكون دوماً صارماً مع كيتي، وإلا فإنهـا سـتفقد صبرها معي" ورسم تعابير مضحكة على وجهه فضحكت كيتي وظهرت أسنانها الجميلة، فيما تابع هارولد: "وفي بعض الأحيان تفـاجئني تمامـاً هـذه الطفلـة الغالية"

فقالت له: "لهذا السبب أنت تبقيني حولك"

فأجاب: "بسبب ذلك، وبسبب كاحليك الجميلين يا حلوتي"

أمضيت ساعات بعد الظهر مع هارولد وكيتي، ووافقت بسرور على دعوتهما لي ولإيرنست لتناول العشاء في مساء اليوم التالي في ذا نيغر دو تولوز.

قالت كيتي: "إنه مكان سري رائع، ولن تجديه في دليل المدينة"

قلت: "أقسم بألا أتفوه بكلمة عنه" ثم بدأت أتساءل عما عساي أرتـدي. وظللت على هذا الحال من الحيرة إلى أن حل موعد ذهابنا لتناول العشاء في المساء التالي. كانت قد مضت خمسة شهور على ولادة بامبـي، وصـحيح أن ملابـس

الحمل باتت واسعة جداً علي، إلا أنني لم أتمكن من حشر نفسي في أي من ملابسي التي كنت أرتديها قبل الحمل نظراً لضيقها علي.

قال إيرنست: "لا أحد ينتبه أو يهتم. في الواقع، يمكن أن تذهبي مرتدية كيساً قماشياً وتفتني الجميع"

"كلا، لا يمكنني. قد لا تعير أنت الملابس أي اهتمام"، وأومأت إلى سترته المرقعة وقميصه اللذين شكلا لباساً موحداً ارتداه في الليل والنهار دون مراعاة لموضة أو ذوق، "لكن الناس بصورة عامة يهتمون، ويرغبون في أن يتركوا انطباعاً جيداً لدى الآخرين

"يبدو بكل وضوح أنك أحدثت هذا الانطباع. ولكن، إذا كنت ترغبين فسأخبرهم أنني استمعت بكل انتباه لكلام غيرترود التي لطالما قالت إنّ شراء المرء الصور أفضل من شرائه الملابس

"هي تقول ذلك فعلاً، ولكننا لا نشتري الصور، أليس كذلك؟" وقطبت حاجبي وأنا أنظر لنفسي في المرآة.

قال لي إيرنست: "لا تنزعجي يا قطتي" وجاء من ورائي ليطبع قبلة على مؤخر رقبتي ويقول: "ليس هناك من هي بجمالك واستقامتك وبساطتك" والتقت عيناه عيني على صفحة المرآة، فتابع قائلاً: "أنت عذبة إلى حد بعيد، ألست كذلك؟" وقبلني مرة أخرى، ودفعني بصرامة خارج الباب. في نهاية الأمر، كان المطعم خافت الإضاءة، ووجدت أنني لا أسيطر على وعيي بعد انتهاء زجاجة الشراب الأولى. وفيما تبادل الرجلان الحديث عن برينستون حيث درس هارولد وبدأ خربشاته في رواياته الأولى (كان هارولد يعمل على روايته وقتها)، دخلت وكيتي في محادثة حميمية مفاجئة حول زواجها الأول من سكيبويث كانيل؛ الشاعر الذي جعلها تعيسة على ما يبدو، ثم رفض أن يطلقها.

"ما أقسى هذا الوضع عليك! كيف ستتزوجين مرة أخرى؟"

"عزيزتي، لن أتزوج مرة ثانية إطلاقاً. حمداً لله أنني وهارولد متفقان حول هذا الأمر. ولكنني لا أحبذ أن أكون مكبلة بسكيب العمر كله. كان الوضع صعباً كفاية حين كان قريباً. والآن هو يجعجع ويقعقع ويشوشني طيلة الطريق من لندن"

"إذاً، الحرية هي مبتغاك"

"رباه أجل. أليس الحال نفسه بالنسبة لك؟"

"لست أدري. أريد أن أكون سعيدة على ما أظن"

"السعادة معقدة بشكل رهيب، ولكن الحرية ليست كذلك. فأنت إما مقيدة أو غير مقيدة"

"إلقاء اللوم على الزواج لا يحل المشكلة. ما إن تحبي شخصاً ما حتى تجدي نفسك مقيدة به. وهو ما لا يمكن تفاديه؛ إلا إذا كنت ستكرسين نفسك لحياة خالية من الحب"

قالت: "حتى *أنا* لست عنيدة إلى هذه الدرجة" ثم ضحكت ورفعت كأسها وهي تقول: "هيا إذاً، نخب الحب!"

التفت هارولد إلينا ورمقنا بنظرة ساخرة وهو يسأل: "ما الذي يجري هنا؟"

قالت كيتي: "هادلي تحولني إلى رومانسية"

ضحك هارولد ضحكة حاول إخفاءها وقال: "أستبعد ذلك حبيبتي. ولكنها فكرة لطيفة جداً"

فعلق إيرنست ممازحاً: "رومانسي واحد على كل طاولة، هناك لافتة على الباب"

بعد أن تناولنا عشاء فاخراً عادا معنا إلى شقة المنشرة لتناول كأس من الشراب. وبالرغم من ادعائهما الإعجاب بالنور الخافت في بيتنا الذي يشبه النفق، إلاّ أنّه كان واضحاً لي أنهما لم يكونا معتادين على الحياة العادية البسيطة. كان الطفل نائماً في الغرفة الثانية، لذا اجتمعنا حول طاولة المطبخ.

قال هارولد: "أظن أنني سأنجز هذه الرواية في غضون شهر، ثم سأقع في حالة إفلاس. أريد ناشراً أمريكياً، دفعة مقدمة، وسلسلة من الإعلانات الجيدة للرواية"

قال إيرنست وهو يتكلف الابتسام: "لقد نسيت الفتيات الراقصات"

رد عليه هارولد: "سوف أدرجهن في العقد. جدياً، لدي توجه إلى بوني ولايفرايت. لأن فورد يقول إن لهما الكلمة في الأعمال التي تشاهد في نيويورك"

قال إيرنست: "لقد نشرا لشيروود أندرسن وعاملاه معاملة جيدة، وقال إنهما ملتزمان تجاه الكتاب الأمريكيين المعاصرين

أعلن هارولد: "هذا ينطبق علي وعليك أيضاً"

قلت: "ينبغي أن ترسل قصصك تاتي. وسيكتب لك شيروود تزكية معها"

أجاب إيرنست: "ربما. لقد فكرت بهذا"

فقالت كيتي: "حسناً، تم الاتفاق. دعونا رجاءً نتحدث حول أشياء مسلية"

أجابها هارولد: "ربما حول القبعات عزيزتي كيتي"

قالت: "ربما" ثم التفتت إلي وتابعت: "أرغب جداً باصطحابك للتسوق. يمكن أن تكوني رفيقتي المدللة"

صاح إيرنست: "يا ويلاه!"

ردت كيتي: "ماذا؟ جميع الناس يحبون الأشياء الجميلة. أعدك بألا أغطيها باللؤلؤ والميرينغ"

قلت: "أرغب جداً بالذهاب. لنحدد موعداً قريباً" ولكن، بعد ذهابهما وجدت أنني أخطأت في الموافقة على عرض كيتي.

قال إيرنست: "إنها ترغب فقط بإذلالك، ألا ترين ذلك؟"

"إنها تحاول أن تجاملني وأن تكون لطيفة معي، ولن أقبل منها صدقة أو إحساناً إن كان هذا ما يقلقك"

"كلا، ليس هذا. إنها تريد أن تبهرك وتحملك على الاعتقاد بأنك تتعرضين لمعاملة سيئة"

"لن أفكر بهذه الطريقة أبداً"

"فقط انتظري. إذا استمرت في الهمس في أذنك فإنك ستكرهينني بسبب الحياة البائسة التي نعيشها"

"أنت متطرف إلى حد بعيد تاتي. نحن نتكلم عن التسوق، يا الله!"

"كلا، نحن لا نفعل ذلك" قال لي ذلك ثم مضى يصب لنفسه كأساً من الشراب.

الفصل الثامن والعشرون

بدأت بلقاء كيتي مرة في الأسبوع، في الوقت الذي كان بامبي يأخذ فيه قيلولته برعاية ماري كوكوت التي كانت متحمسة للعودة للعمل لدينا، رغم مهام المربية الإضافية التي كلفت بها. كنت وكيتي نشرب الشاي هنا وهناك، أو ندخل المتاجر القديمة حين كان لديها الوقت للقيام بذلك. كنت أحب النظر إلى المجوهرات، وبخاصة أقراط الأذنين المصنوعة من المينا الملونة التي كانت دارجة في ذلك الوقت. وبالرغم من أنني وإيرنست لم نملك المال الكافي لمثل هذه الرفاهية، إلاّ أنني استمتعت بمشاهدة كيتي وهي تتجول في المحلات، وبسماع ملاحظاتها التقييمية للبضائع. كانت تملك نظرة صائبة، ويبدو أنها كانت تعرف بحدسها الأشياء التي ستحافظ على قيمتها، والأشياء الجميلة وإنما الآنية. أحياناً، كانت تحاول الضغط علي لقبول هدية ما، وكنت أشعر بالألم لرفضها. لقد كانت بالفعل تتصرف بدافع اللطف والتودد، غير أن إيرنست يملك عزة نفس، ولم أرغب بإثارة أي مشكلة معه.

كلما حاولت إقناع إيرنست بخصال كيتي الحميدة وجدته ميالاً لكرهها. فبرأيه، كانت مهتمة جداً بالشكليات المزيفة ومنكفئة على رفاهيتها الخاصة، ولكنني كنت أتساءل في سرّي عمّا إذا كان يشعر بالتهديد من استقلاليتها. كانت تعمل عارضة أزياء وراقصة في الولايات المتحدة. ورغم ذلك، كان هارولد يدفع لها أجرة شقتها الساحرة في ري مونتيسسو، وذلك لأنه أصر على أن يكون لهما مكانان منفصلان للعيش، وكان يقطر مالاً من عائلته الثرية من طرف والده وطرف والدته معاً؛ مع أنها ورثت المال أيضاً، وكان بإمكانها إعالة نفسها وتحمل مصاريفها. كانت كيتي واثقة بنفسها بصورة لا تصدق، تصرفاتها وتحركاتها وكلامها كلها تُظهر

بشكل واضح أنها لم تكن بحاجة لأحد ليخبرها بأنها جميلة أو ذات قيمـــة. كانـــت تعرف ذلك من تلقاء نفسها، وهذا النوع من الثقة بالنفس لا يريح إيرنست.

كافحت من أجل قضاء أوقات بعد الظهر بصحبة كيتي؛ بالرغم من أن ذلك سبب توتراً في البيت، لأنني وللمرة الأولى منذ سانت لويس أحظى بصديقة خاصة بـــي حصرياً. غيرترود وسيلفيا كانتا محسوبتين لإيرنست دوماً، وكان متناغماً مع فكرة أنهما صديقتاه. ولم يبد أنه بإمكاني التصرف مع أليس وماجي ستراتر وحـــتى مع شيكسبير خارج الحدود التي يسمح بها كوني زوجة الأديب الفنان. صحيح أن كيتي كانت مرتبطة بهارولد الذي كثيراً ما التقاه إيرنست هـــذه الأيـــام، إلا أنهـــا امتلكت حيزاً واسعاً أيضاً من الحياة الشخصية وقد اختارتني.

قالت لي يوماً في إحدى نـــزهاتنا الأولى معاً: "أنت فتاة أمريكية جداً، أليس كذلك؟"

قلت متعجبة: "ماذا؟! وأنت أمريكية أيضاً"

"ولكن، ليس مثلك. فانتماؤك يبدو في كل مـــا تقولينـــه، وفي اســـتقامتك وبساطتك"

قلت: "عجباً! أنت فقط تشيرين بطريقة مهذبة إلى أنني غير ملائمة للحياة في باريس

فوضحت قائلة: "أنت فعلاً غير ملائمة. ولكن هذا جيـــد، فـــنحن بحاجـــة لأشخاص مثلك حولنا ليخبرونا بالحقيقة عن أنفسنا"

بالإضافة إلى تبرم إيرنست، كانت الصعوبة الوحيدة التي اعترت صداقتي مـــع كيتي هي استمرارها بتقديم الهدايا لي؛ حتى بعد اعتذاري دائماً عن قبولها بســـبب كبرياء إيرنست وحساسيته الشديدة تجاه هذا الموضوع.

ومع ذلك، استمرت تضغط علي بقولها: "إنه شيء ضئيل القيمـــة، فلمـــاذا ينـــزعج؟"

فأجيبها: "إنه ينـــزعج وحسب. أنا آسفة"

"يذكرني وضعك بوضع رجل الكهوف. إن أبقاك في جلود الحيوانات تعتنين بنار الطهو فلن يراك أي رجل آخر غيره ناهيك عن أن يريدك"

"ليست هذه النظرة القاسية صحيحة في شيء. كل ما في الأمـــر أن علينـــا الاقتصاد في مصاريفنا. وهذه ليست تضحية عظيمة"

"حسناً، أنا أتفهم ذلك. ولكن هذه هي مشكلتي مع الزواج. فأنت تضـــحين من أجل مسيرته المهنية، ولكنْ على ماذا تحصلين في النهاية؟"

"على الرضا من معرفتي أنه ما كان ليحقق أياً من إنجازاته المهنية دون دعمي له"

أشاحت بوجهها عن الحقيبة المزينة بالخرز التي حازت على إعجابها، وثبتـــت عينيها الزرقاوين الشاحبتين علي قائلة: "هل تعلمين؟ أنا أعشقك، لا تتغيري قيـــد أنملة"

بالرغم من أن وجهة نظري كانت غير عصرية البتة، وربما تتسم بالســـذاجة أيضاً، لكنني كنت مقتنعة أن أي تضحية وأي مشاق نواجهها في حياتنا تســـتحق التعب إن كانت في سبيل تقدم إيرنست في حياته المهنية. وبغض النظر عـــن كـــل شيء، لهذا السبب جئنا إلى باريس. ولكن لم يكن من الســـهل علـــي مشـــاهدة ملابسي تغدو رثة دون الشعور بالحرج، وبخاصة حين كانت النساء جميعهن يرتدين الملابس الأنيقة.

من جهتي، أنا بكل صدق لا أظن أنه يمكنني مجاراتهن؛ حتى لو لم نكن نضغط نفقاتنا. فشقتنا رطبة وباردة، وكنت أعاني غالباً من آلام خفية في الجيوب الأنفية. وعلى الرغم من أننا أبقينا مهد بامبـــي في الزاوية الأكثر دفئاً ولكنه كان يمـــرض على كل الأحوال. أصبنا بسعال الخناق على مدى أسابيع عديدة في ذلك الربيـــع؛ الأمر الذي أقلق نومه، وكان يستيقظ باكياً طالباً أن يرضع. يمكن أن تكون عملية إرضاعه متعة لي في ضوء النهار حين أكون مرتاحة، ولكنها ليلاً استنفدت طاقتي. كانت تلك هي الأوقات التي أحسست فيها بحاجة ماسة للخروج مـــع كـــيتي أو السير تحت ضوء الشمس الباهت مع ستيلا بووين وجولي اللتين أصبحتا مـــرافقتين ودودتين لي.

حاولت أيضاً الخروج خلسة من المنـــزل لمدة ساعة على الأقـــل في اليـــوم لأتمرن على عزف البيانو. لم يكن بإمكاننا تحمل أعباء شراء واحـــد أو اســـتئجاره كما فعلنا من قبل، لذا بت أعزف على نحو سيئ بعض المقطوعات في القبو الرطب لمخزن خاص بالأدوات الموسيقية بالجوار. كان علي أن أشعل شمعـــة كـــي أرى

صفحة النوتة الموسيقية، وتقلصت أصابعي في أغلب الأحيان من شدة البرد. وأحياناً، كان يبدو لي أن التدريب لا يستحق العناء، ولكنني واظبت عليه على كل الأحوال لأنني لم أكن مستعدة للتخلي عن هذا الجزء من كياني.

في تلك الأثناء، كان إيرنست يعمل أفضل من أي وقت مضى. ويبدو أن الضغط الذي شعر به بعد مغادرتنا باريس إلى تورونتو قد لعب بكل تأكيد دوراً جوهرياً في تحفيزه، لأنه كان يكتب بقوة وطلاقة تقريباً دون أن يكيل النقد لعمله. وكانت القصص تتدفق بشكل كبير بالكاد يستطيع معه مواكبتها.

فضلاً عن ذلك، استمر بنشر أعماله في *ذا ترانس أتلانتيك*. وبالرغم من أنه كان لا يزال كثير الانتقاد لرئيسه، إلاّ أن فورد تابع تأييد أعماله على المنوال نفسه. وحين أخبر إيرنست فورد أنه قلق من أن يستغرق الأمر سنين طويلة قبل أن يذيع صيته في العالم الأدبي، أخبره فورد أنه لا داعي لمخاوفه وقلقه:

"سوف يتحقق لك هذا بسرعة كبيرة. حين أراني بوند عملك عرفت على الفور أنني سأنشر لك أي شيء تكتبه، بل كل شيء"

أخجل المديح إيرنست، فحاول أن يكون أكثر لطفاً في حديثه عن فورد، وبخاصة منذ أن بدأ يسعى لحمله على نشر رواية *The Making of Americans*، وهي رواية لغيرترود بقيت قابعة في درج المكتب منذ العام 1911. أخيراً، وافق فورد على نشرها في حلقات مما أبهج غيرترود. إذ أصبحت المجلة بالتدريج الأكثر أهمية والأوسع انتشاراً بين القراء، وسيكون هذا أول أكبر إصدار لغيرترود.

في عدد شهر نيسان، سيظهر عملها إلى جانب مختارات من أعمال جويس الجديدة التي يعمل عليها، والتي ستضحي لاحقاً كتاباً حمل عنوان: Finnegans Wake، وعدة مقاطع لتريستان تسارا، وقصة جديدة لإيرنست اسمها "Indian Camp" والتي فصل فيها بصورة مروعة حالة امرأة وهي تعاني من المخاض، وموقف زوجها الجبان الذي حزّ عنقه لأنه لم يتمكن من احتمال سماع صيحاتها. كان معجباً جداً بهذه القصة لأنه استطاع أن يسترجع من خلالها شيئاً من طفولته؛ مثلاً، حين شاهد والده وهو يولّد امرأة هندية، وربط هذه الذكرى بشيء آخر شاهده مع اللاجئين على طريق كاراغاتش، ومن ثم نسج من ذلك كله حبكة متينة لقصته.

قال لي في أحد الأيام، لدى عودته من العمل على هذا العدد من المجلة: "جويس يعرف هذه الحيلة، لقد ابتكر شخصية بلووم، وهذه الشخصية هي أفضل ما يمكن أن يكون على الإطلاق. عليك أن هضمي الحياة، وأن تمضغيها وتحبيها بكل ما فيها. يجب أن تعيشيها ببصيرتك حقاً"

"ما أجمل كلامك حول هذا!"

"نعم. ولكن، يمكنك أن تتكلمي وتتكلمي دون أن تصلي إلى ما تريدينه بشكل صحيح. عليك أن تفعلي"

ضم عدد نيسان بين دفتيه أيضاً المراجعات المهمة الأولى لقصصه الثلاث وقصائده العشر التي راحت بشكل عام تصدح بعبقرية إيرنست وأسلوبه. كان يبتكر شيئاً جديداً بحسب ما ورد، وكان كاتباً يجب الوقوف عنده والتأمل في كتاباته. كنت في غاية السعادة لرؤية صيته يذيع أخيراً. حيثما ذهبنا كان هناك أناس يريدون التقرب منه. وعندما كنا نسير في الشارع ليلاً مارين بالمقاهي حيث تناهى إلى مسامعنا صوت الأحاديث والموسيقى الصاخبة، كان أحدهم يهتف عالياً باسمه فيتوجب علينا التوقف في أحد المقاهي لتناول الشراب معاً حفظاً للود، قبل أن ننتقل إلى مقهى آخر؛ حيث يتكرر الأمر نفسه. كان لدى الجميع ما يحدثونه به من نكات وأخبار طريفة، ودائرة معارفنا الشخصية نمت يوماً بعد يوم.

كان جون دوس باسوس الذي التقاه إيرنست تماماً بعد أن بدأ يعمل للصليب الأحمر في إيطاليا قد عاد إلى باريس، وركب موجة النجاح الأدبي الذي حققه لنفسه، وكان دائم الاستعداد لقضاء وقت لطيف معنا. كذلك ظهر دونالد ستيوارت في حياتنا أيضاً في الوقت ذاته تقريباً. كان كاتباً هزلياً، وسيغدو يوماً ما رجلاً مشهوراً بسيناريوهات مثل *The Philadelphia Story*، ولكنه حالياً لم يتعد كونه رجلاً مسلياً يقف أمامنا ببذلة أنيقة جداً قشدية اللون.

كان إيرنست فخوراً بزي الكاتب الموحد الرخيص الذي يلبسه. أما أنا فكان الإعجاب يتملكني حين أرى السراويل المكوية. سراويل دون ممتازة دائماً، وكان هو نفسه ذا مظهر جيد أيضاً، فهو حليق الذقن بطريقة صبيانية، وذو عينين زرقاوين واضحتين تفيضان حيوية عندما يضحك. حين قدّمنا إيرنست إلى بعضنا،

كان دون متآلفاً معي بشكل رائع منذ اللحظة الأولى. فقد قال لي فوراً: "شعرك جميل جداً، ويا لغرابة لونه!"

أجبته: "شكراً لك. وأنت ترتدي ثياباً جميلة"

"إنها أمي، فهي تحب الملابس والآداب الاجتماعية الراقية"

"ولوح كيّ الملابس؟"

"عليّ الاعتراف بأنّ لي أسلوبي مع المكواة"

مضينا في الحديث قليلاً بعد، وقد استمتعت به إلى درجة أنني استغرقت نصف ساعة قبل أن أدرك أن إيرنست قد اتخذ لنفسه مجلساً إلى طاولة مجاورة. لم أعرف أياً من الأشخاص الذين جالسوه، بمن فيهم تلك الفتاة الجميلة الجالسة إلى جانبه. كانت هيفاء القامة وفاتنة، وذات شعر غزير بلون أشقر غامق. كان جسمها يبدو نحيلاً وصبياني التكوين تحت قميصها الطويل، ولكن بطريقة ما جعلها شعرها تجتاز الصفة الصبيانية وأضفى عليها المزيد من الأنوثة. في اللحظة التي وقعت عيناي عليها شعرت بقشعريرة شديدة تسري في جسمي، حتى قبل أن ينثني إيرنست نحوها ويهمس بأذنها كلمات جعلتها تضحك بصوت منخفض وأجش مقوسة رقبتها الطويلة شاحبة اللون إلى الوراء.

سألني دون: "هل أنت على ما يرام؟ لقد شحب لونك فغدا أبيض كالأشباح"

"نعم، أنا بخير، شكراً"

تابع نظراتي وصولاً إلى إيرنست والمرأة. لا بد أن كل شيء كان جلياً بالنسبة له، ولكنه عبر عن ذلك بشكل سلس قائلاً:

"تلك هي داف تويسدن. اللايدي تويسدن حالياً، إذ يقال إنها تزوجت من كونت أو نبيل أو لورد من البريطانيين ثم انفصلت عنه. لا يمكنني حفظ تدرج العائلات الملكية على نحو صحيح"

"حسناً، من يستطيع ذلك؟"

نظرت أخيراً إلى إيرنست في اللحظة التي رفع فيها بصره. لمحة من الشك سرت بيننا، ثم نهض وأقبل علينا وهو يقول مخاطباً دون: "المعذرة يا دون، سآخذ زوجتي"

"بكل سرور" أجاب دون قبل أن يأخذ إيرنست بمرفقي إلى الطاولة حيث جلست داف مترقبة. ثم قال وهو يقدّمنا إلى بعضنا: "السيدة تويسدن، أم تفضلين السيدة سمورثوايت هذه الأيام؟"

فأجابته وهي تهم بالنهوض: "لا فرق ما دمت داف" ثم مدت يدها لأصافحها قائلة: "كيف الحال؟"

كنت أحاول السيطرة على نفسي لأقول شيئاً لطيفاً حين برزت كيتي من بين الجمع هاتفة: "يا الله! كم أنا سعيدة لرؤيتك. هيا، دعينا نحتسي شراباً معاً"

كان هارولد وراءها تماماً، ولم يكن منظره يوحي أنه بخير إطلاقاً. كان شاحب اللون، وكانت شفته العليا رطبة.

سألت حين ابتعدنا قليلاً: "هل من خطب ما؟"

"هارولد يهجرني"

"أنت تمزحين"

"أتمنى لو كنت أمزح" وأشعلت لنفسها سيجارة وحدقت إلى طرفها للحظة، قبل أن تسحب منها سحبات قصيرة متلاحقة، ثم تابعت: "ألقت إحدى المزعجات بظلالها على علاقتنا وسيطرت عليها. كنا دائماً نقول إن أحدنا سيمنح الآخر مطلق الحرية، ولكن السخرية أنها حين تأتي فأنت لا تريدينها"

"هل هناك امرأة أخرى؟"

"أليس هذا هو الحال دوماً؟" تنهدت مستطردة: "إنه على الأرجح الكتاب الجديد أيضاً، فهو يريد أن يعيد ابتكار كل شيء من جديد. سأذهب إلى لندن قريباً. وأردت أن تعرفي بذلك"

"كيتي، أصحيح ما تقولينه؟ هل الأمر سيئ إلى هذا الحد؟"

قالت: "يبدو كذلك. لدي بعض الأشياء لك حيث لا يمكنني حملها في الحقائب. سأمر على البيت"

"لا أهتم بالملابس ولا أحتاج إليها"

"هذا هراء"

"أنت تعرفين ما سيقوله إيرنست"

تأففت، ثم نفثت دخان السيجارة وقالت: "نعم، ولكنه لا يعرف مدى صعوبة أن تكوني امرأة" وأدارت رأسها باتجاه داف وتابعت: "الوضع هنا قاس جداً، أليس كذلك؟ فالمشكلة ليست بأنهن أصغر سناً وحسب، بل إنهن يهتممن أكثر

لم أعرف تماماً ماذا أقول. فقد كانت كيتي إحدى النساء الأكثر اعتداداً بالذات وثقة بالنفس ممن عرفتهن في حياتي، وها هي تعاني الهزيمة الآن؛ مما جعلني أرغب بشدة في أن أدق عنق هارولد.

سألتها: "هل تريدين العودة إلى موطنك؟"

"لا يمكنني أن أذبل مثل بنت المدرسة الصغيرة وأتحمل مشاعر الشفقة من الآخرين. أفضل الموت على ذلك. لنحتسِ كأساً من الشراب" ثم رسمت على وجهها ابتسامة الشجاعة قدر المستطاع وقالت: "الكثير الكثير من الشراب"

لزمت جانب كيتي حتى نهاية المساء، لكن عيني كانت على إيرنست أيضاً. هذه المخلوقة داف كانت جميلة وفاتنة للغاية. وكانت تتحدث وإيرنست بطلاقة؛ حتى يخيل إليك أنهما يعرفان بعضهما منذ سنين، وكنت قد شعرت للتو بأنني في وضع حساس بعد سماعي أخبار كيتي. تأتي الأحداث الأكثر سوءاً في حياة المرء تباعاً كالطعنات، كما لو أنها تنبثق من العدم، لكن هذا المنظور يفتقر إلى الربط الصحيح للأمور. كانت كيتي تبدو مصدومة، ولكن هارولد كان على الأغلب يخطط لهربه منذ شهور. لم أتمكن من تقديم المساعدة، ولكنني لم أستطع منع نفسي من التساؤل عمّا إذا كان من الممكن أن أكون عرضة لمثل هذا الموقف يوماً ما. فمنذ متى كانت داف في الصورة على أي حال؟

في وقت ما بعد منتصف الليل، وحين أصبحت بالكاد قادرة على البقاء مستيقظة لمدة أطول، اعتذرت من كيتي، وعمد إلى لفت انتباه إيرنست وقلت: "حان الوقت لتصطحب زوجتك المسكينة إلى السرير قال: "يا لقطتي المسكينة! إذاً اذهبي إلى البيت. هل تريدين أن أجد لك من يمشي معك؟"

"أتريد أن تبقى؟" سألته بحدة، في حين أشاحت داف بوجهها بعيداً تأدباً.

"طبعاً، وماذا في ذلك؟ لست أنا الشخص المرهق هنا، أليس كذلك؟" خانني صوتي تماماً فلم أجد جواباً، إلا أن كيتي ظهرت لتنقذني.

"سأهتم بزوجتك هيم. ابق هنا واستمتع بوقتك" ورمقته بنظرة متحدية لكنه لم يكترث. "يا لها من ضربة! شكراً لك كيتي" ثم نهض وضغط علــى ذراعــي بصورة أخوية قائلاً: "فلتحظي ببعض الراحة"

أومأت بشيء من الذهول، بينما أمسكتني كيتي بقوة من ذراعــي وقــادتني بعيداً. وما إن أصبحنا خارج المكان حتى بدأت أبكي بهدوء. وقلت: "كــم أنــا محرجة" فعانقتني كيتي بقوة لرفع معنوياتي قائلة: "هو من ينبغي أن يشعر بالإحراج يا عزيزتي، وهي أيضاً. يقولون إن عليها أن تحافظ على مجموعة من الرجال حولها لأنه لا يمكنها تسديد فواتيرها"

قلت: "داف، من يقبل بهذا؟"

"تماماً. أراهن بمال وفير أنه حتى لو أن أحدهم كان ذا تفكير بسيط مثل هيم فلن يهجر امرأة مثلك من أجل تلك التي لا تعدو عن أن تكون رقماً بين النســاء. هيا ابتهجي"

"لقد كنت طيبة جداً معي كيتي. لا يمكنني أن أعبر لك كم سأفتقدك"

"أعلم. سوف أفتقدك أيضاً. ولكن، أي خيار لدي؟ كل ما يمكنني فعله هــو أن أذهب بعيداً إلى لندن. على أمل أن يطاردني هارولد إلى هناك"

"وهل سيفعل ذلك؟"

"لأكون صادقة معك أقول: لا أعلم"

* * *

حين عدت إلى المنــزل، كان بامبــي صاحياً وقد فاضت عينــاه بالــدموع وهو يمضغ حلقة مطاطية صغيرة.

نظرت إلي ماري كوكوت معتذرة وقالت: "يبدو أنه قد رأى حلماً رهيبــاً. يا للمسكين الغالي! إنه لم يدعني أهدئه"

"شكراً لبقائك حتى هذا الوقت المتأخر ماري" بعد أن ذهبت، حاولــت أن أهدّئ من روع بامبــي، لكنه كان يبكي كثيراً، واستلزم الأمر مني ما يزيد علــى الساعة لإعادته للنوم. وعندما استطعت الخلود إلى السرير كنــت متعبــة جــداً، وشعرت بأنني أهذي، ولكنني لم أتمكن من أن أرتاح. لقد كنت سابقاً أشعر بالقوة

والرضا بحياتنا، ولكن كيتي على حق؛ فالمنافسة تستعر طوال الوقت. وقد امتلأت باريس بنساء مغريات كن يجلسن في المقاهي بوجوههن النضرة وسيقانهن الطويلة بانتظار حدوث شيء فاضح. أثناء ذلك تغير جسمي، صحيح أن إيرنست كان يدعي أنه يحب صدري ووركيّ الممتلئتين، ولكن مع كل ما يمكنه مشاهدته قد يفقد بسهولة أي اهتمام بي. وربما يكون قد فعل وانتهى الأمر، فماذا عساي أفعل حيال ذلك؟ ماذا بإمكان أي شخص آخر أن يفعل في موقف كهذا؟

عندما عاد إيرنست في وقت لاحق، كنت لا أزال مستيقظة ومتعبة جداً، لدرجة أنني شرعت بالبكاء، و لم أكن قادرة على أن أتمالك نفسي.

فقال وهو يصعد إلى السرير ويضمني إليه: "يا للأم المسكينة! لم أكن أعلم أنك كنت منهارة إلى هذه الدرجة. عليك أن تأخذي استراحة لطيفة وطويلة"

أجبته وأنا أشعر بفيض من الراحة: "أجل بالفعل، وفي مكان ما بعيد جداً عن هنا"

الفصل التاسع والعشرون

مكاننا البعيد جداً كان قرية شرونس الصغيرة في الفورارلبيرغ النمساوية، حيث وصلنا تماماً قبل الكريسماس لعام 1924، وشعرنا منذ يومنا الأول هناك كما لو كنا في بيتنا أكثر مما كان بمقدورنا أن نتخيل. وأتيح لنا مقابل نصف ما كنا ندفعه في باريس أسبوعياً أن نحصل على غرفتين مريحتين في فندق تاوبه، وعلى مربية تدعى تيدي لأخذ بامبي في جولة في الجوار. كان بإمكان بامبي أن يتنفس بشكل أفضل في شرونس، وكذلك كان حالنا جميعاً. كانت تيدي تسحبه عبر القرية على مزلجته الخشبية لبعض الوقت، فيما كان إيرنست يعمل، أو يحاول أن يعمل بعد انتهائنا من تناول الفطور. أما أنا فكنت أتدرب في الطابق السفلي على البيانو الذي كان هناك تحت تصرفي. وبعد الظهر، بعد تناول الجبن القاسي والسجق والخبز السميك وأحياناً البرتقال، كنا نتزلج.

لقد تزلجنا كثيراً؛ حيث افتتح معلم تزلج محترف متقاعد يدعى والتر لينت مدرسة، وكنا طالبين عنده. لأسابيع متواصلة، كان هناك الثلج الأبيض الصافي الهش وحسب. قمنا برحلات مشياً على الأقدام لساعات طويلة، صعوداً إلى أعلى فأعلى، لأنه ما الفائدة إن لم نصل إلى القمة الحقيقية لشيء ما دون أي رفقة في الجوار وبدون آثار أقدام أو ذكرى أحد آخر في أي مكان؟ التزلج بهذه الطريقة يتطلب قوة وجلداً، حيث لا توجد مصاعد كهربائية ولا قطارات، لذا حملنا متاع التزلج على أكتافنا، وأي شيء آخر كنا نحتاج إليه في أكياس على ظهورنا. ولشد ما فاجأني أنه كان بمقدوري فعلياً القيام بذلك. ترك باريس كان أفضل شيء بالنسبة لي. كنت أنام جيداً، وأتلقى المساعدة على العناية بالطفل الصغير. كما أن الهواء الطلق والتدريب المتواصل جعلاني أشعر بأنني أشد قوة ولياقة من أي وقت مضى.

وأثناء صعودنا البطيء والطويل، كان بإمكاننا رؤية الدجاج البري والظباء والدلق وأحياناً الثعلب الأبيض. وفي طريقنا نحو الأسفل، كنا نرى فقط الثلج الذي انهمر حديثاً حولنا، وحركة مسار نهر الجليد، ورذاذ الثلج المسحوق الذي يندفع كغيوم منبعثة من مزالجنا. كنت أفضل من إيرنست في التزلج، ولكن إيرنست كان الأفضل في التهام أي شيء جديد. كنا نهبط وننحدر، بل كنا نطير.

حين تميل بجذعك خارج نافذتنا في الطابق الثاني من فندق تاوبه، ممسكاً بأطراف أصابعك بالجدران المجصصة فسترى ما لا يقل عن عشرة جبال شاهقة مغمورة بالثلج. سألني إيرنست عندما قام بالتجربة للمرة الأولى ثم وقف جانباً مفسحاً لي المجال: "كيف تجدين هذا؟"

قلت: "يعجبني المنظر إلى حد بعيد" عندها، اقترب مني من الوراء، ولفني بذراعيه تماماً حتى أصبح يمسك بي في حال كدت أقع. فقلت ثانية: "بل إنه يعجبني جداً" كيف لا وقد كانت لدي ذراعان قويتان وعشرة جبال شاهقة. سحبني إلى الغرفة، واستلقينا على فراش الريش بحميمية؛ مما ذكرني بأفضل ما يتعلق بنا. كم كان من السهل علينا أن نكون معاً كجسمين متناغمين؛ دون أي حاجة للكلام.

وراء الفندق، كانت هناك هضبة صغيرة رحت أتزلج على ثلجها الجديد، بينما كان إيرنست يحاول العمل دون نجاح يذكر. فقط من أجل العمل كان يفتقد باريس، وضوضاء المدينة وروتينه اليومي فيها. بشكل عام، إن لم يكن العمل على ما يرام فلن يكون أي شيء آخر كذلك. أما في شرونس، فكانت هناك نشاطات لطيفة نشغل بها نهارنا. بإمكاني التزلج على الهضبة وأنا أعلم أنه هناك يسرح في المرج والمزارع والحقول، ويشعر بضغط في رأسه ولكن لا يشعر بالتعاسة. وفي بعض الأحيان، كان يراقبني وأنا أنحدر نحو أسفل الهضبة؛ قادمة بسرعة نحو الفندق حيث أستدير بحدة في اللحظة الأخيرة.

ترك إيرنست لحيته تنمو فغدت سوداء كثيفة، وبدا مهيباً في ذلك الشتاء. لم يُكلَّف بعمل، ولكن كانت هناك جولات من البولينغ ولعب الورق قرب النار في أمسيات دافئة...

كانت قاعة الطعام في الفندق مساء مثقلة بالدخان. بعد العشاء، كنت أعزف مقطوعات لباخ أو هايدن تدربت عليها مسبقا أثناء النهار، فيما يجلس إيرنست على كرسيه إلى جانب المدفأة لقراءة تورغينيف، أو يلعب الورق، أو يدخن، أو يتحدث عن الحرب مع السيد نيلز صاحب الفندق. رائحة الخشب والصوف والثلج والحميمية بيننا؛ كلها كانت تبعث الدفء فينا وتلفنا وتجعل شتاءنا رائعاً.

الشيء الوحيد الذي لم يكن مثالياً خلال ذاك الوقت هو قلق إيرنست على مسيرته المهنية. إذ لم تكن لتهدئ من روعه قناعة أصدقائه جميعاً بموهبته، أو المراجعات الخاصة بكتابه *ثلاث قصص وعشر قصائد* التي كانت باعثة للبهجة لأبعد الحدود. فبالنسبة له، كان كتاباً صغيراً لا يندرج مطلقاً على سلم أحلامه الكبيرة. أرسل إلى أسرته عدة نسخ منه فور خروجها من المطبعة، ولكنها أعيدت إليه مرفقة برسالة باردة من والده يقول فيها إنه وغريس لا يسرهما الاحتفاظ بمثل هذه المادة في البيت. إنه كتاب في أفضل الحالات شعبي. وإنهما يريدان منه عملاً عظيماً، ويأملان أن يجد في يوم من الأيام سبيلاً لاستعمال الموهبة التي منحه الله إياها لكتابة أشياء تنضح بالفضائل والخلق القويم. وإلى حين يفعل ذلك، لا حاجة به لإرسال أي شيء مما ينشره. لقد جرحت الرسالة إيرنست في الصميم. فهو، بغض النظر عما يقوله، كان في أعماقه يسعى للحصول على اعتراف عائلته بنجاحه.

قال: "فليذهبوا إلى الجحيم جميعهم على أي حال" ولكنه احتفظ بالرسالة، فقد طواها بعناية ووضعها في الدرج الذي يخزن فيه مراسلاته المهمة. *يمكن أن تكون الأسر شريرة*؛ هذه إحدى مقولاته التي كان مغرماً بها، وأمكنني الآن أن أرى ما عناه بذلك. كذلك أمكنني رؤية توظيفه الأذى الذي لحق به في كتاباته؛ حيث دفعه عنه، وضاعف جهوده ليريهم أنه لا ينتظر منهم حباً ولا موافقة. استمر بالكفاح حتى وصل إلى مجلة *فانيتي فير وذا ساتردي إيفنينغ بوست*، ولم يهدأ إلى أن اختاره ناشر أمريكي، وحصل معه على كتاب بكل معنى الكلمة، تم نشره بالطريقة التي كان يحلم بها دوماً.

كما أثر سلباً على مزاجه أن أمور هارولد كانت في تحسن مطرد. إذ أنهى روايته الطويلة في الوقت الذي حدده، وأرسلها مباشرة إلى دار بوني وليفرايت

للنشر وقد قبلوها. تلقينا الخبر تماماً قبل مغادرتنا إلى شرونس. حيث جاء هارولد لزيارتنا جزلاً ويفيض حماسة، وقال لإيرنست: "هل كنت تتوقع أن أصيب حظاً كبيراً بهذا الشكل؟"

"بالتأكيد، ولِمَ لا؟" أجابه إيرنست. ولكنه كان يتميز غيظاً، والسبب بطبيعة الحال كان عداوة مهنية. ولكنه التزم الصمت والأدب، وفتح زجاجة شراب محتفلاً بنجاح هارولد.

وتابع: "لقد دأب أندرسون على إقناعي بالتوجه إلى ليفرايت أيضاً. لدي مجموعة من القصص الجيدة التي أفكر في إرسالها إلى هناك برفقة المشاهد والمنمنمات التي كنت أعمل عليها"

قال هارولد: "إنهم خير من يستقبل هذه المواد، فماذا تنتظر؟"

"لا أعلم، ولكن هناك آخرين على الساحة، أليس كذلك؟ ما رأيك بسكريبنر؟ أو هنري دوران؟"

"حيثما تحط رحالك فستبلي بلاء حسناً. ستأتيك الفرصة صاغرة، وستحقق أمانيك أنت أيضاً، وسوف ترى"

كنت على يقين بأن إيرنست سيلقي بنفسه في أحضان أي فرصة تسنح له لكي يقوم ناشر كبير بنشر كتاب له، ولكن الأمر استلزم الكثير من التملق والمداهنة مني ومن هارولد وشيروود أيضاً كي يرسل أخيراً بالبريد مخطوط كتابه إلى دار بوني وليفرايت تماماً قبل الكريسماس. كان قد استقر رأيه على عنوان: *في زماننا* – *In Our Time*؛ لأنه أراد أن يلامس قلب الحياة في ذلك الوقت بالذات بعنفه وفوضويته وجماله الغريب. كان أفضل عمل أنجزه، وشعر بالارتياح لإرساله ليطلع عليه العالم، لكن انتظار الجواب كان يعذبه. وحين وصلنا البريد، نقّب إيرنست بصبر نافد عن رسالة تحمل الموافقة على الكتاب. كان ذاك كل ما أراده على الإطلاق.

في أواخر شباط، كان السيد لينت دليلنا في الوادي حتى مادلينرهاوس؛ وهي محطة في جبال الألب تبقى فاتحة أبوابها حتى في عمق الشتاء. فيها مطبخ جيد بسيط، ومهجع يهتز بفعل الرياح العاتية كمضجع في سفينة ضخمة. من هناك، كان بإمكاننا أن نصعد المنحدر خمسمائة متر لنهبط من جديد على طول

السيلفريتا، ومزالجنا تنثر جانباً المسحوق الثلجي الذي لم يطأه قبلنا أحد. وبعد التزلج طيلة النهار، كنا نرتمي ليلاً على السرير منهكين.

قلت لإيرنست في إحدى الليالي بعد أن استلقينا على سريرنا الطابقي في المهجع مصغيين للثلج والريح ولا شيء سوى ذلك: "دعنا لا نرجع أبداً"

أجابني وهو يضمني إليه بشدة أكثر: "حسناً، ألسنا محظوظين بأن نكون متحابين بهذا الشكل؟ لم يظن أحد أننا سنستمر إلى هذا المدى، و لم يقف أحد إلى جانبنا على الإطلاق. هل تذكرين ذلك؟"

أجبته: "أجل" وأنا أشعر بشيء من الإحباط. إذ ليس بمقدورنا الاختباء من العالم إلى الأبد.

بعد ثلاثة أيام، هبطنا الجبل لنجد برقيتين موجهتين لإيرنست بانتظارنا. كانت الأولى من شيروود، والثانية من هوراس ليفرايت. وكلتاهما تحملان الخبر نفسه ألا وهو: في زماننا *In Our Time* – ستتم طباعتها كتاباً. وقدمت دار النشر مئتي دولار كسلفة مقابل حقوق المؤلف،على أن يتم إرسال العقد قريباً.

كانت لحظة ملحمية لن ننساها أبداً. وبطريقة ما، بدا أن التزلج جزء حتمي منها، كما لو أنه كان علينا القيام برحلة مضنية نقترب فيها نحو السماء لنطير عائدين بعدها لاستلام هذه الأخبار؛ الأخبار التي حملت نهاية لكفاح إيرنست العسير، ونهاية لأشياء أخرى كذلك. لن يكون نكرة بعد الآن، ولن نتمتع بمثل هذه السعادة بعد الآن.

في اليوم التالي، استقللنا القطار عائدين إلى باريس.

الفصل الثلاثون

في ذلك الربيع، أمطرت السماء دون توقف. ولكن، حتى في المطر كانت باريس غنية بالتنوع، وقد كان إيرنست يعرفها كلها، ويهوى السير فيها ليلاً بصورة خاصة، ماراً بالمقاهي ليرى من يتواجد فيها ومن يغيب عنها. بات معروفاً في كل مكان بشعره الطويل غير المنظم، وحذاء التنس الذي ينتعله، وسترته المرقعة على أنه كاتب مهمّ في الضفة اليسرى من السين. كان من المثير للسخرية رؤيته وهو يتحوّل إلى نمط الفنان ذاته الذي لطالما أشعره بالانزعاج والضيق طوال العامين المنصرمين، وكان ذلك مؤلماً بعض الشيء بالنسبة لي أيضاً. لقد افتقدته، ولم أكن واثقة من أنني بت أتعرف عليه دائماً، ولكنني لم أرغب في شده إلى الوراء. ليس عندما بدأ الحظ يبتسم له.

إذا كان إيرنست قد تغير، فإن منطقة مونبارناس قد تغيرت أيضاً. حيث أغرق السياح الأمريكيون المشهد على أمل رؤية ما هو بوهيمي في الواقع، بينما تزايد المشبوهون همجية وخروجاً عن المألوف لأجل الجمهور الجديد. كيكي كانت أحد أكثر أنماط الفنانين في المنطقة شهرة، وهي محبوبة مان راي وملهمته. كان من الممكن رؤيتها غالباً في مقاهي دوم أو روتونده مع فأرتها الأليفة البيضاء الصغيرة، وهي تحملها مربوطة إلى راحة كفها بسلسلة فضية ناعمة. ولوسي مارتين السمين ذو الشعر الأحمر أجرى محاكمة أمام مقهى سيلكت صارخاً بالفضائح أمام السكان المحليين والسياح على حد سواء. في حين راح بوب ماكالمون يتقيأ في أحواض زهور أفضل المقاهي جميعها.

داف تويسدن كانت إحدى الفتيات الجامحات على صعيد المقهى. فقد كانت تشرب كالرجال، وتتحمل الشراب، وتروي النكات القذرة. كان بإمكانها أن

تتحدث إلى أي كان دون استثناء. لقد وضعت قواعدها الخاصة، و لم تكترث بمن كان على علم بهذه القواعد. حين عدنا من النمسا، بدأ إيرنست يرى من طباعها أكثر من أي وقت مضى، وأحياناً كان خطيبها بات غاثري ينضم إليهما. كان بات مشهور بكثرة احتسائه للشراب. وفي أغلب الأحيان، لم يكن بحالة جيدة تتيح له مغادرة شقتهما دون التسبب بمشادة. صحيح أنني شعرت ببعض الراحة حين علمت أنها مرتبطة ولو ظاهرياً بعلاقة حب، ولكن من جهة أخرى، لم يكن ذاك ليعني دائماً ما ينبغي أن يعنيه.

كانت داف متحمسة جداً لرفقة الليل، وكذلك كان إيرنست؛ مما جعلهما بطبيعة الحال ينجذبان إلى بعضهما. لقد سببت لي الكثير من القلق، ولكنه حين جاء بها أخيراً إلى بيت المنشرة لتقضي وقتاً معنا جميعاً، انحنت فوراً حتى أصبحت مقابل بامبي، وقالت له متوددة:

"مرحباً، كيف حالك؟ أنت طفل جميل، هل تعرف ذلك؟"

ضحك بامبي، وتهادى مختبئاً ورائي؛ فقد تعلم المشي أثناء الشتاء المنصرم، وعندما يركض فهو يشد ساقيه البدينتين حتى يظن الناظر إليه أنه سيقع على رأسه.

علقت داف وهي تنظر إليه ضاحكة: "كم تصرفه تقليدي! لِمَ يهرب الرجال جميعهم مني؟ لا بد من أنني مثيرة للخوف والرهبة في الواقع"

أجاب إيرنست: "أكثر بكثير مما تتوقعين"

جلست بقية الزيارة إلى طاولتي، ولم تكن مدعية البتة حول أي شيء كان، كما أنها لم تكن نيّقة، فضلاً عن أنها تتمتع بضحكة عريضة وعالية وصريحة تحرك كل شيء معها. لقد أحببتها رغم أنني لم أرغب بذلك، ولكنني فعلت.

في تلك الفترة، عادت كيتي من لندن، وكتبت تدعوني لتناول الشاي معها.

فتساءل إيرنست: "ماذا تفعل بعودتها؟ ظننت أننا تحررنا من هذه الحقيرة ذات الصورة الملمعة"

فأجبته بحدة: "كن عادلاً!"

فقال: "أنا عادل. إنني أميز المرأة الحقيرة حين يقع نظري عليها"

حاولت تجاهله، إذ لم يكن يوماً مستعداً لتغيير رأيه حول كيتي؛ بغض النظر عما أقوله أو أفعله. كانت هذه إحدى صفاته التي تحبطني. إذ ما إن يضع علامة

سوداء على اسمك فستلازمك أبداً. بطبيعة الحال، كنت أفضل ألا أتشاجر معه حول كيتي، ولكنني صممت على الذهاب لرؤيتها على كل الأحوال.

للأسف، كانت الملابس الجميلة الوحيدة التي لدي مصدرها كيتي. ولأنني لم أرغب بالذهاب إليها مرتدية ملابسها المهملة فقد لبست تنورة مهلهلة وقميصاً. وما إن دخلت شقتها حتى ندمت على اختياري، فقد دعت أيضاً أختين من الغرب الأوسط هما بولين وجيني بفايفر، وكانتا أنيقتين في ملابسهما إلى حد الكمال. عرفت بسرعة أن بولين جاءت إلى باريس للعمل لصالح مجلة فوغ. بدت بمنتهى الأناقة بمعطفها الذي خيط بجهد كبير من جلود مئات السناجيب وبحذائها الذي صبغ بلون أصفر، لقد كان تقريباً أروع ما رأته عيناي. جيني كانت الأكثر جمالاً بين الفتاتين بعينيها اللوزيتين. ولكن بولين كان لديها شيء آخر؛ إنه على ما أعتقد الحيوية الصبيانية. كانت ممشوقة من الوركين إلى الكتفين، وذات غرة غامقة اللون تتدلى حتى حاجبيها تقريباً.

كانت الأختان ابنتين لصاحب أرض موسر من أركنساس، لكنهما تربّتا في سانت لويس. وكانت كيتي قد شرعت لتوها بإخباري عن مدى عمق العلاقة التي ربطت بين بولين وكيت سميث في وقت ما حين دخل هارولد وإيرنست عائدين من تدريب على الملاكمة وهما يتصببان عرقاً ويتضاحكان.

فوجئت لرؤية هارولد – فهل عاد هو وكيتي إلى بعضهما؟ – وقبل أن أتفوه بأي كلمة، ألقت إلي كيتي بنظرة مفادها ألا أطرح السؤال. لكنني فكرت في تلك الأثناء في ما عساه يكون السبب الذي دفع إيرنست للمجيء إن لم يكن لإزعاج كيتي؟ قد تظن أنه سيكتفي بتحاشيها. لقد رغبت بلقاء حميمي مع صديقتي دون توتر أو حرج، وبالتأكيد دون إيرنست وهارولد اللذين يحومان حول هاتين السيدتين الجديدتين اللافتتين للنظر كما لو كانتا حيوانين غريبين معروضين في حديقة للحيوانات.

حين أصبح الوقت عصراً، كان كل من هارولد وإيرنست قد عبّا من الشراب عباً. وعندما لحقت بكيتي إلى المطبخ من أجل المزيد من الشاي، بدأ إيرنست يغازل جيني. إذ قال موجهاً كلامه إلى هارولد بصوت عالٍ: "أظن أنني أرغب بأخذ هذه الفتاة في جولة في المدينة"

فعلقت كيتي مخاطبة إياي بصوت منخفض: "لا تعيري هذا الكلام بالاً، جيني لا تكترث بالفتيان"

"أحقاً!؟" قلت متسائلة وأنا أراها من حيث أقف تقدم تقليداً ناجحاً لفتاة تغوي الرجال، إذ أدارت عينيها اللوزيتين نحو إلى إيرنست، وأرخت جفنيها بطريقة خبيرة.

"إنها تحب أن تصقل خبراتها بالمناسبات، وهي تجد الرجال مسلين، على ما أظن

قلت: "لا بد أنه أمر بديع أن يكون المرء في وضع مسيطر على هذا النحو. وماذا عنك؟ ماذا حصل مع هارولد؟"

"حسناً، لقد لحق بي إلى لندن بعد أن تصرف حسب أسلوبه الخاص. لقد قال إنه ليس واثقاً مما يريده"

"ولكنه افتقدك"

"بالتأكيد افتقدني، فهذا نهج الرجال حين ترحلين عنهم. ورغم ذلك، كم سيدوم هذا الوضع الآن وقد بت هنا؟"

قلت: "لم يجب أن تكون الأمور بهذا التعقيد؟"

أجابت كيتي: "لست أدري، ولكنها كذلك بكل وضوح"

وحين عدنا إلى غرفة الجلوس، كان هارولد يجلس وحده على الأريكة، وقد رفع قدميه وأشعل غليونه، بينما وقف الآخرون - جيني وإيرنست وبولين - بمواجهته على البساط.

قال إيرنست للفتاتين: "بإمكاني اصطحابكما كلتيكما؛ ففي النهاية لدي ذراعان"

رد عليه هارولد وقد لحظ دخولي: "في الواقع، ليس تماماً؛ لأن إحدى الذراعين هي لزوجتك"

"حسناً إذاً. سآخذ جيني على أن تلبس معطف أختها" فضحك الجميع.

كانت تلك الضحكة ستفجر سلسلة من الأحداث لاحقاً، ولكن ليس بعد. كانت كقطعة الدومينو التي تقف في الغرفة، وتميل وتميل دون أن تنقلب.

لم تنقلب بعد، ليس تماماً.

خلال الأشهر التالية من ربيع عام 1925، استمرت دائرة أصدقائنا بالتبـــدل. كان التغير في البداية دقيقاً، وبدا أن كل حادثة تقع ذات علاقة طفيفة بغيرها. لكن علاقاتنا مع مجموعتنا القديمة راحت تتقطع واستبدلت بنماذج أغنى وأكثر غرابـــة. بدأ باوند وشيكسبير بقضاء المزيد من الأوقات في رابالو، وقد مضى عليهما هناك حوالى العام تقريباً. وبدأ إيرنست وغيرترود يتشاجران حول كل صغيرة وكـــبيرة. وبدا مذهولا حول السبب، ولكنني أظن أنه كان يتغير بسرعة كبيرة جداً بالنسبة لما تجده هي مريحاً أو مقبولاً.

قال إيرنست في إحدى الأمسيات عندما غادرنا صالونها: "آلـــيس لم تحـــبني يوماً. وهي تحاول اليوم التأثير على رأي غيرترود"

"هذا هراء. أليس تحبك"

"إذاً، لديها طريقة عجيبة في إظهار ذلك. فقد أطلقت علي كل المســـميات عدا كوني متطلعاً للنجاح المهني. يبدو أن رأسي يكبر أسرع من اللازم"

"غيرترود تحبك أيضاً. ولكنها قلقة وحسب"

"لا أحتاج إلى مواعظها لي، ولم نعتبرها المعلم الكبير على أي حال؟ أعني، ما الذي حققته فعلياً؟"

أحزنني أن تكون هناك فجوة مهنية تتنامى بين هذين الصديقين الصـــدوقين، ولم أكن واثقة تماماً مما يعنيه هذا بالنسبة لي. كانت المجموعة الجديدة مؤلفـــة مـــن فنانين أدباء وأثرياء، جل اهتمامهم منصرف إلى الحصول على حياة مرفهة وامتلاك أفضل الأشياء فيها. كنا لا نـــزال بالكاد نسيّر أمورنا بأقل مـــن ثلاثـــة آلاف في السنة. ورغم أنني لم أجد أي شيء مشترك يجمعنا مع هؤلاء الأشخاص، إلا أنهـــم كانوا مهتمين بنا، أو بإيرنست على الأقل.

بولين بفايفر كانت واحدة من هؤلاء. كانت فتاة عاملة ظاهرياً تستلم صك راتبها من فوغ، غير أنها كانت تملك وديعة ائتمانية إلى جانب مرتبها ساعدتها دون شك على الاحتفاظ بمظهرها الراقي. كان هذا وقت ازدهار شانيل، وكتبت بولين حول مجموعة شانيل الجديدة في فوغ بحماسة وصلت إلى حد الهوس.

في إحدى الليالي، قالت لمجموعة منا في الدو ماغو: "لقد غيرت شانيل الهيئـــة إلى الأحسن. لن تعود الأمور إلى سابق عهدها أبداً"

أومأت النساء الجالسات إلى الطاولة جميعاً بالإيجاب، كما لو كانت بولين تحدثهن عن أمر في غاية الأهمية. ولكنّ موقفي من الأزياء ظلّ بارداً؛ إذ إن ملابسي لم تتحسّن، وقد شعرت أن لا أحد بمقدوره تغيير هيئتي؛ إلاّ إن توقفت عن التهام الطعام بشكل تام.

عرفت كيتي بولين منذ زمن طويل، وكانت حريصة على أن نغدو صديقتين. شخصياً، لم أكن أرى أي أمر مشترك بيننا، ولكن في المرة الأولى التي أحضرتها فيها كيتي إلى شقتنا، فوجئت بأنها ذكية ومرحة بشكل رهيب. ويبدو أيضاً أنها كانت تواقة لأن أحبها.

قالت: "تحدثت كيت سميث بأشياء رائعة عنك لسنوات. من السار جداً أن ألتقيك أخيراً"

فسألتها: "متى التقيت كيت؟"

"منذ زمن، وأخشى أن تكون مقالب كيت معي قد بدأت قبل ذلك بكثير. حين كنا في التاسعة من العمر سببت لي المرض بالسجائر المسروقة"

"هذه أفعال تليق بصديقتي. لقد حاولت الضغط علي بشدة لتجد طرائق لإفسادي، ولكنني كنت قد سبقتها إلى ذلك سلفاً"

حين ضحكنا، سمعت صوت إيرنست من سريره وهو يتنحنح، وشعرت بالإحراج لأنه لم يرد الانضمام إلينا، وكنت أعمل على إيجاد عذر له.

أرسلت بولين نظرة مقطبة قليلاً باتجاه الباب الذي كان بالكاد مفتوحاً، لكن إيرنست رغم ذلك كان مرئياً، ومن الواضح أنه ليس مريضاً، بل غير مهتم بالانضمام لحفلتنا. قالت: "أعرف كل شيء عن الأزواج، فقد درستهم عن بعد ولسنين طويلة"

قلت: "ألم تمري بخبرات قريبة؟"

ردت كيتي: "بل قريبة جداً في الواقع"

قالت بولين: "لا بأس، أنا حرة الآن وسعيدة بحريتي. إنها شيء رائع"

فضحكت كيتي وقالت: "لا تكلمي هادلي عن الحرية، فلديها أنواع النظريات والمحاضرات كافة جاهزة"

توردت وجنتاي خجلاً، وحاولت إيضاح موقفي، لكن بولين غيرت الموضوع بسرعة وسهولة حين سألتني: "أخبرتني كيتي أنك تعزفين على البيانو، فهل لديك آلة هنا لتعزفي لنا؟"

"كلا للأسف، فأنا لست محترفة"

"ما الذي يعنيه كونك *محترفة* سوى أن تعزفي للآخرين بدلاً من أن تعزفي لنفسك؟ هل قدمت حفلات موسيقية؟"

"كلا، مذ كنت في العشرينيات، وحتى حينها لم تكن لدي الطاقة لذلك"

"من المهم أن تختبري أعصابك بين حين وآخر. فهذا يحافظ عليك شابة"

قالت كيتي: "ينبغي أن تقدمي حفلة موسيقية. سيكون ذلك رائعاً بالنسبة لك، وسيحضر الجميع"

قلت ضاحكة من الفكرة: "يمكن أن أصاب بالمرض لمجرد التفكير بالموضوع"

ولكن، في وقت متأخر من تلك الليلة، وحين كنا مستلقيين على السرير، أخبرت إيرنست قبل أن ننام بأنني أريد بيانو خاصاً بي وقلت: "لم أكن أظن أنني سأفتقده إلى هذا الحد، ولكنني أفتقده"

"أعلم يا قطتي. وأحب أن تمتلكي واحداً. ربما حين تصل الدفعة المقدمة"

"هذه عبارة لطيفة أليست كذلك؟"

"نعم، كذلك *حقوق المؤلف* عبارة أخرى لطيفة. لكن، لا تتصرفي بمال أي من الاثنتين بعد"

"لا تاتي، لن أفعل ذلك" وذهبت إلى النوم تغمرني السعادة.

في إحدى الأمسيات في أوائل أيار، كنت وإيرنست نمضي الوقت في الخارج وحدنا في الدينغو حين جاء سكوت فيتزجيرالد وقدم لنا نفسه.

قال فيتزجيرالد: "أنت همينغواي، لقد عرض علي فورد إحدى قصصك منذ أسابيع قليلة وقلت له: *حسناً، هذا هو ما ننشده، أليس كذلك؟ هذه هي المادة الأدبية الحقة*"

قال إيرنست: "آسف، لم أقرأ أياً من كتبك"

"لا بأس. لست واثقاً من أنني سأستمر في كتابتها. منذ أن وصلت وزوجتي إلى باريس كانت هناك ألف حفلة، ولكن لم يكن هناك عمل على الإطلاق"

ضيّق إيرنست عينيه، ونظر إليه من خلال الضوء الخافت قائلاً: "لا يمكنك أن تنجز شيئاً على هذا النحو"

"أتظنني لا أعرف ذلك؟ لكن زيلدا تحب الرقص. عليك أن تلتقيها، إنها مذهلة" وتحولت عيناه إلى حلبة الرقص حيث وقف عدد من الأزواج مشكلين خطاً لرقصة التانغو، ثم تابع: "لدي رواية صدرت للتو، تدعى *The Great Gatsby* *غاتسبي العظيم*"

قال إيرنست: "سأبحث عنها. كيف حالك وأنت تنتظر التعريف بالكتب؟"

"هذا ليس بالأمر الصعب بالنسبة لي. بل ليس شائكاً على الإطلاق كعناء كتابتها أصلاً. وما إن أحصل على كل شيء، لا أستطيع المضي قدماً. مثل غاتسباي هذا. الحقيقة أنني أعرفه جيداً كما لو كان ولدي. لقد مات ولا أزال قلقاً عليه. أليس هذا مضحكاً؟"

سألته ولدي الرغبة في أن أستجمع شجاعتي لأخبره أنني قرأت أحد كتبه: "ألا تعمل على أي شيء الآن. أعني بعيداً عن الرقص؟"

ومضت أسنانه الجميلة تحت الضوء وهو يقول: "كلا. ولكن، سوف أكتب إذا كنت تعدينني بأن تعجبي بكل كلمة أخطها إلى أبعد الحدود. أخبريني، ما رأيك في ما كتبته حتى الآن؟"

بعد ساعة أو ما يزيد أوصلنا سكوت إلى سيارة أجرة.

قال إيرنست حين انطلقت السيارة بعيداً: "أنا لا أحب الرجل الذي لا يتحمل الشراب. لقد ظننت أنه سيفقد وعيه على الطاولة"

"لقد بدا مصاباً بالغثيان، أليس كذلك؟ ولقد طرح أسئلة شخصية على نحو مريع. هل سمعته حين سألني إن كنت قد وقعت في غرام والدي في يوم ما؟"

"وطرح علي السؤال نفسه أيضاً، كما سألني إن كنت أخاف من الماء، وإذا كنا قد نمنا معا قبل العرس. إنه غريب جداً، أليس كذلك؟"

لقد كان غريب الأطوار فعلاً، وكان من الممكن أن يكون ذاك لقاءنا الأخير مع فيتزجيرالد لو لم يسعَ للحصول على عنواننا، ويرسل لنا نسخة من كتاب غاتسبي العظيم كهدية. وضع إيرنست الكتاب على الرف بعد أن فض غلافه،

وكان من الممكن أن يدخل عالم النسيان لو لم يتملكني الفضول لقراءته. لم يكن كئيباً، على الأقل في بدايته، وحين بدأت الأمور تصبح رهيبة جداً بصورة متسارعة كنت قد استغرقت تماماً في القصة.

التهمت الرواية التهاماً، وأثارت إعجابي إلى أبعد الحدود، فأشرت على إيرنست بقراءتها فأنهاها في عصر يوم واحد معلناً أنها رواية في منتهى الروعة، ثم كتب ملاحظة لفيتزجيرالد بذلك. لاحقاً، بعد عدة ليال، التقينا جميعاً في النيغر دو تولوز. كان فيتزجيرالد وزيلدا هناك حين وصلنا، وحين وقفت زيلدا لمصافحتنا كانت الثمالة قد بدأت تتسرب إلى وعيها فغدا ضبابياً، وقد بدت وكأنها قد صقلت تلك الضبابية فجعلتها سمة راقية. ثوبها كان ضيقاً وباهت اللون وذا طبقات رقيقة وشفافة الواحدة فوق الأخرى؛ تحركت حولها على نحو حالم حينما جلست. كانت بشرتها جميلة وكذلك شعرها المتماوج، كل ما فيها كان بلون واحد باستثناء فمها الذي كان مرسوماً بخطوط مستقيمة ثابتة ولون أحمر داكن.

وقف سكوت حين اقتربنا من طاولتهما، فيما ابتسمت زيلدا بصورة غريبة مضيقة عينيها. لم تكن جميلة على وجه الدقة، ولكن صوتها كان منخفضاً وحضارياً.

قالت: "كيف حالك؟" ثم التفتت بسرعة إلى إيرنست قائلة: "يقول سكوت إنك تمثل جوهرة التاج"

"أهذا صحيح؟ وهو يقول إنك مذهلة"

"ألست بحق فاتناً يا عزيزي؟" قالتها وهي تمرر يدها على طول جانب رأس سكوت المنحوت. وبهذه الحركة التي يمكن أن تكون في قمة السخافة، انزلقت هي وسكوت وراء شبكة خاصة في عالمهما الصغير الخاص بهما. عيونهما تعلقت ببعضها، فلم يعيا بعدها وجودنا أو وجود أي شخص آخر في المقهى البتة. وحدهما كانا هناك غارقين في نظرة سرية طويلة.

لاحقاً، راقبناهما وهما يرقصان معاً التشارلستون، وقد تركا الانطباع نفسه لدينا. لم يثبا بهمجية كالأزواج الآخرين، بل كانا ناعمين كسطح الزجاج، وأذرعهما تتلوى جيئة وذهاباً كما لو كانت مربوطة بأوتار.

تواثب ثوب زيلدا كلما تحركت، وكانت تسحبه أبعد حتى من أعلى حمالات جوربيها. كان ذلك منظراً صادماً، ولكن لم يبدُ أنها كانت تتعمد أن تصدم أحداً. كانت ترقص لنفسها ولسكوت وحسب، وكانا يتحركان في فلك بعضهما باتزان ورباطة جأش لا تصدق، وعينا كل منهما لا تبارح عيني الآخر.

سألت إيرنست: "ما رأيك بها؟"

"إنها ليست بجميلة"

"كلا، لكنها تملك شيئا ما، أليس كذلك؟"

"أعتقد أنها مجنونة"

"لست جاداً!"

"بل أنا جاد. ألم تنظري إلى عينيها؟"

في آخر الأمسية، دعانا سكوت وزيلدا إلى بيتهما في حي حديث على الضفة اليمنى من نهر السين خارج الإتوال. كان البناء تبدو عليه ملامح الثراء، وبالإمكان ملاحظة ذلك على الفور، ولكن ما إن دخلنا حتى فوجئنا بفوضى عارمة تلف المكان. إذ كانت الملابس والكتب والأوراق وحاجيات الطفل مبعثرة في كل مكان، واضطررنا إلى إزاحة كومة كبيرة من الأغراض جانباً لنفسح لأنفسنا مكاناً للجلوس على الأريكة، إلا أن سكوت وزيلدا لم يبدُ عليهما الحرج على الإطلاق، بل استمرا في تسلية بعضهما كما كان حالهما في المقهى ولكن بصوت أعلى. وتعالى الضجيج في الواقع، حيث سمعنا بكاء طفل يصدر من عمق الشقة، ثم جاءت مربية إنكليزية تحمل سكوتي - ابنتهما الممتلئة - بثوب النوم، وقد وضع شريط عريض على جانب شعرها الأشقر الجميل. وكان وجهها قد تجعد بشكل جميل من الوسادة.

قالت زيلدا: "ها هي غاليتي" ونهضت لتتناولها وترفعها إلى الأعلى قائلة: "ألست حَمَلاً شهياً؟" ابتسمت الطفلة بنعاس، وبدت مسرورة، ولكن في اللحظة التي جلست فيها زيلدا مع الطفلة على كرسي هزاز مذهب ومهترئ، أصبحت مشغولة بالتقاط نفحات من حديث سكوت وإيرنست، إلى درجة أن الطفلة انقلبت من حضنها ووقعت على الأرض دون أن يبدو عليها أنها قد لاحظت ما حصل. فانقضت المربية وخطفت بسرعة سكوتي التي كانت تنتحب.

التفتت زيلدا إلي متسائلة: "ماذا كنت تقولين؟" كانـت عيناهـا تنظـران بتشتت وغرابة، وكأن عقلها على كوكب آخر كلياً. وتابعت كلامهـا قائلـة: "أتعلمين؟ أموت شوقاً لتصبح ابنتي سكوتي شابة حرة وجميلة، ويتعذر فهمها"

قلت: "إنها بديعة"

"أليست كذلك؟ إنها لن تكون يوماً قليلة الحيلة. يمكنك دون شك أن تـري ذلك" أصبح تركيزها وهي تتكلم مفاجئاً ومرعباً.

قلت موافقة: "نعم" وتساءلت عمّا إذا كان إيرنست على حق. ولكن، مـن يستطيع أن يفصل بين الجنون الحقيقي وتأثير الشراب الذي يتم يتناوله باسـتمرار وفي كل مكان؟

حسب علمي، لم تتوقف الحفلات قطّ بالنسبة لهذين الشخصين. بعد أقل من أسبوع، ظهرا أمام شقتنا في المنشرة عند الساعة السادسة صباحاً، وكانا لا يزالان ثملين من ليلتهما المنصرمة. كنا لا نـزال غارقين في النوم حين طرقا بابنا صادحين بالغناء باسمينا. لم يبد عليهما الاكتراث بكوننا في ثياب النوم. أعددنا لهما القهـوة ولكنهما لم يشرباها، بل راحا يضحكان ويقسمان يمين الولاء لبعض فناني الباليـه الذين صادفاهم في المقهى في الليلة السابقة، والذين لم نسمع بهم إطلاقاً.

قال سكوت: "زيلدا حساسة جداً تجاه الفن؛ فهي ليست من هـذه الأرض مطلقاً"

تغير وجه زيلدا وصار متجهماً وقالت: "لن تخبرهما يـا حبيبـي، ألـيس كذلك؟"

فأجابها: "ربما ينبغي علينا أن نفعل حبيبتي، فهما سيخمنان ذلـك علـى أي حال"

"إذاً، حسناً" اتسعت عيناها وتابعت: "قبل وقت قصير، كنت مغرمة إلى حد بعيد برجل آخر، كاد ذلك يقتلني ويقتل سكوت أيضاً"

نهض سكوت وأتى بحركة كما لو كان يسوي شـعرها دون أن يلامسـها في الواقع، فيما تابعت: "كاد ذلك يقتلنا، ولكن الواقع أنه قتل ذلك الرجل. كان الأمـر مرعباً للغاية. جميع الصحف تناقلت الخبر. لا بد أنكما قرأتما شيئاً ما عن الموضوع"

هززت رأسي وقلت: يؤسفني أنكما اضطررتما للمرور بهذا كله. يبدو مفزعاً"

فقالت زيلدا: "أجل، حسناً" بدت لحظتها وكأنها تخلصت من تأثير الحادثة على الفور، كما لو أن مخرجاً غير مرئي نادى بكلمة مشهد فانتهى كل شيء. "لقد أراد الرجل أن يموت من أجلي. وقد جعلتني تلك الحادثة أنا وسكوت أشد قرباً من بعضنا"

انحنى إيرنست إلى الأمام محدقاً في فنجان قهوته دون أن ينبس ببنت شفة. أمكنني أن أعرف أن رأيه لم يستقر حول هذين الاثنين. فهما بالتأكيد لم يبدُوَا من نمط أصدقائنا، ولكنني لم أكن واثقة من أنني ما زلت أعرف ما هو ذاك النمط، فقد باتت القواعد تتغير باستمرار.

عندما ذهبا قال إيرنست: "كنت أعلم أنها غريبة الأطوار، ولكنني الآن أتساءل بخصوصه أيضاً. إنها تمتصه وتبتلعه تماماً؛ كما لو كانت من مصاصي الدماء"

قلت: "بالفعل، إنها تبدو وكأنها تجر سكوت بسهولة بسلسلة قصيرة"

رد إيرنست: "ما كنت لأتحمل ذلك"

فانبريت للإجابة كمن يدافع عن نفسه: "وأنا ما كنت لأرضى لك بذلك"

"ماذا جرى لك تاتي، أنا لم أقصد أي شيء. أنت لا تشبهين زيلدا على الإطلاق؛ فهي تتملكها الغيرة من عمل سكوت، وأظنها ستكون في قمة السعادة إن أقلع عن كتابة كلمة أخرى إلى الأبد"

"لن يمكنهما تحمل مصاريفهما إن توقف عن الكتابة"

"أخبرني أنهما صرفا ثلاثين ألف دولار في العام الماضي، وكأنهما يسبحان في بحر من المال"

"هما يعيشان بثلاثين ألفاً، ونحن نعيش بثلاثة آلاف. هذا غير معقول!"

"أظن أننا نعيش أفضل منهما، أليس كذلك؟"

"نعم" قلت بتشديد كبير.

بدأ بامبي الذي كان في الغرفة المجاورة يحدث ضجة، فوضعت فنجان القهوة من يدي، ونهضت لأتفقده في حين قال إيرنست: "أنا لا أرغب في العيش مثلهما. ولكن، من المؤلم رؤية هذه الأموال تضيع كلها ببساطة بينما لا نحصل نحن على شيء. ما رأيك في أن أقترض المال من سكوت من أجل سفرنا إلى بامبلونا في حزيران؟"

"هل تعتقد أننا نعرفهما بما يكفي لأجل طلب كهذا؟"

"ربما لا. لكن، علينا أن نصل إلى هناك بطريقة أو بأخرى. إذاً ربما نقترض من دون ستيوارت؟"

قلت: "إنه إنسان طيب"

"نعم، ولكن سأخبرك أمراً. الجميع يريدون المشاركة بهذه الرحلة، والأمور تغدو شديدة التعقيد"

"لا تزال تفصلنا أسابيع عن الموعد. إلى أي حد يمكن أن تبلغ درجة التعقيد؟"

"أنت لا تريدين معرفة ذلك"

الفصل الحادي والثلاثون

في ساحة المحطة، اندفعت الثيران نازلة من السيارات وهي تتلوى مذعورة وقد استدارت عيونها وغارت في رؤوسها. لم تكن تدري أين المسار، وكان من الصعب علينا إمعان النظر إليها لأننا كنا نعلم أنها في نهاية اليوم ستكون قد لاقت حتفها. كان الوقت صباحاً والجو بارداً بالنسبة لشهر حزيران. تصاعد الغبار من جرّاء ضرب الثيران بحوافرها، وانتشر في الهواء واخزاً عيوننا، وأشار إيرنست إلى المكان المحدب ذي العضلات بين لوحي الكتفين ليدلنا على المكان الذي يجب أن يصيبه السيف.

قال هارولد لوب: "أجل يا سيدي، تلك لحظة الحقيقة"

بان الامتعاض على وجه إيرنست وقال: "وما الذي تعرفه أنت حول الموضوع؟"

فأجابه هارولد: "أعرف بما فيه الكفاية على ما أظن

في تلك اللحظة، ظهرت داف، ووضعت يدها داخل ذراع إيرنست المثنية وهي تقول: "كل شيء رائع، أليس كذلك؟" ونظرت إليه بعينيها المتغضنتين وابتسامتها العريضة، فبدت كطفل على وشك الحصول على كل شيء كما يريد. "هذا يجعل المرء رغم ذلك يحس بالجوع، فمن سيطعمني على أي حال؟"

"أوه، حسناً. بكل تأكيد" قالها إيرنست وهو لا يزال ممتعضاً، واتخذ الاثنان طريقهما نحو المقهى. كان إيرنست يعتمر قلنسوة، ويرتدي سترة بحرية وسروالاً أبيض، وقد عقد وشاحاً غامق اللون حول رقبته. أما داف فكانت كاملة الأناقة كعادتها أبداً بسترتها القطنية الطويلة وياقة الإتون الحريرية ذات اللون الأخضر الفاتح، وقد سرحت شعرها إلى الوراء بعيداً عن جبينها. كانت تسير بقامة منتصبة

وممشوقة، وكان إيرنست يجاريها بخطواته وقد رفع ذقنه بطريقة فخورة. لقد كان لا يزال غاضباً من هارولد بالرغم من محاولته استيعاب الموقف. بدا الاثنان من الخلف كما لو كانا ينتميان إلى مجلة للأزياء، وقد رأيت أن خطيب داف - بات غوثري - يلاحظ ذلك أيضاً، بل إن الجميع كانوا يلاحظون الأمر.

شعرت بالحزن لأجل بات، غير أنني ما كنت لأرغب بالعيش معه. كان كثير الشرب، ومن الممكن أن يصبح مزعجاً على نحو فظيع حين يفعل ذلك. في كل يوم، كان يبدأ أمسيته مشرقاً ومسروراً بكل ما حوله. وكان يحب الحديث عن الموسيقى الرائجة، ويمكنه أن يغني ويرقص بكثير من الطاقة والحماسة. ولكن، بعد ثلاث جولات من الشرب أو أربع، يتغير شيء ما داخله فيغدو ساخراً ومتعالياً. وإذا استمر بالشرب ولم تصرفه عنه داف، فإنه يصبح نكداً ومتجهماً. كنت أتساءل كيف استطاعت داف التأقلم مع تغير مزاجه، أو كيف كان يفعل ذلك. حين يستيقظ، ألم يكن يشعر بالاشمئزاز من الطريقة التي كان يتغير فيها سلوكه من منحى إلى آخر؟ هل كان يتذكر شيئاً من ذلك؟

قال لي هارولد وهو يقترب مني: "ما رأيك بأن نشرب حتى يحل الظلام؟"

ابتسمت، وأمسكت يدهُ رغبة مني في جعله يشعر بالتحسن ولو للحظة. ربما إن لازمنا بعضنا فسيحاول هو أيضاً جعلي أشعر بالتحسن. يعلم الله أنني بحاجة إلى ذلك.

بدأت الرحلة بشكل سيئ. ففي الأسبوع السابق، حين ذهبنا للصيد في إيراتي - أحد الأنهار المفضلة في العالم لدى إيرنست - وجدناه غير صالح لذلك كلياً. حاولت مديرة الفندق الذي نزلنا فيه أن تلفت نظر إيرنست إلى أن زمن الصيد قد ولّى، لكن إيرنست ضحك منها. كان عمال قطع الأشجار هناك من أجل الحصول على أشجار السنديان والصنوبر. وحين وصلنا إلى النهر، وجدناه مليئاً بالنفايات والأنقاض العائمة. كانت السدود قد فككت، فيما غطت الأسماك النافقة الضفتين وسدت البرك الصغيرة. كان هذا كله أكبر من أن نستوعبه، ولكننا تحملنا الوضع لعدة أيام محاولين التوجه أبعد نحو الجداول الأصغر. لكن أحداً منا لم يحظ بسمكة واحدة.

كان بيل سميث، أحد أصدقائنا القدامى من شيكاغو، بصحبتنا بعد أن أغرته مقالات إيرنست حول الصيد على مستوى عالمي وصراع الثيران الذي يليه. و لم نكن قد التقيناه مطلقاً منذ أيام السكن المشترك. فحين تشاجر كينلي وإيرنست بدأ التوتر يرشح إلى صلاتنا مع جماعة سميث كلها، ولكننا منذ ذلك الحين استأنفنا علاقة شبه منتظمة مع كيتي التي عادت إلى شيكاغو لتعمل كصحفية. وحين وصل بيل ليلتقينا في باريس كنا سعيدين لأننا وجدناه الشخص نفسه الذي عرفناه دائماً؛ فهو يفيض بالقصص الحيوية، وثابت العزم تجاه أي شيء.

جلب بيل معه كل ما يملكه من ذبابات صيد صناعية مضمونة النتائج من أجل رحلة إسبانيا - الذبابات الرابحة جميعها من صيد الصيف الذي أمضياه في ذا سترجون أو ذا بلاك في ميشيغان - غير أنني اعتقدت أن إيرنست كان على وشك أن يبكي حين فتح بيل صندوق عدته ليكتشف إيرنست أن أدواته غير مفيدة كلها.

في بامبلونا، كنا لا نزال نشعر بعدم الرضى. حولنا الكثير من الأصدقاء، ومن المتوقع أن يكون الجو مرحاً ولكنه لم يكن كذلك. في باريس، حام إيرنست وداف حول بعضهما، ولكن كل شيء بدا بريئاً في معظم الأحيان. ومع ذلك، طرأ أمر ما مغيّراً الموقف، ذلك الأمر كان هارولد. فقد وقع في حبّ داف، وأبعدها لمدة أسبوع إلى سانت جان دو لوز. حين أخبرتني كيتي عن الواقعة، قالت إن هارولد كان في الفترة الأخيرة غريباً إلى درجة أنها توقعت شيئاً من هذا القبيل. لم أفهم يوماً علاقة الحب التي ربطت هارولد وكيتي على الإطلاق. لكنني الآن شعرت إلى حد بعيد بالحيرة، بل وبالانزعاج بسبب ردة فعل إيرنست المتطرفة. إذ لم تكن لديه أي حقوق على داف، ولا شيء من هذا كان ينبغي أن يهمه على الإطلاق، ولكن ما حدث كان العكس. وفجأة علم الجميع بالأمر.

في الصباح بدأ الصراع. استيقظنا جميعاً مع الفجر لرؤية الثيران تجري عبر الشوارع. كانت المرة الأولى التي شاهدت فيها صراعاً للثيران في الصيف الذي كنت حاملاً فيه ببامبي، بدا أن كل شيء قد مر بسرعة هائلة، إلى درجة أنني لم أعد قادرة على تذكر ما رأيته. في هذه المرة، كان بامبي بأمان في باريس مع ماري كوكوت، وعلى الرغم من أنني أردت الحصول على استراحة كنت بحاجة

إليها من المهام المتواصلة للأمومة، إلا أنني لم أعرف تماماً كيف ينبغي أن أشعر وقد حظيت بشيء من الحرية.

كانت الشوارع زلقة في ذلك الصباح بعد أن تساقط مطر خفيف قبل الفجر، وكان بالإمكان مشاهدة الثيران وهي تشق طريقها بجهد على الطرقات المفروشة بالحصى. انهار أحد الثيران مكافحاً وقد مد رقبته الثخينة إلى الأمام وابيضت عيناه، وتراءى لي وكأن الأمر كله يمر بحركة بطيئة.

كنا واقفين بالضبط وراء حائط منخفض، قريبين بما فيه الكفاية لنشم رائحة عرق الثيران، ونستشعر حماسة الجميع، رغم أن بعضنا لم يكن يتابع ما يجري، أو لم يتمكن من المشاهدة.

"تكاد الثيران تعود إلى فترة ما قبل التاريخ" هذا ما قاله إيرنست لبيل في الليلة السابقة في المقهى. "لقد تمت تربيتها منذ ستمائة سنة لتفعل ما تقوم به. لتجري نحو الحلبة، ولتنطح ما أمكنها في طريقها متوجهة إلى موتها المحتّم. اللعنة! إنه أمر رائع، انتظر وسترى بنفسك"

"أنا جاهز لذلك" هذا ما قاله بيل حينها، لكن بدا أن قناعته قد تذبذبت على الشارع حين تمكن من رؤية كل شيء بوضوح. فبينما كنا نتابع، إذا بشاب يركض قريباً جداً من ثور سمين، واندفع بقوة باتجاه الحائط على بعد 20 قدماً فقط من مكان وقوفنا. كان بإمكاننا سماع ذراعه تنكسر وراء ظهره. صرخ وهو يحاول تسلق الجدار وعلامات الرعب مرتسمة على وجهه على نحو فظيع.

"أهذا كثير عليك يا فتى؟" قال إيرنست حين رأى بيل ينظر إلى ناحية أخرى.

فأجابه بيل: "ربما"

كان إيرنست واقفاً بجانب داف متوهج اللون، فخاطبها قائلاً: "انظري إلى هناك، الآن" وأشار إلى الطريق الذي يسلكه الثور مقترباً من شاب، وقد انحنى رأسه نحو الأسفل. "نظر الثور ضعيف جداً، ولكنه يشم رائحة الشاب، وهو يأخذ وقته. انظري إليه الآن، إنه قادم، أقسم على ذلك"

قال بيل موجهاً كلامه لإيرنست بصوت منخفض: "لا يمكنني أن أصدق أن هذه رياضة بالنسبة لك"

فأجابه: "وما عساها تكون غير ذلك؟ إنها الحياة أو الموت يا أخي؛ كما هـو الحال كل يوم"

اندفع الثور إلى الأمام متوجهاً نحو الشاب، ومحاولاً إصابته بقرنه الأيمن وقـد أمال رأسه الضخم إلى الجانب فبدا كالشيطان فعلاً، وانطلق يخب بسرعة فائقة نحو الشاب الذي راح يتسلق الجدار. ولكن، فجأة ظهرت يد مـن الجهـة الأخـرى وقدّمت له المساعدة. لم نتمكن من معرفة من قدم المساعدة، ولكن ذلـك كـان كافياً؛ إذ حصل الشاب على دفع كاف ليصعد على الجدار ومن ثم أصبح حـراً. وتصاعد هتاف بسيط من الجموع حين عرفوا أنه أصبح سالماً.

قال بيل وهو يرمق إيرنست بنظرة حادة: "أظن أنك تشعر بخيبة الأمل"

"إطلاقاً"

سألت داف: "أكان من الممكن أن يصيبه مكروه؟"

"ذلك ممكن، وقد شهدته بأم عيني"

فقالت: "يا له من أمر مثير للحماسة! أليس كذلك؟"

"إنه أفضل عرض متوافر على الإطلاق"

مر آخر ثور أمامنا، ثم جاء الرعاة وراء الثيران بعصيهم، وانطلق الصاروخ؛ مما يعني أن الثيران كلها سليمة في الحلبة.

قالت داف: "هذا جميل" كنت أحاول أن أتذكر إن كنت قـد وجـدت ذلك جميلاً في المرة الأولى التي حدّثني فيها إيرنست عنها؛ كما يفعـل الآن مـع داف.

لقد تغيرت حياتي كثيراً في السنتين القصيرتين اللتين مرتا منذ ذلـك الحـين، ولكنني أتذكر أنني كنت متحمسة وإنما هادئة بشكل غريب؛ لأنني كنت حـاملاً وأشعر بالأمان وبأنني محمية من كل شيء على أحسن وجه. كان جسمي يقوم بما يتوقع منه أن يفعله، وهذه الحيوانات أيضاً كانت تعيش مصيرها. كـان بإمكـاني المشاهدة دون الشعور بالصدمة أو بأنني أتعرض للافتراس، بل كان حسبـي أن أجلس بالقرب من إيرنست وأنا أخيط الملابس والبطانيات بلا توقف مـن أجـل الوليد الذي سيطل علينا بعد ثلاثة شهور، بغض النظر عما حدث في ذلك اليـوم. وأتذكر بأنني كنت أشعر ليلاً بأنني مفعمة بالمشاعر الجميلة حيال كل شيء يحدث،

كما أتذكر رقصة *رياو - رياو* والألعاب النارية التي لا تتوقف في الشارع والتي جعلت من النوم أمراً مستحيلاً بسبب ضجتها.

بدا في تلك السنة وكأننا كنا الأمريكيين الوحيدين في بامبلونا التي أطلق عليها إيرنست أجمل الصفات؛ لكن هذا تغير بكل تأكيد الآن. فسيارات الليموزين لا تفتأ تنقل الجماعات من بياريتز، والسائقون ذوو الملابس الموحدة يفتحون الأبواب طيلة الليل ثم ينتظرون بالقرب من سياراتهم حتى يتعب المحتفلون ويرتدون إلى الشرنقة الجلدية ورائحة الشراب النتنة تفوح منهم. ولكن، حتى إن كان قدوم الأغنياء يفسد كل شيء فإن كل شيء قد أفسد سلفاً.

كان هارولد لا يزال متيماً بداف. يمكنك رؤية ذلك على الغداء حين أضحى شاحب اللون وفيكتوريّ التصرفات معها لدقيقة، ثم في الدقيقة التالية بدأ يتشاحن مع النادل للتأكد من حصولها على مشروبها.

"أوه، الأمور بخير يا عزيزي" علقت داف. "أنا لا أزال على قيد الحياة هنا، بالنسبة للوقت الحالي على الأقل"

كنا جميعاً مزدحمين حول مائدة في الهواء الطلق. جلس كل من داف، وإيرنست، وهارولد في ناحية، وبات، وبيل وأنا في الناحية الأخرى. كان بات يرتدي بذلة صيفية جميلة ذات سترة زرقاء من الكتان. اختفى خارجاً لبرهة ليعود بقلنسوة مماثلة لقلنسوة إيرنست بالضبط، فوضعها عالياً على رأسه في زاوية ممتازة. ومع ذلك، مع كل زركشات بات المتحضرة، في اللحظة التي يهتم فيها هارولد بداف بشكل جلي، كان يفقد أعصابه ويصبح مولعاً بالقتال. إذ صاح بهارولد بصوت عال:

"هلا استرحت يا هارولد. اذهب في نزهة حول البناء"

فرد هارولد: "لِمَ لا تخرس؟ أو سأخبرك بما يجب أن تفعله، تناول كأساً أخرى من الشراب فقط" واستدار نحو الخلف، وصاح بملء صوته حيث لم يكن هناك أحد: "أحضر شراباً لهذا الرجل

في تلك اللحظة، دخل دون ستيوارت وقد بدا جذاباً ونظيفاً ببنطاله الرمادي وقميصه الأبيض الجديد. وما إن ألقى نظرة على الطاولة حتى استشعر التوتر على الفور فسأل: "من مات أيها الرجال؟"

فرد إيرنست: "لا أحد ذا شأن"

قلت: "فجأة أصابني ألم شديد في الرأس، أرجو أن تعذروني جميعاً" وأسرعت بالالتفاف حول الطاولة من جهتي ووقفت إلى جانب دون.

فقال إيرنست: "لِمَ لا تسير مع الطفلة المسكينة إلى البيت دونالد؟"

قلت: "أنا بخير، سأكون بخير"

لكن دونالد هتف: "هراء، أنت شاحبة كالأشباح"

وحتى قبل أن نبلغ الباب، كانت الفجوة التي خلفتها على الطاولة قد أغلقت وكأنني لم أكن هناك. أضحى إيرنست أقرب إلى داف، وأقحم بات نفسه ليكون أكثر قرباً منها أيضاً. أما داف فقد جلست وسط الجميع مثل جزيرة عائمة، و لم يبدُ عليها أنها تلحظ شيئاً مما يجري حولها.

كنت ممتنة لأن دون تبرع بمرافقتي إلى البيت. فقد كنت في الواقع أعاني من شعور رهيب بالوحدة، وكان دون من النمط الذي يسهل التواحد معه. منذ أن اجتمعنا في الصيف الماضي، كان يسعى لرفقتي حين نخرج معاً في مجموعات. وشعرت أنه توأم روحي لأنه هو أيضاً لم يكن متلائماً تماماً مع باريس. كان كاتبا ذكياً وداهية، درس في جامعة ييل، ولكن في نواحٍ عدة كان لا يزال ذلك الصبي الذي كبر في مزرعة خارج كولومبوس، أوهايو. في باريس، كان الجميع قساة ودراماتيكيين ومنغمسين في رمي أنفسهم في التهلكة لأجل بعضهم بعضاً.

قال لي في إحدى المرات: "بت أعرف لم لا يكترث أحد بالقواعد المعتادة. لقد كنتُ في الحرب أيضاً كما تعلمين. لا شيء هناك يبدو كما كان، أو يولد لدينا المشاعر السابقة نفسها فما الفائدة؟" بات وجهه أكثر جدية وهو يستطرد: "ومع ذلك، أفتقد إلى الشرفاء من الطراز القديم الذين دأبهم السعي فقط للاستفادة من الحياة؛ بكل بساطة، ودون إزعاج أي إنسان آخر. أعرف أن هذا يجعل مني إنساناً ساذجاً"

"أراهن على أنك ترغب بالعثور على فتاة تشبه أمك"

"ربما. فأنا أريد أن تعود الحال منطقية مرة أخرى. فهي لم تعد كذلك منذ زمن طويل

كنت أعتقد أنني أفهم دون في ذلك الوقت. ولكن الآن، حين أعادني إلى الفندق بت أشعر أن صلتنا أشد قوة. فأنا أيضاً رغبت أكثر من أي شيء آخر بأن تعود الأمور منطقية.

سألني: "كيف حالك يا رفيقتي؟ هل أنت قادرة على التماسك؟"

"أظن أنني أفعل ذلك أفضل من بعضهم. يا لهارولد المسكين!"

"هارولد مسكين؟! ماذا عن بات؟ إنه هو صاحب الحق في داف"

"يبدو وكأن العلاقة بينهما فضفاضة بالنسبة لي. لقد جرّت هارولد وراءها إلى الريفييرا لمدة أسبوعين، ثم بدت متفاجئة من خواره عليها كعجل حزين، والأكثر من ذلك أن بات سيُجنّ بسبب ذلك. يالفظاعة!"

"لا أظن أنها تعمدت أن تكون فظيعة. لقد بدت حزينة جداً بسبب ذلك كله"

وصلنا إلى الزاوية حيث كانت السوق المفتوحة تنفض لذاك اليوم؛ فوقفت امرأة تضع السلال فوق بعضها، فيما جمعت أخرى الفليفلة الحارة المجففة والحمراء بلون الدم في كيس من القماش. بالجوار، جلست طفلة على الوحل ممسكة بدجاجة وهي تغني لها. أبطأت كي نتمكن من مشاهدتها لمدة أطول. كان شعرها الأسود الرائع يحيط بوجهها البيضوي الشكل كإطار، وقد راحت تدلل دجاجتها وهي تغني لها وبدت مفتونة بها.

قال لي دون: "أنت تنظرين إليها كما لو كنت تريدين التهامها. لا بد أنك تفتقدين بامبي"

"إلى درجة الجنون. من الأسهل ألا أفكر به. أحياناً أحدث نفسي بأنني شخصان. فأنا أمه حين أكون معه، وإنسان آخر حين أكون هنا بعيدة عنه"

"هادلي الخاصة بِهيم"

"ربما، أو لعلي هادلي الخاصة بنفسها" كان بإمكاننا رؤية قنطرة فندق لابرلا وحائط بوغينفيلا المزركش. توقفت واستدرت نحوه سائلة: "لم لست ملتصقاً بداف كما هو حال الآخرين جميعهم؟"

"إنها مغرية بالفعل، ومن السهولة بمكان الاستسلام لإغوائها. لقد طلبت إلي التكفل بأمر فاتورتها في الفندق، أتعلمين ذلك؟ لأنها لا تستطيع أن تطلب ذلك الآن من هارولد. وربما طلبت ذلك من هيم أيضاً"

"لن يفاجئني ذلك"

"هل أنت وهيم على ما يرام؟ لا أظنه من الغباء إلى درجة تجعله يتخلى عنك من أجل تلك المرأة ذات السترة الجميلة، أيمكن أن يفعل؟"

أحجمت عن الإجابة وقلت: "ربما يتعين علينا أن نتناول مشروباً ما"

"أنا آسف. ما كان ينبغي لي أن أقول ذلك. إنني أقدركما كثيراً. وإن لم تتمكنا أنتما الاثنان من النجاح في علاقتكما، فما الفرصة التي يملكها بقيتنا؟"

"إنك في الواقع لطيف جداً يا دون" قلت ذلك، واقتربت منه وقبلته على وجنته. كان حليق الذقن، فبدت بشرته ناعمة وكأنها بشرة طفل صغير، ورائحة النظافة تفوح منه.

قال لي بحرارة: "قد تكونين أفضل فتاة في الوجود" ورد لي القبلة. كانت شفتاه جافتين ومحتشمتين على خدي، ولكنه بعد ذلك تحرك قليلاً وقبلني على شفتيّ. وحين ابتعد، كانت عيناه دامعتين وتنضحان تساؤلاً: "لا أفترض أنك تحبينني أيضاً ولو قليلاً، أليس كذلك؟"

"أتمنى لو أنني فعلت يا دون. لكانت الأمور قد توازنت" ثم أحطت رقبته بذراعي وضممته بحميمية للحظة مستشعرة ما يختلج في نفسه من حزن واضطراب وقلت له: "هذا المكان جعلنا جميعاً نغدو مجانين"

"أنت لست غاضبة مني، أليس كذلك؟"

"كلا، بل أعتقد أن صداقتنا غدت أكثر متانة الآن"

"أليست هذه طريقة لطيفة للتعبير؟ كنت أعرف أنني لم أكن مخطئاً في رأيي بك" تراجع قليلاً، وراح يبعد الشعر عن عيني ثم أضاف: "آمل أن يكون هيم مقدراً لما لديه"

فقلت: "وأنا أيضاً" ثم دخلت الفندق، فوجدت السنيورة تضع قماشاً على قفص عصفورها الشادي.

علقت وهي تحكم تسوية الغطاء حول القضبان: "إنه لا يحب الأسهم النارية. إنها تجعله ينتف ريشه بنفسه. هل رأيت هذا؟"

"لقد فعلت يا سنيورة" ومررت بجانبها وأنا في طريقي لأصعد السلالم. "رجاء، أيمكن أن ترسلي لي شراباً إلى الأعلى؟"

فالتفتت لتنظر إلى من عساه يكون قادماً ورائي، فأضفت موضحة: "كأســاً واحدة فقط"

"هل السيدة بخير؟"

"ليس تماماً، لكن الشراب سيساعد"

الفصل الثاني والثلاثون

حين استيقظت في صباح اليوم التالي كان إيرنست قد استيقظ قبلي ومضى خارجاً. كنت قد سمعته حين عاد متأخراً ليلاً، لكنني لم أتحرك و لم أكلمه. وعندما بلغت الساعة السابعة صباحاً، كنت قد اغتسلت وارتديت ثيابي، ونزلت إلى مقهى الفندق الصغير حيث كان إيرنست بصدد إنهاء شرب قهوته.

قال لي: "طلبت لك البيض. هل أنت جائعة؟"

فأجبته: "سأموت من الجوع. كيف انتهت ليلة أمس؟"

قال: "على نحو جيد ومتوتر

"جيد ومتوتر؟ أم متوتر وحسب؟"

"إلام ترمين بكلامك؟"

"لا شيء"

قال: "سحقاً لهذا، لِمَ لا تقولين ما تفكرين فيه؟"

أجبت: "هل علينا فعلاً أن نتشاجر؟ إنني لم أتناول قهوتي بعد"

"ليس علينا أن نفعل أي شيء. وعلى كل الأحوال، ليس هناك وقت"

ثم نزل بيل السلالم وسحب كرسياً وجلس وهو يقول: "أنا جائع جداً"

"الجوع ينتقل إلينا واحداً تلو الآخر قال إيرنست وهو يشير إلى النادل طالباً إليه إحضار وجبة أخرى لبيل وقهوة بالحليب، ثم وقع الفاتورة وهو يقول: "أنا ذاهب من أجل الترتيبات المتعلقة بالتذاكر، وسأراكم بعد ذلك"

بعد أن غادر إيرنست كان بيل يبدو مرتبكاً، فسألته:

"ماذا حدث فعلاً ليلة أمس؟"

أجاب: "لا شيء أريد تذكره"

قلت: "إذاً، لا تخبرني"

"على كل الأحوال، لست على اطلاع بكل ما حدث. هارولد قال شيئاً ما لبات، حينذاك استشاط هيم غضباً وصاح على هارولد بكلام فظيع. لم يكن موقفاً جميلاً"

"أعتقد ذلك"

"ظهر دون وحاول تسوية الأمور، ولكن كان الأوان قد فات، إذ دعا هارولد إيرنست إلى الشارع ليسوّيا الموقف في ما بينهما"

"هل كان هارولد من طلب ذلك؟ ألم يكن إيرنست من فعل؟"

"كلا، وهذا شيء لافت للنظر بالفعل"

"هل هارولد بخير؟"

"كلاهما على خير ما يرام. لم يمسا بعضهما"

"حمداً لله"

"على ما يبدو، عرض هيم على هارولد أن يمسك له نظارته، وهذا ما كسر حدة الفتنة. إذ ضحك الاثنان وشعرا بأنهما سافلان غبيان لبدئهما بالشجار"

"ماذا اعترانا جميعاً يا بيل؟ أيمكنك أن تخبرني؟"

فأجابني: "لأذهب للجحيم لو كنت أعلم. نحن نفرط في الشرب ونحن مبتدئون. ونريد المزيد فالمزيد. أليس كذلك؟"

"وما الذي نريده بالضبط؟" قلت ذلك وأنا أشعر بالكآبة والتشوش. وتساءلت في سرّي عن التبرير الذي أتى به بيل حين شاهد الطريقة التي رمى بها إيرنست نفسه بكل صراحة ووضوح على داف. ما عساه كان يفكر؟ وما عساه يقول؟

"كل شيء بطبيعة الحال، كل شيء وزيادة" ثم حك ذقنه وحاول أن يمازحني بقوله: "ألم رأسي اليوم يثبت ذلك"

تفحصته للحظة ثم قلت: "إذا كان هذا مهرجاناً، فلم نحن غير سعداء؟"

فتنحنح، وهرب بنظره بعيداً عني وقال: "ينبغي ألا نفوت علينا رؤية الهواة أليس كذلك؟ يقول هيم إنه العرض الأفضل الذي يمكن للمرء أن يحصل عليه مقابل نقوده، وإنه يجب أن ننخرط في الأمر

تنهدت وقلت: "لست ملزماً بإثبات أي شيء له. فأنت لم يبدُ عليك أنك تتقبل الأمر أثناء الجري"

فأجاب وقد لاحت عليه علامات الخجل: "كلا، ولكنني مستعد لتجربة أخرى، فأنا لم أمت بعد"

"ولِمَ يحرص الجميع على قول هذه العبارة؟"

أجابني: "لست أدري. ولكنها جملة دارجة كغيرها"

كان الهواة لوقت طويل هم العنصر المفضل لدى إيرنست. وقد مارس حركات مصارعة الثيران مستعيناً بكل ما أتيح له؛ بدءاً من الستائر ووصولاً إلى معطفي القديم، وأصبح بارعاً فيها. والآن بات بمقدوره أن يهاجم الثيران، وأن يدور بعيداً في اللحظة الأخيرة.

وبعدها، كان يشعر بالنشوة والسعادة تغمرانه ويستمر بالتدرب في غرفتنا في الفندق بالرداء الذي اشتراه من المحل قبالة الساحة، والذي لا يلبي احتياجات السياح. كان الرداء عبارة عن ثوب ثقيل أحمر اللون ذي جديلة سوداء بسيطة تحيط بحافته كلها. بدأ بجمع الفلين من أجل أسفل الرداء؛ لأن الفلين هو ما يتيح للمصارع التحكم فعلياً بالرداء وأرجحته جيداً وبعيداً.

عندما حان وقت الهواة في ذلك الصباح، حمل إيرنست الرداء معه حين نزل إلى الحلبة إلى جانب عشرات الرجال والفتيان التواقين والمستعدين لاختبار دهائهم، بيل أيضاً ذهب لكن هارولد بقي في تلك اللحظة جالساً أسفل مقعد داف، وتفصله عنها عدة مقاعد.

قالت لي داف حين أخذتُ مكاني إلى جانبها: "لا يزال بات ممتقع اللون. لقد كانت ليلة طويلة"

"هذا ما تناهى إلي أيضاً"

"أتعلمين؟ لقد افتقدناك حقاً. فكل شيء أكثر تسلية بوجودك"

رمقتها بنظرة حادة ظناً مني أنها تستهزئ بي، لكن وجهها كان مريحاً ومفعماً بالدفء. كانت مدمرة مع الرجال، ولكنها حمل وديع مع الجميع عدا ذلك، وكان لها طابعها الخاص. لا أعتقد أنها ستقيم علاقة حميمة مع إيرنست؛

حتى إن أراد ذلك؛ لأنها كانت معجبة بـــي وتعلم أن الزواج مهمة كبيرة. فقـــد تزوجت مرتين سابقاً، وتسعى الآن للزواج من بات؛ إن استطاعا معاً تأمين المـــال اللازم لذلك. لقد أخبرتني في إحدى المرات أنها لم تكن ناجحة كزوجة، ومع ذلك فهي ليست قادرة على الإقلاع عن المحاولة.

في الحلبة، كان الفرسان يسيطرون على الأمور بشكل جيد، حيـــث بـــدت الفعالية لطيفة وغير مؤذية. كان هناك ثور واحد في الحلبة في كل مرة، وهذا الثور الأول كان بلون الكاراميل ويتحرك ببطء. جاء إلى جانب بيل، ودفـــع بقائمتـــه الأمامية ردفه، فوقع إلى إحدى الجهتين كشخصية في الرسوم المتحركة، وضـــحك الجميع. كان إيرنست يستعد للدخول في صميم الحدث حين مر بنا هارولد نـــازلاً إلى الحلبة أيضاً.

"أوه هارولد" قالت داف دون أن توجه كلامها لأحد محدد؛ لأنه كان يبدو كالصورة الكاريكاتورية للأمريكي الغني عديم الحيلة بكنـــزته الصـــفراء الباهتـــة المشغولة على نمط "الفير إيزل" وحذائه الأبيض كالثلج. كنا كلتانا نراقبـــه حـــين قالت داف: "أتعلمين؟ أخبرته أن لا شيء يربط بيننا"

فعلقت محاولة أن أكون لطيفة ما أمكنني: "أنا لست متأكدة من أنه سمع ذلك"

"يسمع الرجال ما يعجبهم ويخترعون الباقي

ما إن وصل هارولد إلى الحلبة، حتى نظر إلى الأعلى إلى حيث كنـــا نقـــف وابتسم ابتسامة عريضة. كان الثور ذو لون الكاراميل قريباً من هارولد، ويخطـــو مقترباً منه أكثر حين راوغه هارولد مندفعاً إلى إحدى الجهتين لتفادي قرنيه كمـــا يفعل الجميع. أكمل الثور طريقه خبباً، ثم استدار ليعود مرة أخرى، وهنا أمســـك هارولد بقرني الثور وتركه يحمله بضع خطوات. كان الموقف كما لو كنا نشـــاهد فقرة في السيرك تم التدرب عليها جيداً. لا بد أن هارولد قد فوجئ بنجاحه كمـــا فوجئ أي شخص آخر. ولكن، حين أنـــزله الثـــور إلى الأرض مجـــدداً كريشـــة خفيفة، استدار لينظر إلينا مبتهجاً.

قالت داف: "هذا موقف لم ينل إعجاب هيم البتة" فتتبعت نظراتها إلى حيث وقف إيرنست في الحلبة مراقباً هارولد وقد تجلى الامتعاض واضحاً على وجهـــه. حتى إن أحد المدربين داس على قدمه، و لم يبدُ أنه قد لاحظ ذلك.

علقت قائلة: "إنه لا يتحمل فكرة تفوق رجل آخر عليه" لكنني وداف كنا على علم بغضب إيرنست على هارولد طيلة الأسبوع؛ منذ أن اكتشف لقاء المحبين في سانت جان دو لوز. لقد كان الأمر سيئاً بما فيه الكفاية لكون هارولد قد حظي بداف، في حين كان إيرنست مقيداً بزوجة وطفل. لكن هارولد قضى كل يوم بعد ذلك في بامبلونا يلاحق داف في كل مكان مثل ثور صغير ومريض؛ جاعلاً من نفسه محط سخرية الجميع. كل ذلك كان كثيراً جداً.

كان الثور التالي في الحلبة أصغر حجماً وأكثر سرعة. كان يتحرك كالقط، إذ وثب نحو الجدار الأول ثم نحو الآخر مغيراً اتجاهه بلمح البصر. اقترب منه أحد المحليين بقميصه غامق اللون كثيراً، فتعرض إلى نطحة عند ركبتيه. رفع الثور رأسه عالياً فسقط الرجل من عل ووطأ الثور عليه. تهافت الجميع على الثور محاولين صرف انتباهه. وقد تمكن هيم من فعل ذلك للحظة، بأن أرجح رداءه بشكل واسع إلى جهة واحدة، فيما لوح رجال آخرون بأيديهم صائحين. لكن الثور عاد إلى الرجل الذي لم ينهض بعد، ونطحه فانغرز قرنه في إحدى ساقي الرجل، ثم مال إلى إحدى الجهات محركاً قرنه الأيمن العالق داخل فخذ الرجل تحت ردفه، وممزقاً اللحم نزولاً حتى الركبة. صرخ الرجل بحدة، ورأينا عظم الفخذ يلتمع أبيض، ثم تدفق الدم بغزارة قبل أن يهرع المدربون ويجبروا الثور على التوجه أولاً إلى الجدار، ثم إلى ما وراء السور حيث يتوجب عليه الانتظار مدة تسع ساعات إلى حين يقتل.

كانت تلك نهاية عرض الهواة. إذ سرعان ما خلت الحلبة من وافديها، ونزلت وداف لنلتقي الشبان. لم نتبادل – كلتانا – أي كلمة منذ أن رأينا ما حدث في الحلبة. وحين وصلنا إليهم ألفيناهم صامتين أيضاً.

خرجنا إلى الشارع وأخذنا طريقنا إلى المقهى.

"اللعنة!"، قال بيل وهو يسير إلى جانبي. كان وجهه عديم التعبير وفاقد اللون، وحذاؤه مغطى بالغبار. عثرنا على طاولة، وما إن طلبنا الشراب الذي كنا نحب احتساءه مع الغداء حتى مر في الشارع الرجل الذي تعرض للنطح محمولاً على نقالة وقد غطته ملاءة ملطخة بالدم من الوسط إلى الأسفل.

فصاح شخص ما ثمل من داخل المقهى: *"تورو، تورو"* فجلس الرجل في النقالة. حياه الجميع هاتفين، ومن ثمّ جرى إليه صبي بكأس من الشراب، أفرغ

الرجل محتواها في جوفه ثم رماها فارغة إلى الصبي الذي تلقفها جيداً بيد واحدة. ثم هتف الجميع مرة أخرى.

"يا لها من طريقة جهنمية للحياة، أليس كذلك؟"، قالت داف.

فأجابها إيرنست: "يمكنني أن أفكر في ما هو أسوأ"

وصل شرابنا، ثم أحضر النادل حساء الخضار برب البندورة والخبز الجاف وبعض السمك اللذيذ المعد بالليمون. وبالرغم من أنني لم أتوقع أن أكون قادرة على تناول الطعام بعد ما شهدته، فقد فوجئت أنني كنت جائعة وأنني تلذذت بمذاق كل ما أكلته.

ظل هارولد عند طرف الطاولة متجنباً إيرنست بشكل واضح، ولكن حين ظهر بات أخيراً مع دون كان شاحباً ونزقاً، فبدا أن هارولد لا يعرف إلى أين ينتقل أو مع من يمكنه أن يتكلم بأمان. وحتى نهاية الغداء، كانت طاولتنا أشبه بلعبة معقدة من الشطرنج العاطفي، حيث داف تنظر إلى إيرنست، وإيرنست يُبقي عينيه على بات الذي بدوره كان يحملق بهارولد، وهذا الأخير كان يسترق النظر على نحو ماكر إلى داف. أفرط الجميع في الشرب، وبذلوا جهداً جباراً ليدّعي كل منهم أنه أكثر ابتهاجاً وأقل تأثراً من أي شخص آخر.

همس دون في أذني قائلاً: "يمكنني أن أتحمل الثيران والدم، لكن هذه المسائل المتعلقة بالبشر هي ما يقلب معدتي"

نظرت إلى إيرنست الذي لم يتكلم معي أو حتى يرمقني بنظرة منذ طعام الفطور، ثم قلت لدون: "أجل، ولكن ما السر في ذلك؟"

"يا الله! ليتني كنت أعرف. ولكن، ربما ليس هناك أي سر شرب ما بقي في كأسه حتى آخر قطرة، وأشار إلى النادل ليقدم له المزيد.

قلت: "أحياناً أتمنى لو كان بإمكاننا محو أخطائنا كلها والبدء بنقاء من جديد. وأحياناً، أظن أنه لا يوجد شيء غير أخطائنا"

ضحك بوقار متجهماً، بينما كانت داف على الجهة المقابلة من الطاولة تهمس بشيء في أذن إيرنست الذي ضحك بخشونة مثل بحار. أدرت الكرسي الذي أجلس عليه إلى زاوية بعيدة عنهما؛ حيث لم أعد ملزمة برؤيتهما نهائياً. وما إن فعلت، حتى تراءت أمام عيني ذكرى سحيقة لفوني وورولاند في سانت لويس، وكيف أنها لم تحتمل النظر إليه لأنه في نظرها كان ضعيفاً وبغيضاً. قصتهما كانت

دوماً مملوءة بالحزن والتعاسة. فقد عاد رولاند إلى البيت من المصـــحة، ولكـــن لم يسترد أي معنى للسلام الداخلي. وعاش وفوني كل منهما حياة مستقلة عن الآخر بالرغم من أنهما بقيا في البيت نفسه في كيت آفينيو من أجل مصلحة أولادهما.

إن ما يحصل بيني وبين إيرنست لم يكن على الإطلاق رهيباً إلى هذه الدرجة، كما أرجو، لكنه سبب لي ألماً بكل همسة، وبكل نظرة في اتجاه داف. ووجـــدت نفسي وقد تغير شعوري تجاه الزواج، والأذى الذي يمكن أن يســـببه المتحـــابون لبعضهم؛ أذى لا يمكن إصلاحه، وأحياناً دون تفكير.

قلت لدون: "كم نحن جميعاً بؤساء وغرباء"

"هذا ما جعلني جياش العاطفة إلى تلك الدرجة يوم أمس. بالمناسبة، أنا آسف"

"ليس هناك ما يدعو للأسف. لنبقَ فقط صديقين يعرفان هذه الأشياء ولكـــن لا يبوحان بها"

قال: "حسناً" ونظر إلى يديه وتجرع المزيد من شرابه، ومضى بعد الظهر على هذا النحو؛ إلى أن حان موعد برنامج مصارعة الثيران.

كان المصارع الشاب كايتانو أوردونييز فتى في الواقع، ولكنه كـــان يتنقـــل بشكل طبيعي وبلياقة تجعله يبدو كما لو أنه يرقص. كان نسيج ردائـــه الصـــوفي الأحمر الغامق يطير بحيوية عند أقل حركة من ذراعيه. كانت لديه طريقة في تثبيت قدميه والميل بشكل بسيط إلى الأمام، مواجهاً كل ما يمكن أن يأتي، وحاثًّا الثـــور ليشحنه بأبسط حركة أو نظرة.

كان إيرنست بمزاج سيئ حين دخلنا الحلبة من أجل برنامج مصارعة الثيران، ولكنه بدأ يتنبه حين تحرك أوردونييز. فما كان من داف إلا أن نهضـــت لـــتجلس قربه؛ حيث رأت التغير عليه. وقالت:

"يا الله! إنه رائع"

فقال إيرنست: "إنه صاحب الفقرة الأساسية. راقبـــي هذا"

كان أوردونييز يقود خطى ثوره، إذ هز رداءه ببطء أمام الثـــور في حركـــة الفيرونيكا*، وكرر الحركة مرة ثانية على نحـــو أقـــرب، ســـاحباً إيـــاه بشـــكل

* حركة الفيرونكا: هي آلية تحريك مصارع الثيران للرداء الأحمر أمام وجه الثور.

مغناطيسي. تراجع فرسان البيكادور* لأنهم يعرفون أن أوردونييز يسيطر على الموقف بشكل كامل. ما شاهدناه كان رقصاً، وأيضاً فناً عظيماً. معرفته البدائية والموغلة في القدم حملها بشكل طبيعي جداً وبسهولة بالنسبة لشخص يافع إلى هذه الدرجة.

قال إيرنست: "البعض يؤدي الحركات وحسب، وهذا جميل فعلاً، لكنه لا يعني شيئاً. أمّا هذا الفتى القوي فهو يعرف أن عليك أن تقترب أكثر بشكل كافٍ لكي تموت. في الواقع، على المرء أن يكون قد مات سلفاً كي يكون قادراً على أن يعيش ويتغلب على هذا الحيوان"

أومأت داف بالموافقة مأخوذة بحماسته، وليكن الله في عوني، لقد كنت كذلك أنا أيضاً. غدت عينا إيرنست مليئتين بالحيوية وهو يتكلم بحيوية رداء أوردونييز تقريباً. كانت الحدة تتفجر من أعمق أعماقه وتنبعث إلى وجهه وحنجرته. ورأيت كم يبدو مرتبطاً بأوردونييز وبصراع الثيران وبالحياة كما سارت. وكنت أعلم أن بإمكاني أن أكرهه بقدر ما أريد بسبب الطريقة التي آلمني بها، ولكنني لن أتمكن أبداً من التوقف عن حبه لما هو عليه.

"الآن انظري" قالها حين جاء الثور منخفضاً وقد اندفع قرنه الأيسر إلى الأمام، ورقبته تلتوي جانباً. كان فخذ أوردونييز على بعد سنتيمترات فقط من قوائم الثور القوية. ومال أكثر؛ إلى حد أنه حين رفع الثور رأسه باحثاً عن الرداء، لامس بطن أوردونييز. كان بإمكاننا تقريباً سماع حفيف قرني الثور على قماش سترته الحريرية. انحبست الأنفاس لدى الجموع المحتشدة، لأن هذا كان ما جاءوا لرؤيته.

"لن تري هذا الموقف أبداً بأداء أفضل من هذا الأداء" قال إيرنست وهو يلقي بقبعته إلى قدميه تعبيراً عن الاحترام.

فعلقت داف: "هذا بمنتهى الجمال"

تنفسنا الصعداء جميعاً. وحين انكسر الثور وجثا على ركبتيه وهو يخور، أدخل أوردونييز السيف في جسده بسهولة. فوقف الجميع، وتعالت الهتافات وقد تأثر الجمع كله بالمشهد وبمدى إتقانه.

---

* البيكادور: الفارس الذي يفتتح مصارعة الثيران بوخزه الثور كي يثير غضبه.

أنا أيضاً وقفت مع الواقفين وصفقت كمن أصابه مس. ولا بد أنني كنت أقف في مرمى شعاع مضيء من الشمس لأن أوردونييز كان ينظر نحو الأعلى إلي، واخترقت عيناه شعر رأسي.

"إنه يعتقد أنك لطيفة جداً" قال إيرنست وهو يلاحق نظرات أوردونييز نحوي، ثم تابع: "إنه يجلّك"

انحنى مصارع الثيران الشاب فوق الثور وقطع أذنه بسكين صغيرة، ثم استدعى صبياً من على المنصة وأرسله إلي بالأذن وقد احتضنها براحتيه. سلمني إياها الصبي بخجل، وبالكاد تجرأ على النظر إلي. ولكن، يمكنني القول إنه كان يشعر باعتزاز كبير لحمله إياها من أجل أوردونييز. لم أكن أعرف بالضبط كيف يجب علي أن أتلقاها، وما القواعد المتبعة بهذا الخصوص، لذا مددت بكل بساطة يدي. كانت سوداء مثلثة الشكل ولا تزال دافئة، ولكن بأثر باهت للدم؛ وهي أغرب شيء حملته على الإطلاق.

قال إيرنست: "لتحل عليّ اللعنة" كان يبدو عليه كل الفخر والاعتزاز.

سألتني داف: "ماذا ستفعلين بها؟"

فأجاب دون نيابة عني: "ستحتفظ بها بالطبع" وأعطاني منديله لأتمكن من لفها بداخله ومن مسح يدي أيضاً.

أمسكت بالأذن في المنديل وأنا لا أزال واقفة، ونظرت إلى الأسفل في الحلبة حيث كان أوردونييز وقد غمرته الزهور. ألقى نظرة خاطفة إلي، وانحنى نحو الأسفل، ثم عاد بعدها لتلقي تحيات الإعجاب.

قال إيرنست ثانية: "لتحل عليّ اللعنة"

كانت هناك خمس جولات لمصارعة الثيران في ذلك اليوم. ولكن أياً منها لم تجار الجولة الأولى بجمالها. حين ذهبنا إلى المقهى بعد ذلك، كنا لا نزال جميعاً نتحدث عنها على وتيرة واحدة؛ حتى بيل الذي لم يتمكن من تحمل مجريات معظم النهار؛ وبخاصة كيف نُطح حصانان ووقعا وكان لا بد من قتلهما بسرعة أمام أنظار الجميع. كان كل شيء فظيعاً ومؤثراً بشكل رهيب، وكنت مستعدة لتناول الشراب.

مررت الأذن على الحاضرين حول الطاولة، حيث تمكن الجميع من الشعور بالإعجاب وبالرهبة تباعاً. أما داف فقد ثملت بسرعة كبيرة، وبدأت جهاراً بمغازلة

هارولد الذي فوجئ إلى حد بعيد، وكان مسروراً لتكتمه حول الموضوع. اختفى الاثنان في لحظة ما، ممّا جعل بات يستشيط غضباً. حين مرت ساعة أو أكثر عادا بمزاج مبتهج جداً وكأن شيئاً لم يحصل.

عندها، صاح بات بهارولد: "أنت أيها اللعين" ثم هب واقفاً إلا أنه ترنح على الفور إلى الجانب.

فقالت داف بمرح: "غضّ الطرف يا عزيزي" إلا أن بات لم يكن ليتقبل لومها فتوجه إلى هارولد قائلاً: "فقط ابتعد عنا. هلا فعلت"

"لا أظن أن داف سيعجبها ذلك. أنتِ تريدينني هنا، أليس كذلك؟"

"بالطبع عزيزي، أنا أريد الجميع" ومدت يدها نحو كأس إيرنست قائلة: "لا مانع لديك، أليس كذلك؟"

أومأ إيرنست موافقاً، بالنسبة له كان بإمكانها أن تأخذ كأسه وكل الكؤوس التي على الطاولة برمتها، فقد كان هارولد هو من يثير اشمئزازه؛ إذ علق بصوت خفيض: "اللهاث وراء امرأة، هل هناك ما هو أكثر دناءة من ذلك؟"

أحضر النادل المزيد من الشراب والطعام. إلا أن الأمسية لم تكن لتنتهي على خير. فالشر كان يفور ويلوث كل ما كان من قبل قوياً وجميلاً.

استشعر إيرنست ذلك أيضاً، وحاول أن ينحو بالحديث حول أوردونييز، وحول وقفته وحركات الفيرونيكا التي قام بها.

فسألته داف: "ما هي الفيرونيكا من جديد؟"

"إنها حين يقف المصارع ويستدير نحو الثور بقدمين ثابتتين، ويحرك الرداء بعيداً عن الثور ببطء شديد"

"نعم بالطبع. لقد كان المشهد رائعاً، أليس كذلك؟"

قال بات بلؤم: "لا تصدقها يا هيم، فهي لا تتذكر أي شيء منه"

"بات، امنحني فرصة" ثم استدارت إلى إيرنست مبررة: "إنني ثملة بعض الشيء الآن فقط، وسأتذكر غداً أكثر. وأقسم إنني سأكون بحالة جيدة حينذاك"

نظر إليها إيرنست بحزن وقال: "لا بأس ولكنه كان بشكل واضح خائب الأمل فيها وفي المجموعة كلها. لقد فقد كل شيء ألقه.

وبعد أن عدنا إلى الفندق في ذلك المساء، تناولت الأذن وطويتها داخل عـدة مناديل ووضعتها في الدرج.

فقال إيرنست وهو يراقبني فيما كنت أفعل ذلك: "لن يمضي وقت طويل قبل أن تصدر عنها رائحة نتنة"

"لا يهمني"

"لا، لا، لم يكن ذلك ليهمني أنا أيضاً لو كنت مكانك" وبدأ بخلع ملابسه ببطء وهو يفكر ملياً. وفي النهاية قال: "حين ينتهي كل شيء، لنلحق بـأوردونييز إلى مدريد ثم إلى فالنسيا"

"وهل سينتهي كل شيء أبداً؟"

"طبعاً سوف ينتهي ثم استدار ليقابلني وجهاً لوجه قـائلاً: "لقـد كـان أوردونييز رائعاً، أليس كذلك؟ لقد جعل كل هذا يبدو قبيحـاً جـداً وغبيـاً جداً"

أغلقت الدرج، ثم خلعت ملابسي واستلقيت على السرير. "أنا جاهزة لنسيان بامبلونا. لِمَ لا نحاول الآن؟ ساعدني على ذلك، هلا فعلت"

في نهاية هذا الأسبوع الطويل جداً تشتت جمعنا، وذهب كل منا في طريق. إذ غادرَنا دون متوجهاً إلى الريفييرا وقد بدا عليه الحزن والإنهاك. وعاد هارولد وبيل إلى باريس مصطحبين معهما بات ودوف حتى بايون. أما أنـا وإيرنسـت فقـد استقللنا القطار نحو مدريد، ونـزلنا في نـزل آغيلار؛ وهو فندق قديم الطـراز في كال سان جيرونيمو، صغير وهادئ وخال من السياح. كانت الإقامة فيه رائعة بعد بامبلونا. ذهبنا لمشاهدة صراع الثيران يومياً، وقد كنا هناك يوم تعـرض خـوان بيلمونتيه – مصارع الثيران الأشهر، والذي يدور حوله الكثير من الجدل في كونـه الأفضل على مر الزمان – لضربة من قرني ثور اخترقت بطنه على نحو سيئ للغاية، ونقل إثرها إلى المشفى. كنا قد أمضينا فترة نتابع فيها مصارعته للـثيران، وكـان إيرنست دوماً معجباً بتصميمه وعزمه. ولكن، بدأنا نرى – حـتى قبـل إصـابة بيلمونتيه – أن أوردونييز كان بعظمة المعلم تقريباً. حركاته كانت الإتقان بعينـه، وشجاعته لم تتزعزع وقد تابعناه كلانا برهبة.

في أحد الأيام بعد الظهر، منحني أوردونييز الشرف الكبير جداً المتمثل بالسماح لي بحمل الرداء الخاص به قبل أن تبدأ مصارعة الثيران. اقترب مني جداً إلى حد أتاح لي رؤية نعومة وجهه الصبياني وعمق عينيه وصفائهما. لم يتفوه بكلمة حين ناولني الرداء، ولكن مسحة من الجدية البالغة ارتسمت عليه.

قال لي إيرنست بعد أن ابتعد أوردونييز ليبث الطاقة في الجموع: "أظن أنه واقع في حبك"

فأجبته: "وكيف يمكن أن يقع في الحب؟ إنه طفل" ولكنني كنت مزهوة وفخورة وأشعر بأن الشرف الذي منحني إياه قد غيرني.

حين عدنا إلى الفندق في ذلك المساء، قال إيرنست فيما كنا نرتدي ملابسنا لنهمّ بالخروج للعشاء: "إنني أستنبط رواية جديدة، إنها تطور نفسها في الواقع داخل رأسي حول صراع الثيران. وسيكون البطل أوردونييز، ومكان الأحداث سيكون بامبلونا" كانت عيناه تلمعان، وصوته يهدر حماسة.

"يبدو ذلك جيداً جداً"

"بالفعل، أليس كذلك؟ سأسمي مصارع الثيران الشاب روميرو. وستبدأ أحداثها في فندق عند الساعة الثالثة من بعد الظهر. وسيكون هناك أمريكيان مقيمان في الفندق أيضاً، في غرف عبر القاعة، وحين يذهبان للقاء روميرو – وذاك شرف كبير – سيلحظان كم هو وحيد، وكم يفكر بالثيران التي سيواجهها يومها. وهو لا يستطيع إخبار أحد بذلك"

قلت: "لا بد من أنه سيشعر على هذا النحو، أليس كذلك؟ يجب أن تكتبها"

أجابني: "نعم"

وعلى الرغم من أننا استمتعنا بعشاء طويل ولذيذ تخللته عدة زجاجات من الشراب، إلا أن إيرنست كان قد أصبح سلفاً مع كتابه، بل في داخله. وفي الأيام القادمة، غدا تفكيره أكثر عمقاً، وشرع بالكتابة فتدفقت أفكاره بشدة في المقاهي مع بواكير الصباح، وفي الفندق حتى وقت متأخر من الليل، حيث كان بإمكاني سماع صرير قلمه وهو ينهب الورق. وحين غادرنا متوجهين نحو مدريد من أجل المهرجان في فالنسيا، كان قد ملأ دفترين سميكين بمائتي صفحة مكتوبة بخط اليد في أقل من عشرة أيام، ولكنه لم يعد مسروراً بالافتتاحية.

"أعتقد أن الأحداث يجب أن تبدأ في باريس ومن ثم تنتقل. فما يحصل في باريس هو ما يشعل وطيس الأحداث. ولا يمكن أن أكتب البقية دونها"

"كنت تقول دوماً إنه لا يمكنك الكتابة عن باريس؛ لأنك كنت لصيقاً جداً بها"

"نعم، أعلم ذلك، ولكن لسبب ما صار الأمر سهلاً. لقد كنا في بامبلونا منذ أسبوعين فقط ويمكنني أن أكتب عنها أيضاً. لست أدري لماذا. لعل أفكاري وقواعدي كلها حول الكتابة تنتظر أن أُثبت خطأها يوماً ما"

"إنه لأمر جيد أن يكون المرء متقداً. أليس كذلك؟"

"أرجو أن يستمر الأمر على هذا النحو إلى الأبد"

وقد استمرت الأمور كذلك فعلاً. في فالنسيا، دفعت الحماسة التي ولّدها المهرجان بكل شيء إلى درجة محمومة، وقد تمكنا من الاستمتاع بذلك. جلسنا في أحد مقاهي الأرصفة، وأكلنا القريدس بالليمون والفلفل المطحون، والأرز بالزعفران الجميل المعد بالدجاج والسمك والمكونات الأخرى، والذي قدم في طبق بحجم طاولتنا تقريباً. ذهبنا بعد الظهر إلى مصارعة الثيران، حيث قام أوردونييز بحركات الفيرونيكا الخاصة به بإتقان لا يعلى عليه.

قال إيرنست مشيراً إلى الحلبة: "ذاك هو. أرأيت ذلك؟"

"ماذا؟"

"موته، كان الثور قريباً جداً. هذا هو صلب الرقصة. يجب أن يعلم مصارع الثيران أنه ميت، وعلى الثور أن يعرف ذلك أيضاً، لذا حين يُسحب بعيداً في اللحظة الأخيرة فهذا سيكون رائعاً. في الواقع، إنها الحياة"

في عصر أحد الأيام، حين كان إيرنست يأخذ قيلولة وأشعر أنا بعدم الارتياح، تصفحت دفاتره وقرأت بكل شغف. وبمحض صدفة خالصة، وقعت عيناي على صفحات فيها أقوال وعبارات كانت بشكل جلي من عبارات داف. شعرت بالصدمة بداية وأنا أقرأها. لقد استمع إيرنست إليها عن قرب، وحفظ كل شيء واستوعبه بشكل متقن. والآن تبدّى كل شيء مرة أخرى في بطلته بعد تغيير

بسيط. جعلني ذلك أشعر بغيرة رهيبة منها مرة أخرى، ما لبثت أن تلاشت حين استطعت أن أستخلص المغزى من الموقف كله. كان إيرنست يتصرف مع داف ككاتب وليس كعاشق. لقد نظر إليها على أنها واحدة من شخصياته؛ ربما منذ البداية. والآن بما أنه كان يعيش داخل جو الكتاب، وليس في مقاهي الأرصفة في بامبلونا فإن التوتر والقبح اللذين عايشناهما يمكن أن يكونا مفيدين. طوال الوقت، كان كل شيء بنّاءً وضرورياً من أجل العمل. لهذا كانت الكلمات تخرج هادرة بقوة وحرارة الآن.

من فالنسيا ذهبنا مرة أخرى إلى مدريد، ومن ثمّ إلى سان سيباستيان هرباً من حرارة الصيف المرتفعة. في سان سيباستيان وفي هنداي كتب إيرنست بتركيز كبير في الصباحات، وبعد ذلك كنا نقضي بقية اليوم في السباحة والاستمتاع بالشمس على الشاطئ. كان الرمل ساخناً ودبقاً. وهناك في الأفق البعيد، ارتفعت جبال أرجوانية، وملأ صوت تكسر الأمواج آذاننا وسرى بنا في غيبوبة سعيدة. ولكنني مع نهاية الأسبوع الأول من شهر آب بت أفتقد إلى بامبي إلى حد جعلني غير قادرة على الاستمتاع أكثر. لذا، مضيت عائدة إلى باريس، ورجع إيرنست إلى مدريد وحيداً. وهناك راح يعمل بشكل أفضل وجهد أكبر من أي وقت مضى. كان كما لو أنه ينشئ الكتاب ويعيد إنشاء نفسه ككاتب في آن معاً. كان يكتب لي رسائل يقول فيها إنه يمتنع عن النوم باستثناء ساعة هنا أو هناك. *ولكن، حين أستيقظ من جديد، كانت الجمل بانتظاري تصرخ بي مطالبة أن أصبها على الورق. إنه حدث استثنائي، تاتي. يمكنني أن أرى النهاية من هنا وهذا شيء مميز.*

الفصل الثالث والثلاثون

في أواخر آب، كادت باريس تكون مهجورة. فكل من كان بإمكانه التوجه إلى مكان آخر قد فعل ذلك باستثناء بولين بفايفر وكيتي اللتين بقيتا في المدينة من أجل العمل. وغالباً ما اجتمعنا نحن الثلاث لتناول العشاء معاً. أحياناً كنت أجر بامبي معنا، وأحياناً كنا نذهب وحدنا بعد أن أضع بامبي في سريره وأتركه في عهدة ماري كوكوت لمراقبته. لا أنكر أنني في البداية شعرت بالارتباك في صحبة بولين وكيتي كثنائي؛ فهاتان الفتاتان أنيقتان، ومستقلتان وعصريتان بلا ريب، لكنهما في الباطن كانتا صريحتين وغير معقدتين. لهذا السبب رقت لهما أنا أيضاً كما أكدتا لي بإصرار، وقد بدأت أصدقهما.

أحياناً كانت جيني أخت بولين تلاقينا في أحد المقاهي، وقد وجدت الأختين مسليتين فعلاً وهما معاً؛ كما لو كانتا تقدمان مسرحية هزلية أنيقة جداً تحوي دعابات صغيرة غامضة ومختزلة. كانتا تتحملان الشراب على نحو جيد، ولا تحرجان نفسيهما أو الآخرين، وتملكان دوماً أشياء مسلية للحديث عنها. لم تكن جيني مرتبطة، وكان من الصعب فهم سبب عدم زواج بولين حتى الآن.

قالت في أحد الأيام حين ضغطت عليها كي تحدثني عن الأمر بمزيد من التفاصيل: "كدنا نتفق على كل شيء مع ابن عمي مات هارولد. حتى إني عملت عارضة أزياء وتذوقت نصف دزينة من الكعك" ثم هزت كتفيها وهي تقول: "وكان طعمها كلها كطعم الكعك بطبيعة الحال"

سألتها: "هل حصل شيء رهيب بينكما؟"

"كلا. كان لذلك أن يجعل بعض الأمور أخف وطأة في الواقع. كل ما هنالك أنني لم أعتقد أنني فعلاً أحببته بما فيه الكفاية، بل كنت أستلطفه، وكان من الممكن

أن يكون معيلاً رائعاً وأباً جيداً أيضاً، لقد اقتنعت بهذا كله، ولكنني لم أشعر به قط. ليس بشكل واقعي. لقد أردت حباً كاسحاً"

"أتقصدين نوعاً من الحب الذي تجدينه في القصص؟"

"ربما. وهذا يجعلني غبية إلى درجة لا تصدق، على ما أظن

"لا، إطلاقاً. أنا أحب الرومانسية. ويبدو أن النساء في هذه الأيام قد تجاوزنها"

"من المربك جداً أن تعرفي ماذا تريدين حين تتوفر خيارات كثيرة. أحيانا أظن أني سأهجر بأقرب وقت الزواج والعمل. فأنا أريد أن أكون ذات نفع" توقفت وضحكت من نفسها وقالت: "أعتقد أنني قرأت عن هذا في رواية في مكان ما أيضاً"

"ربما يمكنك الحصول على كل ما تبتغينه. فأنت تبدين لي ذكية جداً"

قالت: "سوف نرى. وفي غضون ذلك سنكون امرأتين شابتين عازبتين"

"ستكونان حرتين بامتياز؟"

"ولِمَ لا؟"

كان من المضحك أن أفكر بنفسي بهذه الطريقة. وأغلب الظن أن إيرنست لن يوافق على ذلك. وكنت أتساءل عمّا سيكون رأيه حيال قضائي هذا الوقت كله مع بولين. فإن كانت كيتي في نظره زخرفية جداً فإن بولين ستكون كذلك. كانت تملك نمطاً من الجمال الاحترافي الذي كان يحتقره. فهي ليست فقط لا تفتأ تتحدث عن الأزياء، بل كانت دائماً تناور بطريقتها للتقرب من الأشخاص الأكثر أهمية، وتوازن كيفية استفادتها منهم، وعيناها السوداوان تقدحان، وتلافيف دماغها تعمل بنشاط لأجل هذا الغرض. لم تعرف بولين العفوية قط، فهي إذا نظرت إليك فإنّ لديها نية مبيتة، وإذا حدثتك فقد خططت مسبقاً لما ستتفوه به؛ مما يضفي على كلامها حدة وإتقاناً. لقد أعجبت بثقتها بنفسها، وربما تملكني شيء من الخوف تجاه ذلك. فقد كانت توحي بأنها تحصل على مبتغاها دون تعب، وهو ما يكلف في نهاية المطاف جهداً كبيراً. وعلى الرغم من أنني لم أعرف يوماً بالضبط ماهية الحديث الذي يمكن ان أتبادله مع نساء أخريات مثلها – كزيلدا مثلاً – إلا أنني أدركت أن ملابس بولين الراقية وقصة شعرها الجميلة أخفت تحتها امرأة نزيهة

وعاقلة وحساسة أيضاً. كنت على يقين من أنها لن تنقلب علي في أي وقت من الأوقات، وسرعان ما شعرت أن بإمكاني الاعتماد عليها.

حين عاد إيرنست في أواسط إيلول من مدريد، كان شكله منهكاً وإنما منتصراً في آن واحد. رحت أراقبه وهو يفرغ حقائبه و لم أتمالك نفسي من الشعور بالدهشة من إنجازه. لقد ملأ سبعة دفاتر حتى آخرها؛ مئات الصفحات أنجزها في ستة أسابيع.

سألته: "هل أنهيت تاتي؟"

فأجاب: "أوشك أن أفعل. بل أنا قريب جداً من النهاية إلى حد أن قلبي لا يطاوعني في كتابة الخاتمة، فهل هذا منطقي؟"

"أيمكنني قراءة ما كتبته حتى الآن؟"

فقال: "قريباً" وشدني إليه ليضمني بقوة وهو يقول: "أشعر وكأن بمقدوري النوم إلى الأبد"

فقلت: "فلتنم إذاً" ولكنه لم يفلتني فاستطردت: "ظننت أنك متعب" لكنه غمرني بعاطفته و لم أحتج بعدها لقول المزيد.

بعد مرور أسبوع، كان قد أنهى المسودة الأولى، وذهبنا إلى الكوارتر لنحتفل مع الأصدقاء. فالتقينا في النيغر دو تولوز، وكنا جميعاً في مزاج جيد. ضم جمعنا كلاً من سكوت وزيلدا، وفورد وستيلا، ودون ستيوارت، وهارولد وكيتي. خيمت في البداية لحظات من الارتباك انتظر فيها الجميع رؤية ما ستكون عليه الأجواء؛ فقد انتهت الفترة في بامبلونا بشكل مؤلم جداً. ولكن، ما إن وصلت المشروبات وابتلعت كؤوس عدة سريعاً - كما لو كانت دواءً لحالنا - حتى غدا الجميع أكثر استرخاء. تناول إيرنست من الشراب أكثر مما ينبغي له، ولكنه التزم بالسلوك المؤدب حتى نهاية المساء حين صادفنا كيتي في طريقنا للخروج.

"احتفال جيد بكتابك، هيم"

أجاب: "شكراً، إنه مفعم بالحركة والحيوية، والجميع موجودون فيه"

ثم أشار إلى بيل وهارولد قائلاً: "إنني أمزق هؤلاء الأوباش. ولكنك لست معهم كيتي، فأنت فتاة متأنقة"

كان صوته بارداً ومتقطعاً، فامتقع وجه كيتي في حين دفعته خارج الباب من ذراعه، وأنا أشعر بالخزي من تصرفاته. فقال لي: "ماذا؟ ماذا فعلت؟"

"أنت ثمل. دع الكلام حول هذا إلى الغد"

"أخطط لأن أثمل في الغد كذلك"

تابعت ببساطة السير به نحو البيت، وأنا أدرك أنه سيشعر في الصباح بندم شديد مع ألم رهيب في الرأس.

وكنت على حق.

استيقظ قرابة وقت الغداء، وقال لي وهو لا يزال شاحب اللون: "لا تنزعجي بسبب ما قلته عن كيتي، فأنا شخص مزعج"

"كانت ليلة الاحتفال بك؛ لذا فقد حصلت على إعفاء"

"أياً كان ما قلته، فالكتاب كتاب، وهو ليس الحياة"

فقلت: "أعرف ذلك" ولكن، حين ناولني الصفحات لأقرأها لم أحتج لكثير من الوقت إطلاقاً كي أدرك أن كل شيء كان مذكوراً كما حدث في إسبانيا، كل حديث بائس، وكل مواجهة متوترة. ذكر كل شيء حرفياً باستثناء أمر واحد، وهو أنني لم أكن موجودة في الأحداث قط.

داف كانت البطلة. كنت قد عرفت ذلك وتوقعته. ولكن، مع ذلك، كان مثيراً للإزعاج رؤية الاسم نفسه مراراً وتكراراً. لم يكن قد غيره بعد إلى السيدة بريت. داف كانت داف، وهارولد كان هارولد وبات كان الرجل الثمل، قدم الجميع بصورة سيئة باستثناء مصارعي الثيران. وكانت كيتي في الكتاب في دور لا يستحق المديح أيضاً؛ وقد كذب في ذلك. إيرنست جعل نفسه جيك بيرنس، وجعل جيك شخصاً عاجزاً جنسياً. ماذا كان يفترض بي أن أستنتج من ذلك؟ هل كانت تلك هي الطريقة التي نظر بها إلى أخلاقياته أو جبنه أو منطقه السليم، أو أياً كان ذاك الذي منعه من النوم مع داف؟ عجز جنسي؟!

ولكن، إذا استطعت النأي بنفسي عن هذه الشكوك والأسئلة حتى ولو على نحو بسيط فيمكنني أن أرى كم كان هذا العمل مميزاً وأكثر إثارة وحيوية من أي شيء كتبه في أي وقت مضى. لقد استطاع أن يلتقط القصة الجيدة في بامبلونا في وقت شعرت فيه بالكارثة وبفوضى البشر، فصاغها وصنع منها شيئاً أكبر، شيئاً

سيبقى إلى الأبد. كنت فخورة به إلى حد لا يوصف، وفي الوقت نفسه شعرت بأن الكتاب سبب لي الألم واستبعدني. مشاعر عدة اختلجت في نفسي تشابكت، ولكن أياً منها لم يكن أكثر صدقاً من الأخرى.

قرأت الصفحات وأنا في حالة من التوقع والرهبة، وكان علي غالباً أن ألقي بالنص المكتوب جانباً وأصلح جلستي مرة أخرى. لقد عمل إيرنست بتركيز شديد وفي جو من العزلة؛ ممّا جعل أي تأخير في تلقيه الآراء حيال عمله يكاد يقتله.

سألني حين انتهيت منه أخيراً: "هل هو جيد؟ يجب أن أعرف"

"إنه أكثر من جيد يا تاتي. إذ لا مثيل له في العالم"

ابتسم شاعراً بالراحة والابتهاج، ثم أطلق هتافاً خافتاً، وقال: "سوف تصب علي اللعنات" كان بامبي إلى جانبنا على الأرض يمضغ دمية على شكل عربة قاطرة منحوتة يدوياً أعطته إياها أليس وغيرترود.

انقض عليه إيرنست ورفعه عالياً نحو السقف، فصاح بامبي بسعادة وقد امتلأت وجنتاه التفاحيتان بالهواء. قال: "بابا" كانت كلمته الأولى التي تفوه بها، وأحب أن يرددها ما استطاع. وقد أحب إيرنست ذلك أيضاً، وقال له مبتسماً: "بابا أعد كتاباً جيداً إلى أبعد الحدود" بينما كان وجه الصغير يزداد تورّداً باستمرار.

قلت: "أعطِ بابا قبلة" وطبع بامبي الذي كان يتلوى بسعادة بين ذراعي إيرنست قبلة على وجه والده.

كانت لحظة جميلة للغاية، كنا ثلاثتنا نتنعم بالمشاعر الجميلة الدافئة ذاتها، ولكن في وقت لاحق من تلك الليلة، وحين تمددت على السرير محاولة بيأس الخلود إلى النوم، حامت حولي الأفكار المقلقة فلم تدع لي مجالاً للراحة. لقد حذفت من الكتاب من الصفحة الأولى، بل من الكلمة الأولى. لِمَ لم يبد إيرنست مهتماً في أنني قد أتألم أو أشعر بالغيرة؟ هل افترض أنني سأتفهم بأن القصة قد تحتاج إلى بطلة مقنعة، ولست أنا تلك البطلة. فهو بالتأكيد لم يكن ليتبعني إلى هنا وهناك حاملاً دفتره ليسجل كل ملاحظة ذكية أقولها كما فعل مع داف. الفن هو الفن. ولكن، ما الذي دار بخلد إيرنست؟ كنت بحاجة ماسة لأن أعرف.

فخاطبته في الظلام راجية أن يكون في نوم عميق: "تاتي، هل كنت في الكتاب على الإطلاق؟"

مرت بضع ثوان من الصمت، ثم قال بهدوء شديد: "كلا، يا تاتي. وأنا آسف إن كان هذا يؤلمك"

"هل يمكنك أن تخبرني عن السبب؟"

"ليس تماماً. فالأفكار لا تأتيني على نحو آخر. ولكنني أعتقد أنك لم تكوني قطّ ممرغة في الوحل مثلنا. أنت لم تكوني في الواقع موجودة هناك، إن كان ذاك يعني شيئاً، بل كنت فوق ذلك بشكل ما، أنت أفضل وأرقى من بقيتنا"

"ليس ذلك مطابقاً لشعوري، ولكنها فكرة لطيفة، وأريد أن أصدقها"

"إذاً، عليك أن تصدقيها" ثم استدار على جنبه باحثاً بعينين مفتوحتين عن عيني. "أنا أحبك تاتي، فأنت الجانب الأروع فيّ"

تنهدت لدى سماعي كلماته وأنا أشعر بوخزة صغيرة جداً من الشك: "وأنا أحبك أيضاً"

خلال الأسابيع التالية، تابع إيرنست العمل على الرواية، فكان يحكم سبك اللغة، ويشطب مشاهد كاملة.

لقد كانت الرواية كل ما يشغل تفكيره، وبما أنه كان مشغولاً إلى هذه الدرجة فقد كنت سعيدة جداً لأن لدي أصدقاء حولي أمضي وقتي بصحبتهم. ففي نهاية المطاف، لم يبد أنه ينزعج من بولين، وكنت ممتنة جداً لذلك.

لقد أقر أنها: "تثرثر كثيراً عن شانيل، ولكنها ذكية في ما يتعلق بالكتب، فهي تعرف ماذا تحب منها، وأكثر من ذلك أنها تعرف أسباب إعجابها بكتاب ما أو تفضيلها له. وهذا أمر نادر جداً وبخاصة هذه الأيام التي أضحى الناس فيها شديدي التصنع، حتى لم يعد المرء يعرف مطلقاً لمن يمنح ثقته"

بدعم من إيرنست بدأت بولين بالمجيء إلى المنشرة بعد الظهيرة كي تكون بجانبي. كنا نشرب الشاي بينما يلعب بامبي أو يكون نائماً، وأحياناً كانت ترافقني إلى المتجر الموسيقي حيث كنت أتدرب على البيانو الذي أستعيره.

قالت لي في أحد الأيام بعد انتهائي من العزف: "إنك تعزفين بالفعل بشكل جميل، وبخاصة البوسوني. ظننت أنني سأبكي. لَمَ لمْ تعزفي على الملأ إطلاقاً؟"

" لم أتمكن من شق طريقي. فأنا بكل بساطة لست جيدة بما فيه الكفاية"

"لا يزال بإمكانك القيام بذلك. وينبغي لك فعل ذلك"

"أنت عزيزة جداً علي، ولكن هذا غير صحيح" تركت أصابعي تسترخي، وأغلقت كتابي الموسيقي. وأضفت: "هذه هي حياتي الآن على كل حال، وأنا لا أرغب بغيرها"

قالت: "كلا، وأنا لن أرغب بذلك أبداً لو كنت مكانك" ولكن لاحقاً، حين كنا عائدتين من المتجر إلى البيت كان الموضوع لا يزال يدور في ذهنها. إذ قالت لي:

"ربما لن يكون عليك أن تتنازلي عن أي شيء لو أردت أن تأخذي الموسيقى بشكل جدي. والحفلة الموسيقية ليس من الضروري أن تكون صادمة بشكل مرعب. الجميع يحبونك ويتمنون رؤيتك ناجحة"

فأجبتها: "سيستهلك هذا الأمر وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً. إضافة إلى أنني سأكون بحاجة إلى بيانو خاص بي"

"ينبغي أن تمتلكي بيانو خاصاً بك على كل حال. وهيم يعرف ذلك بالتأكيد. ويمكنني أن أكلمه بهذا الخصوص إن رغبت بذلك"

"سوف نرى"، قلت لها. "سأمنح الموضوع بعضاً من التفكير"

لم يتضاءل الخوف الذي لطالما استحوذ علي من فكرة العزف أمام الآخرين قيد أنملة، ولكنني بدأت أتساءل أكثر فأكثر عمّا إذا كانت الحفلة الموسيقية مفيدة لي في النهاية؛ وبخاصة الآن حيث إن إيرنست غارق في روايته. لقد محا الكتاب كل فكرة أخرى، وتسلل إلينا حتى ونحن في أكثر الأوقات حميمية. كنت أستطيع الشعور بوجوده معي للحظة، ومن ثم في اللحظة التالية يختفي في عالمه الخاص بكل بساطة.

لن يغير عزفي شيئاً من عاداته، ولم أكن ساذجة إلى حد يجعلني أعتقد ذلك، ولكنني فكرت بأن العزف سيجعل بؤرة تركيزي خارج بوتقة التفاصيل المتعلقة بجدول تغذية طفلي ونظام تدريبه. صحيح أنني أحب دور الأم، ولكن ذلك لم يكن يعني أنه لا ينبغي لي أن تكون عندي اهتمامات أخرى. ستيلا نجحت بشكل رائع في هذا المجال. في الواقع، لقد كانت النموذج الجديد للزوجة. أما أنا فكنت نموذجاً ريفياً تجاوزه الزمن.

وجدتها من المفارقات الساخرة أن كل النساء تقريباً اللواتي أعرفهن الآن كن فعّالات في العمل من أجل حقوق المرأة الذي مارسته أمي منذ عدة عقود خلت

تماماً في صالة الاستقبال في منـــزلنا، بينما كنت أنا أنكب على كتابـــي محاولة ألا يراني أحد. كان من الممكن ألا أتمكن يوماً من اللحاق بالمرأة العصرية حقاً، ولكن هل كان علي أن أختبئ هكذا بتعمد؟ ألم يكن بمقدوري أن أخوض التجربة ولـــو قليلاً لأختبر ماهية الأمور الأخرى التي يمكنها أن تمنحني إحساســاً طيبــاً حيــال نفسي؟ وبخاصة نظراً إلى كوني أتمتع بأصدقاء مخلصـــين يحبـــونني، ويريـــدون لي النجاح، كما أشارت بولين.

مع مرور الوقت، قدمتنا بولين إلى أشخاص عديدين من أصحابها الـــراقين في الجانب الأيمن من نهر السين، مثل جيرالد وسارة مورفي. كان جيرالد رساماً، ولكنه - أكثر من ذلك - كان رمزاً للذوق الرفيع والحياة الجيدة. جاء هـــو وســـارة إلى باريس عام 1921، وبالرغم من أنهما يملكان منـــزلاً جميلاً على الكي دي غرانـــد أوغستين فقد هاجرا تدريجياً نحو جنوب فرنسا حيث أقاما بنـــاء في الـــريفييرا في أنتيبيس. كان جيرالد قد درس الهندسة المعمارية، وعزبة "فيلا أمريكا" التي يشيدها بالتعاون مع زوجته تغدو أجمل شيء أمكنهما تخيلـــه وتحمـــل تكاليفـــه، وكـــان بمقدورهما تحمل الكثير. قدمتنا بولين أيضاً للشاعر أرشيبالد ماك لايـــش وزوجتـــه المحبوبة آدا التي كانت تغني جيداً، بل وبمستوى حرفي حق، وترتدي أجمل الثيـــاب المزينة بالخرز التي شاهدتها في حياتي.

لقد فوجئت كم بدا إيرنست متسامحاً تجاه دائرة المعارف الجديدة تلك. في ما بيننا سمّاهم بطريقة غير ودية "بالأغنياء"، غير أنه لم يستطع إلا التفاعل مع الاهتمام الذي تلقاه منهم. في أوائل شهر تشرين الأول، صدر كتاب في زمانـنـــا *In Our Time* في الولايات المتحدة، وبعدها بفترة غدا بالإمكان العثور على نسخ منـــه في المكتبات في أرجاء المدينة كلها.

كانت المراجعات كلها إيجابية بشكل هائل، وقد دعت إيرنســـت *الكاتـــب الشاب الذي يجب تسليط الضوء عليه*. لقد بدت الإمكانات الـــتي يحملـــها لـــه المستقبل مضيئة ولامعة، غير أن هؤلاء الأصدقاء الجدد لم يكونوا مجرد عالة عليـــه، ولم يكونوا ليشعروا بالسرور بالوقوف جانباً وتدفئة أيديهم علـــى حافـــة نجـــاح إيرنست المشتعل، بل كانوا يريدون تأجيج النار.

في هذه الأثناء، بدأت بولين بالمجيء إلى بيت المنشرة لتناول العشاء عدة مرات أسبوعياً. وأحياناً، كان إيرنست يلتقيها في هذا المقهى أو ذاك. لكم شعرت بالارتياح لكون العلاقة قد أخذت شكلاً طبيعياً ومتبادلاً. إذ لم أحب يوماً الشجار مع إيرنست حول كيتي، ولكنه لم يكن يتزحزح عن رأيه فيها. فقد كانت بنظره وستبقى "الحقيرة المطلية بالذهب"، لكن بولين أظهرت الجانب اللطيف الأخوي لديه. فبدأ يناديها بفايف وكذلك فعلت أنا. بالنسبة لبامبي كان اسمها الخالة بفايف، وهي أيضاً أطلقت علينا أسماء مستعارة، فإيرنست كان بابا أو درام، وأنا كنت هاش أو دالاّ. معاً كنا جميعاً الأعزاء عليها والجديرين بمحبتها.

حين انقضى الخريف وحل فصل الشتاء وبدأت رطوبة باريس تتسرب من خلال النوافذ ومن تحت الأبواب اتخذ إيرنست قراراً بترك رواية بامبلونا.

قال: "لا يمكنني أن أراها البتة بعد الآن. لست أدري ما هو جيد فيها أو أين أخفقت. يجب أن تسوى على نار هادئة لفترة" ثم تنهد وحك شاربه الذي أصبح كثيفاً وغير مشذب في الفترة الأخيرة، مما أضفى عليه هيئة غير متمدنة وجذابة؛ وتابع: "كنت أفكر بالبدء بشيء مختلف تماماً، بشيء مضحك"

"يبدو لي أن الأعمال المضحكة تناسب دون وهارولد، إنما لا أعتقد أنها الشيء الملائم لك"

"أول ما قرأته على الإطلاق مما خططته كان عملاً هزلياً. فهل تقولين لي الآن إنه لم يكن جيداً البتة؟"

"أبداً، ليس هذا ما رميت إليه. كل ما هنالك أن عملك يمتلك بريقاً أكبر حين يكون دراميا"

قال: "لست أدري" وبدأ يعمل فوراً. لم تكن لدي أدنى فكرة عما كان في ذهنه أو متى سيطرحه جانباً. وفي غضون أسبوعين، أضحت مسودة *The Torrents of Spring* *سيل الربيع الجارف* جاهزة، وهي بارودياً* ساخرة لآخر كتاب ألفه شيروود أندرسون والذي يحمل عنوان: *The Dark Laghter*

* الباروديا: المحاكاة الساخرة لعمل أدبي أو موسيقي على نحو يثير الهزء والضحك.

ضحكة سوداء. لكن إنجاز العمل لم يجعل الخطوة التالية أكثر سهولة على الإطلاق. فهو لم يكن واثقاً من النتيجة، و لم يعرف بين يدي من سيضعها. فقد يعتقد أحدهم خطأ أنه مفعم بنفحات لئيمة.

قلت: "أود بشدة قراءته. ويمكنني أن أبقي ذهني منفتحاً"

"آسف تاتي، لست متأكداً من أنه يمكنك ذلك"

"هل هو سيئ إلى تلك الدرجة؟"

"لا يمكنني الحكم. سوف أريه لسكوت وربما لدوس أيضاً"

للأسف، لم يكونا متحمسين نهائياً للمشروع وأخبراه أنه من الأفضل أن يدع عنه ذلك. لقد وافقاه بأن كتاب أندرسون قد يكون سخيفاً وعاطفياً ولكن الرجل نفسه كان ذا موهبة فذة وقد فعل الكثير ليؤمن مستقبل إيرنست فليس من العدل جلد الرجل بعنف هكذا. وما عساها ستكون الفائدة من ذلك؟

قال إيرنست: "الفائدة هي أن كتابه عفن ويستحق أن يطعن بالحراب، فإن كان هناك من سيقوم بذلك فلم لا يكون أحد الأصدقاء؟"

فقال سكوت: "هذه طريقة مضحكة للغاية لرؤية الموقف، دع عنك هذا يا إيرنست"

لكن إيرنست لم يتراجع، بل حمل المخطوط إلى دار موريفي وقرأه بصوت مرتفع بينما حاول جيرالد جاهداً ألا يبدو مصدوماً، في الوقت الذي غرقت فيه سارا في النوم على الأريكة بثوبها الحريري ذي اللون الفاتح. أما أنا فقد أنصت والخوف يتنامى ببطء داخلي. وحين أنهى إيرنست قراءته تنحنح جيرالد عدة مرات، ثم وبأسلوبه الدبلوماسي قال: "إنه ليس ذوقي، ولكن قد يرى آخرُ بأنه أصاب عين الحقيقة"

"أنت تقتلني"، قال إيرنست.

فالتفت جيرالد نحوي قائلاً: "ماذا ترين أنت يا هادلي؟ فأنت تحملين رأساً ذكياً بين كتفيك"

قلت بتحفظ: "حسناً، إنه ليس لطيفاً عموماً"

فأقرني جيرالد قائلاً: "صحيح"

فاعترض إيرنست: "ليس الهدف أن يكون لطيفاً، بل الهدف أن يكون مضحكاً"

مرة أخرى قال جيرالد: "صحيح"

كنت أملك نظرية سرية، وهي أن إيرنست قد وضع كتابه بالفعل ليوجد مسافة بينه وبين شيروود، وليخرج أخيراً من تحت ظله. فقد كان الأصدقاء والنقاد كثيراً ما يقارنون بين نثر إيرنست ونثر أندرسون؛ وهو ما كان يصيب إيرنست بالجنون. فهو يرفض أن يوضع في كفة واحدة مع أو ضد أي شخص كان، وبخاصة إن كان صديقاً عزيزاً أو منافساً له في عمله. كان ممتناً لمساعدة شيروود وأقسم على ذلك، ولكنه لم يكن مديناً له، ولا ملزماً تجاهه بشيء. فعمله خاص به وهو ما سيثبته للجميع وإلى الأبد.

حين فقد إيرنست الأمل في كسب أحد إلى جانبه في ما يتعلق بـ*سيل الربيع الجارف* *The Torrents of Spring*، لجأ في نهاية المطاف إلى غيرترود، إلا أن الأمور لم تأخذ مساراً حسناً بين هذين الاثنين في الآونة الأخيرة، وكانت تلك هي القشة التي قصمت ظهر البعير.

وحين حدثني بما جرى بينهما شعرت بأن قلبي يوشك أن ينفطر. فقد طردته تقريباً خارج شقتها قائلة: "هذا عمل يدعو للاحتقار. يجدر بك أن تكون أكثر دراية من هذا يا إيرنست"

فسألها ضاحكاً ومحاولاً الاستخفاف بالموقف: "أحقاً يجدر بي ذلك؟"

"هذا على الأقل ما اعتقدته يوماً. لقد كنت إنساناً حريصاً على الالتزام بمهنتك. أما الآن فأرى أنك خسيس وقاسٍ وتهتم فقط بتبوّؤ مكانة عالية أمام الآخرين وبالمال"

"لا تكوني منافقة إلى هذا الحد فأنت ترغبين بأن تكوني غنية"

"أحب جداً أن أكون غنيةً، ولكنني لن أقدم على فعل كل شيء بلا استثناء كي أغدو كذلك"

"كأن تختصري عدد أصدقائك تقصدين؟"

لكنها لاذت بالصمت.

"وصلت الفكرة. لقد رسمت عني صورة رائعة بالفعل"

واندفع بعنف خارج الباب، وحين وصل إلى البيت لم تكن لديه في البداية رغبة في الكلام حول الموضوع. لكنه أغلق الكتاب، ووضعه في درج من الأدراج، فارتحت لرؤيتي إياه وقد انتهى من الأمر.

في تلك الأثناء كنا نقترب من فترة الكريسماس، ونجهز أنفسنا للسفر إلى شرونس والبقاء هناك حتى الربيع، وكرس إيرنست جهده كله في وضع الخطط.

اقترح عليّ: "لم لا نطلب من بولين أن ترافقنا؟ ستكون الرحلة أجمل بكثير بالنسبة لك إذا كانت موجودة هناك"

"يسرني ذلك جداً. لكم أنت رائع لتفكيرك بي؟"

دعونا جيني أيضاً، لأن الأختين كانتا تظهران دوماً كثنائي، إلا أن بولين أكدت لنا أن أختها ستذهب إلى نيم مع أصدقاء آخرين. أما هي فكانت مبتهجة جداً للمجيء معنا، ولم تسعها الفرحة.

الفصل الرابع والثلاثون

نـــزلت بفايف من القطار، وكانت تبدو وردية اللون وموفورة الصـــحة. في الأسبوع الماضي، وصل ارتفاع الثلج إلى قدمين، لكن الطقس بدأ يستقر فأضـــحى أكثر دفئاً، والثلج أكثر طرواة على نحو جعل من التزلج أمـــراً مســـتحيلاً. كـــان إيرنست قد وعدها بتعليمها التزلج، وكانت تحمل مَزلجيها على نحو مربك حـــين قابلناها على الرصيف، ولكنها لم تعان على ما يبدو من خيبة الأمل حين أشرنا إلى ذوبان الثلج.

كان تعليقها: "يكفي أن أبقى قريبة منكما يا حبيبَيّ، ومن بامبـــي بطبيعـــة الحال"

كان بامبـــي يقف ممسكاً بيدي، وقد ارتدى سترته الشتوية فبدا أشـــبه مـــا يكون بطفل نمساوي، وكان شجاعاً تجاه القطار الذي أثاره بشدة وأرعبه صوته.

"قل مرحباً للخالة بفايف"، قال إيرنست موجهاً كلامه إلى بامبـــي الـــذي اختبأ وراء تنورتي، ولكنه عاد فاسترق نظرة فضولية سريعة من جديد، مما أضحكنا جميعاً.

كانت بولين على ما يبدو مفتونة بشرونس وبغرفتها على التاوبـــه والـــتي كانت في آخر الردهة الطويلة؛ تماماً بجانب المكان الذي كان إيرنست يعمل فيه. وقد قالت حين رأتها: "إنها أصغر من غرفتك، ولكنني في الواقع لست ضـــخمة جداً"

جلستُ على السرير بينما راحت تفرغ حقيبتها، في حين انشـــغل بامبـــــي باللعب بأطراف لحاف السرير على يديه وركبتيه، وانطلق يغني أغنية شعبية نمساوية قصيرة علمه إياها تيدي. فتحت بولين حقيبتها وبدأت بإخراج تنانير طويلة صوفية

وجوارب جيدة الصنع. تناولت سترة بلون الزبدة من الكشمير، وضعتها في حجرها ثم طوتها ثلاث طيات.

"لديك أجمل الأشياء" قلت لها وأنا أنظر إلى سروالي وسترتي الصوفية السميكة. "غير أنك سوف تسببين لنا الإحراج جميعاً إذا ارتديت فعلاً أياً من هذه القطع"

فقالت: "بل سأحرج نفسي، أظن أنني بالغت بعض الشيء. لكن هيم قال لي إن صفوة المجتمع موجودة هنا"

"لا بد من أنه كان يقصد الحيوانات، أو ربما النمساويين البدينين من بائعي اللحم ورجال الغابة الذين يلعب معهم الورق وكل منهم يدخن سيجاراً ضخماً. قد تجدين لنفسك زوجاً في هذا الجمع إن لم تكوني حذرة"

"أراهن أن الماعز نفسه سيسقط بسهولة أكبر من رجال الغابة" قال إيرنست وهو يقف في المدخل، حيث ملأ الفراغ الذي أحاطه إطار الباب والردهة وراءه كانت مظلمة.

فابتسمت بولين وقالت: "إذاً، لن أعتمر قبعة عالية جداً"

ضحكنا جميعاً، ثم عاد إيرنست لعمله، مقفلاً الباب خلفه بالمفتاح. لكم شعرت بالارتياح لرؤيته يعاود الكتابة من جديد بعد أن أمضى الأسبوعين الأولين من إقامتنا في شرونس في السرير بسبب ألم شديد في البلعوم وسعال حاد. لذا، كان من الجيد أنه بدا قادراً على العودة لعمله، والأحسن أنه كانت لدي صديقة أتبادل الحديث معها أثناء انشغاله.

بعد أن استقرت بولين جيداً في غرفتها ألبسنا بامبي ملابس سميكة، وذهبنا به على مزلجته الصغيرة عبر المدينة، وتمكنت من أن أريها كل شيء؛ الساحة الصغيرة بدكاكينها ومطاعمها، وملعب البولينغ، ومناشر الخشب، ونهر الليتس الذي قسم المدينة عدة مرات وغطي بجسور خشبية قوية.

"بت من فوري أعشقها دون حدود"، قالت بولين ذلك وهي تطلق زفرة طويلة.

وفي لحظتها، ارتطمت مزلجة بامبي بحفرة مجمدة وانزلقت به إلى إحدى الجهتين وقلبته فوق الثلج. فأطلق صرخة عالية من الفرح، ووقف بسرعة ليركب المزلجة مرة أخرى صائحاً بابتهاج: "مرة أخرى ماما!"

رددت بولين وراءه: "مرة أخرى، مرة أخرى!" وذرت بسعادة الثلج حولها بحذائها الجميل وغير العملي.

حين عدنا إلى الفندق، تبعتني إلى غرفتي بينما كنت أغير ملابسي، وقالت: "لا شيء مما أحضرته معي يناسب المكان هنا"، وتابعت: "هل يزعجك إعارتي شيئاً من ملابسك؟"

"لا يمكن أن تكوني جادة في هذا الطلب. فمقاسي ضعف مقاسك"

قطبت حاجبيها وقالت: "بالتأكيد ليس الضعف. ما رأيك بالمتاجر هنا؟ هل هناك ما هو قريب بينها؟"

"نعم، إن لم تكوني انتقائية. إذ ليس هناك ما يماثل متاجر منطقة الضفة اليمنى للسين هنا إلا على بعد عدة مئات من الأميال"

"هذا هو بالضبط ما أردت الابتعاد عنه. فجل ما أرغب به هو أن أرتدي ملابس عملية طيلة الوقت، ملابس معقولة، وليس سراويل لا معنى لها وقمصان رجالية؛ تماماً كالتي لديك"

لم أتمكن من أن أمنع نفسي عن الضحك. "هل أنت واثقة مما تقحمين نفسك فيه"

"بالتأكيد. وأريد الحصول على خف منزلي مثل خفك أيضاً. يجب أن يكون ببساطة مثله"

"يا لك من مضحكة، هاكِ بإمكانك الحصول على هذه"، وخلعت خفي وناولتها إياه. "سأنتعل حذاء إيرنست. هذا ما يفعله بك الزواج بالمناسبة، في لحظة ما على طريق الحياة تكتشفين أنه قد بات لديك مقاس قدم زوجك"

فابتسمت قائلة: "لن أمانع بهذا"

"لا تقولي إنك غدوت أكثر مرونة تجاه الزواج. هل هناك شخص جديد في حياتك؟"

"لا، لا، ولكنني فقط أهوى طريقة تعايشكما معاً. هناك أشياء لم ألحظها من قبل، مثلاً روعة أن يتواجد أحدهم بالقرب منك. ليس كالفارس الأبيض الذي يطير بك بعيداً، بل الرفيق الذي يجلس إلى مائدتك في كل ليلة ويخبرك بما يفكر به"

"إنهم لا يفعلون ذلك دائماً، كما تعلمين. حتى إنهم لا يتكلمون دوماً"

ابتسمت مجدداً وقالت إن ذلك لا يهمها، ثم أدخلت قدميها في الخف. كان حذاء ألبيًّا ضخماً، دافئاً ومبطناً بزغب الصوف، ولكنها أقسمت أنها أحبته وقالت: "أتمنى أن أموت وأنا أنتعله. لن تستطيعي نزعه من قدميّ"

بقي الجو دافئاً ورطباً بالنسبة للتزلج على الجليد، ولكننا اتبعنا روتيناً محبباً على كل الأحوال. حيث أصبحت بولين مثل ظلي، وبما أنني لم أحظ بمثل هذه الصحبة من قبل فقد استمتعت باهتمامها ورفقتها. لقد حرصت على تأملي وأنا أعزف على البيانو مطلقة عبارات التشجيع والمديح بين معزوفة وأخرى. وهكذا، أصبحت أهم معين لي منذ أن بدأت تحثني قدماً على المضي بفكرة الحفلة الموسيقية، وفوجئت حين وجدت نفسي سعيدة بمناصرتها لي أمام إيرنست الذي خصص الآن جزءاً من سلفته لبيانو بالإيجار حين عدنا إلى باريس. لم أكن أعلم أنني بحاجة إلى مساعدتها حتى رأيت ذلك بأم العين، وكان بإمكاني الاعتماد عليها، ومن ثم تساءلت كيف كنت أتدبر أموري بدونها.

لعلّ السبب كان التقارب والطريقة التي جمعت بيننا نحن الثلاثة كثيراً، ولكن في شرونس بدأت بولين تلعب دوراً محورياً في عمل إيرنست أيضاً. لطالما أبدت إعجابها المستمر بأعماله، وعبرت عن اقتناعها بأنه يملك موهبة عظيمة، لكن الأمور الآن أخذت منحى أكثر شخصية. فقد عاد لتوه للعمل على رواية بامبلونا، وبعد ظهر أحد الأيام حين كنت أتناول الغداء مع بولين أقبل علينا إيرنست من مكتبه وعيناه تلتمعان صفاءً وحبوراً.

بادرته: "لقد سار عملك بشكل جيد، لكم أنا سعيدة لذلك"

"نعم، بشكل جيد جداً. لقد نقلتهم إلى بورغيت"

"لا أتوقع أنك ستدعني أقرأ القليل منه" قالت بولين.

"إنه لم يتخذ أي شكل نهائي بعد. وأنت تتصرفين بتهذيب وحسب على أي حال"

"لا، أبداً. فأنا أعرف تماماً أنه عمل رائع. إنه رائع أليس كذلك هادلي؟"

قلت: "بالطبع إنه كذلك" وقد كان ممتازاً بالفعل. لكنني لم أشعر أنني قادرة على الإفضاء بمشاعري المعقدة حول الكتاب. على الأقل ليس بعد. وحتى عند سماعي لها وهي تطلب قراءته أوغر صدري. فقد كانت فتاة داهية. بمَ عساها ستفكر حين تجد أنني لم أشغل حتى أصغر حيز في كتابه؟ هل ستظن أنني وإيرنست نقف على أرض هشة؟ هل سترى ما لم أره أو ما لم أتمكن من رؤيته؟

"رواية بامبلونا سوف تنتظر"، قال إيرنست. "تحتاج إلى المزيد من الوقت لتستوي" وانقض باندفاع على طبقه من السحق والبطاطا اللذيذة، ثم توقف هنيهة ليقول: "لذي شيء آخر يمكنك أن تريه إن كنت فعلاً جادة" فأجابت: "بل أنا شديدة الجدية، ألم تعرف ذلك؟"

بعد الغداء، حين أحضر إيرنست الأوراق وسلمها لبولين، قالت له: "حقاً إنه لشرف عظيم!"

أجاب إيرنست: "سوف نرى إذا كان هذا الشعور سيظل كما هو بعد أن تقرئي هذا المخطوط اللعين" ومن ثم استعد للعب البلياردو مع السيد لنت. و لم أدرك أن المخطوط الذي ناولها إياه كان *سيل الربيع الجارف* ***The Torrents of Spring***، إلا عندما وقفت وراءها لأحاول القراءة من فوق كتفها. حينئذ اجتاحتني موجة من الغثيان؛ إذ أدركت أنه في الواقع لم يكفّ يوماً عن التفكير في ذاك المشروع. لكنه كان فقط ينتظر الفرصة الملائمة حتى يعثر على القارئ المناسب.

بعد أن خرج إيرنست إلى لعبته، تكورت بولين على الكرسي الأحمر الجميل بالقرب من المدفأة وعدت أنا إلى البيانو. كان من الصعب علي التركيز لأنها كانت تضحك بصوت عالٍ وهي تقرأ، مما جعلني في النهاية أقرر أنني بحاجة إلى نزهة طويلة سيراً على الأقدام، و لم نجتمع مرة أخرى إلا بعد عدة ساعات عندما حان موعد الغداء.

"الكتاب برمته مرح جداً" قالت موجهة كلامها لإيرنست قبل أن يعتدل في جلسته إلى المائدة. وتابعت: "إنه شديد الدهاء ومضحك جداً. لك كل دعمي

أجاب: "وأنا اعتقدت أنه مضحك أيضاً"، وتابع وهو يلقي إلي نظرة حادة: "ولكن، يبدو أن أصدقائي العزيزين كانوا يرون غير ذلك"

فقلت: "أرى فقط أنه مؤذٍ بالنسبة لشيروود"

بات بمقدور بولين الآن أن تتبين هدفها بوضوح فقالت: "إذا كان الكتاب جيداً ألن يكون بمثابة التكريم لأندرسون؟ فما من صحافة سيئة أليس كذلك؟"

فأكد إيرنست مجدداً: "هذا هو تماماً ما كنت أفكر فيه" وانطلق الاثنان يحرض الواحد منهما الآخر في تناغم متنامٍ ورائع.

"ليس هناك من طريقة أخرى لرؤيته من خلالها، أليس كذلك؟ ألا يمكن أن يشعر بالإطراء في نهاية المطاف؟" قالت بولين.

أجاب: "لا يمكن لأي شخص أياً كان جوهره أن يجرحه الهجاء"

"حسناً، أعتقد أنه عظيم. فهو كتاب راق لأبعد الحدود، وينبغي أن ترسله للنشر على الفور

في تلك اللحظة، فهمت بالضبط مقدار الألم الذي شعر به حين استخف الجميع بمن فيهم أنا بالكتاب ونبذناه وصرفنا النظر عنه. كان إيرنست يحب المديح ويحتاج إليه. كان يحب أن يهواه الآخرون ويعشقوه، وكان يحتاج إلى ذلك. لكن ما أقلقني هو رؤية بولين تدعمه بهذه الطريقة في هذا الوقت بالذات. فبناء على تشجيعها سيرسل الكتاب إلى بوني وليفرايت، وعلى الأغلب لن يحصل خير بعد ذلك لأن أندرسن كان المؤلف الأكثر أهمية بالنسبة إلى دار النشر تلك، وبسبب تشجيعه حصل إيرنست على عقد من الدرجة الأولى، لذا لم يكن بإمكاني تصور أن الكتاب لن يزعجهما. حين يعرف أندرسن فسيشعر بأنه أكثر من مكلوم. وتوقعت أن نفقد صداقته إلى الأبد كما كنا بجلاء نخسر صداقة غيرترود. لقد شعرت بالأسى لرؤيتي إيرنست وهو يدفع عنه بعيداً أولئك الأصدقاء المخلصين الناصحين له كما لو كان توجيه الضربات الموجعة العميقة لهم طريقته الوحيدة التي يمكن أن يثبت بها لنفسه وللآخرين بأنه لم يحتج إليهم في الأصل يوماً. ولكنني أحسست بأن يدي مغلولة في ما يتعلق بهذا الكتاب، فلم أتمكن من التفوه بكلمة أخرى ضده.

بعد الظهر من اليوم التالي، جهز إيرنست المخطوط للطباعة، وحزمه برزمة مع رسالة موجهة إلى هوراس ليفرايت يقول فيها إن بإمكانهم الحصول على الكتاب لقاء خمسمائة دولار تدفع مقدماً، وإن روايته الجديدة عن صراع الثيران

والتي لديه كل الأسباب ليعتقد أنها مثيرة، قد شارفت على التمام. وذهبت الرزمة.

وبينما كنا ننتظر وصول أي خبر، هبت عاصفة جديدة مصحوبة بمزيد من الأمطار، فلزمنا الفندق، ورحنا نقرأ ونأكل أفضل من أي وقت مضى. وفي أوقات بعد الظهر، بدأ إيرنست وبولين يتريضان مسافات طويلة على طول المنحدرات خلف الفندق، أو يسيران متعرجين ببطء في البلدة وهما مستغرقان في الحديث.

قال لي في إحدى الليالي حين كنا نستعد للذهاب إلى السرير: "لقد قرأت الكثير من الكتب، كما يمكنها الحديث عنها بشكل جميل"

"أتقصد أنها قرأت كتباً غير كتب هنري جيمس؟"

فقال متكلفاً الابتسام: "أجل" لطالما شكل هنري جيمس الدعابة الخاصة بنا، فهو الكاتب الذي وقف كالحد الفاصل بيننا ليظهر كم كنت ملتصقة بالماضي؛ بغض النظر عما تم تعريفي عليه أو استكشفته بنفسي.

"إنها فتاة ذكية دون شك" قلت وأنا أشعر بقرصة من الغيرة من جراء الألفة المتنامية بينهما. كانت ذكية بالفعل، وقد بدا أنها تستمتع بالتناغم الفكري الذي حصل بينها وبين إيرنست. أما أنا فيمكن أن أكون رئيسة المشجعين بالنسبة له، وقد كنت كذلك منذ تلك الليلة التي سلمني فيها في شيكاغو للمرة الأولى صفحات مجعدة كان قد خطها بنفسه. غير أنني لم أكن ناقدة، لم يكن بمقدوري أن أذكر له الأسباب التي تجعل من عمله إنتاجاً جيداً، وما أهميته بالنسبة للأدب. تلك الأسئلة التي شكلت منذ الأزل محور الحديث بين الكتاب ومحبي الكتب. أما بولين فكان بإمكانها أن تفعل ذلك. وكان يستجيب لذلك كما يطيب له. لقد تولدت لديه طاقة جديدة، وبخاصة في المساء حين كان ينزل إلى الطابق السفلي بعد يوم من العمل لأن هناك شخصاً مثيراً للاهتمام يتحدث إليه. ما الذي يمكن أن يكون أشد إثارة من ذلك؟ يمكنني أن أهيم به حباً، وأن أبذل كل ما بوسعي لأفهمه وأدعمه، لكن لم يكن بمقدوري أن أحمل بريقاً جديداً في عيني وأرسم ابتسامة خلابة على ثغري. لا يمكنني أن أصبح إنسانة جديدة.

بعد الكريسماس بيومين، جاء الرد من بوني وليفرايت. لقد رفض كتاب *السيل*. فبصرف النظر عن أن الكتاب يمثل هجاء ضارياً لا داعي له لأندرسن،

فإنهم لا يتوقعون أنه سيحقق مبيعات جيدة. فهو عقلاني جداً وليس مرحاً إلى الحد الذي أراده له إيرنست. وذكروا أنهم رغم ذلك مهتمون جداً بالرواية حول المهرجان الإسباني، وينتظرون بفارغ الصبر إنجازها.

"إذاً، أنا رجل حر" قالها إيرنست بمرارة بعد أن قرأ علينا البرقية. ثم أردف: "لقد حدّث سكوت ماكس باركينس من دار نشر سكريبنر عني، وهناك دائماً دار هاركورت. بإمكاني الذهاب في أي اتجاه"

قالت بولين وهي تضرب بإحدى قبضتيها الصغيرتين على ذراع مقعدها لتؤكد موقفها: "لا بد من أن يرى أحد ما العبقرية هنا"

قلت: "لست أدري، هل تريد فعلاً أن تقطع خيوط الصلة مع ليفرايت؟ لقد أدّوك حقك في كتاب *In Our Time في زماننا*"

"لماذا يتوجب عليك أن تكوني دائماً شديدة العقلانية إلى هذا الحد؟ أنا لا أريد أن أتصرف بحذر بعد اليوم. ناهيك عن أنهم هم الذين يجب أن يكونوا ممتنين لي. فقد جلبت لهم المال الوفير"

هتفت بولين: "إنها حتماً ليست دار النشر الوحيدة المتوفرة لديك. لقد أصاب سكوت حظاً وفيراً بعمله مع دار سكريبنر، لعل تلك الدار هي المرام"

فقال: "لا بد من أن شيئاً جيداً سينبثق عن هذا العمل، إنه كتاب بديع لأبعد الحدود"

فأجابت: "أجل، إنه لكذلك! سوف أذهب بنفسي إلى نيويورك وأخبر ماكس بيركينس ما هو بالضبط العمل الطريف إن لم يلحظه هو بنفسه"

ضحك إيرنست ثم جلس بعدها صامتاً للحظة قبل أن يقول: "قد لا تكون فكرة سيئة أن أذهب بنفسي إلى نيويورك وأجتمع مع بيركينس. سكوت يقول لي إنه الأفضل، وقد يكون أمراً جيداً لقاء الرجل ومصافحته باليد والاتفاق معه مباشرة إن كان سيتم الاتفاق بيننا أصلاً"

فعلقت بولين: "ألست على دراية كافية لتعرف ذلك؟"

لكم أدهشتني السرعة التي تحولت فيها هذه الخطة إلى أمر واقع. لقد سكبت في أذنه ما كان يتشوق لسماعه، وكان واضحاً أن اتفاقهما في التفكير منحهما انسجاماً قوياً. في غضون ذلك، كنت وحدي ضد *السيل* والسيناريو برمته.

قلت: "بالتأكيد يمكنك أن تنجز هذا كله من خلال البريـــد، أو تـــذهب في الربيع بعد أن تكون قد أنجزت التغييرات على الكتاب الجديد فتكون بين يـــديك مواد أكثر تعرضها على بيركينس

"لكن *السيل* جاهز. أنا أعرفِ أنك تكرهين هذا الكتاب، ولكـــنني ســـأدق الحديد وهو حامٍ"

فهتفت: "أنا لا أكرهه" لكن إيرنست كان قد نهض لـــيملأ كأســـه مـــرة أخرى، وقد تزاحمت في رأسه المخططات.

"هذا هو الرأي السديد، وسوف ترين قالت بولين.

أجبتها: "آمل أن يكون هذا صحيحاً"

لاحقاً في تلك الليلة، وعندما كنا نعد نفسينا للذهاب إلى السرير قلت: "أنـــا لست مجرد عقلانية كما تعلم. لقد اعتدتَ أن تعجب بصراحتي"

فقال زافراً زفرة قصيرة: "أجل. أنت حسنة جداً وصادقة جداً. ولكنني سأفعل ذلك. فهل أنت إلى جانبـــي؟"

كم مرة طرح علي هذا السؤال خلال حياتنا الزوجية؟ مائة مرة؟ ألف مرة؟

أجبته: "إنني دائماً إلى جانبك" ثم تساءلت في سرّي عمّا إذا كنت الوحيـــدة التي تستشعر الحقيقة المعقدة التي حامت فوق رؤوسنا في ظلام الغرفة.

الفصل الخامس والثلاثون

كان شباط في شرونس أشبه بجهنم. فالطقس في الخارج ثائر وعاصف، ولم يكن الوضع في الداخل أحسن حالاً؛ لأن الذي يمنح الحياة نبضها قد اتجه تارة إلى باريس وأخرى إلى نيويورك وبقيت وحيدة مع شكوكي.

في الليلة التي سبقت سفر إيرنست، رحت أساعده على توضيب حاجياته، ولكن الجو كان متوتراً.

قال لي: "يمكنك أن تأتي حتى لوهافر إذا أحببت وسنلتقي هناك"

"سيكون الأمر متعباً جداً مع الطفل الصغير في القطار

"إذاً، دعيه هنا مع تيدي. إنها بضعة أيام فقط"

أجبته: "ربما" ولكنني كنت أعرف مسبقاً أنني لن أفعل ذلك لأنه لن يحل أي شيء، ولن يبدد مخاوفي من الفجوة التي بدأت تتنامى بيننا حيث لم يعد يستمع إلي أو يثق برأيي، ولن يهدئ من روعي حيال الطريقة التي تحول بها إلى بولين. لقد كان منجذباً نحوها، هذا كان واضحاً، ولكنني لم أصدق بالفعل أنه قد يفعل شيئاً. فهو لم يفعل شيئاً مع داف، في حين لم تكن الأخيرة متأصلة بأي شكل إلى هذا الحد في حياتنا. بولين صديقتي، وهو لن يحطم هذه العلاقة، وهي لن تفعل أيضاً. كانت رسائلها تصل تقريباً بشكل يومي منذ أوصلناها إلى القطار لتعود إلى باريس. وكانت كلها موجهة إلينا كلينا بقولها إلى المدللين عندي كما كانت تحب أن تخاطبنا، أما اللهجة فكانت جذلة وشاملة وصافية مثل صاحبتها بولين. وقراءتها جعلتني دوماً أشعر بالتحسن. كما ساعدني أيضاً أن أذكر نفسي بأنها أحبت دوماً الرومانسية الجارفة من النوع الذي تجده في الأدب الرفيع، ولم تكن لترضى بحب يأتي رخيصاً، فهو لا يتناسب مع ذوقها.

قلت له وهو يضع القطع الأخيرة من حاجاته في حقيبة سفره: "سوف ترى بولين في باريس بطبيعة الحال"

"إذا توفر لدي الوقت لذلك. فهي مشغولة جداً الآن بعروض أزياء الربيع، وهناك أصدقاء كثيرون علي أن أراهم. إذاً، ألن تأتي؟"

"كلا. أعتقد أنه من الأفضل لي البقاء هنا"

فقال: "افعلي ما تشائين" وأغلق حقيبته.

أمضى إيرنست عشرة أيام وراء البحار، دون تواصل بيننا. وحرصت وبامبي خلالها على الالتزام ببرنامجنا اليومي بحذافيره ما أمكنني؛ لما كان لذلك من دور في أن أشعر بالثبات والاستقرار. حافظنا على أوقات الطعام، وتناولنا الأشياء ذاتها، وذهبنا إلى السرير باكراً، كما نهضنا في الصباح باكراً. وفي أوقات بعد الظهر، كنت أتمشى في القرية أو أكتب الرسائل بينما تعتني تيدي بطفلي. أما في فترات الصباح فكنت غالباً ما أعزف مقطوعة شاكون لباخ بوسوني حتى أشعر بأن أصابعي ستسقط من مكانها. كنت أتدرب من أجل الحفلة الموسيقية التي قررت أخيراً أن أقيمها، وقد زادني غياب إيرنست وتنامي مخاوفي اقتناعاً بأنني بحاجة إليها أكثر من أي وقت مضى. لذا، كتبت رسالة إلى مدير صالة بلييل، وهي صالة صغيرة تقام فيها الحفلات الموسيقية وتقع في شارع روش شوار، وعبرت له فيها عن اهتمامي بالعزف في حفل لديهم، كما أعطيته بعض التفاصيل عن خلفيتي وصِلاتي، ثم رحت أنتظر رده بخوف وارتياب؛ ولكن لم تكن هناك حاجة لذلك، فقد أجابني بسرعة وسماحة محدداً موعداً في الثلاثين من أيار، على أن توضع التفاصيل حين أعود إلى باريس في أوائل نيسان.

أخيراً، حين راسلني إيرنست، علمت أنه ما إن وطئ نيويورك حتى توجه إلى مكتب هوراس ليفرايت وقد سار الاجتماع بشكل جيد. ليفرايت كان مثقفاً وراقياً، وانتهى كل شيء إلى نتيجة مرضية. لم تكن لديهم أي تحفظات، ليس هذا فحسب، بل إن ماكسويل بيركينس رأى السيل "كتاباً عظيماً"، وعرض ألفاً وخمسمائة دولار مقدماً مقابل حقوق المؤلف عنه وعن الكتاب الجديد الذي عنونه إيرنست مؤخراً: *The Sun Also Rises* *الشمس تشرق أيضاً* معاً، وهو مبلغ يفوق

أي مبلغ سمعنا أن أحداً ما قد ناله من قبل. كان قد وطد العزم على مغادرة نيويورك في نهاية الأسبوع، ولكنه غير رأيه في اللحظة الأخيرة ليمدد إقامته. ففي النهاية، كان يتربع على القمة، وحوله أناس كثيرون مهمون. اجتمع بروبرت بينشلي ودوروثي باركر وإلينور وايلي وكان كل شيء على أحسن ما يكون، فلم الاستعجال في العودة؟

في تلك الأثناء، اعتدل حال الطقس في شرونس، وبلغ ارتفاع الثلج الجديد ثلاث أقدام، ولكي أتفادى الإصابة بالجنون بسبب الانتظار تزلجت على الجليد، وصعدت الجبل حتى شعرت بأن ساقي أصبحتا أقوى من أي وقت مضى وبالكاد شعرت بالضغط في رئتي بسبب الارتفاع. ومن ذاك المكان الشاهق أمكنني النظر إلى الأسفل، ورؤية الفندق منمنماً وكأنني بت قادرة على ضمه براحة يدي، ولكنه رغم ذلك كان يبدو ثابتاً ويمكن الركون إليه. من بين جميع الأماكن التي تواجدت فيها مع إيرنست، كان هذا هو المكان الذي شعرت فيه أنني أكثر أماناً وقوة. وإذا كان علي أن أواجه بشجاعة أسابيع من عدم اليقين فقد كنت سعيدة لأنني أمضيها هنا.

بقي إيرنست في نيويورك ثلاثة أسابيع تماماً، ومن ثم كانت هناك عشرة أيام قضاها في عرض البحر، ورست سفينته في لوهافر في أوائل آذار. لكنه لم يعد مباشرة إلى شرونس، إذ كان هناك أصدقاء يريد رؤيتهم في باريس. استطاع أن يلتقي سكوت وزيلدا، وتناولوا معاً وجبة غداء لطيفة جداً قبل توجههما إلى نيس لقضاء الربيع هناك. كما رأى جيرالد وسارا مورفي وماك لايشيس وبولين أيضاً بطبيعة الحال. واهتم بأمور الخدمات المصرفية الواجب القيام بها، وتفقد الشقة، ومرت الأيام. وحين وصل أخيراً في يوم أطلقت فيه الشمس أشعتها على الكون التقيته وبامبي في المحطة.

قال حين التقاني وبامبي على رصيف المحطة: "انظري إلى نفسك يا زوجتي، تبدين على أحسن حال، ومسمرة من الشمس وجميلة"

فابتسمت وقبلته.

ثم أضاف: "انظري إلى خدي المرموط هذين. يجب أن أقول إن لدي أجمل أسرة، يا له من حظ عظيم!"

طيلة العشاء، كان حديثه مفعماً بالقصص المثيرة عن نيويورك. ولم تسنح لي الفرصة لأحدثه عن الحفلة الموسيقية في صالة بلبيل إلى أن وصلنا إلى السرير، وكاد أن يكون على الدرجة نفسها من الإثارة التي شعرت بها أنا، إذ هتف قائلاً: "لطالما أردت لك هذا الأمر يا تاتي. وهو أن يكون للموسيقى مكان في حياتك كما كان الحال في الوطن. وأن تكون على تلك الدرحة من الأهمية" مرر يده في شعري الذي نما وأصبح أشقر تماماً بفعل أشعة الشمس. "لم أعرف كم كنت أفتقدكما حتى رأيتكما اليوم"

"أحقاً لم تعرف؟"

"هناك شيء ما يرتبط بالعودة إلى البيت ويذكر المرء بما لديه"

"لقد افتقدتك الوقت كله"

"هذا لطيف أيضاً. كل شيء جميل"

قبلته ثم استلقيت على سريري الوثير وأنا أتأمله وهو يغفو. استرخت عيناه بشكل كامل، ولم تظهر حولهما أي خطوط تعب؛ وبدا كطفل يستسلم للنوم. كان بإمكاني رؤية الطفل الذي يختبئ داخل هذا الرجل، وكنت أحبهما كليهما بكل بساطة، وبشكل كامل لا رجوع عنه. اندسست تحت ذراعه، وأحسست بأنفاسه واستسلمت للنوم.

في آذار، وقعت انهيارات ثلجية كارثية في شرونس. كان السيد لنت يقود مجموعة من الألمان حين حدث الانهيار الأول. فقد سطعت أشعة الشمس على نحو حاد، وكانت الظروف خطرة. وعلى الرغم من أن السيد لنت كان قد أخبر الألمان بألا يأتوا إلا أنهم جاءوا على كل حال، وأصروا على التزلج سواء أقام بقيادتهم أم لا. لذا اصطحبهم إلى أكثر المنحدرات ثباتاً حسب علمه، وكان أول من اجتازه ليتأكد من سلامته، ثم عبروه كمجموعة. وما إن وصل ثلاثة عشر شخصاً منهم إلى مركز المنحدر حتى انهار التل على نحو ساحق ودفن الأشخاص الثلاثة عشر تحت الثلوج. وفي الوقت الذي وصل فيه فريق الإسعاف لإخراجهم، تسعة منهم كانوا في عداد الموتى.

عندما جاء السيد لنت ومساعدته الجميلة الآنسة غلازر لقضاء أمسية معنا على التاوبه سمعنا القصة كلها من مصدرها الأولي.

"حوصر أحد الرجال بالثلج الكثيف، كان ثلجاً قديماً ومبللاً جداً وعميقاً. أمضينا يومين ونحن نبحث عنه، والمنقذون يحفرون هنا وهناك بلا طائل. وعندما ظهر أخيراً، كان دمه هو الذي سهل علينا الطريق الذي يجب اتباعه. لقد لوى رأسه تقريباً محاولاً إيجاد سبيل للتنفس

"فعلاً، لواه حتى العظام" قالت الآنسة غلازر التي اتسمت بالحيوية واللطف بشعرها المعقود ووجهها الذي لوحته الشمس، حتى إن سماع مثل هذه التفاصيل المرعبة من فمها بدا صاعقاً. "كان هناك رجل آخر لقي حتفه منذ سنوات مضت في انهيار الثلج المسحوق. لقد استدار ليلوح لصديقه ومات كلاهما بينما كانا يلوحان ويبتسمان"

قلت: "لا يمكنني تصديق الجزء الخاص بأنهما يبتسمان"

فقال إيرنست: "أنا يمكنني مرت هنيهة من الصمت سرحنا فيها كل مع أفكاره، ولم نسمع فيها سوى صوت النيران وهي تطقطق وتئز في الموقد، ثم قطعه إيرنست أخيراً قائلاً وهو يحدق إلى قدحه: "ربما يشبه الأمر صراع الثيران أو أي شيء آخر. ربما يمكن أن تتعرفي على الانهيار الثلجي، وأن تلمي بالظروف وما يحرضها وكيفية البقاء على قيد الحياة في أحد الانهيارات إذا أخذك بعيداً"

فرد لنت: "ربما. قد تتمكنين من تحسين فرصك في النجاة، ولكنها ستبقى على كل الأحوال مغامرة خطرة على الدوام"

"هل تعتقد أننا سنتسلق مرة أخرى في هذا الفصل؟" سأل إيرنست.

"غالباً لا. وإذا استطعت إقناع أحدهم باصطحابك إلى أعلى الجبل، فلن أكون أنا هذا الشخص. لأنني لن أتمكن من التعايش مع نفسي إذا حدث شيء ما مرة أخرى"

أومأت الآنسة غلازر بإشفاق، لكن لم يبدُ على إيرنست البتة أنه قد اعتبر من تجربة لنت، بل كان لا يزال يفكر بطريقة للقيام بهذا الأمر. لقد أمكنني من خلال بريق عينيه القول إن شعوراً بالتحدي قد تولد لديه، فأراد أن يختبر مهارته وخوفه أيضاً؛ تماماً كما كنت أفكر، *مات الرجال، نحن ينبغي ألا نكون هنا البتة.*

وبما أن لنت بقي مصراً على عدم قيامنا بالتزلج فقد كنا سعداء لتلقي رسالة من دوس باسوس في أواخر آذار يخبرنا فيها أنه قادم ليزورنا بصحبة أسرة موري.

حين وصلت، أضحى وجودها في شرونس كما هو الحال عند التواجد في أي مكان آخر مع صفوة الأغنياء، إذ بات الوضع احتفالاً لا يضاهى في ساعات اليوم بطوله، وكان الجميع مبتهجين.

"كم أحب مخبأك الصغير هذا" قالت سارا مورفي حين جاءت لتناول الفطور بملابس التزلج الكاملة والجديدة تماماً بالرغم من أن إمكانية التزلج كانت معدومة.

فوافقتها: "إنه أفضل مكان في المنطقة"

"لكنه لم يعد مخبأً" قال إيرنست مبتسماً ابتسامة مبطنة.

كان إيرنست غالباً سريع الشكوى من ذوق أسرة موروفي الرفيع وكميات السيولة الجاهزة لديهم. وأبدى صبراً أكثر مع سارا لأنها كانت جميلة جداً ومنحتنا جميعاً شيئاً ممتعاً ننظر إليه. أما جيرالد فقد كان أكثر خداعاً، كما كان مهذباً ولبقاً أكثر من اللازم بالنسبة لإيرنست. كانت ملابسه مثالية، وحديثه حسناً. ولا يمكن للمرء إلا أن يتملكه الشعور بأنه إنسان بنى نفسه من الحضيض إلى أن أضحى مخلوقاً تتجسد فيه الأناقة والكياسة. ولكنه كان يبدو مصمماً بشكل غريب على أن يخلف لدى إيرنست انطباعاً طيباً عنه، وأن يربح صداقته واستحسانه مهما كلفه الأمر. لم نتمكن من الوصول إلى المنحدرات، لكن إيرنست أعطى جيرالد دروساً في التزلج على التلة خلف نهر التاوبه، وكان ذلك هو الوقت الذي بدأ فيه جيرالد بمخاطبة إيرنست بقوله: "بابا" لأنه كان المعلم المتمرس وقد أحب هذا الدور، فكان يقول: "أرني مرة أخرى كيفية قطع هذا المنعطف في أسفل المنحدر، بابا. كان أداؤك يمثل الجمال بعينه"

رغم كل شيء، ظل إيرنست حذراً، إذ قال في إحدى الليالي حين أوينا إلى السرير: "يمكنهما شراء الريفييرا النتنة بأكملها لو رغبا بذلك. ويمكنهما جعلها آهلةً بالكثير من نماذج الأشخاص المسلين للترفيه عنهما في الأوقات كلها، مثلنا نحن. ونحن جميعاً القرود التي يحركها العازف على أنغام موسيقاه. ودوس هو الأسوأ، فهو يتفانى في خدمتهما، ويعمل جاهداً كي يبقيهما هنا.

"ولكن بعض الأوقات التي نمضيها بصحبتهما ممتعة فعلاً، وهما كريمان جداً، أليسا كذلك؟"

"ها هي زوجتي الطيبة والصادقة تعود. هل سيقتلك أن توافقيني الرأي ولو لمرة واحدة؟"

"وهل سيقتلك أن ترى ما هو جيد فيهما؟ إنهما معجبان بك بلا حدود"

"إن الأغنياء جداً يعجبون بأنفسهم فقط"

استلقينا للحظات ساكنين، وقد أخذ سعال بامبي الجاف في الغرفة الثانية يشق الصمت. كلما كبر بامبي قل استيقاظه ليلاً، فلم نكلف نفسينا عناء توظيف تيدي إلا في النهار. ولكنني عندما أصغيت إلى سعاله فكرت أنه قد يكون من المناسب وجودها هنا في أوقات مثل هذه.

قال لي إيرنست: "هل ستتولين الموضوع؟ أنت لا ترغبين دون شك أن يوقظ ضيفينا الطيبين والكريمين"

فقلت وأنا أنهض متعبة لآخذ ردائي: "هل من الضروري أن تكون شخصاً أحمق إلى هذه الدرجة؟"

"أجل. فأنا أحافظ بذلك على شكلي ثم استدار، وراح يتعمد إظهار كم هو مقبل على نوم مريح في حين دخلت أنا كي أعتني بالطفل الذي لم يكن بالفعل مستيقظاً. كان يسعل وعيناه مغمضتان وهو غارق في الأحلام، وعندما هدأت هجمة السعال، بدا أنه بألف خير وتنفس بعمق. حين رجعت إلى السرير صعدت إليه بهدوء ظناً مني أن إيرنست نائم، ولكنه لم يكن كذلك. إذ قال لي في الظلام:

"يؤسفني أنني ذو نزوات غريبة، لقد كنتِ دوماً الشخص الأفضل بيننا"

فقلت وأنا أستدير نحوه: "أنا لست كذلك، فكلانا الشخص نفسه، ألسنا كذلك؟"

قال: "بالتأكيد" ثم شعث شعري وقبلني على أنفي، "ليلة سعيدة تاتي"

وأجبته: "ليلة سعيدة تاتي"

الفصل السادس والثلاثون

في شينونسو انتصب القصر وقد انعكست صورته بهية على نهر شير ريفر حتى بدا وكأنه يقف هناك لأنني تخيلت وجوده، وكأنه خرج من حلمي وسيبقى إلى أن أنصرف عنه فيتلاشى. وغرقت عيناي في تأمل السلسلة المضاعفة من الأقواس؛ حتى لم أعد قادرة على تمييز أيها كان الواقعي وأيها الانعكاس الساكن.

"يسمى هذا القصر قصر السيدات" قالت بولين وهي تقرأ من الدليل الذي تحمله.

فسألتها جيني: "ولماذا يدعى كذلك؟"

"لم يذكر السبب في الدليل. ربما لأنه توجد قريباً من هنا سيدة نبيلة"

"أو ربما لأنه المكان الذي توضع فيه السيدات ليرتدين المشدات ويبقين هادئات بينما الرجال في قلاعهم يتسلون مع العاهرات ويمضغون أفضل الأجزاء من لحم البقر

فضحكتُ وقلت: "سيظن المرء أنك لا تحبين الرجال نهائياً"

"أوه كلا. إن لهم استخداماتهم"

فقالت بولين: "ينبغي أن أقول الشيء نفسه"

كنا مسافرين في وادي نهر اللوار في بلد القصر. شخصياً، لم يسبق لي مطلقاً أن زرت المكان، لكن جيني وبولين كانتا تعرفان تماماً أين ينبغي أن نتوقف، وأي المطاعم يمكن أن نزور، وماذا نطلب. في تور تناولنا اللحم المفروم من القدر؛ لحم السمان مع شرحات العجل، والهليون الأبيض والفطر الذي يذوب على اللسان، وسبعة أنواع من لحم الماعز. حيثما ذهبنا كان هناك نوع مختلف من الشراب الخاص بالمنطقة للتذوق. وفي الليل، نمنا بشكل رائع في أفضل النزل. في

البداية، شعرت بالارتباك لتركي أمر تسديد فاتورة كل شيء لرفيقيّ، ولكنهما ما انفكتا تصران على أنني ضيفتهما وأن الرحلة بأكملها قد تم اختراعها لأنهما أرادتا تدليلي.

بشكل عام، كان إيرنست يكره أن أقبل الإحسان. ولكن حين اقترحت بولين وجين خطة رحلة اللوار بعيد عودتنا إلى باريس في شهر نيسان، فاجأني بتشجيعه لي على الذهاب. إذ قال:

"ماري كوكوت ستزورنا كل يوم وتؤمن لنا الطعام. لقد انتهى الكتاب، وسوف آخذ السيد بامبي إلى سباق الدراجات يومياً وأوقفه في الشمس ليحظى بقيلولات طويلة. سنكون فريقاً جيداً، وأنت تستحقين الحصول على استراحة"

فكرت في سرّي، لقد استحققتها فعلاً. في الأسابيع الأخيرة في شرونس، صرفت كل لحظة فراغ لدي في التحضير للحفلة الموسيقية خوفاً من ألا أكون جاهزة. حيث أخبرنا كل شخص من معارفنا عنها، وكانت أماكن الصالة كلها تقريباً محجوزة. وحدها تلك الفكرة كانت كفيلة بأن تدفعني إلى الجنون، ولكنني مع ذلك لازمت العمل على ما كان متوفراً بين يدي، فأعدت التدرّب على كل قطعة وجملة وعلى أدق الفروقات، وكلّي ثقة أنه بإمكاني عندما يحين الموعد أن أعتمد على العادة لو أخفق كل شيء آخر. أثناء ذلك، ألقى إيرنست كل شيء من يده كي ينجز رواية *Sun* *الشمس* التي بدأ بإعادة كتابتها في عدة فصول في اليوم. والآن، بات يجهز المخطوط لإرساله بالبريد لماكسويل بيركينز.

قال لي: "أفكر في إهداء الكتاب للسيد بامبي، والإشارة إلى أن الكتاب مملوء بالطرف التوجيهية"

"هل أنت جادّ؟"

"بالطبع لا. فالهدف أن يكون الإهداء ساخراً. برأي سكوت، يجدر بي ألا أفعل، ولكنني أظن أنه لا بأس في ذلك. سيدرك بامبي أنني أقصد ألا يسلك في حياته أبداً طريق هؤلاء المساكين التائهين الهمجيين"

قلت ضاحكة: "تعني حين يستطيع القراءة"

"نعم، بالطبع"

"ليس من السهل أن يعرف المرء كيف يعيش. وهو محظوظ لأن لديه أباً مثلك، ويوماً ما سيكون مزهواً بذلك"

"أرجو أنك تعنين ذلك"

"بالطبع تاتي. ولِمَ لن أعنيه؟"

"لأنه ليس من السهل أن يعرف المرء كيف يعيش

بينما كنت أحزم أمتعتي لرحلتي، كان علي الاعتراف بأنني كنت مرتاحة لعودتنا إلى روتيننا السابق في باريس، وإلى كون بولين جزءاً لا يتجزأ منه. فما إن عدنا حتى جاءت إلى بيت المنشرة مباشرة وكانت بأروع صورها، وراحت تمازحنا كلينا وتخاطبنا بقولها: "صديقيّ العزيزين"

قلت لها: "يا الله، لقد افتقدتك بفايف" وقد عنيت ما قلته حرفياً.

حين بدأنا رحلتنا كانت الأختان في منتهى المرح. طيلة يومين، كنا نقف عند كل قصر أُشير إليه على الخريطة، وكل قصر كان يبدو أفخم وأشد فتنة من سابقه. ولكن، مع مرور الوقت بدا أن مزاج بولين قد تغير.

عند قصر آزي لو ريدو، وهو حصن من الحجر الأبيض الذي يتراءى للناظر إليه كأنه يعوم فوق بركة من النيلوفر المحيط به، كانت تنظر إلى كل شيء بعينين مظلمتين وحزينتين. وقالت: "رجاء، فلنذهب، لا أريد أن أرى أي شيء"

"أنت تحسين فقط بالجوع يا غاليتي. سوف نتناول غداءنا بعد هذا فوراً"

"من المفترض أن يكون السجاد سجاداً فارسياً مبهراً" قلت وأنا أنظر إلى الدليل الذي ناولتني إياه بولين.

"أوه، هلا أغلقت فمك يا هادلي"

فنهرتها جيني بحدة: "بولين!"

بدا على بولين الصدمة لكونها تفوهت بما تفوهت به، وأسرعت الخطى نحو السيارة. من ناحيتي، لقد وقعت كلماتها علي كالصاعقة فامتقع وجهي.

فبادرتني جيني محاولة تطييب خاطري: "رجاء، لا تعتبي عليها. لا أظنها نامت جيداً وقد كانت دائماً حساسة بهذا الشكل"

"ما حقيقة الأمر؟ ألم تكن تريدني هنا؟"

"لا تخطئي التقدير! لقد كان كل شيء فكرتها. أمهليها القليل من الوقت ليعود لها عقلها"

أمضينا أنا وجيني ساعة من الزمن ونحن نسير في الحديقة حول القصر، وحين عدنا إلى السيارة ألفينا بولين وقد تناولت أكثر من نصف زجاجة من الشراب الذي كان في صندوق الثلج في السيارة.

قالت لي: "رجاء سامحيني هادلي. فأنا حمقاء غبية"

فقالت جيني: "يا لك من فتاة"

فأجبتها: "لا بأس. كلنا نمر بفترات مزاجية"

ولكنها راحت تشرب كثيراً، وبدا أنها تزداد انغماساً في مزاجها الكئيب تحت غلالة الوقت الجميل الذي قضيناه، غير آبهة بما أكلناه أو شاهدناه، وغير آبهة بما قلته أنا أو قاله سواي.

في فترة بعد العصر، توقفنا قليلاً لنمشي عبر حديقة جاردن دو فيلاندري على نهر اللوار. كل شيء كان ينضح إتقاناً وأبهة. إذ امتدت الحديقة على ثلاثة مستويات. تنامى المستوى الأول خارج حوض النهر وأحيط بالأشجار المزهرة. فيما صمم المستويان الآخران في هندسة جميلة جعلتهما ينحنيان حول ممرات ذات حجارة زهرية صغيرة. كانت هناك حديقة عشبية، وحديقة موسيقية، وأخرى تسمى حديقة الحب؛ حيث تمهلت بولين في خطوها، لتقف في النهاية ساكنة قرب بقعة من نزيف أكاذيب الحب، ومن ثم، ومن دون أي سابق إنذار، شرعت بالبكاء.

قالت لها جيني: "رجاء توقفي حبيبتي، أرجوك كوني سعيدة"

فقالت: "لا أعلم ما الذي ألم بي" ومسحت دموعها بمنديل من الكتان مطوي، غير أنها لم تتمكن من إيقاف فيض دموعها المنهمرة، فقالت بصوت مخنوق: "أنا آسفة" ثم ركضت بعيداً وحذاؤها يتعثر على الحجارة الوردية.

الفصل السابع والثلاثون

حين رأى بفايف بمعطفها الأنيق في الشارع كانت كعهدها دائماً تتدفق حيوية ونشاطاً. وحين تحدث إليها كانت تميل برقبتها إلى إحدى الجهتين وتغمض عينيها نصف إغماضة وتصغي. كانت تصغي بكل ما تملك من حواس، وتتحدث بالطريقة ذاتها أيضاً. وعندما كانت تقول شيئاً حول عمله كان يتملكه الشعور بأنها تفهم ما يحاول القيام به كما تفهم أهميته. كان يحب ذلك كله، ولم يحاول فعل أي شيء للحؤول دون ذلك. ثم حدث في إحدى الليالي أنها بقيت في بيت المنشرة حتى وقت متأخر جداً. كانت هادلي قد ذهبت إلى سريرها تحت وطأة التهاب في البلعوم، وبقي الاثنان يتحدثان. وعندما حان وقت الذهاب بالنسبة لبفايف، ذهب معها مشياً على الأقدام بدلاً من أن يضعها في سيارة أجرة. كانت المسافة ثلاثة أميال على الأقل، ولكنهما قطعاها وقد غمرهما نوع من النشوة وهما يتبادلان الابتسام بغرابة، بينما صوت خطواتهما يرن على الحصى الوردية. كان سيرهما يزداد بطئاً كلما اقتربا أكثر من باب البيت. لكن في النهاية، لم يكن هناك مكان آخر يذهبان إليه.

التفتت إليه وقالت: "يمكنك أن تقبلني"

قال: "حسناً" وقبلها بشغف على شفتيها، ثم عاد إلى البيت مشياً على الأقدام، وحيداً والرغبة تضج داخله، ومتسائلاً عمّا إذا كانت هادلي ستشك بأي شيء.

بعد عدة أيام، اجتمعا بالصدفة لدى دينغو. كانت تلك فرصة بالنسبة له على كل الأحوال. تناول كل منهما كأساً من الشراب ثم قالت له: "إذا بقينا هنا فإن بعض أصدقائنا سيحضرون حتماً، ومن ثم سيتوجب علينا البقاء هنا"

"أين ينبغي لنا أن نذهب؟"

رمقته بنظرة جادة، ودفعت الفاتورة بنفسها، ثم سارا سريعاً إلى بيتها في شارع بيكو. كانت أختها خارج البيت في ذلك المساء. إنهما حتى لم يضيئا الأنوار، ولم يدعيا أنهما هناك من أجل شيء آخر.

كان متفاجئاً من مشاعرها المتأججة لأنها كانت في النهاية كاثوليكية إلى أبعد الحدود، فتوقع أن تكون خجلة وأن يملأها الشعور بالذنب. لكن الشعور بالذنب أتى في وقت لاحق جداً. في الوقت الحاضر، كانت تمثل له شيئاً غريباً على نحو رائع ومقنع تماماً. فوركاها الضيقتان وساقاها البيضاوان والطويلتان جدًا لم تشبه البتة ما لدى زوجته؛ كانت بالنسبة له أرضاً جديداً، وقد كان سعيداً جداً بالتواجد معها طالما أنه لم يفكر بما يمثله التواجد.

حين عاد إلى البيت إلى زوجته شعر بانحطاط تصرفه بسبب ما فعله، وأقسم أنه لن يكرر ما حدث. ولكنه حين تكرر بعدها مرة تلو الأخرى بكم أكبر من التخطيط والتعمُّد أخذ يتساءل عن كيفية تمكنه من الخروج من المأزق الذي وضع نفسه فيه. لو علمت هادلي لأحست بالطعنة مضاعفة؛ مرة عن خيانة كل منهما لها. وإن لم تعلم، حسناً، إن ذاك كان أسوأ تقريباً. لم يكن الأمر حقيقياً حتى في هذه الحالة لأنها حياته، فكل شيء سيتجرد من أي معنى له إن لم تعلم به.

لقد أحبهما كلتيهما. ومن هنا جاءت المتاعب التي حملها في رأسه كالحمى، وأشعره التفكير في الأمر بالسقم. وأحياناً وبعد أن كان يستلقي ساعات يقظاً، كان يتبادر إلى ذهنه بوضوح أن عليه تغيير حياته لتتناسب مع ظروفه. بوند تدبر الأمر، كان لديه شكسبير وأولغا. ولم يشك أحد في أنه أحبهما كلتيهما. لم يكن مضطراً للكذب. الجميع يعرفون كل شيء، ونجح كل شيء لأنه أصر على موقفه فلم يساوم ولم يتحول إلى شخص آخر.

وهنا تكمن الحيلة، أليس كذلك؟ كان فورد تقريبا بعمر والده نفسه ولكنه فعلها أيضاً. حين رفضت زوجته الطلاق، غيّر اسمه ببساطة وتزوج ستيلا التي كانت جميلة ومخلصة جداً؛ ولكنها لم تكن كافية أبداً. إذ أقام علاقة مع جان ريس ناقلاً إياها إلى وسط المنزل الذي كانت ستيلا ترسم في إحدى غرفه، والطفل

الصغير يبكي في غرفة أخرى، وفي غرفة ثالثة كان يعمل على مراجعة كتب جـــان والنوم معها أيضاً. كان الجميع ينادون جان: "فتاة فورد"، وستيلا: "السيدة فورد"، وجعل ذلك كل شيء بسيطاً بشكل كافٍ ظاهرياً.

لِمَ لا يمكن لبفايف أن تكون فتاته؟ قد يكون الترتيب قاتلاً، ولكن ألا يمكـــن للزواج أن يكون قاتلاً أيضاً إذا راكم الفحم داخلك؟ يمكنك أن تصبح صامتاً جداً في الزواج. ووجود فتاة جديدة تجعلك تتحدث وتخبرها بكل شيء سيوجد جـــواً من النشاط والحيوية لديك من جديد. فهي تخرجك مما يثقل رأسك، وتحـــد مـــن شعورك في أن خير جزء فيك ينأى عنك بعيداً خطوة خطوة. وستصبح مديناً لهـــا بهذا. مهما حدث غير ذلك، مهما كان رهيباً، فإنك لن تنسى معروفها.

الفصل الثامن والثلاثون

قالت جيني: "دعيني فقط أذهب لأستطلع أمرها" ثم تبعت بـــولين إلى طـــرف الحديقة حيث توجد أجمة خضراء صغيرة محاطة بأشجار الصفصاف، لم أتمكن من سماع أيّ مما دار بينهما، ولكنني تمكنت من رؤية بولين وهي تمسك رأسها بيديها وتحركه إلى الأمام وإلى الوراء. عندها فقط نـــزل علي الأمر كالصاعقة. لقد كانت بولين شـــديدة التجلُّد حيالي، وحيال دعوتي لأكون قريبة منها لأيام دون انقطاع بينما كانت غارقة في حب زوجي. وما إن تبلورت الفكرة في ذهني، حتى أدركت أنني لست زوجة غيورة. كان الأمر حقيقة، وتعذر التعامل معه أو تغييره. عندما مشت عبر الحديقة شعرت بأنها تخاطبها عن كل ما لا يمكنها أن تناله من السعادة. أنا وإيرنست كنا الحديقة، وما كان بمقدورنا سوى أن ندمرها؛ وهو ما كان حاصلاً بالفعل.

على الأجمة، انحنت جيني إلى جانبها، وهمست في أذنها شيئاً حنوناً، وبـــدت بولين أهدأ بعض الشيء. ولكن، حين حاولت جيني أن تعيدها إلى حيث كنـــت أقف قاومت. وفي النهاية، عادت جيني وحدها.

"لست أدري ماذا أقول. إنها مزاجية بالفعل لأبعد الحدود، وقد كانت كذلك مذ كنا صغيرتين"

"جيني، رجاء كوني صادقة معي. هل لإيرنست علاقة بالموضوع؟ هل وقعت بولين في حبه؟"

نظرت جيني إلي متفاجئة. كانت عيناها بنيتين جداً وواضحتين تحت الطرف الحاد لغرتها الغامقة، وأجابت: "أظن أنهما يهتمان ببعضهما بعضاً"

في تلك اللحظة، تكشف أمام عيني الجزء الذي لم أكن قد رأيته مـــن قبـــل، وشعرت أنني غريبة وغبية لأنه قد فاتني. قلت: "هكذا إذاً" ومن ثم لم أكن قـــادرة على التفكير بأي شيء آخر أقوله.

بقية الرحلة كانت ضبابية بالنسبة لي. كان هناك يوم واحد بعد، شعرت أن لا نهاية له، وأمضيته وأنا في حالة مزرية. لم يكن بمقدوري التماسك والادعاء بأن كل شيء على ما يرام، وبالكاد أمكنني التحدث إلى بولين وجيني بتهذيب. اللافت في الأمر أنه ما إن انكشف سر بولين حتى أصبحت المرأتان أكثر استرخاء، وبدا أنهما تستمتعان بوقتهما، إلى درجة أنني بدأت أفكر في أنهما اخترعتا هذه الرحلة خصيصاً كي تجعلاني أعلم بطريقة أو بأخرى بشأن العلاقة.

عندما قفلنا عائدات على الطريق نفسه الذي جئنا منه، رأينا الكثير من القصور ذاتها تتراءى من بعيد وقد سطعت عليها أشعة الشمس أو عامت في الضباب كما لو كانت مصنوعة من الهيليوم. ولكنني لم أتمكن من الشعور بجمال أي منها الآن. كان رأسي عائماً أيضاً فوق جسمي وأنا أتساءل إلى أي حد وصلت الأمور بين إيرنست وبولين، وإلى أي مدى ستمضي الأمور بالنسبة لنا جميعاً. هل أصبحا عاشقين في باريس حين كان إيرنست يروح ويجيء بين باريس ونيويورك، أم حتى قبل ذلك في شرونس. لقد شعرت بالغثيان لمجرّد التفكير بهما معاً هناك. كانت تلك حديقتنا، مكاننا الأنقى والأحب. ولكن، ربما لم يعد هناك أي مكان آمن بعد الآن.

حين عدنا إلى باريس، أوصلتني بولين وجيني إلى منزل المنشرة. لم تطلب الاثنتان الصعود، وأنا لم أدعهما لذلك. وإذا كانت بولين قد شعرت بالرغبة في النظر إلى الأعلى إلى النافذة في الطابق الثاني لترى ما إذا كان إيرنست ينظر نحو الأسفل ليراها، فقد قاومتها وبقيت جالسة وهي تحملق إلى الأمام بشكل مستقيم معتمرة قبعة رمادية باهتة جداً على رأسها، وتبادلنا كلمات الوداع كالغرباء تقريباً.

كان إيرنست في الطابق العلوي يقرأ وهو في السرير، وقد خرجت ماري كوكوت بالطفل. وضع الكتاب من يده حين دخلت، وراقبني مع إدراك متزايد لما يحدث، فيما وقفت هناك أرتجف، وأنا غير قادرة على خلع قبعتي ومعطفي.

نظرت في عينيه وقلت: "أنت مغرم ببولين"

تصلبت كتفاه ثم تدلتا، وقبض كفيه ثم فتحهما، ولكنه بقي صامتاً.

"إذاً؟"

"إذاً ماذا؟ لا يمكنني أن أجيبك. ولن أجيبك"

"لِمَ لا إن كان ذلك حقيقة؟" تلاحقت أنفاسي، وغدا النظر إليه والتحديق في عينيه والادعاء بأنني أسيطر على أي شيء أصعب وأصعب.

"من يكترث بما هو حقيقي؟ هناك أشياء يجدر بك ألا تقوليها"

فصحت بصوت عالٍ جداً: "وماذا عن الأشياء التي ينبغي ألا تفعلها؟ وماذا عن الوعود التي قطعتها لي؟"

"إشعاري بالذنب لن يجديك نفعاً لو تعلمين. إذا كنت تظنين أن بإمكانك جعلي أشعر بالسوء أكثر مما جعلت نفسي أشعر به، فعليك أن تبذلي جهداً أكبر"

"اللعنة عليك"

"نعم، حسناً. هذا مضمون بالتأكيد، أراهن على ذلك" عندها، بوجه عديم التعابير وفم مفتوح كالبلهاء، راقبته وهو يخطف معطفه وقبعته ليخرج ويجول في الشارع تحت المطر.

كنت مصعوقة. طيلة طريق العودة إلى باريس انشغلت بالتفكير في كيفية سحب إيرنست من وراء أسواره، وحمله على أن يخبرني بكل صراحة عما يجري. فإن كان بانتظاري أمر رهيب فأنا أريد معرفته بشكل مستقيم ونظيف ودون مراعاة أو مراوغة. ولكن، ما عساي أفعل بهذا؟ كان صمته بمثابة اعتراف بعلاقة الحب التي بينهما، ولكنه بطريقة أو بأخرى قلب الأمور كلها ضدي، حتى بدا أن علاقتهما لم تكن أسوأ ما في الموضوع، بل أن لي ذوقاً سيئاً جعلني أتحدث عنها أصلاً.

حين عادت ماري كوكوت وبامبي إلى البيت كنت أبكي بكاء مريراً؛ حتى إن كليهما أصيبا بالذعر. بقيت ماري عندي، وساعدتني على إطعام بامبي ووضعه في السرير. إذ إنني كنت بكل وضوح عديمة الفائدة. وحين غادرت قالت لي: "رجاء سيدتي، هل هناك شيء ما يمكنني فعله؟"

فهززت رأسي نافية.

"حاولي أن تخففي من أحزانك، رجاءً"

"سأحاول"

في الخارج، انهمرت الأمطار كالسيل. أين ذهب الربيع؟ عندما غادرت إلى وادي اللوار كانت الأوراق على الأشجار، وبدأت الأزهار تبرعم، ولكن كل شيء تبلل الآن وأغرقه الماء. لقد كان ربيعاً مزيفاً؛ كذبة كحال الكذبات الأخرى، ووجدت نفسي أتساءل إن كان حقاً سيأتي الربيع يوماً.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندما رجع إيرنست إلى البيت ثملاً. كنت لا أزال يقظة، وقد تناوب الغضب والحزن على مشاعري عدداً كبيراً من المرات.

قلت له حين جلس على طرف السرير ليخلع حذاءه: "أنا لا أريدك هنا، اذهب إلى بيت حبيبتك إن كان هذا ما تريده"

فأجابني: "لقد توجهت إلى بولونيا. وما أدراك أنت ما أريده؟"

جلست بسرعة وصفعته بكل ما أملك من قوة، ثم أتبعتها بصفعة ثانية.

بالكاد أجفل، وقال: "العبي دور الضحية إذا أردت ذلك، ولكن لا أحد هنا ضحية. ينبغي أن تحافظي على فمك الثرثار مغلقاً. فالأمور تسير كلها الآن نحو الجحيم"

"هل تريد القول إنه كان سيسعدك تماماً المضي في هذا الطريق، أن تكون مغرماً بها دون أن تبوح بالأمر؟"

أجابني: "نعم، شيء من هذا"

"لا يمكنني أن أصدقك" قلت ذلك وانفجرت في البكاء وأنا أكرر: "لا يمكنني أن أصدق أي شيء من هذا"

عندها، استيقظ الطفل في الغرفة المجاورة باكياً.

"ممتاز قال إيرنست وهو يحدق إلى الجدار، وأضاف: "أظنه سيبدأ الآن بالنحيب هو أيضاً" ثم ترك الغرفة وذهب إلى المطبخ، وبعد عدة دقائق عندما خرجت من الغرفة لأتفقد بامبي كان قد صب لنفسه كأساً من الشراب.

في تلك الليلة، لم يعد إيرنست إلى السرير. وفي الصباح، عندما نهضت لأعد طعام الفطور كان قد غادر المنزل. في وقت متأخر من بعد الظهر عاد إلى البيت. وحين نزع معطفه عنه مفرّغاً ما في جيبه من كراس وأقلام تفاجأت لرؤية تلك الأشياء في هذا اليوم بالذات، من بين الأيام كلها.

وسألته: "هل كنت تعمل اليوم؟"

أجابني: "أجل، كالمسعور. لقد أعددت مسودة قصة جديدة. وقد خرجت كلها كالسمكة"

لم يكن أمامي سوى أن أهز رأسي وأنا أضع بعض اللحم البارد والجبن والخبز على طبق. جاء بامبي أثناء تناول إيرنست الطعام، وجلس على ركبته، وشاركه لقيمات من خبزه. تأملتهما لبعض الوقت ثم قلت: "ماذا سيحدث الآن؟"

أجاب: "لا أعلم. لم أكتب عن هذا. وليست لدي أي فكرة عمّا سيأتي به الغد"

"ألا تزال عازماً على السفر إلى إسبانيا؟"

"ولِمَ لا؟ فالخطط كلها معدة. سأغادر في الثاني عشر، لا يمكنني أن أتأخر يوماً واحداً إذا أردت ألا أفوت حفلات مصارعة الثيران في مدريد. وسأعود من أجل حفلتك الموسيقية. ولن تكون في هذا أي مشكلة"

قلت: "لا يمكنني تقديمها الآن" كنت قد نسيت كل ما يتعلق بالحفلة. كيف يمكنني أن أقدمها دون أن تفيض دموعي أمام كل من كنا نعرفهم؟

"ولِمَ لا؟ لقد حجزت المسرح. لا يمكنك أن تتراجعي

"بل يمكنني وسوف أنسحب"

"الجميع سيتكلمون عن هذا كما تعلمين"

"على الأغلب هم يفعلون ذلك الآن. لن يفاجئني أن الألسن تلوك حديثنا سلفاً في المقاهي

"فليذهبوا إلى الجحيم. لا شيء يمكن أن يسبب لنا ألماً إن لم نسمح له بذلك"

"أنت في الواقع لا تصدق هذا الكلام"

أجابني: "بل علي أن أصدقه"

"هل أخبرت بولين؟"

"أنك بت تعلمين؟ ليس بعد"

"حسناً، دعنا نسألها كيف سنسير انطلاقاً من هنا. أنا متأكدة أن لديها مخططاً عبقرياً"

"حذارِ

"لماذا؟ هل تخشى أن أنقلب إلى ذئبة ضارية؟ لو كنت كذلك فنحن نعـــرف على من يقع اللوم"

نهض إيرنست ثم عاد ومعه زجاجة شراب وكأسان.

قال لي: "اشربـــي هذا" وملأ لي كأساً ومررها عبر الطاولـــة، ثم أضـــاف: "يمكنك الاستفادة من الشراب"

"نعم، ولتنبعث منا رائحة الثمالة النتنة"

"حسناً، لطالما ناسبنا هذا قبلاً"

الفصل التاسع والثلاثون

كانت الأيام القليلة التالية مرهقة جداً ومترعة بالشجارات حتى في وضح النهار، وفي الشارع أيضاً، إلى درجة أن إيرنست حمل حقيبته وغادر مبكراً باتجاه مدريد. وكان من الأسهل علي أن يكون بعيداً. صحيح أنني لم أعلم ما يحمله لنا المستقبل، ولكنني بحاجة إلى شيء من الراحة والوقت للتفكير.

شعرت بأنه تصرف لا يليق إلا بالجبناء لكنني مع ذلك ألغيت الأداء. والآن، أضحى علي أن أتعامل مع الإحراج الناتج عن اختلاق الأعذار للجميع. أحسست بشعور رهيب بسبب كذبي على الآخرين، إذ تارة ألقيت باللائمة على أعصابي، وأخرى على النقص في التحضير، ولكنه لن يكون رهيباً بقدر الاستمرار في العرض كما أظن. وخاصة أن خبر قصة الحب قد انتشر تماماً كما توقعت.

كانت كيتي هي التي أخبرتني. فقد مرت علي تماماً بعد سفر إيرنست إلى مدريد، واستمعت إلي على طريقتها المخلصة؛ مما جعلني أتهاوى أمامها. وما إن أفرغت ما في جعبتي و لم يتبق لدي سوى دموعي حتى قالت لي بهدوء: "من المناسب أن أقول إنني متفاجئة، ولكنني لست كذلك. فقد رأيت بولين في الشارع تماماً قبل سفرها إلى شرونس. بمزلجيها اللذين حملتهما على كتفيها، وكانت محملة بكل شيء في العلب. ورغم أنها لم تقل شيئاً، إلاّ أنه في الواقع كان هناك شيء لافت في الطريقة التي تحدثت بها عنكما كليكما. إذ إنّ نبرة سلطوية أشبعت صوتها؛ كما لو كنتما كلاكما تنتميان إليها"

"يا لجرأتها! أقر لها بذلك"

"قالت زيلدا إنها كانت وسكوت في الروتوندو حين دخلت بولين وبدأت تستفيض في الحديث عن رسالة استلمتها من هيم، وكم كان من المسلي أنه يعرف

أشياء كثيرة عن عطور السيدات، وتسأل عمّا إذا كان أحد غيرها قد وجد الأمر مسلياً؟ كانت بكل وضوح مريبة ومغرية وتسعى للإغواء"

"أو لعلها لم تتمالك نفسها؛ فهي واقعة في حبه"

هنا سألتني كيتي غير مصدقة: "هل تريدين القول إنك متعاطفة معها؟"

"على الإطلاق، لكن الحب هو الحب. وهو يجعلك تقومين بأشياء غبية بشكل رهيب"

"أنا لا أزال أحب بولين، لكنها أخطأت إلى حد بعيد في هذا الأمر. فالحرية هي الحرية، ولكنك تضعين حداً فاصلاً حين يصل الأمر إلى زوج صديقتك. يجب عليك فعل ذلك"

أصبح الطقس رائعاً، وقد عبقت فيه عذوبة براعم الكستناء البيضاء الدسمة، ولكنني لم أتمكن من الخروج والاستمتاع به؛ إذ مرض بامبي. بدأ الأمر بعطاس، ثم تحول بسرعة إلى حمّى اعترته، حتى أصبح شاحباً وفاتراً ويعاني من سعال رهيب يهاجمه في الليل ويوقظنا كلينا. لذا لزمنا المنزل. قرأت له الكتب وألفت له الأغاني البسيطة لألهيه، ولكن، كان صعباً جداً – حتى ولو لبضع دقائق متواصلة – أن أنسى أن حياتي في طريقها إلى الانهيار.

كل بضعة أيام كان إيرنست يبرق لنا، وكان تعيساً في مدريد. فالمدينة باردة جداً ومملوءة بالغبار، ومصارعات الثيران بعيدة وقليلة. والثيران ضعيفة ومريضة على نحو غامض. وهو أحس بنفسه وكأنه ثور مريض أيضاً. ولم يكن هناك من صديق ليخرج معه، فأصدقاؤه المخلصون كلهم كانوا في أماكن أخرى، لذا كان شديد الشعور بالوحدة. مع ذلك كان يكتب. ففي بعد ظهر أحد أيام الأحد أنهى ثلاث قصص كان قد وضع مسودات لها سابقاً، ويبدو أن الطاقة المتوهجة لديه لم تخمد بعد. فهو مستمر في الكتابة وفي استغلال تلك الطاقة. وسأل إن كنا سنأتي أنا وبامبي، وأخبرنا أننا إن كنا سنفعل ذلك، فينبغي أن نسرع. فهو يحتاج إلى الرفقة لوقايته من الجنون.

كتبت له مجيبة، وأخبرته أنّ بامبي ليس في وضع جيد يسمح بسفره. وأنا لست في وضع مناسب للسفر أيضاً. فأنا لا أعرف أين نقف أنا وإيرنست، ولا

أعتقد أنه يمكنني تحمل انتظار مآل الأمور في غرفة فندق في إسبانيا، وبخاصة إذا كان علي أن أشاهد إيرنست يتلقى البرقيات التي تصل من بولين يومياً. كلا، من الأفضل أن أحافظ على هذه المسافة، وكتاباته تسير على كل الأحوال بسلاسة. فلطالما كان ينجز بشكل جيد خلال الأوقات الصعبة؛ كما لو أن الألم كان يلامس قاع شيء ما في داخله، ويحرّك الآلية الفعلية لديه.

لم يفاجئني أيضاً شعوره بالأسى على نفسه. هناك رجال يحبون أن يكونوا وحدهم، لكن إيرنست ليس واحداً منهم. الوحدة تجعله يفرط في الشرب، والشرب يحرمه من النوم، وحرمانه من النوم يبعث الأصوات والأفكار الرديئة من أعماقه، وبالتالي ينغمس في الشرب أكثر محاولاً أن يخرسها. وحتى إن لم يعترف لي بذلك، فإنني أعلم أنه كان يعاني لأنه سبب لي الألم بشدة بعلاقته ببولين. علمي أنه يتألم أضناني، فهذه هي الطريقة التي يشبكك بها الحب. لم أستطع التوقف عن حبه، ولم أتمكن من إيقاف مشاعر الرغبة لدي في رعايته. ولكن في الوقت نفسه، لم يتوجب علي المسارعة في الاستجابة لرسائله لأنني كنت أتألم أنا أيضاً، ولم ينهض أحد لمساعدتي.

في أواخر أيار تقريباً، تحسن سعال بامبي قليلاً، فحزمت حقائبنا وتوجهنا إلى كاب دانتيبيس؛ إلى فيلا أمريكا الخاصة بجيرالد وسارا مورفي حيث كنا قد دعينا للإقامة في دار الضيافة هناك. وكان عدد من مجموعة أصدقائنا موجوداً مسبقاً هناك. سكوت وزيلدا كانا قريبين في فيلا باكيتا في جوان - لي - بين، وأرتشي وأدا ماكليش كانا ينزلان في خليج صغير على بعد أميال قليلة من الشاطئ. سيكون هناك الكثير من أشعة الشمس والسباحة والطعام الجيد، وبالرغم من أنني كنت أعلم أنه قد يكون موقفاً مربكاً لي؛ نظراً إلى كون الهمسات حولنا قد سرت لبعض الوقت، ولكنني أيضاً لم أكن ضيقة الأفق لأعتقد أن قصتنا ستثير اهتمام هذه المجموعة لوقت طويل. زيلدا كان لديها رجال مستعدون للموت من أجلها في نهاية الأمر، وكانت فخورة بالتباهي بذلك. وأياً كانت المخاطر فقد كنت بحاجة إلى استراحة، وسينضم إيرنست إلينا حين ينتهي من مدريد. وحتى ذلك الوقت، أملت أن أكون قد استعدت توازني على نحو كافٍ حتى أتمكن من مواجهته.

استقبلنا جيرالد في محطة القطار، وقادنا بسيارة مفتوحة صفراء بلون الليمون بسرعة جنونية إلى فيلا أميريكا. لم يسعني إلا أن أعجب بكل شيء. فقد قام آل مورفي بنحت الفيلا وتجميلها إلى حد الكمال لما يربو على عام كامل، بينما سكنوا في فندق في البلدة. قبل أن يصبحوا جزءاً من المشهد في أنتيبيس، لم يكن هناك في الواقع مشهد للحياة هناك. كانت البلدة صغيرة وناعسة وذات فصل ربيعي قصير. لم يذهب أحد إلى الريفييرا في الصيف، لكن آل مورفي يحبون الصيف وأحبوا آنتيبيس ووجدوا طريقة لجعل المكان يناسبهم. لذا دفعوا المال لمسؤول أحد الفنادق ليفتح الفندق على مدار العام لأجلهم وحدهم. و لم يطل الوقت حتى فتحت فنادق أخرى أبوابها للزبائن، بل وتم إنشاء فنادق جديدة أيضاً. وفي إحدى المرات، طمرت الطحالب الشاطئ، لكن جيرالد نظفه بنفسه، عدة أمتار في كل مرة، حتى عاد كما لو كان عذرياً.

قبل أن يأتي آل مورفي إلى المكان ويستحدثوا تلك العادة لم يفكر أحد قطّ بالاستمتاع بالشمس على الشاطئ. لقد اخترعوا الحمامات الشمسية، والبقاء بقربهم في أي وقت على الإطلاق يجعلك تعتقد أنهم اخترعوا كل شيء جيد ومسلٍ ومتمدن.

شغلت الأراضي التي امتلكوها سبعة فدادين، وغطت حدائق ذات مصاطب انتشرت فيها زهور عباد الشمس في كل مكان. كانت هناك أشجار الليمون والبلح والزيتون والفلفل، ونما التين الأسود والأبيض والقبقب العربي الغريب بأوراقه البيضاء المائلة. إضافة إلى دار الضيافة، كانت هناك أيضاً مزرعة وإسطبل وكوخ لمسؤول الحديقة وآخر للسائق، وبيت للعب أطفال عائلة مورفي الثلاثة، ومرسم خاص لجيرالد. قبل أن نتوجه إلى البيت الرئيس، سار بنا جيرالد إلى نهاية ممر صخري أفضى إلى الرمل ناصع البياض لشاطئهم الخاص. كان سكوت وزيلدا هناك، وقد استلقيا على حصائر الشاطئ المصنوعة من الخيزران وهما يتناولان الشراب من كوبين أنيقين من الكريستال. كان سكوتي يلعب بالقرب من الأمواج المتكسرة مع أطفال مورفي الشقر الذين اكتسبت بشرتهم سمرة غامقة بفعل أشعة الشمس.

قالت لي زيلدا وهي تنهض لتقبلني على وجنتي: "تعالي وتناولي مشروبك هادلي، فأنت بحاجة له بعد قيادة جيرالد"

"إنه بالأحرى يسبب الشلل، فقد جئنا على طول طريق الشاطئ"

قالت زيلدا: "إن كوكتيلات سكوت تسبب الشلل أيضاً، ولكن هـذا مـا يجعلها لذيذة" وضحك الجميع.

سألني سكوت وهو يظلل عينيه بيده ويغمضهما نصف إغماضة: "كيف حال هيم؟"

قلت: "لا بأس على ما أظن. وعمله في الكتابة يسير بشكل جيد"

أضاف سكوت بلطف: "تباً له على أي حال، فهي دائماً تسير على نحو جيد بالنسبة له، أليس كذلك؟"

"هل هذا ما يقوله؟ لا تصدقه!"

قالت زيلدا: "هاك، أرأيت؟" قالتها كما لو أنها تحل مسألة عالقة بينهما.

"أجل عزيزتي، سمعتها" ثم ناولا كأسيهما لجيرالد لتملأهما بالشراب.

كانت أرضية البيت الرئيس مفروشة بالمرمر الأسود، وكـان الأثـاث مـن الساتان الأسود، أما الجدران فكانت بيضاء لامعة. وتمت موازنة قسوة نظام الألوان في كل مكان بزهور من الحديقة قطفت للتو، من ياسمين وغاردينيا ودفلـي وورد وكاميليا. العملية برمتها تدعو للذهول.

شعرت أنني ساطعة لمجرد وقوفي في المدخل بسترتي الصيفية البالية. في الواقع، ما من قطعة من ملابسي ستكون ملائمة لهذا المكان.

شرح لنا جيرالد: "سارا في السرير في الأعلى، فهي تعاني من الـبرد قليـلاً. ولكنني متأكد من أنها ستستجمع قواها وتنـزل بعد برهة"

غيرت أنا وبامبـي ملابسنا، وارتدينا أشياء تناسب الشاطئ، ونـزلنا إلى الشاطئ بانتظار سارا لكنها لم تنـزل طيلة ذلك النهار. وبدأت أتساءل عمّـا إذا كان ينبغي لي أن أشعر بالإهمال حين وصل طبيب آل مورفي في المساء ليتفقدها.

قال جيرالد: "قد يكون من المستحسن أن يلقي نظرة على بامبـي أيضـاً. حيث يمكن لسارا وهي في الطابق العلوي أن تسمع سعاله. إن وضعه يدعو للقلـق بالفعل

"نعم إنه لمقلق، أليس كذلك؟ كنت آمل أن يفيده هواء البحر الأبيض المتوسط"

"ربما، ولكن لماذا لا نستشير الطبيب؟ فقط من أجل الاطمئنان"

وافقت، وبعد فحص دقيق كان فيه بامبـــي كحمل وديع مستلقٍ على السرير في دار الضيافة، معرى إلا من ملابسه الداخلية، شخص الطبيب حالتـــه بالســـعال الديكي.

"السعال الديكي؟!" قلت بهلع متصاعد: "هذا خطير، أليس كذلك؟" الكلمة التي تبادرت إلى ذهني كانت مميت لكنني لم أجرؤ على التفوه بها بصوت عالٍ.

قال الطبيب موجهاً إلي الكلام: "رجاء اهدئي سيدة هيمنغواي. بالاعتمـــاد على الأعراض، فإن الطفل قد أصيب بالمرض منذ شهور واجتاز المرحلـــة الســـيئة الآن، ولكنه بحاجة إلى الراحة المطلقة ليشفى تماماً، ويجب ألا يقترب من الأطفـــال الآخرين؛ لذا سوف نحجر عليه لمدة أسبوعين على الأقل"

كتب له الطبيب في الوصفة اسم دواء سعال خاص وزيت الكينا لدهن صدره وظهره لمساعدته على التنفس. ولكن رغم المقويات والمهدئات كنت قلقـــة علـــى بامبـــي، وساورني شعور رهيب لأنني لم أعرف أنه كان يجب أن يراه طبيب ونحن في باريس.

ما إن عرفنا التشخيص حتى بدا القلق والهياج على سارا، وشرعت بإعـــداد خطط لنا لننتقل إلى فندق في البلدة. وأكدت بإصرار: "ستبقيان ضـــيفينا. ولكـــن فقط لا يمكننا إبقاؤه هنا. أنت تقدرين الموقف أليس كذلك؟"

طبعاً تفهمت الوضع، بل في الواقع انتابني شعور لا يحتمل لأننا سببنا القلـــق للجميع. و لم أفتأ أعتذر لهم بلا توقف، بينما كنت ألملم أشياءنا.

استدعى آل مورفي سائقهم لنقلنا إلى مسكننا الجديد. وفي صباح اليوم التالي، أرسلوه إلينا محملاً بمواد غذائية وفواكه وخضراوات طازجة من حديقتـــهم. لقـــد عاملونا بسخاء شديد، ولست أدري ماذا كنا لنفعل دون رعاية أحد ما لنا. لكن، لم يكن في مقدورهم المساعدة في التمريض أو العزل، وكنت أعلم أنني لن أحتمـــل القيام بذلك وحدي. لذا، أبرقت إلى ماري كوكوت في باريس وطلبت منها المجيء لمساعدتي في رعاية بامبـــي، كما أبرقت لإيرنست في مدريد شارحة له الموقـــف. إلا أنني لم أطلب إليه المجيء، فقد كنت أريده أن يأتي بدافع ذاتي أو ألا يأتي أبداً.

بعد وقت قصير من اتضاح أنه يجب الحجر علينا، عرض كل مـــن ســـكوت وزيلدا تطوعاً مسكنهما المستأجر في جوان لي بين الذي كانا سينتقلان منه إلى فيلا

أكبر إلى جانب الكازينو كان لها شاطئها الخاص. كان المكان هناك هبة من الله فعلاً؛ فقد كان مكاناً جميلاً تنتشر فيه قطع الآجر المرسومة والملونة يدوياً في كل مكان. كانت هناك حديقة صغيرة فيها الخشخاش وأشجار البرتقال، وأتيح لبامبي اللعب هناك بأمان دون أن يسبب العدوى لأي طفل آخر. ولكنني شعرت أن معنوياتي منخفضة، وأنني منعزلة وقلقة خوفاً من أن ينتكس بامبي. قضيت أيامي وأنا أدهن صدره وظهره بزيت الكينا وأحاول رشوته ليأخذ دواءه المر. وفي الليل، كنت أستيقظ كل بضع ساعات لأتحسس حرارته ملامسة جبينه. حضر الطبيب يومياً، وكذلك وردت البرقيات من باريس ومدريد. كتبت بولين لتخبرني كم هي حزينة من أجلي، ومن أجل إيرنست أيضاً الذي كان لا يزال وحيداً في إسبانيا ويشعر باليأس لذلك. غضبت لدى قراءتي هذا الكلام لدرجة أنني كدت أن أجيبها قائلة إنه يمكنها أن تحصل عليه. ولكن في النهاية طويت البرقية ثلاث طويات ومزقتها إرباً.

في إحدى الأمسيات، وحين كنت أجلس في الحديقة الصغيرة أقرأ سمعت بوق سيارة، وهناك ظهرت على الممر المفضي إلى المنزل سيارات عائلات موري وفيتزجيرالد وماك لايشيس، كل عائلة بسيارتها الخاصة. وقف الجميع أمام الشرفة تماماً، وراء السور الحديدي، وخرجت النساء بملابسهن الطويلة الجميلة وكأنهن قطع فنية. وكان الرجال أنيقين ببذلاتهم كذلك، وجميعهم كانوا بمزاج جيد. كان جيرالد يحمل إبريقاً من الشراب البارد جداً، وحين سرت إلى السور ناولني كأساً قائلاً: "وصلت التعزيزات" وقد بدا على محياه السرور لكونه صاحب الفكرة. تجمع الكل لرفع كؤوسهم باستثناء سكوت الذي قال: "إنني أحاول الإقلاع عن الشراب، وأبذل قصارى جهدي للالتزام بذلك"

قطبت زيلدا جبينها قائلة: "من الممل جداً سماعك تقول هذا يا عزيزي"

أجابها: "إنه واقع. ولكنني ولد صالح اليوم. ابتسمي لي، هلا فعلت يا هادلي"

وقفنا جميعاً عند السور، وتحدثنا بضع دقائق، ثم انزلقوا عائدين إلى السيارات ضاحكين، وتوجهوا نحو الكازينو في البلدة. تأملتهم وهم ذاهبون، وتساءلت إن كانوا حلماً أم حقيقة، ثم ذهبت إلى الداخل لقراءة كتاب وللنوم باكراً.

أخيراً، حين جاء إيرنست من مدريد، بعد عشرة أيام من فرض الحجر علينا، أقام آل مورفي حفلاً على شرفه قدموا فيه الكافيار. وكانت ماري كوكوت قد جاءت من باريس لرعاية بامبي، وشعرت بشكل رائع بالراحة والحرية لترك الفيلا للمرة الأولى. حين وصل إيرنست بدا شاحباً ومتعباً. فالجو بارد في مدريد، وقد عمل بدأب معظم الأيام حتى وقت متأخر في الليل. كنت لا أزال مرهقة من القلق على بامبي، ولم تكن لدي أدنى فكرة عن مشاعر إيرنست تجاهي، لكنه حياني بقبلة لطيفة وطويلة وأخبرني أنه افتقدني. تركته يقبلني ولم أسأله عن قراره حيال بولين، حيث لم أجد أنه من الآمن ذكر اسمها نهائياً. ولهذا السبب، ولأن عامل الأمان هو ما كان على المحك في حياتنا معاً، شعرت بأنني عديمة الحيلة بشكل مطلق.

قلت: "وأنا افتقدتك أيضاً" ثم ذهبت لأرتدي ملابسي من أجل الحفل.

لم يألُ جيرالد جهداً، ولم يوفر نفقة للترحيب بإيرنست في البلدة. ولِمَ عساه يفعل؟ لقد ورث آل مورفي المال ولم يعيشوا دونه يوماً. وضعت أزهار الكاميليا لتطوف في أوعية مستديرة زجاجية، وأكوام من المحار والذرة الطازجة مزدانة بغصون الريحان. بدا أن آل مورفي قد أحسنوا اختيار يوم الاحتفال، إذ بدت سماء البحر المتوسط أرجوانية غامقة، فيما كانت العنادل الكثيفة في شجيرات السياج تصدح بموسيقى عالية وتصفر مرسلة سلسلة من الأنغام. بدأ الأمر يزعجني. هل من الضروري أن يكون كل شيء مصمماً للرقص ومتحضراً على هذا النحو؟ من بمقدوره الوثوق بمحيط كهذا على أي حال؟

بينما كنا بانتظار وصول زيلدا وسكوت، بدأ إيرنست يخبرنا عن مراسلاته الحديثة مع شيروود أندرسون حول كتابه ***The Torrents of Spring*** *سيل الربيع الجارف* الذي صدر للتو في الولايات المتحدة، قائلاً: "توجب علي أن أكتب له. فقد كان الكتاب على وشك أن يبصر النور في أي يوم، وكنت ميالاً لأن أقول له كيف حدث وكتبته، ولِمَ أصبحت لئيماً بهذا الشكل بعد أن فعل الكثير لمساعدتي"

قال جيرالد: "أنت رجل طيب هيم"

"حقاً!؟ هذا ما كنت ستعتقده، أليس كذلك؟"

فسألت سارا: "ألم يتقبل الأمر بشكل حسن؟"

أجاب: "قال إنها الرسالة الأكثر إهانة وتعالياً سبق له أن تلقاها على الإطلاق، وإن الكتاب نفسه كان عفناً"

فقلت: "إنه لم يقل ذلك فعلاً"

"لا، ولكنه قال إنه كان من الممكن أن يكون الكتاب مضحكاً لو تضمن اثنتي عشرة صفحة بدلاً من مائة"

قال جيرالد: "أعتقد أنه مضحك إلى أبعد الحدود يا هيم"

"أنت لم تقرأ الكتاب يا جيرالد"

"هذا صحيح. ولكن، من خلال كل شيء قلته عنه من الواضح أنه مضحك جداً جداً"

أشاح إيرنست بوجهه وقد ارتسمت عليه علامات الامتعاض. وبدأ ينغمس في احتساء الشراب، ثم أردف وهو ينهض خارجاً ليتنشق الهواء: "ستاين كالت لي اللعنات أيضاً. إنها تقول إنني كنت البذاءة بعينها، وإنه يمكنني الذهاب إلى جهنم"

قالت سارة متعجبة: "آه! يا الله، يؤسفني سماع هذا"

"اللعنة عليها على كل الأحوال"

قلت: "على رسلك تاتي، أنت لا تعني ذلك. إنها رغم كل شيء تحبنا وتحب بامبي"

"إذاً، فقد غرر به، أليس كذلك؟"

كنت أعلم أن تبجح إيرنست كله كان مختلقاً تقريباً، ولكنني كرهت التفكير بأصدقائنا الطيبين كافة الذين فقدناهم بسبب تكبره ومزاجه المتقلب. بدءاً مع كينلي في شيكاغو، ومروراً بلويس غالانتير في باريس؛ أول صديق لنا في باريس، حين وصف إيرنست خطيبته بأنها امرأة سليطة وحقيرة. كذلك اكتفى بوب ماكالمون في نهاية المطاف من تبجح إيرنست وفظاظته، وصار الآن يقطع الشارع لتحاشي لقائنا. وهارولد لوب لم يتعافَ على الإطلاق من بامبلونا، وشيروود وغيرترود اللذان كانا من أعز رفاق إيرنست يتصدران الآن القائمة الطويلة والمؤلمة. وتساءلت كم سنخسر بعد من أصدقائنا بينما كنت أنظر حول الطاولة المضاءة بالشموع.

"هيمي، يا بني!" صاح سكوت حين وصل هو وزيلدا إلى أعلى الدرج قادمين من الشاطئ.

كان سكوت دون جورب أو حذاء، وبسروال مطوي للأعلى وربطة عنق مفكوكة وسترة مجعدة.

سأله إيرنست: "هل سبحت يا سكوت؟"

فأجابه: "لا، لا؛ فأنا جاف مثل قطعة عظام"

ضحكت زيلدا لدى سماعها هذا الكلام مصدرة صوت شخير بسيط وقالت: "نعم، نعم سكوت. أنت جاف جداً، ولذلك قصصتَ على ذلك الرجل المسكين على الرصيف LongFellow كلها" كانت قد سحبت شعرها عن وجهها إلى الوراء بقوة، وشبكت وردة بيضاء كبيرة وراء أذنها. زينتها لا عيب فيها، لكن مظاهر الإرهاق والتعب كانت بادية في عينيها.

"ومن لا يحب Longfellow؟" قال سكوت وهو يسقط على كرسيه شبه منتصب، وضحكنا جميعاً بصوت منخفض. ثم قال لزيلدا التي كانت لا تزال واقفة: "لنتناول شراباً مع هؤلاء الناس المتكلفين على نحو رائع. هناك كافيار. ماذا كنا لنفعل دون الكافيار؟"

قالت زيلدا وهي تأخذ مكانها: "عزيزي، رجاء الزم الصمت" ثم ابتسمت ابتسامة عريضة وزائفة لنا جميعاً وهي تقول: "سيصبح الآن طيباً، أعدكم بذلك"

جاء النادل وقدم المزيد من الشراب، ثم جاء مرة أخرى لخدمة طاولة أخرى بجوارنا حيث تجلس فتاة جميلة شابة لتناول العشاء مع شخص يبدو كأنه والدها.

قال سكوت وهو يمعن النظر إلى الفتاة بنهم: "الآن ذاك تدبير جيد" فوكزه إيرنست بمرفقه ليكفَّ عن ذلك، ولكنه ما كان ليفعل.

في النهاية، قال الأب مخاطباً سكوت بالفرنسية: "أنت لست سيداً مهذباً" ثم رافق الفتاة إلى الداخل بعيداً تماماً عنا.

قال سكوت بعد أن استدار عائداً إلى طاولتنا: "أن أكون سيداً مهذباً واحدٌ من الأمور التي لا تنطبق علي. وأنا أيضاً لست بخير ولست ذكياً، ولا أكاد أكون ثملاً بما يكفي لكي أمضي أي وقت معكم جميعاً"

شحب وجه جيرالد والتفت ليهمس بشيء ما لسارا.

"أقول، جيرالد، أيها العجوز، ما رأيك برمي محارة لرفيق؟ فأنا جائع جداً"

نظر إليه جيرالد ببرودة واستدار ليتحدث مع سارا مرة أخرى.

فهتف سكوت محاولاً جذب انتباه سارا بعيداً عن زوجها: "سارا، رجاء سارا انظري إلي"

لكنها لم تفعل. عندها، تناول منفضة سجائر بلّورية ورماها بعيداً إلى طاولة فارغة بالخلف مارّة بالكاد فوق كتف جيرالد.

أجفلت سارا، في حين انحنى جيرالد وطلب بصوت عال إلى سكوت أن يتوقف. لكن سكوت تناول منفضة أخرى ورماها فضربت مركز الطاولة، ثم ارتدت محدثة رنيناً عالياً.

بدت زيلدا مصممة على تجاهله تماماً، ولكن بقيتنا جميعاً كنا فزعين ومحرجين من الموقف.

وأخيراً، قال إيرنست بنبرة قاطعة وخالية من العواطف: "هيا بنا أيها الأمير الوسيم" وذهب إلى سكوت وأخذ بمرفقه مساعداً إياه على النهوض وهو يقول: "دعنا نرقص ثم قاد سكوت مباشرة إلى خارج الشرفة، ونزلا الدرج إلى الشاطئ. تابعهم الجميع بنظرات محدقة باستثناء زيلدا التي كانت تنظر بتركيز إلى سياج الشجيرات.

صاحت زيلدا: "إنها عنادل. هل ذلك خيال أم حلم من أحلام اليقظة؟" سعل آرتشي ماكليش وقال: "نعم، حسناً" ولمست أدا بلطف شعرها المتماوج المثبت كما لو كان زجاجاً، ونظرت من النافذة إلى البحر الذي تراءى أسود كالسماء وغير مرئي. وبعد طول انتظار بدا وكأنه امتد لسنوات أحضر النادل ورقة الحساب.

في اليوم التالي، تأخرت في النوم صباحاً لأنني أعرف أن بامبي في رعاية ماري كوكوت القديرة. وعندما نزلت إلى الطابق السفلي وجدت سكوت وإيرنست جالسين إلى الطاولة الكبيرة في غرفة الطعام مع حزمة من ورق الكربون منتشرة أمامهما.

بادرني إيرنست: "لدى سكوت حالياً فكرة مهمة"

قال سكوت: "أسعدت صباحاً هادلي. كم أنا آسف لما بدر مـني في الليلـة الماضية. أنا أحمق بالفعل، أليس كذلك؟"

قلت: "بلى ثم ضحكت برفق، بما يتناسب مع العاطفة التي شـعرت بهـا. عندما يكون صاحياً كحاله الآن يغدو عاقلاً وعلى أرض ثابتة ولبقاً كأي شخص تحب أن تقابله. ذهبت لأصب لنفسي بعض القهوة ثم عدت إلى الطاولة لأسمع عن المخطط.

قال إيرنست: "في الصفحات الخمس عشرة الأولى من **Sun** تقابلنـا سـيرة جيك الذاتية والقصة الخلفية لبريت ومايك، لكن هذا كله سنحصل عليـه مـرة أخرى لاحقاً، أو قد تم شرحه بشكل وافٍ على أي حال. يقول سكوت إنه علينا حذفها كلها"

أضاف سكوت بجدية كبيرة وهو يومئ إلى قهوته: "أظن أن العمل سـينجح هكذا"

"إنه يتماشى مع ما قلتُه دوماً عن القصص؛ بأن يمضي فيها المرء بأقل ما يمكن من الشرح. فكل شيء موجود فيها سلفاً أو غير موجود. العرض يبطـئ مسـار الأحداث ويحطمه. والآن هذه فرصتي لأرى إن كان ذلك سينجح علـى عمـل بطول الرواية. ماذا تعتقدين تاتي؟"

كانت عيناه تلمعان وبدا يافعاً جداً؛ مثل ذلك الشـاب الـذي التقيتـه في شيكاغو. ووجدت نفسي مدفوعة للابتسام له بغض النظر عن أي شيء آخر أشعر به.

"أعتقد أنها فكرة رائعة. وسوف تجعل الأمر ينجح على نحو بديع"

"هذه فتاتي"

أردت أن أقول له: *لا تنس ذلك. أنا لا أزال فتاتك الفضلى.*

أخذت قهوتي إلى الشرفة، ونظرت إلى الأفق البعيد، وسرحت بنظري في قمم أسطح البلدة الصغيرة حيث يمتد البحر بزرقته واسعاً. إنه منظر لا يمكن المسـاومة عليه بأي شيء آخر. لا نورس ولا غيوم. ورائي، أحنى الرجلان رأسـيهما مـن جديد، وعاودا العمل مجدداً، وناقشاه بدقة؛ وكأنهما بصدد إجراء جراحة للقلـب وهما الجراحان، والعملية مهمة جداً بأهمية كل ما فعلاه سـابقاً. سـكوت كـان

بإمكانه أن يكون في حالة ثمالة شديدة، وإيرنست يمكنه أن يستشيط غضباً ضد جميع من ساعدوه وأحبوه بصدق. ولكن، لا شيء من هذا يهم ما دام المريض بين أيديهما. في النهاية، بالنسبة لكليهما، وحده الجسد المسجى على المنضدة كان موجوداً في الواقع. الجسد والعمل، ثم العمل ثم العمل.

بعد وصول إيرنست من مدريد، أمضينا أسبوعاً كاملاً اتبعنا فيه روتيناً بدا شبه محتمل. في كل صباح، كنا نحتسي القهوة ونتناول البسكويت على شرفتنا في خوان لي بينس كما يفعلون في فيلا أمريكانا. وعند الساعة الثانية، كنا نذهب لتناول الغداء مع آل مورفي أو آل ماكليش، بينما كان بامبي يأخذ قيلولة أو يلعب مع ماري كوكوت. وفي السهرة، كان ممر السيارات في مكان إقامتنا يمتلئ بالضحكات لكوننا عدنا إلى مكان الحجر الصحي، وقد حاولنا التماشي مع الظروف ممررين الطعام والشراب من خلال قضبان السياج.

واظب إيرنست على الكتابة بدأب شديد في الأيام القليلة الأولى، ثم أدرك أنه من المستحيل بقاءه في الواقع وحيداً، وأنه ربما لا يريد أن يكون وحيداً. أما سكوت فقد عمل جاهداً على تجنب الشراب، لكنه أخفق إخفاقاً ذريعاً، وأمضى هو وإيرنست وقتاً طويلاً في الحديث عن العمل إنما لم ينجزا شيئاً منه. بل كانا يتشمسان على الشاطئ، ويستمتعان بتلقي المديح من آل مورفي وكأنهما لا يشبعان.

كانت سارا تتمتع بجمال طبيعي؛ فهي ذات شعر بني كثيف، وعينين نجلاوين. وكان كل من سكوت وإيرنست تواقين ليحظيا باهتمامها، ولم تكن زيلدا قادرة على المنافسة، لذا كانت تزداد توتراً يوماً بعد يوم، غير أنها لم تكن لتباشر أي شجار معها. فقد كانتا صديقتين وحليفتين في نهاية الأمر، لذا احتفظت بتعليقاتها اللاذعة من أجل إيرنست.

زيلدا وإيرنست لم يروقا بعضهما يوماً. فهو كان يعتقد أنها تتمتع بسلطة واسعة أكثر من اللازم على سكوت، وأنها قوة هدامة وربما نصف مجنونة أيضاً. وهي كانت تعتقد أنه مخادع ويتظاهر بأنه مفتول العضلات ليخفي طبيعته.

وفي إحدى الليالي التي سهرنا فيها على الشاطئ وشرب فيها الجميع حتى الثمالة، ضحكت زيلدا بشكل صاخب، واستدارت لتمضي بعيداً وهي تخلع

ملابسها. كان سكوت يتحدث إلى سارا باهتمام، ولكن زيلدا بحركتها تلك استطاعت جعل اهتمامه كله ينصب عليها إذ قال: "حبيبتي، ماذا تفعلين بالله عليك؟"

قالت: "أختبر أعصابك"

إلى الجهة اليمنى من الشاطئ، كانت هناك مجموعة مرتفعة من الحجارة يصل ارتفاع أعلاها إلى ثلاثين قدماً أو ما يزيد فوق الأمواج. وتيار الماء في الأسفل كان دائماً متلاطم الأمواج ويدور فوق نقاط مخفية ناتئة. اتجهت زيلدا بسباحة راسخة نحوها، بينما كنا جميعاً نراقب بفضول، ونتساءل عمّا ستفعله، وما الذي لن تفعله.

حين وصلت إلى القاعدة، صعدت الصخور بسهولة. خلع سكوت ثيابه ولحق بها، ولكنه بالكاد بلغ البروز حين أطلقت زيلدا صيحة من صيحات الهنود وغطست بعيداً. كانت لحظة رهيبة حين خطر لنا التساؤل عما إذا كانت تريد قتل نفسها، ولكنها ظهرت على السطح وأطلقت ضحكة بهيجة ومجلجلة. كان القمر مضيئاً جداً، واستطعنا أن نرى شكلي جسميهما. وتمكنّا أيضاً من سماع المزيد من الضحكات المسعورة حين تسلقت زيلدا الصخور بجهد لتعيد الكرة. وحاول سكوت أن يفعل مثلها، وقد كان كلاهما ثملين إلى حد كافٍ ليغرقا.

قال إيرنست: "لقد شاهدت بما فيه الكفاية" وذهبنا إلى البيت.

بعد ظهر اليوم التالي، وأثناء الغداء على الشرفة، كان الجو متوتراً إلى أن قالت سارا أخيراً: "رجاءً زيلدا، لا ترعبينا مرة أخرى كما فعلت اليوم. فهذا خطر جداً"

أجابت زيلدا: "على رسلك سارا" وأسدلت جفنيها ببراءة كتلميذة في المدرسة، وتابعت: "ألا تعلمين أننا لا نثق بمبدأ المحافظة على الأشياء"

على مر الأيام التالية، كانت بولين ترمينا برسائلها. في البداية من بولونيا، ثم من باريس. وبدأت أتساءل في سرّي عمّا إذا كنا أنا وإيرنست نثق بالمحافظة على الأشياء، وإن كان بداخلنا ما يدفعنا للكفاح من أجل ما نملك. ربما كانت بولين أكثر صلابة منا. فقد شقت طريقها بالتملق والمداهنة؛ متذمرة بأنها كانت بعيدة جداً عن الأحداث الجيدة كلها، ومتسائلة إن كان بالإمكان فعل شيء لإصلاح

ذلك. وكتبت أنها لم تكن خائفة من السعال الديكي لأنها أصيبت به حين كانت طفلة، وسألت إن كان بإمكانها أن تأتي وتشارك في الحجر الصحي؟ أرسلت كل ذلك في رسالة وجّهتها لي وليس إلى إيرنست. وقد كنت مصدومة جداً - كحالي غالباً مع بولين - بتركيزها ومتابعتها لهدفها، وادعائها أننا لا نزال صديقتين. كما أنها لم تتزحزح قيد أنملة عن مكانتها.

وصلت بولين إلى أنتيبيس بعد ظهر يوم شديد الصحو. كانت ترتدي فستاناً أبيض وتعتمر قبعة من القش. بدت على قسط وافر من الحيوية والطهر؛ أشهى من طبق الآيس كريم، وكأنها نقطة من الشمس المضيئة. أي امرأة أخرى كان يمكن أن ينتابها الشعور بالذنب لدى وصولها إلى موقع الحدث بهذه الطريقة، حيث كان الجميع يعرفون أو على الأقل يتوقعون دورها كخليلة إلا بولين فلم تكن تملك ذرة من تأنيب الضمير. كانت مثل زيلدا في هذا المجال. فكلتاهما تعرفان ماذا تريدان وتجدان طريقة للوصول إليه أو لأخذه. كانت كل منهما داهية بشكل مخيف وعصرية، أما أنا فقد كنت أبعد ما أكون عن هاتين الصفتين.

قالت زيلدا في إحدى الأمسيات: "أليس ممتعاً بالنسبة لهيم أنك لطيفة إلى هذا الحد على الدوام؟ أقصد، هيم هو من يسيّر الأمور، أليس كذلك؟"

أجفلت ولم أقل شيئاً، مفترضة أنها قالت ذلك بسبب غيرتها من التقارب الحاصل بينه وبين سكوت. ولكنها كانت على حق أيضاً، فقد كان إيرنست هو صاحب الاستعراض ومسيّر الأمور كلها، وقد تجاهلني في كثير من الأحيان، ولم يكن ذلك صدفة. لقد ترعرعنا كلانا في بيتين حكمت فيهما الوالدة بقبضة من حديد، محوّلة حياة زوجها وأولادها إلى كومة من الفوضى التي ترتعش خوفاً. لقد كنت أعرف أنني لن أحتذي بهذا النموذج يوماً، ولا بأي ثمن. لقد اخترت دوري كداعمة لإيرنست، ولكن مؤخراً انقلب عالمي وتلاشت خياراتي. حين كان إيرنست ينظر حوله كان يرى نمطاً آخر من الحياة، وقد أعجبه ما رآه. حيث يتمتع الأغنياء بأيام أفضل وبليالٍ أكثر حرية. حضورهم يجعل الشمس تشرق على المكان، والموج يتراقص على الشطآن.

كانت بولين نموذجاً جديداً من النساء، فما المانع بأن يحصل عليها؟ بل لم لا ينطلق مطالباً بكل ما يريده؟ ألم تكن هذه هي الطريقة التي سارت وفقها الأمور؟

من جهتي، شعرت بأنني عالقة تماماً في هذا الوضع، وأن المؤامرات تحاك ضدي. فلم يكن هذا عالمي، ولم يكن هؤلاء يمثلون النمط الذي أحبه من الناس. لقد سحبوا إيرنست إلى صفهم يوماً بعد يوم. ماذا يمكنني أن أقول أو أفعل؟ ربما يشفى في النهاية من حب بولين ويرجع إلي بشكل كامل - كان ذلك حتى تلك اللحظة أمراً محتملاً - ولكن، لا شيء كان تحت سيطرتي. فلو أعطيته إنذاراً وقلت إنها لا يمكن أن تبقى هنا، فسوف أفقده. وإذا أصبحت في حالة هيستيرية وأثرت الفضائح فإن هذا سيعطيه تماماً الذريعة ليتركني. كل ما تبقى لي كان نوعاً من العجز الرهيب؛ لعبة الانتظار هذه، بل لعبة الأحزان.

الفصل الأربعون

لم يعرف كيف نجح الحب في أن يكون رائعاً جداً في إحدى اللحظات، ثم يتحول إلى حرب في اللحظة التالية. الآن دخل مرحلة الحرب، وولاؤه يتعرض للاختبار في كل جولة. السعادة المؤلمة والمحمومة التي تنشأ لدى الوقوع في حب جديد خرجت من متناول يديه حتى بات غير متأكد من أنه قد امتلكها. الآن، كانت هناك فقط الأكاذيب والمساومات. كان يكذب على الجميع، بدءاً بنفسه، لأنها كانت حالة حرب، وعليك أن تفعل ما يجب عليك فعله لتبقى واقفاً على قدميك. ولكنه كان يفقد السيطرة، هذا إن كان قد امتلكها في وقت ما. فقد باتت الأكاذيب تحكم الخناق عليه طوال الوقت. ولأن الألم كان أكبر من قدرته على التعامل معه بشكل مناسب، فقد حمل معه دفتر ملاحظات أسود، سميكاً بأوراق قشدية اللون كتب عليها الطرق التي فكر فيها بقتل نفسه إن وصل في وقت ما إلى هذه المرحلة.

يمكنك أن تفتح الغاز وتنتظر الشعور بالضبابية ببطء وباختلاط الألوان والاختناق وأنت بين النوم واليقظة. يمكنك أيضاً أن تجرح معصميك؛ فموسى الحلاقة متوفر دوماً، وهناك أمكنة أخرى في الجسم ذات نتيجة أسرع؛ كالرقبة تحت الأذن مثلاً، أو في الجهة الداخلية من الفخذ. لقد سبق له أن رأى سكاكين في الأمعاء، لكن هذا لا يناسبه؛ حيث ذكره بالأحصنة التي تعرضت للنطح في إسبانيا، وبلفائف أحشائها الأرجوانية التي خرجت من مكانها. لا، ليس ذلك، ولكنه يرفضه إلّا في حال لم يجد بديلاً آخر، بديلاً من قبيل أن يرمي نفسه خارج النافذة من ناطحة سحاب. وهو ما فكر فيه في نيويورك حين كان ثملاً وسعيداً بعد اجتماعه مع ماكس بيركينز ورأى بناء وول وورث. حتى إنه وجده بديلاً

مفرحاً. رمي نفسه وسط البحر العميق كان خياراً آخر، حيث يمكـــن للمـــرء أن يقفز من عابرة محيطات في الليل لتصبح النجوم الشاهد الوحيد عليه. لكن هذا كان رومانسياً أكثر من اللازم، وعليه أن يرتب أمر عابرة المحيطات مقدماً. لا يجـــب أن يكون هناك أي سابح في أي مكان إذا كنت تنوي أن تفعل ذلـــك. يمكنـــك أن تغطس إلى الأعماق وأن تبقى هناك، بعيداً في الأسفل، تاركاً الهواء ينسل خارجـــاً منك وأنت هناك. وإذا أرادك أحد ما، حسناً، يمكنه أن يأتي إليك. ولكنه عـــرف جيداً أن الطريقة الوحيدة بالنسبة له لفعل ذلك هي باستخدام المسدس.

كانت المرة الأولى التي نظر فيها إلى المسدس وفكر في سحب الزناد حين كان في الثامنة عشرة من عمره وقد أصيب في فوسالتا. حينها شعر أن صاعقة من الألم الخالص قد اجتاحته، مسببة له مقداراً من الألم يفوق ما اعتقد يوماً بوجوده. لقـــد فقد وعيه، وحين استعاده مرة أخرى كانت ساقاه مطحونتين ولا تنتميان إليه البتة، وكذلك رأسه. ولكن، ها هو ذا يحمل على نقالة بانتظار أن ينقله الأطباء بعيـــداً، محاطاً بالموتى وبمن يحتضرون. فوق رأسه غدت السماء بيضاء ينبعث منـــها النـــور والحرارة. صراخ ودماء في كل مكان. استلقى هناك لمدة ساعتين، وفي كل مـــرة كان يسمع فيها قصفاً كان لا يتمالك نفسه عن الدعاء والتضرع إلى الله. لم يعلـــم من أين أتته الكلمات رغم أنه لم يدعُ سابقاً قطّ.

كان غارقاً بالدماء، وقابعاً تحت سماء تفتح ذراعيها للموت. فجأة رأى المسدس، كان مسدس ضابط قريباً جداً من قدمه، لو أنه يتمكن فقط من الوصول إليه. كـــان الجميع يحتضرون، حتى بات الأمر عادياً وطبيعياً أكثر بكثير مـــن هـــذا الألم. هـــذا الانفتاح الشنيع على الموت. تصور بعقله يده تصل إلى المسدس، ثم تصور المشهد مرة أخرى وأخفق. ومن ثم جاء الأطباء وحملوه بعيداً وهو حي يرزق.

كان يظن نفسه دوماً شجاعاً، ولكن لم تكن لديه الفرصة لاكتشاف حقيقة الأمر ليلة القصف. في الخريف، عاهد نفسه بأنه سيفعل ذلك إن لم يتمكن مـــن حل الموقف مع بفايف حتى الكريسماس، لكن الموقف لم يحل، وهـــو أيضـــاً لم يفعل. فحدث نفسه بأن سبب تقاعسه كان أنه أحبها حباً جماً وكذلك هـــادلي أيضاً، ولم يكن بإمكانه أن يسبب الألم لأي منهما. ولكن كلتيهما تألمتـــا ألمـــاً شديداً على كل حال.

الآن، بدأ فصل الصيف، وباتت الأمور مستحيلة أكثر فأكثر. لم يكن بإمكانه أن يتخيل العيش من دون هادلي ولم يكن يريد ذلك. لكن بفايف تربعت على عرش قلبه بثبات أكبر، وقد أصبحت تستعمل كلمة الزواج بتواتر أكبر، وتعنيها الوقت كله.

أراد كلتا المرأتين، ولكن من غير الممكن الحصول على كل ما يريده، والحب لا يمكن أن يساعده الآن. لا شيء يمكن أن يعينه غير الشجاعة. وما هي الشجاعة أصلاً؟ هل كانت في الوصول إلى المسدس أم في الجلوس مع الألم والارتعاش والخوف القاتل؟ لم يعرف الجواب على وجه اليقين. ولكن، منذ المسدس الأول، حاول الوصول إلى الكثير غيره. وحين يحين الأوان، كان يعرف أنه سيكون مسدساً، وأنه سيضغط الزناد بقدمين حافيتين. لم يكن يرغب بأن يفعل، ولكن إذا أخذت الأمور مساراً سيئاً جداً، ثم ازدادت سوءاً؛ فالانتحار متاح دائماً.

الفصل الحادي والأربعون

يمتد على طول خليج خوان طريق أبيض تم شقه من جهة المنحدر الصخري. حيث يمكنك قيادة الدراجة الهوائية لخمسة أميال، أو عشرة أو خمسة عشر وأنت ترسل النظر إلى المراكب المضيئة في أرصفة الموانئ، والشواطئ الصخرية، والشواطئ التي يكسوها الحصى، وأحياناً كميات كبيرة من الرمل ذي المنظر اللطيف الناعم إلى أبعد الحدود. هناك استلقى المستحمون لأخذ قيلولة تحت مظلات خفيفة مخططة بالأبيض والأحمر فبدوا وكأنهم ينتمون إلى لوحة فنية. كما بدا الصيادون بقبعاتهم غامقة اللون وهم يلقون بشباكهم، وأكوام الحجارة التي حمت أنتيبيس من العوامل الجوية، وقمم أسقف بيوت القرية الحمراء التي بدت كالمصاطب.

كنت وبولين نركب دراجتينا الهوائيتين معاً بعد الفطور، بينما ينصرف إيرنست إلى عمله. لم تكن تلك فكرتي. ولكن، كنا هناك وسط ذاك المكان الرائع، وفي نهاية المطاف كان علينا أن نفعل شيئاً. انتهى عقد إيجار فيلا باكيتا في أوائل حزيران، لذا استأجرنا غرفتين في فندق لا بينيد في خوان لي بينس. كان بامبي وماري كوكوت في الجوار في شقة صغيرة محاطة بأشجار الصنوبر. وقد بدأ علاج السعال الديكي في النهاية يعطي نتائجه، حيث بدأ بامبي يشعر بالتحسن يوماً بعد يوم، وقد استعاد لونه وتحسن نومه في الليل وزال قلقنا عليه نهائياً تقريباً. انتهت مدة الحجر الصحي ولكننا لم نخالط أحداً في ضوء النهار على أي حال مشكلين جزيرة خاصة بنا، بينما على بعد عدة أميال عبر شبه الجزيرة كانت الأمور لدى آل مورفي وآل ماك لايش كسابق عهدها، حيث يحتسون القهوة مع البسكويت عند الساعة العاشرة والنصف تماماً، ويتناولون الشراب مع الكافيار

وخبز التوست عند الواحدة والنصف، ويلعبون الورق على طاولة من الموزاييك الرائع الأزرق والأخضر التي نصبت لهذا الغرض. الصورة على رأس الطاولة كانت لحورية ذات شعر منسدل.

كانت تتأرجح على صخرة وتحدق في الأفق البعيد. أحبها الجميع في فيلا أمريكانا لأنها كانت ترمز إلى شيء ما على ما يبدو. أحبوها كما أحبوا أوقاتهم الخاصة معاً، وخبزهم المحمص، وكل لحظة خاصة بكل طقس يدور حولهم مثل نوابض الساعة.

في فندق لا بينيد كانت لنا طقوسنا الخاصة. فقد كنا نتناول الفطور متأخرين، ثم يذهب إيرنست للعمل في مكتب صغير في الشرفة، بينما نقود أنا وبولين دراجتين هوائيتين أو نسبح ونتشمس على شاطئنا الصغير مع بامبي. بعد الغداء، كنا نأخذ قيلولة، ثم نستحم ونستعد للسهرة إما في فيلا أمريكا؛ في إحدى الحدائق المدرجة، أو في كازينو البلدة. ولم يرفع أحد حاجبيه استهجاناً في حضورنا، أو يوجه لنا أي كلمة لا تنم عن ذوق رفيع لأن ذلك كان الاتفاق.

كان سيخيل لأي شخص يشاهدني وبولين أننا صديقتان؛ أياً كان المنظور الذي يراقبنا منه. لعلها هي أيضاً اعتقدت ذلك، فأنا لم أعرف الحقيقة على الإطلاق. ولكنها بكل تأكيد عملت جاهدة كي تبقى مرحة؛ مخترعةً المهام لنا في القرية للحصول على التين الطازج أو أفضل أنواع السردين المعلب.

"انتظري إلى أن تتذوقي هذا الزيتون. ستشعرين أنك تحلقين في السماء" هذا ما كانت تقوله عن الزيتون أو أي شيء آخر؛ كالقهوة الثقيلة أو المعجنات أو المربى اللذيذ. لا شك بأنني سمعتها تقول ذلك ألف مرة في ذلك الصيف، حتى إنني أردت أن أصرخ. لكنني لم أصرخ رغم ذلك، وقد كان ذلك أحد الأمور التي ندمت عليها كثيراً.

كانت لدينا غرفتان في الفندق، كل منهما مجهزة بسرير مزدوج ومكتب عريض ونوافذ مغلقة تطل لدى فتحها على الساحل. شغلت وإيرنست إحدى الغرفتين، فيما احتفظت بولين لنفسها بالغرفة الأخرى، على الأقل في البداية. قبل أسبوع أو عشرة أيام، حين عدنا أنا وبولين من قيادة الدراجات أو السباحة، اعتذرت لأنها تريد تغيير ملابسها من أجل الغداء، ولكنها ذهبت بدلاً من ذلك إلى

مكتب إيرنست مارة عبر الفندق حيث كان يوجد فيه مدخل ثانٍ غير ملاحظ وغير بارز كما لو كان حجرة للمكانس.

على الأرجح، كانا متفقين على نقرة سرية. هذا ما تخيلته؛ مع أن ذلك سبب لي شعوراً بالغثيان. حين أتت إلى الغداء بعد ساعة من الزمن أو أكثر كانت قد استحمت مجدداً، وارتدت ملابسها بطريقة مثالية، ثم جلست مبتسمة وراحت تمتدح الغداء أو اليوم بطريقة مبالغ فيها. كان كل شيء منظماً ومحاطاً بالسرية والحذر، حتى إنني تساءلت إذا كانت تستمتع بلعب دورها، كما لو كان هناك فيلم واقعي يدور في ذهنها، وهي ممثلة عظيمة لم تخطئ بأداء سطر واحد فيه.

أما أنا فلم أكن ذكية إلى تلك الدرجة. ووجدت نفسي أفقد الكلمات أكثر فأكثر، وأعزف عن سماع الآخرين وهم يتكلمون، فأحاديثهم بدت لي ملفقة وفارغة. وفضلت النظر إلى البحر الصامت الذي لا ينطق بأي كلمة، ومع ذلك لا يدعك تشعر بالوحدة أبداً. استطعت وأنا على دراجتي مراقبة المراكب وهي تتحرك فوق المياه الزرقاء، أو التركيز على الخمائل الخضراء الوضاءة التي تنمو عند الأسوار الواقية بإصرار شديد. لقد استطاعت بطريقة ما أن تصمد غير عابئة بالرياح أو الأمواج التي تهاجمها؛ راسخة كالطحالب غامقة اللون على الصخور في الأسفل.

في صباح أحد الأيام، وبعد عاصفة استمرت لعدة ساعات في الليلة الفائتة، كانت بولين عازمة على أن تشير إلى كل أثر من الأضرار التي خلفتها العاصفة؛ بدءاً من أغصان الصنوبر المكسّرة، ووصولاً إلى كومة المظلات على الشاطئ. حاولت أن أهرب من ثرثرتها بأن أقود الدراجة بسرعة عالية إلى أن لا أعود قادرة على سماع شيء سوى صوت القوة الدافعة وأزيز عجلات دراجتي على الطريق. ولكنها لم تكن لتكف عن ثرثرتها، إذ قالت:

"لقد حاولت التحدث مع هيم للذهاب إلى الولايات المتحدة في الخريف. فأهلي لديهم أرض في أركنساس، والحياة رخيصة جداً هناك، وبإمكانك أن توفري ثروة"

كم كرهت استعمالها لاسم التحبب عنه دون تكليف، لقد كانت هذه لغتنا، وكانت رقصتنا. أجبتها: "يمكنك أن توفري جهودك، فهو يفضل قطع ذراعه على العودة إلى الوطن

"في الواقع، هو يرى أنها فكرة لطيفة"

"أركنساس!؟"

"بيغوت. إنها منطقة ريفية طبعاً، ولكنك تحبين ما هو ريفي"

"أنا أحب حياتنا هنا. ما الذي تحاولين فعله؟"

"أنا آسفة. ولكنني فقط أفكر بك. فأنت محكومة بنفاد المال لديك قريباً هنا في باريس. ويجدر به أن يبدأ رواية ثانية دون أن يؤرقه أي شيء آخر. سيكون بمقدورك شراء أشياء جديدة ولطيفة في بيغوت. وبالتأكيد، هذا يعني شيئاً ما بالنسبة لك"

قلت: "كلا، لا يعني لي شيئاً"

وخلال ما تبقى من رحلتنا على الدراجة، قاومت بقوة عدم تصديقي ودموعي. لم أرغب بأن ترى بولين أياً منهما، لذا بقيت متقدمة عليها وأنا أقود الدراجة أسرع فأسرع. بعض المنعطفات كانت مهلكة، ولو فقدت توازني ولو للحظة، لطرحت من على الجرف الحجري لأهبط فوق الصخور الناتئة في الأسفل.

ترنحت قليلاً، ولكنني حافظت على مساري، وكان لدي نوع من النشوة الهائجة لمواجهة إيرنست. كان قلبي غارقاً بطوفان من الأدرينالين وعقلي يسابق الزمن. ماذا سأقول؟ وماذا يمكنه أن يقول دفاعاً عن نفسه؟

عندما وصلت إلى الفندق كنت في حالة مزرية. تركت الدراجة الهوائية ملقاة على الحصى، وأسرعت إلى داخل الفندق منقطعة الأنفاس وقد غطتني طبقة من العرق. خططت أن أقتحم مكتبه. ولكن الباب بطبيعة الحال كان مقفلاً.

سأل إيرنست حين قرعت الباب: "من بالباب؟"

قلت بصوت أجش من شدة الغضب: "زوجتك"

عندما فتح الباب، أمكنني رؤية مدى الدهشة التي شعر بها حين وجدني هناك. فقد كان ذاك وقت بولين، أو أوشك أن يكون كذلك. وهو على الأغلب بدأ يستشعر مجيئها برغبة متنامية.

"لا يمكنك التفكير بأنني سأذهب إلى أركنساس انفجرت في وجهه حتى قبل أن يغلق الباب.

فأجاب: "كنت سأخبرك قريباً. لو كان بإمكانك التفكير بعقلانية لرأيت أنه ليس مخطّطاً سيئاً أبداً"

فأطلقت ضحكة أشبة بالصراخ وسألته: "هل سنعيش مع أهلها؟"

"لا، لقد وجدت بيتاً لنا جميعاً في البلدة لنكون معاً"

بالكاد كنت أصدق ما أسمعه: "أتريدنا أن نعيش جميعنا معاً؟!"

"هذا ما نفعله الآن، أليس كذلك؟"

"بلى، وهو شيء مريع. معرفتي بأنك على علاقة حميمة معها تثير اشمئزازي"

"آسف يا تاتي. ربما يحصل لك هذا لأن الوضع جديد علينا ولا نعرف كيف نديره بشكل جيد"

"هل تعتقد فعلاً أن الوضع يمكن أن يدار بشكل جيد؟"

"لست أدري. أنا لا أريد أن أخسرك"

"وإذا لم أوافق؟"

قال: "أرجوك تاتي"، وانخفض صوته، وبدا شديد الكرب، "فقط حاولي. إذا نجح الأمر وبدأنا جميعاً نشعر أننا بخير فسنتوجه إلى بيغوت في أيلول، وإذا لم ينجح فسنرجع إلى باريس

"وحدنا؟"

"نعم" هذا ما قاله؛ رغم أنه أمكنني سماع شيء من التهرب في صوته. فهو لم يكن واثقاً من هذا كله.

"أعتقد أن هذا كله خطأ"

"ربما. ولكن، تأخر الوقت كثيراً للرجوع إلى الوراء. علينا الآن فقط أن نحاول التأقلم مع ما ينتظرنا"

قلت بحزن: "نعم" وغادرت بالطريقة نفسها التي دخلت فيها.

خلال الأيام القليلة التالية، بدأت أسأل نفسي عمّا إذا كان مقترح إيرنست فكرة جديدة؛ كمحاولة منه لإيجاد حل لإخراجنا من الورطة التي وقعنا فيها. أو إن كانت الفكرة قد عشعشت في داخله منذ وقت طويل. فعلى مدى سنين عدة، أحاطت بنا علاقات غريبة، وأشخاص متحررو الفكر يمارسون حياقم بحرية،

ومستعدون لتخطّي كل الأعراف للعثور على ما يعتبرونه صحيحاً أو خطراً أو تحررياً بشكل كافٍ. لم أستطع يوماً توقع شعور إيرنست وهو يراقب تصرفاهم، لكنهم بدوا لي حزانى ومعذبين. آخر ما سمعناه من أخبار باوند أن عشيقته، أولغا رودج، وضعت بنتاً، ومع ذلك اتفقوا على ألا يربوها. لا شيء في حياة باوند يستدعي وجود طفل، ولم يرغب أي منهما بأن يتعرض للفضيحة على ما يبدو. لقد أعطيا الطفلة إلى امرأة فلاحة في قسم الولادة حيث وضعت أولغا المولودة. كانت المرأة قد تعرضت لحالة إجهاض، وكانت سعيدة جداً بأخذها الطفلة. كنت مشدوهة، كيف يمكن لامرئ أن يتخلى عن طفله بهذه السهولة، ولكننا فوجئنا بشكل مضاعف حين قرأنا في رسالة أخرى أن شكسبير حامل بطفل ليس ابناً لباوند. في الواقع، لم تقل أي كلمة عن والد الطفل، ولكنها قالت إنها ستحتفظ بالطفل. كان تصرفها بكل وضوح يهدف للثأر من بوند. هذا ما تفعله بك المواقف الرهيبة القذرة، فهي تجعلك تتصرف بجنون ضد الثوابت الحقيقية التي تمتلكها، وضد نفسك.

في عصر أحد الأيام، كنا أنا وإيرنست نأخذ قيلولة في غرفتنا، وإذا بي أغرق في حلم رأيت نفسي فيه وقد دفنت تحت أطنان من الرمل. كانت صورة من الاختناق، ورغم ذلك للغرابة لم تكن كابوساً. شعرت بالرمل دافئاً وحلو المذاق. وبينما كان يطحنني ببطء ما فتئت أفكر: يا *للروعة!* كنت أشعر أنني واهنة ومخدرة. ولم أفتح عيني على الإطلاق. لم يكن جسمي ملكاً لي على وجه الدقة، وقلت لنفسي إن السرير كان رملاً، والملاءات كانت رملاً، كنت لا أزال في الحلم.

الفصل الثاني والأربعون

في الصباح، عندما شقت الشمس طريقها عبر مصاريع نوافذ المشتل وألقـــت بأشعتها على وجهي أيقنت أن الصبح قد طلع سواء أأردت ذلك أم لا، ففتحــت عيني. دفع النسيم الستائر الكتانية قشدية اللون فأخذت تهتز. وشكل الضوء رقعــاً مضيئة متطاولة على الأرض الخشبية غامقة اللون. تثاءبت ومـــددت جســـمي، ثم دفعت الملاءات عني لأنهض. مقابل السرير، كانت هناك مرآة كـبيرة عكســت صورتي؛ بدوت بنية البشرة إلى حد بعيد، ومتينة البنية، ومشدودة القـــوام بفضــل السباحة وركوب الدراجة. وقد أصبح شعري فاتحاً من أشعة الشـــمس، حـــتى إن البقايا الحمراء فيه غدت كأثر من الزنجبيل، وكانت عيناي نجلاويـــن ولامعـــتين. بعبارة أخرى، كنت بأحسن حال. وكنت قد توقفت مسبقاً عن التعجب من هذا؛ إذ كيف يمكنني أن أبدو قوية وبصحة جيدة في وقت كنت فيه في الواقع أحتضر؟

في فندقنا، كان لدينا ثلاثة من كل شيء؛ ثلاث صوانٍ من طعـــام الفطـــور، وثلاث أثواب وبرية، وثلاث مجموعات من ملابس السباحة المبتلـــة علـــى حبـــل التجفيف. في الممر الصخري على طول جهة الفندق المقابلة للريح تقـــف ثـــلاث دراجات هوائية في الموقف. إذا نظرت إلى الدراجات من إحدى الجهتين فســـتبدو لك صلبة كالتماثيل. وفي ضوء ما بعد الأصيل ستلتمع نظيفة متلألئـــة بمقاودهـــا المصنوعة من الكروم؛ واحدة، اثنتان، ثلاث كلها في صف واحد. أما إذا نظـــرت إليها من جانب آخر، فستتمكن من رؤية كم كانت الأسياخ المعدنيـــة الداعمـــة لعجلاتها رفيعة وترزح تحت وزن الهيكل الثقيل، وكيف كانت مهيأة للوقوع مثل الدومينو أو مثل الحب نفسه. ولكنني عندما لاحظت هذا الأمر احتفظت به لنفسي لأن ذلك أيضاً كان جزءاً من العقد غير المكتوب بيننا. يمكن للأمور أن تتعقـــد إلى

درجة مستحيلة تحت الغطاء؛ ما دمت لم تدعها تنفجر و لم تسمّ الأشياء بأسمائها، وبخاصة في ساعة السهرة حين يكون الجميع مسرورين ويعملون جاهدين ليبقوا كذلك، وليظهروا لك مدى روعة الحياة التي يمكن أن ينعم بها المرء في حال كان محظوظاً مثلنا. فقط تجرع شرابك، ثم تجرع المزيد ولا تفسد الجو.

بعد الاستحمام، لبست ونزلت إلى شرفة الحديقة الصغيرة في الطابق السفلي؛ حيث كان فطورنا جاهزاً على المائدة في الشمس. ثلاث بيضات باللحم مع الكثير من الزبدة والفلفل، ثلاث قطع حلوى على البخار، ثلاثة أكواب من العصير. خرج إيرنست من حيث كان يعمل في غرفة صغيرة مواجهة للشرفة ليحييني قائلاً:

"أسعدت صباحاً تاتي. تبدين بأفضل حال"

فقلت: "نعم، وأنت كذلك"

كان يرتدي سروالاً قصيراً أحمر من الكتان وكنزة كالتي يرتديها الصيادون مخططة بالأسود والأبيض من غرو دي روا، ويسير حافي القدمين. وكنت أرتدي ملابس مماثلة. وحين خرجت بولين إلى الشرفة كانت قد اغتسلت للتو ومشطت شعرها الغامق إلى الوراء بعيداً عن وجهها، وقد لبست هي أيضاً سترة الصيادين المخططة. كان مظهرنا جميعاً متشابهاً حين تبادلنا تحية الصباح وأكلنا فطورنا بنهم كما لو أننا لم نتناول طعاماً من قبل.

كانت الشمس قد سطعت على الشاطئ بشدة، وتوزعت أشعتها على الأشياء كلها بالتساوي، فبدا الرمل أبيض اللون تقريباً، وتوهج الماء.

قالت بولين: "ستكون سباحتنا جيدة اليوم"

"نعم" أجاب إيرنست وهو يقسم قطعة خبز البريوش الحلو إلى نصفين حيث تصاعد منها البخار على نحو جميل. وتابع موجهاً كلامه لي: "ومن ثم ستحضر لنا المدام البولينغر البارد جداً وبعض سمك السردين مع الكبر؛ سيعجبك هذا أليس كذلك؟"

"نعم، يبدو رائعاً"

بعد الفطور، ذهبت إلى المدام كي أخبرها بما ارتأيناه للغداء. بعدها حضرت حقيبة صغيرة لنأخذها معنا إلى الشاطئ. ثم وجدت حذائي، فانتعلته وسرت في

الممر المفضي إلى كوخ القش، حيث كان بامبي يلعب في الساحة. قلت له وأنا آخذه بين ذراعي لأضمه إلى قلبي: "مرحباً يا بني، يا دبدوبي الصغير، أظنك قد أضحيت أطول، تبدو في عيني أمك كبيراً جداً"

كان مستمتعاً بسماع ما أقوله له، ودفع بكتفيه إلى الوراء وحرك ذقنه المستدير إلى الأمام.

وقالت ماري: "لم يسعل إطلاقاً في الليلة الماضية، سيدتي"

فقلت له: "ألست بحالة ممتازة؟" وحين أومأ بالإيجاب قلت بفخر: "إذاً، هيا أيها الصبي سوف نذهب لنسبح"

في الهلال الصغير الذي يشكله الشاطئ في النهاية الأخرى للطريق، كان إيرنست وبولين قد أعدّا البطانيات والمظلات مسبقاً، واستلقيا على الرمل مثل السلحفاة بعيون مغمضة. تشمسنا على الشاطئ كلنا مستلقين في صف مترادف، بينما كان بامبي وماري يلعبان ويصنعان نماذج صغيرة من المحار في الرمل. وحين احتدت أشعة الشمس، نزلت في الماء الذي يكون بارداً على الدوام على نحو رائع. غطست ثم ظهرت على السطح، وسبحت عدة مئات من الأمتار إلى حيث عم السكون. حركت قدمي في الماء، وتركت الأمواج تحملني، وفيما كانت إحدى الموجات ترفعني تمكنت من النظر إلى الوراء إلى الشاطئ، ورأيتهم صغار الحجم ورائعين؛ زوجي وطفلي والمرأة التي أصبح التصاقها بنا الآن يفوق قدرتنا على التصرف. بدا الجميع من تلك المسافة متساوين وهادئين، ولم يكن بإمكاني سماعهم أو الإحساس بهم. في الأسفل، في جوف الموجة، كان بمقدوري رؤية السماء وحسب؛ ذلك المكان الأبيض العالي الذي لا يتأثر بمعاناتنا كلها.

على سبيل التجربة، توقفت عن السباحة وتركت ذراعي وساقي من دون حركة ليغوص جسمي عميقاً كما يشاء. أبقيت عينيّ مفتوحتين حين غرقت نحو الأسفل، ورفعت بصري إلى الأعلى نحو السطح. أحسست بما يشبه اللدغة في رئتيّ، ثم شعرت بحرقة فيهما؛ كما لو أنني ابتلعت قطعة صغيرة من بركان. كنت أعلم أنني لو بقيت هناك وتركت الماء يتسرب إلى جسدي، ويدخل علي من كل باب، فإن بعض الأمور ستكون أسهل. مثلاً، لن يكون علي أن أرى عقد حياتي ينفرط حبة تلو حبة مبتعداً عني ومتجهاً إلى بولين. تأجج البركان الصغير في داخلي ثم فرقع شيء

ما، وعرفت أنني حتى لو لم أكن أريد الاستمرار في الحياة بهذه الطريقة، فأنا أيضاً لا أريد أن أموت. أغمضت عيني وضربت الماء بقوة متجهة إلى السطح.

حين عدت إلى الشاطئ نهضت بولين وحيتني قائلة: "دعينا نحاول أن نغطس! هل نفعل ذلك؟"

"لا أظن أنني سأكون بارعة في ذلك"

"سأعلمك. سأكون اليوم معلمة الغطس، وسيراقب هيم ويعطيك الدرجات التي تستحقينها"

قلت وأنا أحاول أن أضحك: "رجاء، ليس هذا"

"إذاً، بعض الممارسة في البداية"

انطلقت بولين متخذة الطريق باتجاه الممر الصغير حيث تكدست الأحجار البنية حتى الأعالي. كانت غامقة جداً وذات فجوات جعلتها تبدو كما لو أنها صنعت من الطين ثم شويت بالشمس لآلاف السنين. كانت الصخور ساخنة تحت أقدامنا العارية، فتسلقناها بسرعة حتى أوشكنا على الوصول إلى القمة.

نظرت بولين من فوق الحافة لتقيس المد والجزر الذي يدفع بالماء ويسحبه مسافة خمس عشرة قدماً في الأسفل. وقالت: "حين تسمعين صوت الاندفاع، حينئذ تقفزين" ثم انتصبت في وقفتها، ورفعت ذراعيها برشاقة فوق رأسها ورقبتها الطويلة. انتظرت، ثم لدى سماعها صوت المد والجزر دفعت بساقيها النحيلتين وصارت معلقة في الفضاء، ثم انطلقت بسرعة كالسهم الهابط من علٍ نحو الأسفل باستقامة شديدة. اضطربت المياه بالمكان الذي نزلت فيه، ولم يكن هناك شيء سوى المياه في البداية، ثم ظهرت على سطح الماء، دافعة شعرها إلى الخلف وغمزت بعينها وهي تصيح بي: "حسناً إذاً، دورك الآن"

أجبتها: "تبدو العملية أسهل بكثير من أن تكون سهلة" فضحكت.

كان إيرنست قد قفز إلى الماء وسبح حول كورنيش الصخور الصغير إلى حيث تتمايل بولين وانتظرني هناك.

ثم قال وهو يمسح سطح الماء بذراعيه جيئة وذهاباً ويحرك قدميه فيه: "هيا إذاً، دعينا نراك تخترقين عباب المياه"

قلت: "لا علامات ولا تصحيحات وإلا فلن أقوم بذلك"

سألني إيرنست وقد أغمض عينيه نصف إغماضة: "ألا تريدين أن تتعلميها بشكل صحيح؟"

"في الواقع كلا. إن أنجزت القفزة من دون أن أتحطم على الصخور وألقى حتفي، فسيكون هذا جيداً بما فيه الكفاية"

"حسناً، افعلي ما يناسبك"

وقفت على الحافة وأحسست بالحرارة في كعبيّ وأغمضت عيني.

قالت بولين: "يجب أن تكون ذراعاك ممدودتين باستقامة إلى الأعلى حتى تلامسا أذنيك"

قلت: "لا تصحيحات" وقفت باستقامة، ثم حنيت ذراعيّ فوق رأسي، وأصغيت لأسمع الصوت الهامس. ولكن، حين سمعته، وجدت نفسي غير قادرة على الحركة وكأنني مثبتة هناك.

قال إيرنست: "هيا، لقد أضعت الفرصة"

لم أجبه، ولم أفتح عيني، وكانت هناك لحظة دوار حقيقية، وحين سمعت صوت الأمواج المتكسرة مرة أخرى وشعرت أنني جزء منها، أدور معها وأنا لا أزال واقفة في مكاني، تجرفني إلى أعلى البحر وأسفله، إلى أعماق الكون، شعرت بوحدة حقيقية شديدة.

أخيراً، عندما نظرت إلى الأسفل، رأيت ذينك الرأسين المبللين في الأمواج المتهادية. كانا يبدوان لعوبين وطبيعيين كفقمتي بحر. وفجأة أدركت أنني لن أقفز، وأن ذلك لم تكن له علاقة بالخوف أو الحرج.

لن أقفز لأنني لا أريد أن أنضم إليهما. كنت أحس بالحجارة تحت قدمي ناعمة وحارة حين استدرت ونزلت ببطء نحو الأسفل بحذر وهدوء.

صاح إيرنست من خلفي: "هادلي" ولكنني ظللت أسير مبتعدة عن الشاطئ، ومتجهة نحو الفندق. وعندما وصلت إلى غرفتنا، أخذت حماماً تحررت فيه من الرمل كله الذي كان عالقاً بي، واندسست في سريري وأنا لا أزال مبتلة ونظيفة جداً ومتعبة. كانت الملاءة بيضاء وقاسية ورائحتها كالملح. وبينما كنت أغمض عيني تمنيت أمنية، وهي أن أستيقظ وأنا أمتلك القوة ووضوح الرؤية حول الأمور كما كان حالي للتو.

حين استيقظت لاحقاً عرفت أن إيرنست لم يأت إلى الغرفة ليأخذ قيلولة، وأنه لا بد من أن يكون بدلاً من ذلك قد ذهب إلى غرفة بولين. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يذهب فيها إليها في وضح النهار. لا بد أن المدام والمسيو، مالكَي الفندق، سيعرفان بذلك كما سيعرف به الجميع. الآن وقد أصبح كل شيء مكشوفاً، لم يعد بالإمكان العودة إلى الوراء، إلى الطريقة التي سارت وفقها الأمور من قبل. وفكرت في سرّي: *حسناً إذاً، قد يكون هذا أفضل.*

وفي تلك اللحظة تماماً، فتح الباب، ودخل إيرنست وبولين وراءه.

قالت بولين: "كنا قلقين جدًّا عليك"

في حين سألني إيرنست: "لم تتناولي طعام الغداء، هل أنت مصابة بالحمى؟" ثم تقدم وجلس إلى جانبي على السرير، في حين جلست بولين في الجهة الأخرى، وكانا ينظران إلي كما لو كانا والديّ. كان الموقف برمته غريباً وسخيفاً إلى درجة أنني ضحكت.

فتساءلت بولين: "ما الذي يضحكك؟"

أجبتها وأنا لا أزال أبتسم: "لا شيء إطلاقاً"

فوجهت كلامها إلى إيرنست قائلة: "يمكنها أن تكون غامضة جداً، أليس كذلك؟"

"كلا، ليس ذلك من عادتها" أجابها إيرنست وأضاف: "ولكنها كذلك الآن. بماذا تفكرين يا قطتي؟ هل أنت بخير؟"

قلت: "ربما لا. أظن أنه يجدر بي أن أرتاح هذا المساء. هل يضايقك ذلك؟"

بدا الكدر على بولين فتأكدت أنها فعلاً كانت قلقة علي؛ وأياً كان السبب، ربما لأن تربيتها الجيدة استحثت الدماثة لديها في اللحظات الأكثر غرابة. كانت فعلاً بحاجة إلى أن أكون بخير وأكون صديقتها وأقبل بكل ما يجري؛ أقبل باختطافها زوجي.

قلت لهما كليهما: "رجاء، اخرجا من هنا"

التقت عيونهما من فوقي.

لكنني قلت مؤكدة: "أنا مصرة، رجاءً"

فقال إيرنست: "دعيني أطلب من المدام أن تحضر لك شيئاً من الطعام لتتناوليه. قد تمرضين إن لم تأكلي"

"لا بأس، لا يهمني"

قالت بولين: "دعي هذا الأمر لي؛ فهذا يسرني" ثم انطلقت لتعمل على الترتيبات الخاصة بالوجبة كما تفعل أي زوجة.

حين أغلقت الباب وراءها قلت: "إذاً، قد تم تسليم مقاليد كل شيء"

"ماذا؟"

"بمقدورها أن تفعل كل شيء الآن. وسوف ترعاك على نحو جيد"

"أنت لست بخير. فقط خذي قسطاً من الراحة"

"أنا لست بخير، أنت محق في ذلك، فأنت تقتلني، كلاكما تقتلانني"

نظر إلى الملاءة وتمتم: "هذا ليس سهلاً علي أيضاً"

"أجل أعرف. فنحن مجموعة حزينة ودنيئة؛ ثلاثتنا. وإن لم نكن حذرين فلن ينجو أحد منا دون فقدان مريع لأشياء مهمة"

"لقد فكرت بالطريقة نفسها. ماذا تريدين؟ ما الذي عساه يساعدنا؟"

"أعتقد أنه قد فات الأوان. ألا تظن ذلك؟" ثم نظرت إلى النافذة حيث كان النور يتوارى بسرعة. "من الأفضل ألا تتأخر بالمغادرة وإلا ستفوتك الحفلة الساهرة مع آل مورفي"

"لا يهمني البتة"

"بل يهمك، وكذلك يهمها. فقط اذهب. ستكون هي الزوجة لهذه الليلة"

"أكره أن أسمعك تتحدثين بهذه الطريقة. إنها تجعلني أفكر بأننا قد هدمنا كل شيء"

"لقد فعلنا يا تاتي" قلتها بحزن وأغمضت عيني.

الفصل الثالث والأربعون

أحب أن أقول إن ذلك كان نهاية كل شيء، وإن ما اتضح لنا بعد ظهر ذلك اليوم أجبرنا على الخروج تماماً عن الترتيب الذي وضع مسبقاً. كنا في حالة النزع الأخير قبل الموت، لكن شيئاً ما جعل كلاً منا يتابع مسيرته على تلك الشاكلة عدة أسابيع؛ تماماً كما يفعل جسد الحيوان المذبوح الذي يستمر بالحركة بعد قطع رأسه.

في الأسبوع التالي، كان موعد مهرجانات مصارعة الثيران في بامبلونا. كنا قد خططنا في وقت باكر من ذلك الصيف لاصطحاب كل من جيرالد وسارا مورفي معنا. فمضينا في مخططاتنا، بينما توجه بامبي مع ماري كوكوت إلى بريتاني لعدة أسابيع بعد أن اختفى سعاله نهائياً.

أقمنا في فندق كوينتانا في تلك السنة، في غرف مقابلة لغرف مصارعي الثيران تفصلنا عنها الردهة. بعد الظهر من كل يوم، كنا نتخذ أفضل الأماكن المتاحة من جهة الحلبة والتي دفع جيرالد أجرتها. وفي كل مساء، كنا نجلس حول الطاولة نفسها في كافيه إيرينا ونشرب حتى الثمالة. كان إيرنست التابع المتحمس كعهده دائماً، وقد تفانى في سبيل تعليم بولين وجيرالد عن مصارعات الثيران كما سبق أن فعل عند تعليمي وتعليم داف وبيل وهارولد لوب ومايك ستراتر وأي شخص آخر ينصت له. كان جيرالد جاداً في تعلم كل شيء عن مصارعة الثيران، فاصطحبه إيرنست إلى المصارعة الخاصة بالهواة، ونزل كلاهما إلى الحلبة لاختبار أعصابهما مع الثيران التي تبلغ من العمر سنة واحدة. كان إيرنست بيدين عاريتين هذا العام، فيما اعتمد جيرالد على معطفه المطري ذي العرى البيضاء. وحين اندفع ثور بأقصى سرعته نحو جيرالد، تمكن في اللحظة الأخيرة من تحويل مسار الثور بعيداً عنه بتحريكه معطفه إلى إحدى الجهات.

لاحقاً، في مقهى إرونا قال إيرنست لجيرالد: "كانت هذه حركة فيرونيكا ممتازة. أيها الولد الكبير" لكن الأخير كان يعلم أنه ليس بالرجل القوي أو الصارم بما فيه الكفاية ليناسب إيرنست. فلم يصدقه و لم يقبل الثناء عليه. إذ قال:

"أعدك أن أقوم بذلك بشكل أفضل في العام القادم، يا بابا. من المهم بالنسبة لي أن أقوم بذلك بشكل جيد حقاً"

ابتسمت لجيرالد عبر الطاولة، لأنني لم أفعل شيئاً جيداً حقاً لشهور. كنت حزينة حتى العظام، وكذلك كان إيرنست أيضاً. وعبر الطاولة، بدت بولين كما لو كانت ترغب في أن تنفجر بالبكاء في كل لحظة. إذ لم نكن نحن الثلاثة قادرين على العيش حسب معاييرنا.

في نهاية هذا الأسبوع الذي اتسم بالفوضى، ركبت بولين القطار مسافرة إلى بايون برفقة آل مورفي كي تعود إلى عملها في باريس. وغادرنا إلى سان سيباستيان؛ حسب ما خططنا دوماً. ولكنني عرفت في لحظة معينة أن المخططات لن تصمد بعد اليوم لأن الأمور ستفلت من عقالها بيننا يومياً.

في سان سيباستيان كان هناك قدر من السلام بعد ذهاب بولين. لكن هذا كله يعني أنه أصبح بإمكاننا في الواقع الشجار بحرية أكبر دون انقطاع. لم يقل أحدنا للآخر شيئاً جديداً. لكن مادة الشجار القديمة بقيت تفعل فعلها إذا كنا غاضبين وصاخبين بما فيه الكفاية بسببها.

صارحته بقولي: "إنها عاهرة، وأنت أناني وجبان"

فرد علي: "أنت لا تحبينني. أنت لا تحبين شيئاً"

"أنا أكرهكما، كليكما"

"ماذا تريدين مني؟"

"لا شيء. أتمنى أن تموت"

أحرجنا نفسينا في المقاهي وفي سيارات الأجرة. و لم نتمكن من النوم إلا بعد أن أفرطنا في احتساء الشراب. لكننا إن تجاوزنا الحدود في الشرب فلن نتمكن حينئذ من النوم على الإطلاق، ومن ثم سيستلقي أحدنا إلى جانب الآخر وعيناه حمراوان وجافتان نتيجة البكاء وحنجرته مخنوقة.

استمرت بولين بالكتابة يومياً، وكان صوتها يطن كالدبور في أذني: *إنني أفتقد حبيبي بما يفوق العقل. رجاء اكتبي لي هادلي. أعلم أنه يمكننا جميعاً الاعتناء ببعضنا وأن نكون سعداء، أنا أعرف ذلك وحسب.*

قال إيرنست بعد أن اطلع على إحدى رسائل بولين ووضعها بعد ذلك جانباً: "لا يمكننا الاستمرار هكذا. أليس كذلك؟ هل تعتقدين أنه يمكننا؟"

"آمل ألا يكون ذلك ممكناً"

"نحن نسير نحو مصير أسوأ"

قلت: "بالفعل"

"يبدأ المرء حياته مع شخص ما يحبه، ويظن أن هذا يكفي. ولكنه ليس كافياً أبداً. أليس كذلك؟"

"لا يمكنني الإجابة. لم أعد أعرف شيئاً عن الحب. أريد فقط أن أتوقف عن الشعور لبرهة. هل يمكننا فعل ذلك؟"

"هذه مهمة الشراب"

قلت: "إنه يخذلني، إذاً أنا متوترة إلى أعلى درجة"

"لنعد إلى الدار"

"نعم، لقد حان الوقت لذلك. ولكن ليس معاً. فهذا أمر لم يعد فيه نقاش

قال: "أعلم ذلك"

نظر كل منا إلى الآخر عبر الغرفة وقد تجلت أمام ناظرينا حقيقة الأمور كلها ولم نتمكن من التفوه بشيء آخر لوقت طويل.

في طريق العودة إلى باريس، توقفنا ليلة في فيلا أمريكا، ولكننا تخلينا عن محاولة خداع أحد، حتى نفسينا. وأثناء الحفلة الساهرة على الشاطئ أخبرنا جيرالد وسارا أننا سننفصل.

فقال جيرالد: "هذا غير ممكن!"

أجاب إيرنست وهو يفرغ كأسه في جوفه: "بل ممكن، وسيحصل. لكن، لا تجعل الشراب ينقطع"

غمرتني سارا بنظرة كلها حنان بقدر ما تستطيع ثم نهضت لتحضر المزيد من الشراب.

قال جيرالد: "كيف سيتم الأمر عملياً؟ أين ستسكن؟"

فأجبته: "لم ندرس الأمر تماماً بعد. الوضع جديد جداً بالنسبة لنا"

تأمل جيرالد في البحر ملياً عدة دقائق قبل أن يقول: "لدي استديو كما تعلم في شارع ري فروادوف. إنه لك إذا أردت ذلك طيلة المدة التي تحتاج إليه فيها"

"هذا منتهى الكرم منك"

"يجب أن تعتمد على أصدقائك. صحيح؟"

حين عادت سارا، كان خلفها دون ستيوارت وعروسه الجديدة الجميلة بياتريس آميس، حيث كان الاثنان يمضيان شهر العسل في فندق في البلدة.

هتفت باسمه: "دونالد" وعانقته بحرارة، لكن وجهه كان شاحباً وبدا غير مرتاح وكذلك بياتريس. كان يبدو واضحاً أن سارة قد همست لهما بأخبارنا الجديدة على طول الطريق وصولاً إلى الشاطئ، وجعلت الوقت ممتعاً.

تم إحضار المزيد من الكراسي ووضعت حول طاولة الموزاييك، وشربنا بإسراف وتأملنا الغسق يلفنا.

قال دونالد: "بصراحة، كنت أعتقد أنكما غير قابلين للتحطيم"

أضاف جيرالد: "هذا ما أعرفه" واستدار إلى سارا قائلاً: "ألم أقل لك دائماً إن آل هيمينغواي يمارسان الزواج على نحو لم يشبههما فيه أحد آخر، وإنهما يطمحان لشيء ما عظيم؟"

دخل إيرنست على الخط قائلاً: "إذاً حسناً. دعونا نقاطع مراسم ما بعد الوفاة. أيمكننا ذلك؟ نحن مرهقان كفاية من الوضع"

قلت: "دعونا نسمع شيئاً مفرحاً. حدثنا عن حفلة عرسكما يا دون"

صعد الدم إلى وجه دون ونظر إلى بياتريس. كانت نمطاً جميلاً جداً من بنات غيبسون؛ فهي ذات جبهة عريضة وفم أحمر جميل منحني الشكل. ولكنها في تلك اللحظة تماماً فقدت هدوءها وقالت: "لا أظن أنه ينبغي أن نتحدث عن ذلك. لا يبدو هذا مناسباً"

فكان رد إيرنست: "أوه بشأن هذا! ستعتادين الأمر" كانت شفتاه مطبقتين وجافتين وعيناه جامدتين. يمكنني القول إن كل شيء كان يمضي بسرعة كبيرة بالنسبة له، ولكنه كان يتماشى معه على كل حال. لقد كانت النهاية تسير نحونا منذ شهور وشهور بخطى حثيثة؛ مذ كنا في شرونس. ولكن الآن، وبعد أن باتت تجثم على صدورنا لم نعرف ماذا نفعل بها.

لم نستقل القطار عائدين إلى باريس حتى عصر اليوم التالي، وقد أثقل كاهلنا كل ما يحدث. كان الجو يومها يكتم على الأنفاس؛ لا هواء فيه وشديد الحرارة. وكان القطار مملوءاً جداً. تشاركنا بمقصورة للنوم مع سيدة أمريكية حملت قفصاً للطيور ذا زركشة معقدة وبداخله كناري صغير أصفر. لم يستلزم الأمر أكثر من أن نقول لها مرحباً لتروي لنا المرأة قصة مفصلة حول الطائر، وكيف أنه هدية لابنتها التي كانت مخطوبة لمهندس سويسري، قبل أن تتدخل هي لمنع هذا الزواج. قالت: "لقد استطعت أن أرى على الفور أنه يجب أن أرسله ليحزم أمتعته. أنت تعرف كيف هم السويسريون"

"نعم، بالطبع" قال لها إيرنست وهو يشدّد على مخارج الحروف، فهو لم يكن يعرف شيئاً عن الأمر. ثم أردف: "اعذريني. فأنا ذاهب لأبحث عن الحمال" وعندما عاد كان يحمل زجاجة من الشراب.

كنا قد وصلنا قرب مارسيليا حينئذ، وقد بدا كل شيء من النافذة مغبراً بشدة وأبيض ومائلاً إلى اللون الرمادي؛ أشجار الزيتون، بيوت المزرعة، الجدران المبنية من الصخور، والتلال التي تلوح من بعيد. بدت كلها مبيضة بشكل غريب، فيما المرأة الأمريكية لا تزال بطريقة ما تتحدث عن الزواج، وكيف أنها ترجو أن تسامحها ابنتها. تناولت كأساً من الشراب، ثم شربت كأساً أخرى وحاولت ألا أستمع إلى المرأة على الإطلاق. حتى عندما غرد الطائر على نحو جميل وجدت نفسي لا أريد سماعه هو أيضاً.

حين هبط الظلام، أغمضت المرأة أخيراً عينيها، وبدأت تشخر ورأسها الثقيل يتمايل على كتفيها. دخلنا آفينيون حيث شاهدنا مزرعة تحترق في حقل جاف. رأينا ألسنة اللهب ترتفع بشكل مسرحي في السماء المظلمة، والخراف تركض جيئة وذهاباً وقد زُربت خلف السور وبدت مسعورة وخائفة. لا بد من أن الحريق قد

أعلن عن نفسه في وقت مبكر لأن قطع أثاث كثيرة كانت منتشرة في الحقل بعيداً تماماً عن المنـــزل، بينما عمل بعض الرجال على إنقاذ ما يمكنهم إنقـــاذه. رأيـــت حوض غسيل طلي باللون الزهري، وكرسياً هزازاً، وعربة أطفال إلى جانبه. كـــان المشهد برمته يفطر القلب تماماً. كانت هذه حياة شخص ما، كومة مـــن الأثـــاث تشبه أعواد الثقاب المصطفة، لم تبدُ أنها أنقذت، بل بالأحرى بدت كما لـــو أنهـــا هجرت؛ في حين تلاطمت سحب كبيرة من الدخان.

حين شارفنا على الوصول إلى باريس، كان الصباح قد شارف على الانبلاج. وكنا بالكاد قد نمنا أنا وإيرنست في تلك الليلة، وكذلك قليلاً ما تكلمنا معاً. كل ما فعلناه هو النظر من النافذة، حيث بدت لنا آثار الدمار لا نهاية لها. ففي ضواحي المدينة وقرب شوازي لو روا كان البخار ينطلق من حطام سيارة أمتعـــة ربضـــت على إحدى جهتي الطريق.

قلت لإيرنست متسائلة: "هل نحن ماضون فعلاً حتى النهاية في هذا؟"

"لست أدري. هل سنفعل؟"

تماماً في تلك اللحظة، استيقظت المرأة الأمريكية، وتمطت بصخب، ثم رفعت الغطاء المخملي عن القفص لتوقظ الكنار. بطريقة ما حل الصباح وصرنا في بلدنا، ومع ذلك كان من الصعب الشعور بأي شيء. كنت قد تجرعت كمية كبيرة جداً من الشراب، حيث ارتعشت يداي وهدر قلبـــي بصعوبة في صدري.

حين وصلنا إلى محطة القطار، ناول إيرنست حمال الأمتعة حقائبنا من النافذة وسرنا إلى الرصيف. كنا في أوائل شهر أيلول، وكان نسيم الصباح منعشاً ونديّاً.

ركبنا سيارة أجرة، وأملى إيرنست العنوان على السائق: "شارع فروادوفو الرقم 69" وانحبست أنفاسي في حنجرتي. إذاً، إنه ذاهب إلى استوديو جيرالـــد ولـــيس إلى البيت معي. لا عودة إلى أي شيء مما كنا عليه. فعلاً، لقد انتهى كل شيء.

قلت: "لمَ لا تذهب إلى شقة بولين مباشرة؟"

"رجاء لا تبدئي! الموقف مترع بالألم بما يكفي

"ماذا تعرف أنت عن الألم؟ هذا كله من صنعك أيها الحقير

لم أكن أدرك ما أقوله، فالشراب كان لا يزال يعيق دورتي الدمويـــة ويســـيّر أفكاري. في تلك اللحظة، كان كل ما أعرفه حقاً هو أنه لا يمكنني البقاء وحدي.

تلاحقت أنفاسي بسرعة كبيرة، وعندما اقترب إيرنست مني بدافع قلقه علي، هاجمته بعنف بأن صفعته براحة يدي، ضاربة إياه على صدره وكتفيه ووجهه. كل شيء كان يحط على نحو غريب كما هو الحال في الأحلام. فيدي مرنة ولينة وكذلك جسمه. ثم بدأت بالبكاء و لم أستطع التوقف. التفت إيرنست إلى السائق وقال له بالفرنسية: "عذراً، زوجتي ليست بخير"

أخيراً، حين توقفت سيارة الأجرة، نزل إيرنست ودار إلى جهتي وفتح لي الباب قائلاً: "هيا إذاً، أنت بحاجة إلى النوم"

تركته يقودني على السلم صعوداً وكأنني دمية عارضة للأزياء. حين دخلنا الاستوديو ألفيت الأرضية الإسمنتية باردة. وكانت هناك طاولة واحدة وكرسيان، وحوض ماء منخفض وإبريق ومنصة. مشى بي إلى سرير ضيق ووضعني عليه، ثم سحب بطانية من الصوف الأحمر وغطاني حتى ذقني. ثم تسلق السرير ورائي وأحاطني بذراعيه وطوى ركبتيه إلى خلفية ركبتي وضمني إليه بأشد ما يمكنه، وقال لي وأنفاسه على رقبتي: "هذه هي القطة الطيبة، رجاء نامي الآن"

بدأت أرتجف وهتفت: "دعنا لا نفعل هذا. فأنا لا أستطيع"

"بلى، يمكنك. لقد حصل ذلك سابقاً يا حبي" وأرجحنا كلينا جيئة وذهاباً ونحن نذرف الدموع. وحين نمت أخيراً لم أستسلم للنوم بقدر ما استولى هو علي؛ كما يفعل المرض أو الموت. وعندما استيقظت لاحقاً بعد ساعات، كان إيرنست قد مضى. كان رأسي لا يزال في دوامة بسبب الشراب، وهناك مستوى آخر من الدوار نابع من مكان عميق بلا قرار. حياتي باتت كلها فوضى، فكيف لي أن أنظمها من جديد؟ كيف سأتجاوز هذا الوضع؟ أخذت قطعة فحم عن طاولة منخفضة، وكتبت له ملاحظة على ورقة من كراسة الرسم جاءت أكثر هدوءاً وتماسكاً مما كنت أشعر به أو اعتقدت أنه يمكنني الشعور به:

آسفة جداً على المسرحية التي قمت بها في سيارة الأجرة. لقد فقدت عقلي، ولكن سأبذل ما بوسعي لأكون جيدة حيال كل شيء. سأظل راغبة في رؤيتك، سأفعل، ولكنني لن أبحث عنك.

غادرت الاستوديو بعد أن أقفلت الباب ورائي، ومشيت إلى فناء البيت الصغير حيث امتدت دكة حجرية أحاطت بها أزاهير الأقحوان النحاسية وتعلق

الليلاب على الجدران من كل الجهات. كان هذا المشهد هو ما سيراه إيرنست حين ينظر إلى خارج نافذة الاستديو. إنه منظر جديد لا علاقة له بي بكل الأحوال. حاولت ألا أدع تلك الفكرة الرهيبة تذرو بعيداً عزمي الهش وأنا أصعد سيارة أجرة طلبت إلى سائقها التوجه إلى فندق بوفوار في أفينيو دو لوبسيرفاتوار. كان هذا هو المكان الأول الذي فكرت فيه لأنه كان يقع بالضبط على الطرف المقابل من ذا كلوزيري دي ليلا، وقد تأملته آلاف المرات وأعجبت بمشواته الحديدية جيدة الصنع وأصص نبات إبرة الراعي. سأجد طريقة للصمود في وجه ما هو آتٍ. سأستأجر غرفتين واحدة لي وأخرى لبامبي الذي سيعود من بريتانيا مع ماري كوكوت في الأسبوع التالي، وسأكتب لها لأخبرها بأن تحضره إلى هنا. بإمكاننا تناول الفطور كل صباح في ذا ليلاس. وسيتمكن من رؤية أبيه مراراً هناك، وأصدقاء آخرين أيضاً، وسيكون الجو كله مألوفاً جداً؛ فهذه أمور مهمة في الوقت الحاضر.

بما أن سيارة الأجرة كانت تسير ببطء بسبب حركة السير، أغمضت عيني وحاولت عدم التفكير بأي شيء سوى القهوة بالكريما التي سأحصل عليها قريباً جداً. سأجعل هذه الفكرة تدوم الآن، ثم سأتعامل مع ما هو آت؛ أياً كان ذاك. أغراضي كلها كانت في بيت المنشرة ويجب تدبر أمرها. سأطلب من إيرنست أن يقوم بذلك أو سأستأجر شخصاً ما؛ لأنني كنت أعلم أنه لا يمكنني العودة إلى هناك، لن أفعل، و لم أفعل. لم أعد إلى هناك يوماً قط.

الفصل الرابع والأربعون

أخبرني إيرنست ذات مرة أن كلمة جنة (Paradise) كلمة فارسية وتعني: "الحديقة المسورة" عندئذ عرفت أنه فهم أهمية العهود التي قطعها كل منا للآخر بالنسبة لسعادتنا. لا يمكنك أن تمتلك حرية فعلية إلا إذا عرفت مواقع الأسوار وراعيتها. يمكننا أن نتكئ على الجدران لأنها موجودة، وهي موجودة لأننا نعتمد عليها. مع مجيء بولين بدأ كل شيء يتداعى. لم يبدُ لي أي شيء البتة مستديماً باستثناء ما أصبح الآن ورائي؛ أي ما فعلناه وعشناه معاً.

حدثت دون ستيوارت بهذا كله في إحدى الليالي في دو ماغو. حيث كان هو وبياتريس قد عادا إلى باريس، وبحث عني لأنه كان قلقاً عليّ، وحزيناً بشدة لانفصالنا أنا وإيرنست.

قلت: "أكره أن أكون نبعاً للكآبة، ولكن ذكرى زواجنا الخامسة تقع في الأسبوع القادم؛ أو كان يفترض أن تكون كذلك، وتوقيتها فعلاً مقيت"

"يمكنك أن تكافحي من أجله كما تعلمين"

"لقد فات الأوان على ذلك. فبولين تدفعه من أجل طلب الطلاق"

"وإن يكن. ماذا ستفعلين لاحقاً إن لم تفعلي شيئاً الآن"

هززت كتفي بلا مبالاة، ونظرت من النافذة إلى حيث كانت امرأة جميلة تنتظر أحداً ما أو شيئاً ما عند الزاوية. كانت هيفاء القامة، وترتدي ثياباً سوداء، وتعتمر قبعة لها زر، ولم تبد منكسرة على الإطلاق. "لا أعلم إن كان بمقدوري فعلياً المنافسة"

"ولِمَ ينبغي عليك أن تنافسي؟ فأنت الزوجة. وهو ينتمي لك بحكم الحق والقانون"

"ينتمي الأشخاص لبعضهم ما داموا قانعين بذلك فقط. وقد انتهت قناعته بانتمائنا لبعضنا"

"قد يكون فقط مشوشاً بشكل رهيب"

رافقني إلى فندقي، وقبلني بلطف على خدي؛ مما ذكرني بذلك الصيف الرهيب في بامبلونا مع داف وبات وهارولد حين وصلت الأمور حد الغليان وتطورت بصورة بشعة. ولكن، رغم هذا كانت هناك نفحات خفيفة من السعادة.

قلت له: "كنت دوماً طيباً معي يا دون. وهذا يدعمني أكثر مما تظن

"انسي ما قلته لك في المقهى. إذا أردت، فأنا لا أريد أن أملي عليك ما تفعلينه بزواجك. تباً، أنا تزوجت للتو. ولكن، يجب أن يكون هناك شيء ما يمكن فعله؛ حل ما"

تمنيت له ليلة سعيدة، وصعدت الدرج ببطء إلى الدور الثالث حيث كان بامبي نائماً وماري كوكوت تطوي ملابسه وتصنفها في مجموعات رائعة. أرسلتها إلى البيت، وأتممت طي الملابس بنفسي وأنا أفكر في ما يمكنني القيام به لأوجد نوعاً من التغيير مع إيرنست. والشيء الذي خلصت إليه كل مرة هو أنه لو لم تكن بولين بالجوار و لم يتمكن من رؤيتها، لكان ربما قد تخلص من تشوشه وعاد إلي. فهو لا يزال يحبني، وأنا أعرف ذلك. ولكن وجود الفتاة الفعلي كان بمثابة دعوة لا يمكنه مقاومتها.

في اليوم التالي، توجهت إلى استوديو جيرالد في شارع فروادوفو وأنا مفعمة بالتصميم على قرار جديد اتخذته. مررت عبر الفناء الصغير الذي كان لا يزال ساحة معركة لأجزاء من الجسم مصنوعة من الجص، ووجدت إيرنست جالساً وراء الطاولة الثابتة يعمل. لم أجلس لأنني كنت غير قادرة على ذلك.

بادرته بالقول: "أريد منك ومن بولين الموافقة على ألا تريا بعضكما لمدة مائة يوم"

كان صامتاً ومتفاجئاً. لقد استحوذت حتماً على اهتمامه.

"لا يهمني أين تذهب، يمكنها أن تذهب إلى جهنم. كل ما يهمني هو أن عليها الذهاب بعيداً. لا يمكنك أن تراها أو أن تكتب لها. وإذا التزمت بهذا ووجدت أنك لا تزال تحبها بعد الأيام المائة فلك مني الموافقة على الطلاق"

"أستوعب ما قلته. ولكن، كيف توصلت إلى هذه الخطة اللامعة؟"

"لا أعلم، ولكن عن طريق شيء ما قاله دون ستيوارت"
"دون؟! لقد كان هذا الرجل يلاحقك دائماً كما تعلمين"
"أنت بالكاد في وضع يسمح لك بإصدار الأحكام"
"نعم، حسناً. إذاً، مائة يوم ومن ثم ستمنحينني الموافقة على الطلاق؟"
"إذا كنت حتى ذلك الحين لا تزال راغباً في ذلك"
"ماذا تريدين تاتي؟"
"أن أشعر بالتحسن اغرورقت عيناي بالدموع، وجاهدت كي لا تفيضا بسيل جديد، ثم سلمته قطعة ورق كتبت عليها بنود الاتفاق ووقعتها. "عليك توقيعها أيضاً. أريد أن يكون الأمر واضحاً ولا غبار عليه"
تناولها بمهابة وقال: "أنت لا تحاولين معاقبتي، أليس كذلك؟"
"لا أعرف. لم أعد أعرف أي شيء بعد الآن"
حمل إيرنست الاتفاق إلى بولين، وأخبرها بالمخطط فوافقت فوراً. أظن أن تمسكها الشديد بتعاليم الكاثوليكية أيقظ دور الضحية في داخلها. ربما تكون قد اعتبرت طلبي مدة ثلاثة شهور طلباً معقولاً من زوجة تعرضت للهجران من زوجها، ولكنها قد تكون شعرت أيضاً أنها حتى الآن لم تتألم بما فيه الكفاية بسبب هذه العلاقة، والفراق سيساعدها على أن تصل إلى تلك الحالة. كتبت لي تقول إنها معجبة بقراري وتقبل به، ثم أخذت إجازة من عملها في المجلة وحجزت على *بينلاند* للسفر إلى الولايات المتحدة.
بعد أحد عشر يوماً من كتابتي للاتفاق، كانت بولين خارج باريس إن لم تكن خارج الصورة.
سألني إيرنست: "هل يمكنني الكتابة لها بينما لا تزال على متن السفينة؟ هل هذا مسموح به؟"
"لا بأس، ولكن الأيام المائة عندها لن تبدأ فعلياً حتى تصل إلى نيويورك"
"أنت تشبهين ملكة نوعاً ما، أليس كذلك؟ وتقومين بإصدار الأحكام"
"لست ملزماً بالموافقة"
"كلا، هذا صحيح"
أخبرته بلطف: "أنا لا أسعى إلى أن أكون لئيمة، بل أحاول أن أنقذ حياتي"

يكره إيرنست أن يكون وحيداً ولطالما كان كذلك، ولكن غياب بولين الآن تركه أكثر من وحيد وجعله حساساً جداً. بعد أيام قليلة، ظهر علـــى بابـــي في وقت العشاء.

كان قد أنهى لتوه الكتابة في ذلك اليوم، وبان في عينيه ما كان يشير دوماً إلى أنه قد أمضى وقتاً طويلاً منغلقاً على نفسه وأفكاره، وبات الآن بحاجة إلى التحدث مع الآخرين.

"كيف سار العمل اليوم تاتي؟" سألته وأنا أدعوه للدخول.

"كمن يشق طريقه في الحجر. هل يمكن للمرء أن يحصل على شـــراب مـــا هنا؟"

دخل غرفة الطعام حيث كان بامبـــي يأكل الخبز والمـــوز. حـــين جلـــس، شعرت بأنفاس كل منا وحتى بامبـــي تتردد في المكان فقط بسبب تواجدنا جميعـــاً حول الطاولة نفسها.

أحضرت زجاجة شراب وتناولنا محتواها، ثم تشاركنا وجبة عشـــاء بســـيطة جدًّا.

قال: "دفعت لي مجلة سكريبنر مائة وخمسين دولاراً مقابل قصة"

قلت: "إنه مبلغ كبير، أليس كذلك؟"

"نعم. ولكن، رغم ذلك، ربما يجب ألا تقرئيها. فهي تدور حول رحلة القطار لدى عودتنا من أنتيبيس مع المرأة صاحبة الكنار. ولن تكون ممتعة جداً لك"

"حسناً، لن أقرأها" وسألت نفسي: ترى، هل أدخل في القصة حريق بيـــت المزرعة في آفينيون، وكذلك سقوط عربات القطار والدخان يتصاعد منها؟ سألته: "هل تريد أن تحمم الصغير؟"

شمر عن ساعديه، وأخرج حوض الاستحمام الصغير وجلس القرفصاء علـــى الأرض بجانبه، بينما لعب بامبـــي ورش الماء.

قلت: "أوشك أن يصبح كبيراً جداً بالنسبة للحوض. أليس كذلك؟"

"سيصبح في الثالثة من العمر خلال بضعة أسابيع. يجدر بنا أن نقيم له حفـــلاً فيه قبعات ومثلجات بالفريز"

أضاف بامبـــي: "وبالونات وقرد صغير

أجابه إيرنست: "أنت قرد صغير يا حبيبي ولفه بمنشفة كبيرة.

بعد ذلك، وضعته في سريره، وحين خرجت من غرفته وأغلقت الباب كان إيرنست لا يزال جالساً إلى الطاولة.

قال: "لا أريد أن أسأل إن كان بإمكاني البقاء"

قلت: "إذاً، لا تسأل" أطفأت المصباح، ثم ذهبت إلى الطاولة وجلست على ركبتي أمامه. وضع يده بلطف على مؤخر رأسي، فدفنت وجهي في حضنه وأنا أتنفس في نسيج سرواله الجديد الخشن؛ ذاك الذي اشتراه بمساعدة بولين دون شك، كي لا تشعر بالحرج من استعراضه أمام أصدقائها في الضفة اليمنى من نهر السين.

ضغطت أكثر، ومررت برؤوس أصابعي على ربلتي ساقيه من الخلف.

قال وهو يحاول النهوض: "هيا" ولكنني لم أنهض. أظن أن هذا من الحمق أو العند، ولكنني أردت أن أحتفظ به هنا وفق شروطي، إلى أن يذهب الإحساس بالحرقة والألم في معدتي؛ فهو حتى الآن لا يزال زوجي.

حين استيقظت في صباح اليوم التالي كان نائماً إلى جانبي، وكانت الملاءات دافئة من حولنا. ضغطت جسمي إلى ظهره، ومررت براحتي يدي على معدته إلى أن استيقظ بما يكفي وقمنا بعلاقة حميمة مرة أخرى. بطريقة ما، بدا وكأن شيئاً لم يتغير. فجسمانا يعرفان بعضهما جيداً، ولم يتوجب علينا التفكير حول الطريقة التي نتحرك بها. ولكن، حين استلقينا هادئين شعرت بحزن رهيب يخيم علي لأنني كنت لا أزال أحبه كما فعلت على الدوام. *نحن الشخص نفسه*، ولكن هذا على صعيد الواقع لم يكن حقيقياً. كان يؤكد لي على مر السنين أننا متشابهان بشكل جوهري. حتى إننا بتنا نتشابه بشعرنا القصير ووجهينا المستديرين اللذين لوحتهما الشمس ويفيضان صحة. ولكن التشابه بالمظهر لا يعني أن كلاً منا لم يكن يشعر بالوحدة.

سألته وأنا أحرص على ألا أنظر إليه: "هل يعني هذا شيئاً؟"

فرد: "كل شيء يعني شيئاً ما" وسكت عدة دقائق ثم أضاف: "إنها تمزق نفسها على انفراد، هل تعلمين"

"كلنا نعاني. هل رأيت وجه بامبي الحبيب ليلة أمس؟ لقد كان سعيداً جداً بوجودك هنا. لا بد من أنه مشوش للغاية مما يحصل

"نحن جميعاً في أسوأ حال بلا ريب" تنهد بعمق، ثم نهض وارتدى ملابسه.

"أتعلمين، ترى بفايف أنك حكيمة جداً لقيامك بكل هذا، ومحاولتك فرض شيء من النظام في الفوضى التي أوجدناها جميعاً. ولكنها تتمزق إرباً بسبب هذا الوضع وأنا كذلك أيضاً"

"لِمَ تخبرني بهذا؟ وماذا يفترض بي أن أشعر؟"

"لست أدري. ولكن، إن لم أتمكن من إخبارك، فمن ينبغي علي أن أخبر؟"

الفصل الخامس والأربعون

ما إن ذكر الانفصال أمام آل موروفي حتى بدا جيرالد مضيافاً إلى أبعد الحدود. لِمَ كان ذلك؟ قدم له الاستديو مجاناً، وحتى بالنسبة للمال أتاح له الاعتماد على مصرف مورفي.

"هذا ليس متعلقاً بالزواج وحسب" قالها جيرالد وهو يقدم له العرض، أثناء احتسائهما الشراب في جلسة خاصة. "أنا لا أعرف ما يمكنني فعله بدون سارا. ولكنك مختلف، وبالتالي القواعد مختلفة أيضاً. يمكنك أن تحتل مكاناً في التاريخ. وقد فعلت ذلك مسبقاً. فاسمك مسجل هناك على بطاقة وعليك أن تسلك طريقاً معيناً وليس أيّ طريق آخر"

"ما اعتراضك على هادلي؟"

"لا شيء. وكيف يمكنني ذلك؟ كل ما في الأمر أنها تسير بسرعة مختلفة. إنها أكثر حذراً"

"وأنا علي أن أكون السفاح. هل هذا ما تعنيه؟"

"كلا، بل فقط عليك أن تكون حازماً"

"لقد عايشتني خلال تلك الفترة كلها"

"نعم، وقد فعلت ذلك بشكل جميل. ولكن، ما سوف يأتي لاحقاً كله جديد. لذا عليك أن تتطلع إلى الأمام. وأعرف أنك مقتنع بذلك"

كان يشعر في الكثير من الأحيان أن جيرالد يفرط في مدحه. ولكن، الآن وقد باتت Sun وراءه والكثير من الأعمال غيرها أمامه، شعر فعلاً وكأن هناك أشياء كثيرة مطلوبة منه. لم يعرف ما المطلوب منه بالضبط، لم يعرف سوى أنه سيستحوذ على كل ما في جعبته.

كانت بفايف غنية بالأفكار حول المستقبل، فقد نظمت حفل الزواج، وعلى الأرجح أنها فعلت ذلك منذ البداية. تلك كانت طريقتها في عقد اتفاق مع ضميرها.

منذ العلاقة الحميمة الأولى بينهما قالت له: "أخبرني أنك تحبني"

"أحبك" كانت ذات عضلات وقوية، ومتناقضة على نحو غريب مع هادلي، وتتمتع بوحشية وصلابة لا تشبهان شيئاً مما لدى هادلي.

"أكثر مما تحبها. حتى إن لم تكن هذه هي الحقيقة فأنا أريدك أن تقولها"

قال: "أحبك أكثر"

وضعت يديها على صدره، واخترقت عيناها الغامقتان أعماقه وقالت: "أخبرني أنك تتمنى لو التقيتني أولاً"

قال: "أجل"

"أريد أن أكون زوجتك الآن. زوجتك الوحيدة"

كان تعبيرها منفصلاً عن الواقع وبغيضاً في الوقت نفسه، وقد أثار أعصابه قليلاً. ربما كان عليها اختراع حياة لهم في رأسها، وإلا كيف تمكنت من التعايش مع ذاتها ومن أن تكون صديقة لهادلي؟ في شرونس تأملهما وهما تجلسان إلى جانب بعضهما قبالة النار تتحدثان وتضحكان، وقد تصالبت ساقا كل منهما في الاتجاه نفسه، وهما ترتديان الجوارب المتماثلة والأحذية المنزلية الآلبية المتشابهة. لم تكونا أختين، فهما غير متشابهتين في شيء على الإطلاق. لقد كان هو الشيء الوحيد الذي جمع بينهما في الواقع.

لم يكن يحظى بنوم جيد، وعاودته الكوابيس المزعجة. أحياناً في منتصف الليل الساكن كان يفكر بالنساء اللواتي أحبهن. تذكر محاولته أن ينال إعجاب أمه وكم كان ذلك مفزعاً. سماها فويتي، وألّف لها الأغاني، وحين أخذته إلى بوسطن بالقطار وحده وهو ابن عشر سنين، يتذكر كم كان فخوراً بنفسه لجلوسه معها في مقطورة الطعام، وتناوله سلطة السلطعون بشوكة فضية ثلاثية الأسنان، والمناديل البيضاء الكتانية في كل مكان. ولكن، بعد عودتهما إلى البيت بوقت قصير، صار في الأسرة طفل رضيع ومن ثم طفل آخر، وهو كان كبيراً جداً على أن يكون بحاجة إليها إلى تلك الدرجة اليائسة. لذا، قتل حاجته اليائسة تلك ببطء وتعمد؛ بأن راح

يذكر نفسه كم كانت وراء حنانها متقلبة وكثيرة الانتقاد، وكيف أنه لا يمكنه الوثوق بها.

لم تكن هذه الحذاقة مجدية على الدوام. ففي بعض الأحيان، كانت المرأة تبقى غامضة وهوجاء مثل كيت، وأحياناً تدخل إلى صميمك وتستقر هناك مهما حدث. أما هادلي فكانت أفضل امرأة عرفها، بل وأفضل بكثير مما يستحق. وكان يعتقد ذلك دوماً، وبقي على قناعته تلك حتى حين أضاعت حقيبته التي حوت مخطوطات أعماله.

حاول جاهداً ألا يمعن التفكير في ذلك اليوم. لقد كانت تلك الحادثة الشيء الأكثر رهبة مما عايشه في حياته. حين تعرض للإصابة في الحرب حطم ذلك جسمه، وأوقظ في نفسه الخوف والرهبة، وهو لا يزال معه كالشظايا التي استقرت عميقاً في نسيج عضلاته. لكن عمله كان ذاته، وحين ضاع شعر بأنه فارغ تماماً، كما لو أنه يمكن أن يتبدد ببساطة ويصبح هواء؛ شعوراً موجعاً ويشبه العدمية.

ظل يحب هادلي بعدها. فهو لم يتمكن من التوقف عن حبها، ولم يرغب في ذلك، ربما للأبد، ولكنها قتلت شيئاً في نفسه. كان يشعر في الماضي أنه ثابت وصلب ويتمتع معها بالأمان، ولكنه الآن يتساءل إن كان بإمكانه أن يثق في أحد على الإطلاق. ذلك كان السؤال في الواقع، ولكنه لم يملك إجابة عنه. أحياناً، بدا الوضع كما لو أن دعامة أساسية في أعماقه قد تصدعت مهددة كل شيء بشكل خفي. بولين كانت مستقبله، وقد أغدق لها الوعود، والتزم بمنحها كل ما يملك. ولكنه لو أراد أن يكون صادقاً مع نفسه لعرف أنه لم يثق بها أيضاً. هذا الجزء من الحب قد يكون ضاع منه إلى الأبد.

الفصل السادس والأربعون

في أواسط أكتوبر، جاءنا إيرنست وبيده نسخة من روايته *The Sun Also Rises* *الشمس تشرق أيضاً*؛ التي صدرت للتو في الولايات المتحدة. قام بطقوس مهيبة لفضّ غلافها البني، وفك الشريط ثم ناولني إياه على استحياء. في الداخل، وعلى صفحة الإهداء كان الكتاب مهدى لي ولبامبي. فقد غير الإهداء منذ انفصالنا ليتضمن اسمي أيضاً.

"إنه بالفعل كتاب جميل وأنا فخورة به تاتي"

"إذاً، هل أحببت الإهداء؟"

"أحببته. إنه مثالي بحق"

"جيد، أردت أن أفعل شيئاً بهذا القدر لأحلك على الأقل. فقد دمرت كل شيء، والآن ينتشر الحطام في كل مكان"

قلت متأثرة: "صحيح، ولكن انظر إلى هذا" رفعت الكتاب وأضفت: "انظر إلى ما بمقدورك أن تنجزه. لقد صنعت هذا"

"بل صنعناه معاً، إنها حياتنا"

"كلا، إنه أنت ومنذ البداية. لا شك بأنك عرفت ذلك وأنت تكتبه"

"ربما كان كذلك" نظر إلى الكتاب بين يدي، ثم أشاح بوجهه إلى النافذة.

لقد بذلت قصارى جهدي في محاولة الخروج عن العادات القديمة، وحاولت أن أرى الأصدقاء. كان هناك قلة من الصحبة القديمة ممن أرادوا تقديم العون. آدا ماكليش اتصلت بي بشكل دوري لتدعوني إلى العشاء ولتبعد ذهني عن التفكير في الأمور المزعجة. كما دعتني كل من غيرترود وآليس إلى شرب الشاي، ولكنني

فكرت بأن تنشيط تلك الصداقة، والمخاطرة في أن يعتقد إيرنست أنني كنت أختار غيرترود ستكون فكرة سيئة.

الإخلاص كلعبة النرد، لذا كان من الصعب علي معرفة من أستطيع الركـــون إليه. كيتي كانت ممزقة بيننا، فقد كانت بولين صديقتها، ولكن أنا أيضـــاً كنـــت كذلك. لم ترتح لإيرنست يوماً و لم تثق به. جاءت إلى الشقة بضع مرات، لكنـــها طلبت مني ألا أذكر أمام إيرنست أنني رأيتها.

قالت مبررة: "من منطلق التسلل إلى خطوط العدو وكل ذلك"

"كيف يصح أن أكون أنا العدو في حين أنها هي المرأة الأخرى؟ يبدو هذا في منتهى الإجحاف. أليس كذلك؟"

"حين انفصلت أنا وهارولد عن بعضنا، ظن جميع من يهتمون لأمـــري أنـــني في حالة مزرية، ولن أستطيع الخروج من تلك الحالة أبداً. تستغرق هذه الأمور وقتاً، ولكن الأشياء ستتبدل حسب ما يناسبك بعد فترة ما. فقط خذي نفساً وتحملي يا عزيزتي"

بعد ظهر أحد الأيام، كنت أحسب أن بامبـــي يأخذ قيلولته، ولكن لا شك في أنه سمعني أبكي وأنا جالسة إلى طاولة الطعام ورأسي بين ذراعـــي. و لم أشـــعر بوجوده في الغرفة إلى أن سمعته يسأل: "ما الذي يقلقك يا أمي؟"

"لا بأس يا حبيبـــي، أنا بخير" قلت له وأنا أجفف عيني بقميصي.

لكنني لم أكن بخير. فقد كنت في حالة من هبوط المعنويات لم أشهد لها مثيلاً من قبل، وأنا أجد أنه من الصعوبة أكثر فأكثر لم شمل عائلتي. كنا في أوائل تشرين الثاني، بعد مضي أقل من ستين يوماً من الأيام المائة التي حددها، حـــين ســـألت إيرنست إذا كان بإمكانه رعاية بامبـــي لفترة لأتمكن من الابتعاد قليلاً للـــتفكير. وافق على إعطائي الوقت. وفي الساعة الحادية عشرة، طلبت من كـــيتي الـــذهاب معي. اخترت شارترز وأخبرها أنني دون رفقتها الطيبة لن أكون قادرة على تقدير جمال القصور والأرياف البديعة، ولكنني في واقع الأمر كنت خائفة من الوحدة.

وصلنا إلى غران أوتيل دو فرانس قبل غروب الشمس تماماً. ومع أن الجو كان بارداً بعض الشيء، فقد اقترحت كيتي أن نقوم بجولة حول البحيرة ســـيراً علـــى الأقدام قبل العشاء. كان الهواء قارساً وبدت الأشجار مقلّمة بحدة.

قلت لكيتي ونحن في منتصف الطريق: "كنت أفكر بعهود الزواج التي قطعتها على نفسي. فقد وعدت أن أحبه في أفضل الأيام وأكثرها سوءاً، ألم أفعل ذلك؟"

ردت علي مقطبة: "لقد حلّت أسوأ الأيام الآن بلا ريب. صـدقاً، مـررت بوقت عصيب وأنا أخنق عهود الزواج التي قطعتها. من وجهة نظـري، كيـف يمكنك بالفعل القول إنك ستحبين أمداً أطول من الفترة التي سيصمد خلالها الحب؟ أما بالنسبة للجزء الخاص بالطاعة، حسناً، أنا ببساطة لم أتفوه به"

"وأنا لم أتفوه بذلك الجزء أيضاً، ولكنني ويا للغرابة نجحت في التعامل معـه على أي حال"

"حين قابلت هارولد لم يكن يثق بالزواج أيضاً. وهكذا عقدنا اتفاقيتنا الخاصة بنا. سنكون شريكين ومتساويين طالما سارت الأمور بشكل جيد، ولكـن حـين ينتهي الحب بيننا فستنتهي علاقتنا أيضاً"

"إنها فكرة تدعو للإعجاب، ولكن لا يمكنني الاقتناع بأنها يمكـن أن تكـون فكرة متحضرة، ولم تكن مناسبة لكما"

قالت: "كلا. مؤخراً تساءلت عما إذا كان مقدراً لي أن أحظى بالحب؛ أعني من ذاك النوع الذي يدوم"

"أنا لست متأكدة مما قدر لي الحصول عليه"

"لعل فترة الراحة هذه من إيرنست تمنحك فرصة للاكتشاف"

"ربما ستفعل" رفعت بصري، وإذا بنا قد درنا حول الـبحيرة دورة كاملـة بينما كنا نتكلم ثم عدنا تماماً إلى النقطة التي انطلقنا منها.

بعد أسبوع قضيناه في شارتر، اتضحت الأمور أخيراً في رأسي. وفي صـباح أحد الأيام، أرسلت كيتي إلى الخارج لتستكشف وحدها وجلست أكتب: *عزيزي تاتي، أحبك الآن أكثر من أي وقت مضى بطريقة ما. وبالرغم من أن مختلف الناس ينظرون إلى العهود التي قطعوها عند زواجهم بطرائق مختلفة لكنني ألتزم بعهـودي حتى الموت. أنا مستعدة لأن أكون لك إلى الأبد؛ إذا كان لا بد مـن أن تعـرف ذلك. ولكن، بما أنك قد وقعت في الحب وتريد الزواج من امرأة أخرى، فأنا أشعر بأنه لا خيار لدي سوى أن أتنحى جانباً وأدعك تفعل ما تريده. لقد انتهت الأيام المائة الأولى رسمياً. لقد كانت فكرة رهيبة، وهي تسبب لي الإحراج الآن. أخـبر*

بولين بما شئت. يمكنك أن ترى بامبـــي بقدر ما تريد؛ فهو متعلق بك جداً ويحبك ويفتقدك جداً. ولكن، رجاء دعنا نتراسل فقط حول الطلاق ولا نتكلم عنه. فأنـــا لا أستطيع أن أتشاجر معك بعد الآن، ولا يمكنني أيضاً أن أراك لأن ذلك يســـبب لي الألم الشديد. سنبقى صديقين على الدوام؛ صديقين لطيفين، وسوف أحبـــك حتى أفارق هذه الحياة.

قطتك دائماً وأبداً.

حين أرسلت الرسالة بكيت بكاء شديداً، ولكنني شعرت بشيء من الراحـــة. أمضيت بقية الصباح محدقة إلى شعلة النار في غرفتي. وحين رجعت كيتي من زيارة معالم المدينة وحدها كنت لا أزال أرتدي البيجاما والروب.

بادرتني بالقول: "تبدين مختلفة" وأضافت وفي عينيها قدر كبير من الحنـــان: "إذاً، هل تجاوزت ما أنت فيه؟"

قلت: "أحاول ذلك. هل ستساعدينني بأن تفتحي لنا زجاجة شراب؟"

قالت: "أنا واثقة من أن هيم كان بمنتهى التعاسة وهو ينتظر قـــراراً منـــك. بالرغم من أنني لا أعرف كيف لا يزال بإمكاني حتى الآن أن أحمل ذرة من الشفقة تجاهه بعد روايته المشؤومة تلك. لقد كان حتى أشد فظاظة مع هارولـــد. ســـوف يفقد أصدقاءه كلهم يوماً ما، هل تعلمين؟"

"هذا احتمال كبير جداً. وحتى الآن، لا أعلم سبب حاجتـــه إلى أن يكتبـــها على ذلك النحو. لقد داس فيها على الجميع حيثما سار. ولكن، لا بد لنا مـــن أن نعترف بأنه كتاب لامع"

"أحقاً يجب علي ذلك؟ أنت لست في الكتاب نهائياً. كيف تسامحينه على ذلك؟"

"تماماً كما فعلت على الدوام"

فردت: "صحيح" ورفعنا كأسينا بصمت.

بعد عدة أيام، عدت وكيتي إلى باريس، وهناك استلمت رد إيرنست:

غاليتي هادلي

لا أعرف كيف أشكرك على رسالتك الموغلة في الشجاعة. كنت قلقاً عليك وعلينا جميعاً بسبب هذا المأزق الرهيب. لقد أطلنا الأمور بشكل مؤلم، ولم يعرف

أحد منا كيف يتوجه ويتحرك دون أن يسبب المزيد من الخراب. ولكن، إن كان الطلاق هو الخطوة الضرورية التالية، فأنا واثق من أننا ما إن نبدأ بإجراءاته حتى نشعر بأننا أقوى وأفضل وأننا عدنا إلى طبيعتنا.

واسترسل في القول إنه يريدني أن أمتلك حقوق كتاب الشمس كاملة، وإنه قد كتب لماكس بيركينس يخبره بذلك، وأنهى رسالته بقوله:

أعتقد أنك أم رائعة، وأنه لا يمكن لبامبي أن يحظى برعاية أفضل مما يناله بين يديك الحانيتين والقديرتين. أنت الطيبة كلها والاستقامة واللطف والإخلاص كله، وإنني أرى ذلك الآن بكل وضوح في الطريقة التي تصرفت بها وأصغيت فيها لقلبك. لقد علمتني أكثر مما تظنين، وستكونين دوماً جزءاً من كياني كله. وأحد الأشياء التي تعلمتها من هذه المحنة هو أنه ما من إنسان تحبه حقاً ويضيع منك أبداً.

إيرنست

الفصل السابع والأربعون

سمينا باريس في ذاك الزمن المكان الجميل الحميم، وكانت كذلك. فنحن من اخترع ذلك الاسم في النهاية. لقد جعلناها كذلك بأشواقنا وسجائرنا، وبالدخان والأحاديث الذكية والبربرية، وتحدينا كل من يقول إنها ليست لنا. معاً صنعنا كل شيء ثم حطمنا كل شيء مرة أخرى.

هناك من يقول إنه كان ينبغي أن أكافح بشدة أكبر ولمدة أطول مما فعلت من أجل زواجي. ولكن في النهاية، إن الكفاح من أجل حب ضائع يبدو كمحاولة للعيش في أطلال مدينة مهدمة. لم يكن بإمكاني تحمل ذلك لذا تراجعت، والسبب في أنني تمكنت من فعل ذلك، والسبب في أنني قوية بما فيه الكفاية لفعل ذلك أصلاً هو أن إيرنست جاء وغيرني. لقد ساعدني على رؤية ما أنا عليه في الواقع وما بمقدوري فعله. الآن وقد عرفت ما يمكنني تحمله فإنني سأتحمل فقدانه.

في ربيع عام 1927، أبحرت أنا وبامبي بالسفينة صوب الولايات المتحدة لنمضي فترة طويلة وممتعة بعيدين عن باريس وكل ما يمكن أن يمر علينا هناك. عشنا في نيويورك عدة أشهر، ثم قمنا برحلة طويلة بالقطار البطيء عبر البلاد، ثم ترجلنا منه أخيراً في كارمل في كاليفورنيا؛ حيث استأجرت لنا منزلاً هناك قريباً من الشاطئ وسط أيكة من أشجار الصنوبر، وحيث تمتد السماء إلى ما لا نهاية، وتنتصب أشجار السرو المتمايلة بفعل الريح، وحيث شعرت أن الشمس قد شدت من أزري. وخلال إقامتي هناك، علمت أن إيرنست وبولين قد تزوجا في احتفال كاثوليكي صغير في باريس. لقد استطاع بطريقة ما أن يقنع القسيس بأنه كاثوليكي.

وكأحد أتباع هذا المذهب، فإن زواجه الأول الذي ترأسه قسيس ميثودي لا يحتسب. قرأت هذا الخبر في أحد الأيام الغائمة النادرة من أيام آذار، بينما كان

بامبـــي يحفر خندقاً في الرمل. انسكب ماء البحر على جوانب الخنـــدق مـــذيباً جدران الرمل وهي لا تزال تبنى؛ ومجرد رؤية ذلك جعلتني أبكي، لـــذا أخـــذت الرسالة وسرت إلى حافة الماء. وراء الأمواج المتكسرة، تحول لون الماء من الرمادي إلى الأبيض، وكان الأفق أبيض أيضاً. كل شيء كان يذوب في أشـــياء أخـــرى. وبعيداً وراء البحار، كان إيرنست وبولين يبنيان حياقما معاً. لقد حظيت أنا وهو بوقتنا معاً، ومع أنه كان لا يزال قريباً جداً وواقعياً بالنسبة لي ومؤثراً كأي مكـــان على الخريطة فقد كان في الحقيقة زمناً آخر وبلداً آخر.

جاء إلي بامبـــي حيث كنت أقف، وضغط وجهه المبلل الذي علقت به آثار الملح على تنورتي.

سألته: "هل نصنع قارباً؟"

فأومأ برأسه بالإيجاب. طويت رسالة إيرنست ووازنت أطرافها حتى بـــدت قارباً متماسكاً ثم قدّمته لبامبـــي، وخضنا معاً في المياه المتلاطمة، وتركنا القـــارب يسير؛ فارتفع وانحدر لتخرج منه الكلمات سابحة على سطح الماء. وحـــين ابتلعـــه الموج شيئاً فشيئاً، أطلقت لدموعي العنان قليلاً فقط ومن ثم غاب القارب.

الخاتمة

عدت وبامبي إلى باريس بعد أن قضينا الصيف في كارمل. لقد افتقد والده بشكل مريع. وفي الحقيقة، لم أعرف إلى أين عساي أذهب.

بعد مضي شهور قليلة هناك، ارتبطت ببول مورر، وهو صحفي على معرفة شخصية قديمة مع إيرنست؛ حيث كان المحرر الأجنبي لصحيفة شيكاغو *دايلي نيوز*، وعلى المستوى الخاص شاعراً في الوقت نفسه. وقد عمل مع إيرنست في لوزان، وقابلته عدة مرات بعد ذلك. بعد انفصالي وإيرنست عن بعضنا بوقت ليس بطويل، التقيت بول صدفة في نادي التنس، ودعاني للخروج معه بعد انتهاء اللعبة لتناول كأس من الشراب في مقهى لوبسيرفاتوار. كان مهتماً بي، وأوضح ذلك بمنتهى اللطف والرقي، ولكنني كنت بحاجة إلى الوقت من أجل التفكير؛ فجزء كبير مني كان لا يزال ينتمي إلى إيرنست. لم أكن واثقة إن كان بإمكاني فعلاً أن أحب شخصاً آخر يوماً ما. لكن بول كان صبوراً ولطيفاً على نحو لا يصدق، وكانت لديه عينان لامعتان بزرقة البحر الأبيض المتوسط الرائعة. كلما أطلت النظر فيهما، رغبت بالاستمرار في التوغل في أعماقهما. لم يكن هناك أي شيء معقد حوله. كان صلباً ومتوازناً، ويملك تلك السكينة الرائعة طوال الوقت. كنت أعلم أنه سيحبني إلى الأبد، وأنه لن يدمرني ولو قليلاً؛ فكان علي حقاً أن أوافق.

في ربيع عام 1928، غادر إيرنست وبولين باريس متوجهين إلى الولايات المتحدة. وكانت بولين حاملاً في الشهر الخامس في ذلك الوقت. توجها إلى بيغوت ثم إلى كي وست حيث وعد دوس باسوس بصيد أفضل سمك طربون في العالم. وأزمعت بولين على شراء منزل لهما، وكانت تنوي أن تعدّ كل شيء بشكل رائع لأنها تتقن ذلك. فقد كانت تعرف من أين تشتري أفضل الأثاث، وكيف

تحصل على اللوحات ذات الأطر الفاخرة، والأصدقاء الذين يمكنها أن تضمهم إلى دائرتهما. كان بإمكانها أن تعتني به أفضل مما فعلت أنا، وربما لا.

في النهاية، لم يكن إيرنست محظوظاً في الحب مثلي. فقد رزق بابنين بقي كلاهما مع بولين، ثم تركها من أجل امرأة أخرى، ثم ترك هذه الأخرى من أجل غيرها أيضاً. بالمحصلة، تزوج أربع مرات، وكانت لديه العديد من العشيقات. لقد آلمني أحياناً التفكير في أنني بالنسبة لأولئك الذين تابعوا أحداث حياته باهتمام كنت الزوجة الأولى؛ الزوجة الخاصة بباريس. لكن، ربما كان من الغرور أن أرغب بأن أكون البارزة في صف طويل من النساء. في الحقيقة، لم يكن يهمني ما يراه الآخرون. فنحن نعلم ما كنا نملكه، وماذا كان يعني. وعلى الرغم من أن أموراً كثيرة حدثت منذ ذلك الوقت لكل منا، إلا أن شيئاً منها لم يكن ليشبه تلك السنوات في باريس، بعد الحرب. كانت الحياة حينها صافية وبسيطة وطيبة إلى حد الإيلام، وأعتقد أن ذات إيرنست تجلت حينها كأفضل ما يمكن. لقد حصل كل منا على أفضل ما لدى الآخر.

بعد أن غادر إلى الولايات رأيته مرتين فقط خلال حياتي الطويلة جداً. ولكنني كنت أراقب عن بعد كيف أصبح بسرعة كبيرة أهم كاتب بين أبناء عصره، وأيضاً بطلاً من صنع نفسه. فقد رأيته على غلاف مجلة لايف، وسمعت عن الحروب التي غطاها بشجاعة، وعن أعماله البطولية الأخرى؛ كمشاركته في الصيد البحري العالمي، ولعبة الصيد الكبرى في أفريقيا، والشرب إلى درجة تكفي لتحنيط رجل بضعف مقاسه. كانت الأسطورة التي يصنعها من حياته كبيرة بما فيه الكفاية لكي تشغل حياته كلها أمداً من الزمن. ولكن، تحت القشور كنت أعلم أنه لا يزال شخصاً تائهاً. كنت أعلم أنه ينام والمصباح مضاء وإلا فلن يغمض له جفن، وأنه يخاف من الموت بقدر ما كان يتلمسه في أي مكان وبأي شكل أمكنه ذلك. لقد كان لغزاً فعلاً؛ فهو في الواقع لطيف وقوي، وضعيف وفظ. كان صديقاً لا مثيل له وسافلاً في الوقت نفسه. وفي النهاية، لم يكن أي جزء منه ليعبر عنه على نحو أصدق من الآخر. كان كل شيء حقيقياً.

في آذار من عام 1961 تكلمنا معاً للمرة الأخيرة. اتصل من وراء البحار وقت الغداء في عصر يوم منعش، حيث كنت وبول في أريزونا نقضي إجازة في مزرعة

لتربية المواشي اعتدنا أن نعود إليها كل بضع سنين من أجل الصيد والتمتع بالمناظر الخلابة. تلقيت المكالمة وحدي، بينما اخترع بول مهمة ليقوم بها لمعرفته أنني كنت بحاجة إلى إجراء هذا الحديث. لم أحتج أن أطلب منه ذلك، فقد مضت على زواجنا خمسة وثلاثون عاماً، وهو يعرفني كما لا يعرفني أحد غيره تقريباً.

قال حين رفعت السماعة: "مرحباً تاتي"

رددت عليه وأنا أبتسم لدى سماعي لقبنا بعد أربعين سنة مرة أخرى: "مرحباً تاتي"

"أخبرتني مدبرة المنزل كيف أجدك. أرجو ألا يزعجك هذا"

"كلا، أنا سعيدة باتصالك. هذا من دواعي سروري"

أخبرته بسرعة عن مزرعة تربية المواشي حيث نقيم لأنني كنت أعلم أنها ستعجبه. لم تكن أنيقة أو مترفة جداً. داخل الحجرة، كانت هناك قطعة أثاث خشبية قديمة بلغ عمرها ثمانين عاماً. وكان الأثاث خشناً وبسيطاً ويعطيك إحساساً بأنه واقعي. النهارات هناك كانت طويلة ومفتوحة، والليالي مملوءة بالنجوم.

مر دهر منذ أن تحدثنا، والآن يتصل بي ليحدثني عن كتاب جديد؛ مذكرات. قال إنه يريد أن يورد فيه قصصاً عن أوقاتنا في باريس.

"هل تذكرين *بال موزيت*، وموسيقى الأكورديون، والدخان، والروائح؟"

أخبرته أنني أتذكر.

"هل تذكرين الاحتفالات بتحرير الباستيل حين عزف الموسيقيون تحت شبابيكنا ليالي بطولها؟"

"أذكر ذلك كله"

قال بصوت منخفض: "أنت في كل موضع في الكتاب" كان يعمل جاهداً كي يحافظ على مرحه وبهجته، ولكنني كنت أعلم أنه كان حزيناً ومنخفض المعنويات ويعاني من الوساوس. "إنها تجربة مهيبة؛ أقصد الكتابة عن ذلك الوقت وعيش تلك الأحداث كلها مرة أخرى. أخبريني، هل تعتقدين أننا أردنا الكثير من بعضنا، أكثر من اللازم؟"

"لست أدري تاتي، هذا محتمل"

"ربما، ذلك هو الأمر. كنا متعلقين جداً ببعضنا. وأحب الواحد منا الآخر أكثر مما ينبغي"

"وهل يمكن أن تحب أحداً ما أكثر مما ينبغي؟"

صمت للحظات، وكان بإمكاني سماع التشوش الخفيف يسري من خلال خط الاتصال، طقطقة خفيضة بدا أنها تمثل كل شيء حاد ومؤذٍ وقف بيننا. "كلا" قالها أخيراً بصوت شديد الرقة والاتزان، "ليس الأمر كذلك أبداً. أنا أفسدت كل شيء"

أحسست بانقباض حار في عضلات حلقي، ولكنني حاولت الاستمرار. فعلنا ذلك كلانا. تحدثنا عن باريس لمدة أطول، ثم تحدثنا عن بامبي وزوجته الجديدة، بوك، ومن ثم بقينا على الخط رغم أننا استنفدنا كل ما يمكن أن يقال.

قال وهو ينهي المكالمة: "اعتني بالقطة"، وهو يعنيني. وضعت السماعة، وجلست بمشقة على الأريكة، وفوجئت بسيل دموعي.

في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم، سلكنا أنا وبول طريق الجدول الطويل، ثم جلسنا ورمينا صنارتينا في الماء حين بدأت الحشرات تحتشد وبدأت أنوار النهار تتبدل. كان هذا هو الوقت المفضل لدينا من النهار، وقت التداخل، وقد تراءى لنا على الدوام أنه يستغرق وقتاً أطول مما يجب. فضاء سحري أرجواني غير مرتبط بالساعات من حوله يطفو بين العوالم. أمسكت بكرة صنارتي، وشعرت بخيطها ينحرف، فعادت بي الذاكرة إلى كولونيا مع إيرنست وتشينك؛ إلى سمكتي الأولى حيث أعلم أنني ما كنت لأصطاد أي سمكة لولا تمكني من اصطياد تلك السمكة، وما كنت لأشعر بالحب مجدداً دون ذاك الحب الأول.

كان يوم أحد من شهر تموز حين تلقينا مكالمة من ماري زوجة إيرنست تخبرنا فيها أن إيرنست قد انتحر بإطلاق النار على نفسه. فقد استيقظ باكراً، ولبس ثيابه الحمراء المفضلة، ودخل الصالة الأمامية حاملاً واحداً من أسلحته المفضلة، ثم وقف في بركة من النور واتكأ إلى فوهة المسدس، وضغط على الزناد.

لم تفتني السخرية الكامنة في كون هذه الطريقة هي نفسها التي انتحر بها والدي ووالد إيرنست أيضاً عام 1928؛ حين كان إيرنست في التاسعة والعشرين

من عمره. ربما لم تكن في ذلك سخرية على الإطلاق، بل ربما كان فيها نوع من التاريخ الأشد نقاء وحزناً. استعمل والد إيرنست مسدساً خاصاً بالحرب الأهلية. ولاحقاً استعمل أخوه لايسيستر مسدساً أيضاً، في حين تناولت أخته أورسولا الحبوب. مع فقدان هؤلاء جميعاً، يخطر في بال المرء أن ذلك يسري فيهم مسرى الدم، كما لو كان هناك مغناطيس ظلامي يسحب الجسم في ذلك الاتجاه، يسحبه ربما منذ البداية.

لم أستطع الادعاء بأنني فوجئت بموت إيرنست، فقد سمعت من أصدقاء مختلفين عن الأوقات التي أمضاها في المصح في روشيستر، والمعالجات الرهيبة بالصدمات الكهربائية التي تعرّض لها. كان الموت دائماً حاضراً بالنسبة له، وأحياناً بالكاد استطاع التوازن بعيداً عن السقوط في بئره. سألني بول بعد برهة: "هل يمكنني إحضار أي شيء لك؟" وخطا إلى الوراء قليلاً وضمّ كتفي بيديه.

قلت: "كلا" فخرج صوتي غريب النغمة. لقد مات تاتي. لم يكن هناك شيء بإمكان بول أن يفعله لي سوى أن يدعني أذهب؛ أن أعود إلى باريس وبامبلونا وسان سيباستيان، أن أعود إلى شيكاغو حين كنت هادلي ريتشاردسون، الفتاة التي تترجل من القطار لتلتقي الرجل الذي سيغير حياتها. تلك الفتاة، تلك الفتاة المحظوظة بشكل مستحيل، لا تحتاج لأي شيء.

حول المؤلفة

حصلت باولا ماكلين على شهادة الماجستير في الشعر من جامعة ميشـــيغان، وتم تكريمها بمنحها الزمالة في يادو، ماكدويل كولوني، وهيئـــة الهبـــات الوطنيـــة للفنون. وهي مؤلفة لمجموعتين شعريتين هما:

- *The Memoir*
- *Like Family: Growing Up in Other People's Houses*

فضلاً عن روايتها الأولى:

A Ticket to Ride

وهي تعيش في كليفلاند مع أسرتها.

HYPERLINK "http://www.pariswife.com/"www.Pariswife.com

– تمت بعون الله –

The Paris Wife

PAULA MCLAIN

هل سبق لك يوماً أن شعرت بالرغبة في تحطيم القيود، والخطو في المجهول لتحقيق حلم راودك؟ هل ترددت وجبنت وتراجعت في اللحظات الأخيرة؟ حسناً، بالتأكيد ليس هذا ما فعله إيرنست هيمنغواي وزوجته هادلي حين تخطيا الحواجز، واندفعا إلى أحضان باريس المجهولة لهما في سبيل تحقيق حلمهما.

«**الزوجة الباريسية**» قصة مشوقة تجمع بين المعاناة والسعادة، الإخلاص والخيانة في سلسلة أحداث تنقلك إلى حياة الكاتب إيرنست هيمنغواي بكل ما فيها من أتراح وأفراح.



ولدت **باولا ماكلاين** عام 1965 في فريسنو، كاليفورنيا. وبعد أن تخلى عنها والداها، وُضعت هي و شقيقتاها تحت وصاية محكمة ولاية كاليفورنيا، وتنقّلن من وإلى مختلف بيوت التبنّي خلال السنوات الأربع عشرة التالية. وعندما تجاوزت باولا سنّ الوصاية، أعالت نفسها من خلال العمل كمساعدة للممرضات في مستشفى للنقاهة، وعملت أيضاً كفتاة لتوصيل طلبات البيتزا، وعاملة في مصانع السيارات، ونادلة؛ قبل أن تكتشف أنها تستطيع - وتريد بشدّة - أن تكتب. حصلت باولا على إجازة جامعية في كتابة الشعر من جامعة ميشيغان في عام 1996. ومنذ ذلك الحين، تلقت العديد من المنح الدراسية من «يادّو كوربورايشن»، و«ماكدويل كولونيال»، و«أوكروس فاونديشن»، و«مجلس الفنون في أوهايو»، و«الصندوق الوطني للفنون». صدر كتابها الشعري الأول، «أقل من صاحبة»، عام 1999 عن دار «قضايا جديدة للنشر»، وفاز بمنحة من صندوق «غرين وال» التابع لأكاديمية الشعراء الأميركيين. ولها أيضاً مجموعة شعرية ثانية بعنوان «تتعثر، رائع!»، وكتاب مذكرات بعنوان «مثل الأسرة: النشأة في بيوت الآخرين»، بالإضافة إلى رواية بعنوان «تذكرة ركوب». أما كتابها الأخير هذا «الزوجه الباريسية»، فعبارة عن سرد خيالي لوقائع السنوات الأولى من زواج ايرنست هيمنغواي وبداياته الأدبية في باريس العشرينيات من القرن الماضي، كما روتها زوجته هادلي. تُدرّس باولا طلاب الماجستير في الشعر في كلية نيو انغلاند، وتعيش مع عائلتها في كليفلاند.

facebook.com/ASPArabic

twitter.com/ASPArabic



ISBN 978-614-01-1164-6



جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

